



الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط

كريستيان كوتس أولريخسن

ترجمة: طارق عليان

هيرست أند كومباني، لندن

المجلة
العربية



جرؤس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

هذا الكتاب الصادر عن دار النشر "هرست" وشركاه في لندن. المملكة المتحدة. تحت عنوان "الحرب العالمية الأولى في منطقة الشرق الأوسط". يتسم بالشمولية من حيث رصده لتأثيرات مجريات الحرب العالمية الأولى على هذه المنطقة الحساسة من العالم.

وهو جديد في موضوعه. لأن نادراً ما حظى منطقتنا. بإهتمام المتخصصين في الغرب. خصوصاً من النواحي الإستراتيجية والعسكرية. وكذلك الإحاطة بالأوضاع التي كانت سائدة فيها خلال فترة تاريخية مفصلة. إستطاع "الكتاب" أن يسجل نجاحه في تسليط الأضواء على جبهات القتال الملتهبة التي خيمت عليها الشراسة. وعلى المعارك التي إتصفت بالوحشية. وبالمواجهات الضارية التي كانت ماثلة لما شهدته جبهات القتال في القارة الأوروبية. وكان قد جرى بالرغم من إفتقار الشرق الأوسط حينذاك الى أبسط المرتكزات الأساسية لمقانة البنى التحتية. المتمثلة بطرقات غير معبدة. وخطوط لقطارات حديدية لعبت دوراً سلبياً في توثيق حركة التواصل بين المناطق البرية. وحدثت من سرعة التنقل وفقاً لخط ناري إمتد من غاليلوي ومتر في غزة وإنتهى في أسفل دجلة في العراق.

والمؤلف "كريستيان كوتس أولريخسن" هو باحث بمنحة من معهد جيمس. أ. بايكر الثالث للسياسات العامة وفي جامعة "رايس" كما تناول من خلال منحة بحثية ماثلة لدراسة شؤون الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والعمل على الإلتزام بتطبيقات البرنامج العلمي المعتمد لدى مؤسسة "شاتام هاوس".

ويشهد المراقبون. للمؤلف. طول باعه بالإهتمام في شؤون الشرق الأوسط. ومتابعته الحثيثة لكل محطات تاريخ الشرق الأوسط الحديث والمعاصر.

والجديد أنه يضئ جوانب غير منظورة من تأثيرات الحرب الكونية الأولى على منطقة شديدة الحساسية ولدت من جراءها خرائط جيو سياسية وبلدان جديدة. بموجب إتفاقيات دولية تم فيها تقاسم النفوذ وهي لا تزال تعيش حالات القلق الدائم على مستقبل الكيانات والهويات والوجود.



الحرب العالمية الأولى في الشرق الأوسط

كريستيان كوتس أولريخسن

ترجمة: طارق عليان

المجلة
العربية



جرؤوس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

يتضمن هذا الكتاب ترجمة للأصل الانجليزي:
THE FIRST WORLD WAR IN THE MIDDLE EAST

© حقوق الترجمة العربية مرخص بها قانوناً من:
HURST & COMPANY , LONDON

© الطبعة الأولى 2016

المجلة
العربية

الرياض: طريق صلاح الدين الأيوبي
(الستين) - شارع المنفلوطي
ص.ب.: 5973 الرياض 11432
تلفون: 966 14778990
فاكس: 966 1 4766464
info@arabicmagazine.com
www.arabicmagazine.com



جرؤوس برس ناشرون
Jarrous Press Publishers

شارع جميل علدرة، باسل مستر
ص.ب.: 189، طرابلس، لبنان
تلفاكس: +961-6-208205
jarrous.press@gmail.com
info@jarrouspress.com
www.jarrouspress.com
© جميع الحقوق محفوظة

ISBN 978-9953-587-47-9

المحتويات

المحتويات	3
شكر وتقدير	4
مقدمة.....	5
الباب الأول: توطئة.....	17
الفصل الأول: الاقتصاد السياسي لمختلف الإمبراطوريات في 1914	19
الفصل الثاني: الحملات العسكرية في الشرق الأوسط.....	52
الباب الثاني: العمليات العسكرية	87
الفصل الثالث: حملات القوقاز.....	89
الفصل الرابع: غاليبولي وسالونيك	123
الفصل الخامس: مصر وفلسطين.....	158
الفصل السادس: بلاد الرافدين.....	194
الباب الثالث: السياسة والدبلوماسية	239
الفصل السابع: الصراع على الهيمنة السياسية في الشرق الأوسط	241
الفصل الثامن: تسويات ما بعد الحرب، 1919-1923	279
خاتمة	325
الهوامش.....	330
المراجع.....	382

شكر وتقدير

ما كان ليتسنى لي أن أضع هذا الكتاب لولا ما قدّمه مايكل دواير وزملاؤه في دار هيرست أند كومباني من دعم مهني وصدّاقة وتشجيع. فقيمة الناشر الجيد لا تقدّر بثمن وتستحق كل عرفان وتقدير. وقد قدّم قسم من هذا البحث خلال الاجتماع السنوي للجنة البريطانية للتاريخ العسكري في كلية كيبل بجامعة أكسفورد في يوليو 2012، كما اعتمدت أقسام أخرى منه على بحث المؤلف لنيل درجة الدكتوراه من جامعة كامبردج فيما بين عامي 2002 و2005. والحقيقة أن الزملاء الأكاديميين في كلية لندن للاقتصاد ومركز تشاتام هاوس قد قدّموا لي المزيد من الدعم والصدّاقة، مثلهم مثل جماعة صغيرة من الأصدقاء الذين جعلوا من مهمة تأليف كتاب عادة ما يغلب عليها الوحدة والانفراد تجربة ممتعة. وأخيرًا، فإني أهدي هذا الكتاب إلى والديّ وإلى زوجتي عرفانًا مني وتقديرًا لحبهم ودعمهم.

مقدمة

ما زالت الحرب العالمية الأولى، وبعد مرور قرن من الزمان على اشتعال فتيلها، تلقي بظلال واسعة على مختلف أرجاء الشرق الأوسط. فقد تحولت اثنتان من الدول التي خرجت من رحم أول تدخل عسكري غربي حديث واسع النطاق في المنطقة إلى أطلال، فالعراق حطمته النتائج المدمرة لحملة جديدة جُردّها الغرب بعد مرور تسعة عقود من الزمان على حد قول قائد عسكري بريطاني، مطمئناً البغداديين: «جيوشنا لا تدخل مدنكم وأراضيكم باعتبارها جيوش فتح بل جيوش تحرير»^(١). وأما سوريا المجاورة فقد مزقتها الحرب الأهلية التي دارت رحاها في سياق ما بعد الانتفاضات العربية لسنة 2011 التي زلزلت منظومة الدول والأنظمة الحاكمة التي برزت فيما بعد الحقبة الاستعمارية حتى النخاع. وقد نوّه معلقون ومحللون على حد سواء، من نواح مختلفة، إلى أن «الربيع العربي» يمثل «ثورة عربية» ثانية أو ينذر بتفكك تركة «سايكس بيكو» نهائياً. ويعود المصطلح المستخدم في كلتا الحالتين إلى تطورات جرت أثناء الحرب العالمية الأولى حيث إن هذا الصراع هو الذي قرر، أكثر من أي شيء آخر، طبيعة نظام الدولة الذي خرج إلى النور فيما بعد. صحيح أن قوى أخرى أحدثت من ذلك، مثل القومية العربية والإسلام السياسي والثورات والإرهاب والحروب الأهلية وأخيراً وليس آخراً عقود من تنافس القوتين العظميين والصراع العربي الإسرائيلي، أحدثت كلها تحولاً في المنطقة ومكانها في السياسة الدولية، لكن إرث التطورات التي وقعت والقرارات التي اتخذت أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها يظل مصدراً للمرارة والخلاف والتفسيرات المتضاربة إلى يومنا هذا، مما يعكس حقيقة أن سنوات الحرب كانت بمثابة انتقال للمنطقة من بوتقة لتنافس الإمبراطوريات إلى ظهور نظام الدولة الحديث بكل ما انطوى عليه من مضامين لتحقيق -وسحق- الطموحات الوطنية، وإعادة تشكيل الولاءات، وميلاد المظالم التي صارت تشغل مواقع رمزية في السرود الإقليمية.

ويستقصي هذا الكتاب الصراعات المتعددة التي جرت فيما بين أغسطس 1914 ونوفمبر 1918 في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، فيسبر أغوار القتال الذي دارت رحاه بين الروس والعثمانيين في القوقاز، وبين قوات الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية والعثمانيين في غاليبولي، وبين القوات البريطانية والهندية والعثمانيين في فلسطين وبلاد الرافدين، بالإضافة إلى بعض الاشتباكات الصغيرة التي اندلعت في أماكن أخرى في شمال أفريقيا. وقد خُلد بعض هذه المعارك في ذاكرة التاريخ والذاكرات الوطنية، وأبرز مثال لها معركة غاليبولي التي ستُحيى ذكرها المئوية على نطاق واسع في تركيا وأستراليا ونيوزيلندا في عام 2015. وهناك معارك أخرى طواها النسيان في الغالب على الرغم من الخسائر الباهظة التي تكبدها على حد سواء المشاركون فيها والمتفرجون عليها، ومن أمثلتها البارزة معركة ساريكاميش التي جرت في ديسمبر 1914 وهلك فيها نحو نصف المقاتلين الروس والعثمانيين حيث تجمد عشرات الألوف حتى الموت في عواصف جليدية شتوية على ارتفاع ناهز 2000 متر فوق مستوى سطح البحر.

لقد اتسمت مسارح الحرب الشرق أوسطية، وهي التي عُلقت في مرمى نيران أربع إمبراطوريات متنافسة على جوانب مختلفة من الهيمنة الإقليمية، بقتال ضارٍ في ظروف غادرة على طول خطوط مواصلات ممتدة وعرضة للهجوم. وعلاوة على ذلك، كانت المطالب اللوجستية الثقيلة اللازمة لاستدامة صراع يدور بين قوى صناعية على أرض الشرق الأوسط التي يغلب عليه طابع ما قبل الثورة الصناعية عبئاً ثقيلاً على المجتمعات المضيفة والمجتمعات المحلية. وكان للطلب الشره على الأغذية والأعلاف والقوى الحيوانية والبشرية اللازمة لإمداد الجيوش الإمبراطورية الجبارة ونقلها تأثير مدمر على غير المقاتلين الذين كانوا يعيشون من قبل ذلك قريباً من حد الكفاف أو دونه. بل والأكبر من هذا كان العنت الذي تسببت فيه عمليات التشريد القسري والخلل الاقتصادي الناشئ عن اتخاذ مجالات نفوذ وسيطرة متنافسة وعدائية. وكان الأسوأ من هذا كله الإبادة الجماعية للأرمن التي جرت في عام 1915 ودُبح فيها ما يصل إلى مليون أرمني في نوبة من عمليات القتل الجماعي ومسيرات الموت ما

زالت أصدائها تتردد إلى يومنا هذا.

وبالتالي فقد كان تعرّض سكان الشرق الأوسط، من مقاتلين وغير مقاتلين على حد سواء، للحرب ومشاركتهم فيها قوين حيث تراوحت المشاق بين التفشي الواسع للأمراض والمصادرة القسرية للمواد الغذائية والكوارث الطبيعية التي كان يمكن بالضرورة تفاديها. وكانت نتيجة التأثير التراكمي لهذه المشاق أن صار معظم المنطقة في حالة مجاعة، أو على حافة المجاعة، بحلول عام 1918 حيث حوّلت المتطلبات العسكرية مجرى الموارد الشحيحة من الإمدادات المدنية الضئيلة إلى المجهود الحربي. بل وتعرضت مناطق من سوريا ولبنان لما هو أسوأ من هذا حيث فاقمت التدابير العثمانية القاسية على غير العادة والخلل الشديد الذي اعتري الأنماط التجارية ما ابتليت به من فشل متعاقب في المحاصيل الزراعية واجتياح أسراب الجراد المدمرة في الفترة 1914 - 1915، فمات ما يصل إلى نصف مليون نسمة بسبب المجاعة التي نجمت عن ذلك والتي بدأت في المدن والبلدات قبل أن تنتشر بسرعة في عموم المناطق الريفية في الشام عام 1916. كما مُنيت معظم مناطق بلاد الرافدين ومصر أيضًا بشح في الغذاء في الفترة 1917 - 1918 وظلت معتمدة على شحنات المساعدة الطارئة الآتية من الهند الواقعة تحت السيطرة البريطانية والتي كانت هي ذاتها تدنو من حافة انهيار اقتصادي بحلول خريف 1918. وفي أعين الجيوش المرهقة العاملة في كل أنحاء الشرق الأوسط، نجد أن النهاية السريعة نسبيًا للحرب في نوفمبر 1918 جاءت في آخر لحظة.

إن كثيرًا من الأعمال المكتوبة باللغة الإنجليزية المتمحورة حول الغرب والتي تتناول الحرب العالمية الأولى يعالج الحملات التي جُرّدت خارج أوروبا بوصفها «عروضًا جانبية» استنزفت ما تحتاج إليه ساحات القتال الرئيسة على الجبهة الغربية من جنود وموارد حادة ماسة. صحيح بلا شك أن الحرب رُبِحت وخُسرت في فرنسا والإقليم الفلامندي، وأن القتال الذي دار في أماكن أخرى كان له في أحسن الأحوال تأثير هامشي على النتيجة النهائية. فالانهيار المتعاقب لدول المركز في عام

1918 أفضى إلى هزيمة الدولة العثمانية في أكتوبر، حيث فتح الاختراق الإنجليزي الفرنسي في بلغاريا الطريق مباشرة إلى الآستانة على نحو ما كان يمكن أبداً أن يفعلته التقدم البريطاني في فلسطين وبلاد الرافدين البعيدين. ومع ذلك، فإن نبذ المسرح الشرق أوسطي باعتباره مسرحاً ثانوياً في الصراع ككل سيلحق إساءة جسيمة بتأثير الحرب شبه التام على المجتمع. كما أنه لا يحجب حقيقة أن عبء إدامة نشر قوات واسعة النطاق في عموم المنطقة الحدودية (بما في ذلك القوقاز) ساهم في انهيار إمبراطوريتين قديمتين (الروسية والعثمانية) وترك الإمبراطوريتين البريطانية والفرنسية منهكتين إنهاكاً خطيراً.

لقد لقي أكثر من 420 ألف جندي عثماني حتفهم أثناء الحملات التي جُردت إبان الحرب في الشرق الأوسط، بالإضافة إلى ما يقدر بنحو 260 ألف حالة وفاة مُنيت بها قوات الإمبراطورية البريطانية، وعدد يكاد يكون مماثلاً من الضحايا الروس، ونحو 50 ألف قتيل فرنسي⁽²⁾. بل وفاقت الإصابات غير القاتلة الناجمة عن تفشي الأمراض هذه الأرقام العالية، حيث سجّلت القوات البريطانية والهندية في بلاد الرافدين 207 آلاف إصابة مرضية في عام 1916 وحده، مقارنة بـ «مجرد» 23 ألف إصابة بسبب أعمال العدو⁽³⁾. وكان ثمن الحرب البشري الإجمالي الذي تحمله سكان تركيا والولايات العثمانية أفدح، حيث أشارت أدبيات منشورة حديثاً إلى تقلص سكان تركيا بما يزيد عن 20 في المائة في عقد الحرب الذي تضمن حروب البلقان في الفترة 1912 - 1913 وحروب الاستقلال التركية التي استمرت حتى عام 1922. وجاء هذا الرقم مقابل نقصٍ بما يقل عن 1 في المائة في سكان فرنسا التي دارت فيها رحى أبرز معارك الجبهة الغربية خلال الحرب، والتي لا تذكر الحرب غالباً إلا بها في يومنا هذا⁽⁴⁾.

وستتيح الذكرى المئوية للحرب العالمية الأولى لنا فرصة لتأمل جسامه سنوات الصراع الأربعة التي شكّلت مسار القرن العشرين تشكيلاً عميقاً. ويبرهن المستوى الذي ستقام عليه فعاليات إحياء ذكرى الحرب في الفترة بين عامي 2014 و2018

على الانبهار الجماهيري والسياسي بالحرب وقدرتها الدائمة على تسييس الأجندات الوطنية، حيث خصصت الحكومة البريطانية 50 مليون جنيه إسترليني لدعم برنامج مدته أربع سنوات لفعاليات إحياء ذكرى الحرب والمبادرات التثقيفية، مع تنويه إحدى الصحف التي تنتمي إلى يمين الوسط إلى أن «الوزراء يرجون أن تستنهض فعاليات إحياء ذكرى الحرب الروح الوطنية التي برزت إلى الواجهة العام الماضي [2012] باحتفالي دورة الألعاب الأولمبية واليوبيل الماسي لجلوس الملكة على العرش، وذلك عندما أُنشج البلد بعلم الاتحاد». وبما أن الفعالية التذكارية الأولى في أغسطس 2014 ستقام قبل الاستفتاء المخطط إجراؤه على استقلال إسكتلندا في 18 سبتمبر بستة أسابيع فقط، ذكرت الصحيفة ذاتها كيف أن «شخصيات كبيرة في الحكومة يرجون كل الرجاء أن يعطي برنامج الحرب العالمية الأولى دفعة سياسية لحملة التصويت بلا»، في حين أعلن الوزير الأول بإسكتلندا عن حملة فعاليات منفصلة تمامًا⁽⁵⁾.

وهناك برامج مماثلة لإحياء ذكرى الحرب تنفذ في كل أنحاء العالم، وفي أحوال كثيرة ستكون على الأرجح ذات صدى سياسي أقل من الفعاليات البريطانية سالفه الذكر، على الرغم من أن موقع «غاليبولي 2015» الذي كرّسته الحكومة الأسترالية على الويب يؤكد أن «العملة المريعة التي دامت ثمانية أشهر... ساعدت على تشكيل أمتنا الفتية» و«خلقت أسطورة، حيث أضافت كلمة (أنزاك) [الفيلق الأسترالي والنيوزيلندي] إلى قاموسنا وأوجدت مفهوم «روح أنزاك» التي تعني مُثل الشجاعة والجَلَد والصحة»⁽⁶⁾. وأعربت مبادرة WW100 التي دشنتها وزارة الثقافة والتراث النيوزيلندية عن مشاعر مماثلة بشأن «الدلالة الخاصة» لإرث غاليبولي: «فها هنا خطا النيوزيلنديون في أبريل 1915 أول خطوة لهم على الساحة العالمية» و«امتحنوا في آتون المعركة» و«سنوا سنة كانت العماد الذي قام عليه حس متنام بالوحدة الوطنية»⁽⁷⁾. ومن شدة الطلب المتوقع على حضور إحياء الذكرى المئوية في غاليبولي في 25 أبريل 2015، أعلنت الحكومتان الأسترالية والنيوزيلندية أن العشرة آلاف وخمسمائة تذكرة ستوزع بالقرعة في 2014، مع تخصيص 8 آلاف للأستراليين وألفين للنيوزيلنديين و500 لممثلي تركيا.

يضاف إلى هذه الفعاليات المنظمة على الصعيد الوطني عدد كبير من الكتب الجديدة التي تتناول الحرب العالمية الأولى، وإن كان كلا هذين التطورين أقل جلاءً في الشرق الأوسط منهما في أماكن أخرى. فقد شهدت السنوات الأخيرة طفرة في النشر حول كل مناحي الحرب وما لها من تأثير على المجتمع مدفوعة بالاهتمام الذي أولته وسائل الإعلام للنفر المتناقص عددًا من الناجين من الحرب الذين أتموا عامهم العاشر بعد المائة، والذين توفى آخرهم بالفعل. وعلى الرغم من أن هذه الكتب تتضمن روايات موثوقة وجديرة تمامًا بقراءتها عن حملات فردية مثل حملة غاليبولي⁽⁸⁾. وحملة بلاد الرافدين⁽⁹⁾، لم يُنشر تأريخ يقع في كتاب واحد لمسرح الشرق الأوسط بأكمله حيث دأب المؤلفون بدلًا من ذلك على النظر إلى الحملات العسكرية التي شهدتها منطقة الشرق الأوسط بشكل منفصل يتعامل مع كل حملة على حدة، مما يحذّ بالتالي من القيمة التحليلية الكلية للصلات البينية التي يمكن إقامتها فيما بينها.

وهذه هي الفجوة التي يسعى هذا المؤلف إلى سدها ليصحح وضع تلك الحملات بوصفها محورية لتطور الشرق الأوسط الحديث وينتشلها من هوة التغطية الهامشية التي تحظى بها نمطيا في التأريخات العامة للحرب ككل. إن هذا الكتاب أكثر بكثير من مجرد تأريخ عسكري حيث يعتمد نهجًا متعدد التخصصات في تناوله التطورات في عموم الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى وما أعقبها من عواقب ماثلة. وبالإضافة إلى ما يعرضه من توثيق شامل للحملات الفعلية ذاتها، يسبر الكتاب أيضًا أغوار التأثيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي نتجت عن تقسيم المنطقة إلى سلسلة من مناطق القتال التي تعبر طرق التجارة الداخلية والإقليمية البينية وتعتبر المناطق الداخلية التجارية. علاوة على ذلك، وفي وقت يتصاعد فيه الاهتمام بتأثيرات التوغلات العسكرية الغربية المتكررة في المنطقة، يوثق الكتاب كيف تركت القرارات المتعجلة، الوقتية غالبًا، التي اتُخذت لتلبية مقتضيات زمن الحرب إرثًا معقدًا يشكّل المعلومات السياقية التي يمر خلالها معظم السياسات الغربية الراهنة في العالمين العربي والإسلامي.

ولقد تجسدت هذه الروابط بوضوح في الزيادة المفاجئة في الاهتمام الشعبي بأوجه التماثل البادية للعيان بين الغزو البريطاني لبلاد الرافدين في عام 1914 وغزو العراق بقيادة أمريكية في عام 2003. بالإضافة إلى الإعلان البريطاني سالف الذكر بشأن «التحرير» الذي من الجائز تمامًا أن يكون قد صدر مثله عن جورج دبليو. بوش أو دونالد رمسفيلد أو توني بليز وبالقدر ذاته من السهولة، تركّز الاهتمام بسرعة على طبيعة ردات الفعل العكسية القوية التي قوبلت بها محاولات فرض مشروعات من الخارج لبناء الدولة. ولكن سُحب، في فبراير 2005، عدد كبير من الصناديق التي تحوي مادة أرشيفية تتناول السياسة البريطانية تجاه بلاد الرافدين في عامي 1919 و1920 من دار المحفوظات الوطنية للاستخدام الحكومي؛ مما أثار خيبة أمل كبيرة في نفوس الباحثين الذين قيّدت هذه الخطوة بشدة إمكانية اطلاعهم على المواد التاريخية التي أتيحت لهم منذ ستينات القرن الماضي⁽¹⁰⁾.

علاوة على ذلك، أعيد نشر مجموعة كبيرة من اليوميات التاريخية التي كُتبت بأقلام محاربين قدماء شاركوا في حملة بلاد الرافدين لجمهور قراء حديث، فنالت إحداها على وجه التحديد ذيوغًا واسعًا عندما قَدِّم لها السير جيريمي غرينستوك مقدمةً سمحت له بالتعبير عن فزعه من الطريقة التي أساءت بها الحكومتان الأمريكية والبريطانية إدارة العراق فيما بعد احتلاله في عام 2003. وقد خدم غرينستوك لفترة وجيزة بوصفه ممثلًا خاصًا في العراق خلال الفترة التالية للغزو مباشرة، لكن وزارة الخارجية والكونغرس البريطانيان منعتاه، على نحو أثار جدلاً، من نشر سرد نقدي لتجربته هناك⁽¹¹⁾. فاحتال على هذا بالتلميح إلى ما يراه إخفاقًا من جانب واضعي السياسات الأمريكيين في استيعاب دروس فشل بريطانيا السابق في ذلك البلد، فكتب يقول: «هل من سوء الأدب أن نسأل عما إذا كانت قيادات إدارة أحدث قد استفادت من دراسة هذه التجربة أم لا؟»، قبل أن يردف بقوله: «لم تكن الحكومة البريطانية في عام 1917 ولا الائتلاف في عام 2003 يدركان ما هما مقبلان عليه باستيلائهما على مقاليد الأمور في بغداد حق الإدراك»⁽¹²⁾.

بنية الكتاب

يقع هذا المؤلف في ثلاثة أبواب؛ يعد الباب الأول تمهيدًا للساحة، ويقع في فصلين يتناولان بالتفصيل الخلفية التاريخية والمعلومات السياقية للحملات التي جاءت تاليًا. فيمحص الفصل الأول دور الاقتصاد السياسي الدولي للإمبراطوريات في تشكيل ملامح التنمية الإقليمية في نصف القرن السابق على عام 1914، وهو لا يقتصر في تركيزه على المسارات المختلفة التي سارت فيها الإمبراطوريات العثمانية والبريطانية والفرنسية والروسية في الشرق الأوسط في السنوات السابقة مباشرة على اندلاع الحرب العالمية الأولى، بل يركز أيضًا على الطرق المتباينة التي استجاب بها الزعماء المحليون والنخب المحلية للأحداث وتكيفوا بها معها. وأما الفصل الثاني فيستكمل المسيرة بتوثيق التحديات المعينة، اللوجستية والإدارية والإيكولوجية، التي انطوت عليها حملات الشرق الأوسط. ففي الأرض القاسية التي دارت فوقها رحى معظم أعمال القتال، كانت هذه العوامل حاسمة الأهمية للنجاح أو الفشل (وهو الأكثر) العسكري وتركت أثرًا لا ينمحي، وإن لم ينل التقدير إلا متأخرًا، على تطور الاستراتيجية والتكتيكات. كما يشتمل هذا الاستعراض أيضًا على مبحث يتناول الدور بالغ الأهمية الذي لعبته الهند بإمدادها القوات الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط بالقوة البشرية والموارد، مما يبرهن على الصلات العابرة للمناطق التي رسمت ملامح مشاركة المنطقة في هذا الصراع وتعرضها له.

ويتألف الباب الثاني من أربعة فصول تتناول بالدراسة المتعمقة الحملات التي جُردت أثناء الحرب في عموم المنطقة. فالفصل الثالث يبحث الصراع على الهيمنة في القوقاز بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية، وعلى الرغم من أن هذه الحملات ليست جزءًا مما يسمى «الشرق الأوسط» بمعناه الجغرافي الدقيق فإنها لا تنفصم عن أية دراسة للحرب على المنطقة ككل؛ لأنها ساهمت في استنزاف قدرات الدولة العثمانية التي ضعفت بشدة في أعقاب الأداء العسكري في فلسطين وبلاد الرافدين.

كما كان الجانب الإنثي والديني لحملة القوقاز أيضًا عاملاً أساسيًا في شحذ الأنشطة السياسية المتصلة بالهوية في النظامين الإمبراطوريين الروسي والعثماني. وبما أن كلتا الإمبراطوريتين كانتا عابرتين للحدود الوطنية في رقعتيهما وكانتا تضمان أقليات إثنية ودينية كبيرة في سكانهما، فمن المنطقي أن تكون عواقب تسييس الهوية بهذا الشكل شديدة. ويعد مصير الأرمن أبرز مثال معروف على هذه العواقب، وإن كانت هناك أيضًا أمثلة أخرى عديدة على الترحيل الجماعي واستهداف السكان المدنيين (على كلا الجانبين).

وأما في الفصول الرابع والخامس والسادس فيتحول التحليل نحو الحملات التي قادتها بريطانيا في الشرق الأوسط. وتعد المحاولة الفاشلة للسيطرة على مضيق الدردنيل والاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي من بين الذكريات الأشد إهاجة للعواطف بشأن الحرب، حيث تظل تثير اهتمامًا متقدّمًا ونقاشًا حاميًا بعد مرور قرن من الزمان. ويوثق الفصل الرابع الحملة التي شنتها القوات البريطانية وقوات الفيلق الأسترالي والنيوزيلندي، ويصف الدور الحاسم الذي لعبته غاليبولي في التطور اللاحق للهويات الوطنية، لا في أستراليا ونيوزيلندا فحسب بل في جمهورية تركيا الحديثة أيضًا. وينتهي الفصل بتناول حملة سالونيك قليلة الشهرة بوصفها رمزًا للتوازن المضطرب بين المصالح البريطانية والفرنسية في البحر المتوسط وكذلك الريبة المتبادلة في دوافع كل منهما وأهدافه في المنطقة ككل.

ويصحب الفصل الخامس القارئ في رحلة إلى مصر وشبه جزيرة سيناء وفلسطين. فقد كانت الأهمية الاستراتيجية التي تتمتع بها قناة السويس لخطوط الإمداد الإمبراطورية البريطانية تتطلب إضفاء الطابع الرسمي على الاحتلال البريطاني بحكم الواقع لمصر الذي كان قد بدأ منذ عام 1882. وبعد ذلك، صَدَّت القوات البريطانية والهندية هجومًا عثمانيًا مفاجئًا مبكرًا ضد القناة قبل أن تتقدم لتأمين السيطرة على شبه جزيرة سيناء، بالإضافة إلى الصحراء الغربية الواقعة على امتداد الحدود مع ليبيا. وبتأمين السيطرة على مصر بحلول منتصف عام 1916، زحف القادة البريطانيون

نحو فلسطين العثمانية، حيث مُنوا هناك بنكستين عسكريتين كبيرتين عند غزة في عام 1917، قبل أن يخترقوا دفاعات الدولة العثمانية ويستولوا على القدس في شهر ديسمبر. ثم تُوجت العمليات العسكرية التي تلت ذلك في الشهور الأخيرة من الحرب باحتلال بريطانيا لسوريا، وهو ما بث بذور الصراع البريطاني الفرنسي العربي الثلاثي على السيطرة والذي كدّر علاقات ما بعد الحرب وعقدها بشدة.

وقد انتشرت القوات البريطانية والهندية أيضًا بأعداد كبيرة في بلاد الرافدين. ويتناول الفصل السادس بالتفصيل حالة المد والجزر التي شهدتها الحملة التي بدأت بهجوم على البصرة في نوفمبر 1914 وانتهت بالاستيلاء على الموصل بعد انتهاء الحرب العثمانية رسمياً في نوفمبر 1918 بأحد عشر يومًا. وانطوت حملة بلاد الرافدين على تباين شديد، حيث انتهت سلسلة من «الانتصارات السهلة» التي حققتها القوات البريطانية والهندية في البداية نهاية مروعة بتسليم الحامية البريطانية والهندية في الكوت في أبريل 1916، وهو الحدث الذي ظل يعد -حتى سقوط سنغافورة في عام 1942- أعظم إهانة ذاقتها الإمبراطورية حتى ذلك الحين، والذي أسفر عن تحقيق حكوميّ قاس تسبب (على النقيض من التحقيقات التي جاءت من خلفه في القرن الحادي والعشرين) في إطاحة وزراء من الحكومة. وفي أعقاب عملية إعادة تنظيم شاملة ترتبت عليها أيضًا أعباء كبيرة على الموارد المحلية، استولت بريطانيا على بغداد في مارس 1917، وتواصلت العمليات الهجومية هناك حتى نهاية الحرب.

ويتألف الباب الثالث من فصلين يوردان تحليلًا جامعًا لأهم المواضيع والخلافات التي انطوت عليها تجربة زمن الحرب في الشرق الأوسط، والتي ما زلنا نستشعرها إلى اليوم. فالفصل السابع يبحث الصراع على السلطة السياسية في الشرق الأوسط «الجديد» في ضوء تلاشي اليقينيّات القديمة وتفتح آفاق إمكانيات جديدة. وبالإضافة إلى الوصول بالتنافسات الإمبراطورية القديمة إلى منتهاها، يركز الفصل على المجموعة المعقدة المتناقضة من الاتفاقيات السرية التي أبرمت زمن الحرب، والتي ظلت مثار نزاع مرير منذ ذلك الحين، ومن بينها تعهدات بريطانيا بتقديم

الدعم للأسرة الهاشمية في الثورة العربية (مع تأييد الحكام السعوديين المنافسين في شبه الجزيرة العربية في الوقت نفسه)، واتفاقية سايكس بيكو التي اقتطعت مجالات نفوذ لبريطانيا وفرنسا في عموم المنطقة، وتصريح بلفور الداعم لتأسيس وطن قومي لليهود في فلسطين. كما يغطي الفصل أيضًا تطور خطاب زمن الحرب الذي تقارب دعمًا لمبدأ تقرير المصير الوطني على النحو المنصوص عليه في «نقاط الرئيس الأمريكي ولسون الأربعة عشرة» و«التصريح الإنجليزي الفرنسي» لسنة 1918. كما بثت هذه المشاعر أيضًا بذور الكثير من التنازع والمرارة التي اتسمت بها الفترة التالية مباشرة للصراع، حيث سعت الجماعات الوطنية في عموم المنطقة إلى المكانة والسلطة فيما كانت الحرب تضع أوزارها.

ويُختتم هذا الكتاب بالفصل الثامن الذي يصف الطبيعة الملتوية لتسويات ما بعد الحرب التي شكّلت في نهاية المطاف ظهور نظام الدولة الحديث في الشرق الأوسط. فقد خيم الجدل حول من يكون له حق التمثيل في مؤتمر باريس للسلام في عام 1919 على الأجواء المباشرة حيث أثار ردة فعل عكسية بين القوميين الساخطين في مصر وبلاد الرافدين، فيما تصاعدت حدة التوترات في سوريا بين القوميين العرب الذين كانوا قد سيطروا على دمشق والمسؤولين الفرنسيين الذين أكدوا نفوذهم وفقًا لاتفاقيات زمن الحرب. وكشفت سلسلة من الصدمات الحادة بين الائتلافات الحانقة من الجماعات المحلية والقوات البريطانية والفرنسية عن مدى ردة الفعل العكسية من جانب القوميين على المحاولة الإنجليزية الفرنسية لإعادة تنظيم الشرق الأوسط وفقًا لمصلحتهما. وفي الوقت نفسه، وفيما تطور الوضع الراهن بسرعة ليفوق القدرة على استدامته، أذنت التطورات الثورية في تركيا بنهاية الدولة العثمانية نهاية مبرمة وصعود مصطفى كمال «أتاتورك». وكانت نتيجة نظام الانتداب الذي استحدثته عصبة الأمم والتوقيع على معاهدة لوزان أن وصلت الفترة الضبابية المطوّلة إلى تسوية مضطربة أخيرًا بحلول 1922 - 1923.

ولا شك أن الحملات العسكرية في الشرق الأوسط -وهي التي لم تكن قط

عروضًا جانبية عرضية تدور أحداثها إلى جانب العرض الرئيس على مسرح الحرب العالمية الأولى في أوروبا- قد لعبت دورًا حاسمًا في إعادة تشكيل الاقتصاد السياسي للمنطقة. فالقتال طال معظم الفئات الاجتماعية الاقتصادية بشكل مباشر أو غير مباشر، سواء من خلال التعرّض للمجاعة أو المشاق واسعة الانتشار أو الخلل الاقتصادي والتشرد السكاني، مما ضمن أن يكون تأثير الحرب على المشاركين المحليين (غير الراغبين) فيها قريبًا من الأوضاع الموشكة على الحرب الكاملة التي لم تتطور إلا متأخرًا في أجزاء من أوروبا في 1917 - 1918. والهدف من هذا الكتاب هو أن يبيّئ تاريخ الصراعات المتعددة في الشرق الأوسط وإرثها مكانًا في صميم دراسات الحرب العالمية الأولى، وأن يستخلص مضامينها الكاملة والدائمة لمنطقة تظل في حالة من السيولة بعد مرور قرن من الزمان.

الباب الأول

توطئة

الفصل الأول

الاقتصاد السياسي لمختلف الإمبراطوريات في 1914

يبحث هذا الفصل الافتتاحي اقتصاد الإمبراطوريات السياسي الدولي في عام 1914، حيث يغطي المسارات المختلفة التي سارت فيها الإمبراطوريات البريطانية (والهندية) والفرنسية والعثمانية والروسية وكيف تفاعلت سياساتها تجاه الشرق الأوسط إحداها مع الأخرى. وهو يركز تركيزًا ملحوظًا على أثر الإمبريالية في رسم مسار العلاقات بين الدولة والمجتمع في عموم الشرق الأوسط قبل عام 1914. وهذا أمر مهم حيث إن أنماط التغلغل الاستعماري فيما قبل الحرب هي التي قررت القدرات الاستخراجية الأولية وطرق شن الحرب لدى مختلف القوى عندما اندلعت الحرب. علاوة على ذلك، أثرت مختلف التصورات الفكرية للسيطرة الاستعمارية تأثيرًا ملحوظًا على ملامح السياسات النابعة من المركز تجاه الشرق الأوسط، وعلى الحملات الأولى التي جرت على الأرض.

وتتناول هذه الدراسة لأنماط التغلغل الاستعماري في الشرق الأوسط والسيطرة الاستعمارية عليه حتى عام 1914 موضوعين عامين؛ أولهما اتفاق الآراء على القيمة التجارية والاستراتيجية للمنطقة في الاقتصاد السياسي الدولي في أوائل القرن العشرين. فقد تجلّى الصراع على النفوذ في الشرق الأوسط في تأثيرات متداخلة ومتعارضة سعيًا إلى السطوة الغربية على المستويات المحلي والوطني والإقليمي والدولي. ومع ذلك، يركز هذا الفصل على الاستمراريات الأطول أمدًا في روابط الاستيطان والتجارة والتبادل القائمة خارج الحدود الأوروبية التي دمجت الشرق الأوسط دمجًا محكمًا في العالم الأوسع كثيرًا (وغير الغربي). فقد انتعش أثناء الحرب العالمية الأولى كثير من هذه الروابط وقوي، ولا سيما تلك القائمة بين الشرق الأوسط والهند، وإن كان هذا بتوجيه بريطاني. ومن ثم فهو يضع هذه التطورات المتأخرة في إطار أوسع

مجتمع في غرب آسيا/منطقة المحيط الهندي. وهذا يصحح بعضاً من التمحور حول الغرب الذي تتسم به الأدبيات التي تتناول مسار الحرب في الشرق الأوسط.

ويتصل هذا اتصالاً وثيقاً بموضوعنا المهم الثاني، وهو الحديث عن وكلاء التغيير المحليين الذين كانوا يسكنون الشرق الأوسط في عام 1914. فكثيرون من هؤلاء الوكلاء كانوا من قبل دعاة إصلاح وتغيير بارزين، وساهموا في إيجاد مناخ اجتماعي سياسي نابض بالحياة في عموم المنطقة. وعلى الرغم من تركيز اهتمام الباحثين والجماهير في الدرجة الأولى على تي. إي. لورنس الملقّب بـ«لورنس العرب»، فإن جمعاً كبيراً من أمثال هذه الشخصيات وضعوا بصمتهم على المنطقة قبل الحرب وأثناءها، من بينهم مشاركون محليون مثل أمير الكويت مبارك الكبير (مبارك بن صباح الصباح) الذي عالج التنافسات الخارجية ببراعة لتعظيم مركزه، وأطراف فاعلة خارجية مثل فلهلم فاسموس الملقّب بـ«لورنس الفرس». وهناك شخصيات أخرى بارزة امتدت على مدى الأفقين السياسي والفكري وساهمت في إيجاد بيئة ديناميّة بعيدة كل البعد عن السلبية في مواجهة فرض هياكل وصور سيطرة خارجية.

ولقد تباينت مسارات هؤلاء الوكلاء المحليين تبايناً واسعاً مع انطلاق شرارة الحرب في عام 1914، حيث قُضيَ على بعضهم تحت جُرح القتال واستبدل بهم متعاونون أكثر طواعية وأسلس انقياداً. وهناك أفراد آخرون وجماعات أخرى سعوا بهمة ونشاط إلى أن يُستوعبوا في هرميات زمن الحرب، إما بغرض تعزيز مصالحهم الخاصة وإما بغرض بناء رأس مال سياسي في مقابل حكم ذاتي أكبر ثم في نهاية المطاف الاستقلال الذاتي. وبالتالي تطورت منابر متزايدة النزعة القومية في مصر وهويات الوطنية الوليدة في أماكن أخرى، فيما توصل المسؤولون المحليون ورجال الأعمال والمواطنون العاديون والصفوف المحشودة من الفلاحين ممن جُردوا من أملاكهم وممن لا يملكون أرضاً إلى مواءماتهم الخاصة مع ازدياد مستويات الاقتحام والتطفل، من جهات خارجية ومن الدولة، على حياتهم اليومية. كما توصلت هذه الفئات الاجتماعية الاقتصادية المتباينة أيضاً إلى استنتاجات حول معنى الحرب

والغرض منها، والسبل التي تستطيع بها تحويل مشاركتها في هذه الحرب لصالحها، على نحو ابتعد بشدة عن مسار السرود الاستعمارية. ومن هنا يهيئ هذا الفصل الساحة لما سيأتي في متن الكتاب بوضع المعلومات السياقية للقلاقل التي بدأت تتفشى في 1917 - 1918 وبلغت أوجها في عام 1919، في الوقت الذي بدأت فيه القرارات الأولية المتعجلة التي اتُخذت لتحقيق مكسب قصير الأجل تتفتت مع وصول الحرب إلى نهايتها.

وقبل أن يركز هذا الفصل على ملامح الاقتصاد السياسي للسيطرة الإمبريالية في الشرق الأوسط في عام 1914 على المستويين المتوسط والأصغر، يعالج العمليات الكبرى المؤثرة التي شكّلت المنطقة في نصف القرن السابق على هذا التاريخ. وقد تمثلت هذه العمليات في تمديد الصور الرسمية وغير الرسمية من التغلغل الاستعماري، وإعادة صياغة الهياكل الاجتماعية الاقتصادية وأنماط التجارة والنشاط التجاري في ظل دمج المنطقة في الاقتصاد العالمي. ونتج عن الطبيعة المتشابكة لهذه العمليات أن اعتمدت كل منها في بقائها على الأخرى وأسفرت عن فترة انتقالية في ظل اتساع قدرات الدولة في نطاقها وتطويرها قدرات استخراجية مصممة لتنظيم مجتمعاتها وتعبئتها بطرق جديدة تمامًا. وينتهي الفصل باستقصاء ظهور هويات ومفاهيم انتماء وطنية وعروبية، وكيف صار بها الفاعلون المحليون يستوعبون اندلاع الحرب في عام 1914 ويشكّلونه. غير أن الفصل يستهل حديثه أولاً بنظرة على الاقتصاد السياسي الدولي الذي تبلورت في داخله هذه القضايا فيما بعد.

نظام الاستيطان والتبادل العابر لحدود المنطقة

ظلت منطقة الشرق الأوسط، أرضًا وشعوبًا، في طليعة الحضارة الإنسانية منذ أزمنة ما قبل التاريخ. وقبل ظهور الإسلام وانتشاره بقوة خارج شبه الجزيرة العربية في القرن السابع من الميلاد بزمان طويل، كانت المنطقة التي تشكّل اليوم الشرق الأوسط تحتوي على مدن عظيمة تضم مراكز للثقافة والعلم وتقع في ملتقى طرق

التجارة الدولية⁽¹⁾. وقد ساهم كونها مهد الديانات الكبرى وموقعها الاستراتيجي عند ملتقى ثلاث قارات في امتزاج كوزموبوليتاني للشعوب والثقافات على امتداد التاريخ المسجل. فأنماط الاستيطان والتبادل العابرة للثقافات مع المناطق المحيطة في حوض البحر المتوسط وشمال وشرق أفريقيا وغرب آسيا تمتد جذورها إلى العصور القديمة، مما أضفى تنوعاً تعددياً على القوى والتيارات التي أثرت على تطور الإنسان في المنطقة.

فقد عُثر على آثار هلنستية تعود إلى زمن الإسكندر الأكبر في البلاد التي تسمى اليوم بالكويت (حيث جزيرة إيكاروس أو فيلكا حالياً) والبحرين (التي كانت تسمى تايلوس) ومواقع في المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية، بالإضافة إلى برامج الاستعمار والاستيطان في بابل والإسكندرية والشام الأكثر شهرة⁽²⁾. وأما مدينة أديرنوبل (مدينة أدرنة الحديثة في تركيا) فتحتل مكانة سيئة الحظ باعتبارها أكثر موقع حوصر في التاريخ، مما يعكس للأسف موقعها الجغرافي على جانبي الطريق البري المهم الممتد بين أوروبا وآسيا. ففيما بين عامي 323 و1913، ثارت نزاعات للسيطرة على المدينة ووديان الأنهار الثلاثة التي تربط تركيا بمقدونيا وبلغاريا بلغت ما لا يقل عن خمس عشرة مرة⁽³⁾. ويُعدّ مضيق الدردنيل، مسرح معركة غاليبولي التي دارت رحاها في عام 1915 ودخلت التراث السياسي والشعبي في قارتين كحدث تأسيسي شكّل أمة، مثلاً آخر على الأهمية العسكرية الدائمة، حيث يعود تاريخ الصراعات لتحقيق الهيمنة المحلية والإقليمية عليه إلى الحروب التي دارت رحاها بين الآخيين والحيثيين⁽⁴⁾.

صارت أنماط التنظيم السياسي والاجتماعي الاقتصادي في العالم العربي كما في غيره من الأماكن بالتدرّج أشدّ تعقيداً في علاقتها بالكيانات السياسية المحددة بحدود إقليمية وبإحداها الأخرى. فبداية من انتشار الإسلام إلى تجربة التدخل العسكري الغربي أثناء الحملات الصليبية وحلول العثمانيين محل الدولة البيزنطية وما تلا ذلك من توسّع في أوروبا، تعرّضت الهويات والحدود باستمرار لتأثيرات فوق

وطنية ودولية واتصالات ثقافية متنوعة. وهكذا صار الشرق الأوسط مخترقا بشدة من جانب القوى الخارجية وفي الوقت نفسه مندمجًا بإحكام في المنظومة العابرة للقارات العاملة من حوله. وقبل الاختراق الإمبريالي في القرن التاسع عشر بزمان طويل، تمخّض السفر والتجارة والصور الجديدة من التعبئة الاجتماعية والاقتصادية تحت تأثير قوة الحداثة عن امتزاج معين بين الأفكار في الشام وشمال أفريقيا والاتجاهات السارية في أوروبا⁽⁵⁾. وقد ركّزت الأعمال الحديثة الكبرى، وأبرزها مؤلفات سي. إيه. بايلي، تحديدًا على الروابط الاستراتيجية والتجارية والفكرية العديدة التي ربطت الاقتصادات والسياسيات لعالمي المحيط الهندي وأوراسيا، وهي تؤكد على الترابط بين التغيرات السياسية والاجتماعية في عموم العالم وتجمع بين التواريخ والسرود الإقليمية والوطنية التي كانت حتى آنذاك منفصلة في صورة متميزة من «تاريخ العالم»⁽⁶⁾.

كما برز تأثير الهند أيضًا إلى صدارة الأبحاث المعنية بالعالم البحري الأوسع الذي امتد على هيئة قوس من شبه القارة إلى الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا. وقد أكد توماس ميتكاف على التفاعلات العابرة لحدود المستعمرات وتمديد النفوذ من خلال الاستيطان والتجارة اللذين ربطا شعوب المحيط الهندي من القرن الخامس عشر على الأقل⁽⁷⁾. ووثقت باتريشيا ريسو ووليم بيمان التفاعلات متعددة الوجوه بين الهند وساحلي الخليج العربي والفارسي، ووصفا مجال نفوذ تجاريًا أثر على بروز هوية منفتحة متميزة في عموم منطقة المحيط الهندي⁽⁸⁾. واستند هذا إلى بحث رائد وضعه قبل ذلك بي. آر. توملينسون تناول اقتصاد الهند السياسي، حيث وثّق فيه الروابط التجارية الخارجية المزدهرة بين ربوع آسيا التي ربطت الهند بمنظومة تجارية غير غربية⁽⁹⁾.

كما لفت العمل الذي قام به جيمس أونلي الانتباه إلى الدور الحاسم الذي لعبه الوسطاء المحليون المتنفذون، وكان كثير منهم ينتمي إلى عائلات تجارية كبيرة، في دراسته طبقة الوكلاء الأهليين التي كانت تمثل حكومة الهند في الخليج العربي⁽¹⁰⁾.

وفي غضون ذلك، جمع جون ويليس بين الموضوعات العامة التي تتعلق بالترابطات الأوروبية الآسيوية، حيث جادل بأسلوب مقنع بأنه «يتعذر فهم كثير من جوانب التفاعل الأوروبي الآسيوي المهمة في آسيا البحرية إذا أبقينا على الفصل التحليلي بين الاختراق الأوروبي والاستجابة الآسيوية، فهذه الترابطات برزت بطرق شرطية تمامًا ومحددة من تفاعل (ملاءمات وتكييفات متبادلة) أوجه معينة من أوجه الحضارة الأوروبية ومختلف الحضارات الآسيوية»⁽¹¹⁾. ومدّد سوغاتا بوس هذا الخط الاستقصائي بتحليل مفصّل لمنطقة المحيط الهندي بوصفها «ساحة أقاليمية للتفاعل السياسي والاقتصادي والثقافي» ربطت بين مناطق متنوعة جغرافيا كأفريقيا الجنوبية والهند والهند الشرقية وغرب أستراليا. وجادل بوس بأن المناطق الساحلية المطلة على المحيط اشتركت في «مصير تاريخي مشترك» نجا من فرض الهيمنة السياسية والاقتصادية الأوروبية أثناء القرن التاسع عشر⁽¹²⁾.

إن دراسة حالة لسيولة مفاهيم الهوية والحدود في عُمان تسلط الضوء على الديناميات الفاعلة في عموم المنطقة الأوسع، حيث تأثرت حدود عمان الجغرافية والسياسية بشدة بأنماط الهجرة وفترات التوسّع الإقليمي. فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مارست سلطنة مسقط السيادة على غوادر وساحل مكران في باكستان الحالية، فضلاً عن جزيرة زنجبار الواقعة قبالة ساحل شرق أفريقيا، وذلك في إطار قوس نفوذ عبر المنطقة الساحلية الشمالية الغربية للمحيط الهندي امتد من موزامبيق إلى بلوشستان⁽¹³⁾. وكان لهذا بُعد بشري كبير حيث كانت موجات الهجرة الوافدة لقبائل البلوش من منطقة مكران بمثابة العمود الفقري للتجنيد العسكري العماني، وفي الوقت نفسه أقامت طائفتان كبيرتان من أصل هندي، وهما اللواتيا والبانيان، شبكات من تجار وممولين مارست نفوذاً اقتصادياً كبيراً ويسّرت توسّع عمان في أفريقيا⁽¹⁴⁾.

وقد علقت أنماط التفاعل البشري غير الغربية هذه تدريجياً في أحبولة التغلغل الاستعماري في الشرق الأوسط. فخلال نصف القرن السابق على عام 1914، تمخّض

فتح قناة السويس وظهور السكك الحديدية والبواخر عن شبكة تجارية عالمية متعددة الأطراف تقوم على مبدأ الميزة النسبية. وحلّت هذه الشبكة محل الروابط التجارية التي غلب عليها حتى ذلك الحين الطابع الثنائي بين مناطق يقع أغلبها تحت سيطرة الشركات الأوروبية المنشأة بمرسوم. وعلى الرغم من أن الإمبرياليات الأوروبية ذات الطابع الرسمي ألحقت أضرارًا واسعة بالهياكل الاجتماعية الاقتصادية الأصلية، نجت الشبكات المحلية بل وازدهرت لفترة طويلة في القرن العشرين. وثمة مثال بارز على ذلك هو طرق التجارة المعقدة التي كانت تصل بين موانئ ساحل الهند الغربي والموانئ المطلة على الخليج العربي وعدن وعلى امتداد خط ساحل شرق أفريقيا في مجتمع بحري عابر لحدود المناطق. ففي كل عام، كانت سفن البوم والداو الشراعية تقوم برحلات بحرية طويلة ذهابًا وعودة محملة بالبضائع من منسوجات حريرية وقطنية من الهند وتمور وزيتون طهي من البصرة والموانئ الخليجية وأرز وملح من عدن متجهة نحو مومباسا وأرض الصومال⁽¹⁵⁾.

وهذه الروابط المادية والفكرية طفت من جديد إلى السطح، وبطرق متنوعة، أثناء الحرب العالمية الأولى. وكان يُنظر تقليديًا إلى الصلة بين الحملات العسكرية التي جُرّدت خارج أوروبا بعضها بعضًا من خلال عدسة الاستراتيجية الكبرى أو عن طريق الدراسة الفردية لدور إمبراطورية بعينها في الحرب⁽¹⁶⁾. ومنذ وقت قريب بدأ العمل يركز على الطريقة التي تشابكت بها مختلف الحملات، في الشرق الأوسط وخارجه على السواء، لوجستيًا وإداريًا كذلك⁽¹⁷⁾. حدث هذا فيما أخضع صانعو القرار، في العاصمة الإمبراطورية وعلى الأرض على حد سواء، عملية وضع السياسات لمصفاة تجربتهم الفردية والجماعية في الحكم الاستعماري التي عايشوها في أماكن أخرى. فقد كان كثيرًا ما يجري نقل سياسات معينة وموظفين مدنيين إمبراطوريين من منطقة إلى أخرى، مما يؤدي إلى استنساخ هرميات السلطة وهياكل السيطرة بغض النظر عن الأوضاع المحلية. وأما ردات الأفعال العكسية المحلية على فرض السيطرة الاستعمارية المحكمة، وهي الردات التي برزت أثناء الحرب وبلغت ذروتها فيما بين عامي 1919 و1922، فكانت هي ذاتها متشابكة من خلال تبادل للأفكار والإلهام عبر الحدود.

ضعف الدولة العثمانية واضمحلالها

في عام 1914 كانت الدولة العثمانية تبسط سيطرتها على معظم منطقة الشرق الأوسط كما كان حالها طوال معظم الأربعمئة سنة السابقة، لكن قوتها ظلت تشهد اضمحلالاً على امتداد القرن التاسع عشر، كما أن مدى نفوذها على البقاع النائية جداً من إمبراطوريتها مترامية الأطراف لم يكن قط كبيراً، وبالأخص في بلاد الرافدين وشبه الجزيرة العربية. ففي تلك المناطق المتطرفة، كانت السيطرة الإدارية العثمانية مفتتة وفي أحيان كثيرة صورية، وكانت في أغلب الأحوال محصورة في الأحياء الحضرية ووظيفتي إقامة الأمن والعدالة. ففي عام 1908، كانت الرحلة التي تمتد لمسافة 2400 كيلومتر من الآستانة إلى ميناء البصرة على رأس الخليج العربي تستغرق أربعة عشر يوماً، وكان تنفيذ القوانين والمراسيم الإدارية العثمانية فيما وراء هذه المراكز الحضرية البعيدة يتم على فترات متقطعة في أحسن الأحوال⁽¹⁸⁾. وأما قريباً من مركز الدولة، فقد كان فقدان العثمانيين ترابهم في ليبيا في عام 1911 وولاياتهم الأوروبية في اليونان وصربيا والجبل الأسود وبلغاريا ورومانيا في حربي البلقان في عامي 1912 و1913 بمثابة كارثة سياسية وعسكرية بدا أنها تدل على تراجع الدولة العثمانية كقوة إقليمية وانكشاف صدرها أمام مطامع منافسيها الأوروبيين في افتراسها⁽¹⁹⁾.

ومع ذلك، فإن هذا المشهد المتشائم لطفه على نحو ما التحديث الجزئي الذي شهدته الدولة العثمانية أثناء القرن التاسع عشر، وبالأخص أثناء فترة «التنظيمات العثمانية» التي بدأت في عام 1839 واستمرت حتى عام 1876. فخلال تلك الفترة، حدث تحوُّل محدود في هياكل الدول والجيش في خضم عملية لإعادة مركزة السيطرة العثمانية على سكانها النائيين والموارد الزراعية الكبيرة⁽²⁰⁾. وتزامنت مع ذلك إصلاحات إدارية وتحسينات في وسائل الاتصال والنقل ساعدت على إعادة إدماج الأقاليم القصية في الدولة، وذلك في أعقاب انتهاء حكم السلالة المملوكية في العراق التي حكمت بين عامي 1704 و1831⁽²¹⁾. وعلى الرغم من عدم انتظام تنفيذ

هذه الإصلاحات وعدم تحقيقها قط نجاحًا تامًا، فإنها أوجدت البيئة التي أمكن فيها تيسير مزاولة الأعمال مع العالم الأوسع. ومن الأمثلة الواضحة على هذا الانتشار السريع لفروع البنوك التجارية في الولايات بعد عام 1889، مما صاحب ومكن فترة مطولة من النمو الاقتصادي المستدام الذي أتى بالمناطق التي كانت حتى آنذاك قاصية إلى فلك الاقتصاد التجاري⁽²²⁾.

وعلى الرغم من هذه الإصلاحات، فإن طبيعتها المتحاملة والمنقوصة كانت لها مضامين كبيرة للإمبراطورية وقدرتها فيما بعد على التعبئة في فترات الصراع الكبير. فقد ذهبت محاولات توسيع القاعدة الاجتماعية الضيقة التي اتسم بها نظام الحكم العثماني، جزئيًا من خلال تسييس الإسلام كأداة للشرعية، سُدى بسبب النظام الإمبريالي العثماني بهيكله السياسي البيروقراطي الصلب وتوازنه الدقيق بين السكان المسلمين وغير المسلمين (وإن كانوا مؤثرين ثقافيًا واقتصاديًا)⁽²³⁾. علاوة على ذلك، فإن استثناء الفساد، وعدم انتظام الحصول على الخدمات والمكافآت الحكومية واعتماد ذلك على العلاقات الشخصية، والحس المتنامي بعدم الانتماء بدءًا من قاعدة الهرم فصاعدًا بين البيروقراطيين الذين كانوا يفترض أن ينفذوا الإصلاحات الآتية إليهم من أعلى، قوّض بالمثل تطوّر الهياكل البيروقراطية وتغلغلها بشكل أعمق في المجتمع العثماني⁽²⁴⁾. وكانت هناك عقبات أخرى حالت دون التنمية المتماشية من ضمنها التوترات بين المركز والأطراف التي تجلّت في الشقاكات المؤسسية والفردية بين مختلف أقطاب الجهاز البيروقراطي في المركز وفي الأقاليم النائية على حد سواء⁽²⁵⁾. وازدادت محدودية قدرة الدولة الاستخراجية بفعل الفشل في التغلب على التفاوتات ومواطن القصور العظيمة في نظام الالتزام وجباية الأموال والضرائب على مستوى الولايات⁽²⁶⁾. وقد تمخّضت هذه السلبات عن إرث من القدرات الاستخراجية المحدودة التي قوّضت المحاولات العثمانية لتعبئة الموارد المحلية أثناء الحرب العالمية الأولى، كما أنها فاقمت التوترات الاجتماعية الاقتصادية الناشئة عن سنوات متعددة من فقر المحاصيل وضعف العائدات الزراعية في بلاد الرافدين والشام.

ولقد انجذبت الدولة العثمانية أيضًا إلى الاقتصاد العالمي حيث يسّرت التحسينات العالمية في النقل والبنية التحتية ظهور اقتصاد عالمي متسع. وفي عام 1838، فتح توقيع المعاهدة التجارية الإنجليزية العثمانية الأبواب أمام التدفقات الاستثمارية الواردة الكبيرة، والقروض التجارية والخارجية، التي شكّلت بدورها اتجاه التغيير الاقتصادي والاجتماعي في الدولة العثمانية. فأنماط التنظيم الاجتماعي والتبادل التجاري القديمة حدث بها خلل، وحُولت إلى تكوين رأس المال المنتج الموجه نحو إنتاج سلع محددة تمامًا بغرض التصدير (بدلًا من الاستهلاك المحلي)⁽²⁷⁾. وكان للاستثمار الأوروبي في شبكة السكك الحديدية العثمانية دلالة خاصة في إدماج الدولة العثمانية في الأسواق العالمية بربط مراكز الإنتاج الزراعي بالموانئ. فتحوّلت الدولة العثمانية إلى مصدر للمواد الخام والسلع الزراعية إلى الأسواق الغربية ومستورد للمنتجات المصنّعة من هناك⁽²⁸⁾. ثم شهدت التجارة مع أوروبا طفرة جديدة بعد افتتاح قناة السويس في عام 1869 في ظل تسارع الروابط التجارية مع الهند بعد عام 1900، بالدرجة الأولى من خلال ميناء البصرة المطل على الخليج العربي والمشايخات الساحلية في شبه الجزيرة العربية⁽²⁹⁾.

وبجانب تحول الأنماط الاقتصادية إلى الأسواق الدولية التجارية كان هناك اختراق الشرق الأوسط سياسيًا على أيدي القوى الأوروبية. وقد أطرت ذراعا الإمبريالية هاتان إدماج المنطقة في النظام الدولي، بشكل رسمي وغير رسمي على السواء، وكانتا في حد ذاتهما محصلة عدد كبير من القوى السياسية والاقتصادية والاستراتيجية. وفي السياق العثماني، نجد أن هذه القوى امتزجت في العقود المضطربة التي سبقت بداية الحرب العالمية الأولى، حيث آذن اقتران الصعوبات التي واجهت المالية العامة وجمع الإيرادات بمستويات الاقتراض غير المستدامة بالتدخل الأجنبي في مصر في عام 1876، في أعقاب إفلاس الدولة الخديوية، وإنشاء إدارة الدين العام العثماني برعاية فرنسية وبريطانية في عام 1881⁽³⁰⁾. وقد قلّص كلا التطورين بشدة سيادة الدولة العثمانية وقدرتها على التصرف على نحو مستقل عن المصالح الخارجية. وفي حالة مصر، تلا هذا تدخل عسكري بريطاني ومن بعده الاحتلال بداية من عام 1882.

وفي السنوات الأخيرة قبل عام 1914، بلغت التحديات المتشابكة التي تواجه العثمانيين أوجها، ومن ضمنها أزمة سياسية واقتصادية وعسكرية شبه مستمرة، بالإضافة إلى ثورة وثورة مضادة أحدثتا تحولاً في قمة النظام الإمبريالي في الآستانة. وبدأت هذه الفترة التنفيسية بانقلاب قامت به جمعية الاتحاد والترقي في عام 1908 وخسرت الدولة العثمانية إبنانه ليبيا لصالح الإيطاليين في عام 1911 والغالبية العظمى مما تبقى من أراضيها في أوروبا قبل حرب البلقان في 1912 - 1913 وأثناءها. وتباين فشل العثمانيين في القيام بأكثر من مجرد المقاومة الرمزية في ليبيا تبايناً صارخاً مع المقاومة المحلية التي نظمها أحمد الشريف السنوسي في برقة والتي اكتسبت زخماً بسرعة وأوقفت حركة 60 ألف جندي إيطالي في أوجها في عام 1914⁽³¹⁾. كما عكس هذا الفشل الإرث المختلط الذي تركته عقود من الإدارة العثمانية في ليبيا منذ عام 1835 التي لم تتمخض إلا عن قليل من التعبئة الرضائية لاستمرارها. وعُزي هذا، إلى حد كبير، إلى عجز الدولة العثمانية عن خلق هوية مشتركة بين الشعوب التي كانت تحكمها، أو إيجاد بديل اقتصادي قابل للاستمرار يعوض التآكل التدريجي في أنظمة التجارة القديمة القائمة على القوافل، أو إعادة صياغة مفاهيم السلطة السياسية الإقليمية التي ظلت، في عناد، على هيئتها القبليّة والمحليّة⁽³²⁾.

ووقعت الهزيمة العسكرية في ليبيا بالتزامن مع تقلص آخر أراض متبقية للدولة العثمانية في أوروبا والسحب النهائي للقوات العثمانية من إقليم تهامة ومرتفعات وسط اليمن في عام 1911 في أعقاب خسائر كبيرة تكبدتها في الرجال والمواد والنفقات في قتال المقاومة الزيدية المحلية⁽³³⁾. فواجهت جمعية الاتحاد والترقي التي سيطرت على السلطة حديثاً تحدياً فورياً يتمثل في إعلان استقلال بلغاريا وضم إمبرطورية النمسا والمجر للبوسنة والهرسك في عام 1908. وفي ألبانيا، تفجرت سلسلة من الانتفاضات الكبيرة في عام 1910 ردّاً على محاولات حكومة جمعية الاتحاد والترقي زيادة السيطرة المركزية وزيادة الضرائب. واستمرت الثورة الألبانية حتى إعلان البلد استقلاله في عام 1912، وقد ترتب على إرسال 50 ألف جندي

عثماني لإخماد هذه الثورة (دون جدوى) أن تقلّصت بشدة قدرة الدولة العثمانية على الاستجابة عسكريًا للغزو الإيطالي لليبيا⁽³⁴⁾. وتلا هذا هزيمة عسكرية سريعة وحاسمة مُنيت بها الجيوش العثمانية في حرب البلقان الأولى، مما فضح سوء إدارة الدولة وعدم جاهزيتها العملية وسوء قيادتها والخلل الوظيفي في وضع سياساتها العسكرية السياسية، وكلها ستصبغ فيما بعد تقييمات المراقبين الأوروبيين لقدرة الدولة العثمانية على الحرب في عام 1914⁽³⁵⁾. ومع ذلك، وكما برهن ببراعة شديدة هيو ستراكان، فإن الهزائم العسكرية التي ذاقها العثمانيون في البلقان أثبتت أنها عامل حافز لعملية شاملة لإصلاح القوات المسلحة العثمانية وإعادة هيكلتها، وهو ما بدأ فعليًا في عام 1909 تحت إشراف محمود شوكت باشا (قائد الجيش الثالث وفيما بعد وزير الحربية ثم الصدر الأعظم في عام 1913) وتسارع مع وصول البعثة العسكرية الألمانية برئاسة أوتو ليتمان فون ساندرز في عام 1913، على الرغم من أن الإصلاحات لم تكن قد اكتملت عندما اندلعت الحرب في عام 1914⁽³⁶⁾.

فقدت الدولة العثمانية فيما بين عامي 1908 و1912 نحو 40 في المائة من مساحة أراضيها وسُدس سكانها. وقد أضرّ تتابع هذه الخسائر برأس مالها البشري والفكري بشكل خاص حيث كانت الأراضي الأوروبية، وبفارقٍ ما، المناطق الأغزر إنتاجًا والأكثر تقدمًا في الدولة العثمانية، فكانت تمدّها بمعظم ثروتها ومجنديها العسكريين وموظفيها البيروقراطيين، وبعد عام 1913 تحوّل مركز الثقل في الدولة شرقًا إلى الأناضول. وكان لعملية «التتريك» المنتظمة للدولة، وهي التي استهلتها جمعية الاتحاد والترقي بعد أن نصّب أعضاؤها أنفسهم وكلاء تحديث على طريقتهم التركية الخاصة، دلالاتها العميقة على الاتجاه المستقبلي للدولة العثمانية (تميزًا لها عن التركية)، وعلى سكانها غير الأتراك في عموم الشرق الأوسط. وبالتالي، فإن السنوات التي سبقت الحرب مباشرة كانت فترة شهدت فيها الدولة تحولًا جذريًا على الأصعدة السياسي والاجتماعي والاقتصادي، وكله كانت له تبعاته على الأداء والوضع العسكريين أثناء الحرب التي أعقبت ذلك في عام 1914⁽³⁷⁾.

التغلغل الاستعماري في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا

قابل اضمحلال الدولة العثمانية أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر (وهو الذي تسارع بشدة بعد عام 1908) صعود في التغلغل الاستعماري الأوروبي في عموم الشرق الأوسط. وكانت هاتان العمليتان الكبريان مختلطتين إلى درجة ما، على الرغم من توصل القوى الأوروبية إلى توافق صعب على احترام سلامة أراضي الدولة العثمانية في معاهدة باريس لسنة 1856. فقد فتحت الشركات التجارية البريطانية والفرنسية الأسواق العثمانية أمام النظام الاقتصادي العالمي، وبهذا خلقت مصالح تجارية ومصالح استراتيجية متداخلة، ولا سيما في التنافس على بسط الهيمنة على الأرض في أفريقيا وعلى بسط النفوذ على طرق التجارة⁽³⁸⁾. ومع ذلك، فإن جذور الإمبريالية كانت معقدة ومتعددة الأبعاد، واتخذ إسقاط النفوذ الخارجي في المنطقة أشكالاً متنوعة دون أن يحدث ضم استعماري صريح إلا في حالات نادرة، وأبرزها ما فعله البريطانيون في عدن والفرنسيون في الجزائر والإيطاليون في ليبيا. وفي أماكن أخرى، كانت «الدولة الاستعمارية» كائناً متعدد الوجود يُسقط قوته بطرق متعددة مباشرة وغير مباشرة، ومن خلال أنواع مختلفة من التحالفات مع الشيوخ البارزين وأصحاب الأتليان في بعض الحالات، أو العمل باستخدام الأدوات البيروقراطية القائمة في حالات أخرى. لكن في كل حالة، أفضى تمديد النفوذ الاستعماري إلى ديناميات سياسية وطرق تنظيم جديدة، وضغوط خارجية قوية على اتجاه التغيير ووتيرته، مع اصطباغ السلطة السياسية بصبغة الدولة الاستعمارية وتفاعلاتها المتعددة مع المجتمع⁽³⁹⁾.

وتجلّت هذه التعقيدات بوضوح في توسّع فرنسا وتحولها إلى قوة إمبريالية في الشرق الأوسط، وهو ما كان محصلة امتزاج بين مشاعر الهوية الوطنية والامتعاض من استمرار توسّع الإمبراطورية البريطانية ثم من بعد عام 1880 الإمبراطورية الألمانية، فضلاً عن كونه ردة فعل للهزيمة الساحقة في الحرب الفرنسية البروسية التي جرت في 1870 - 1871. كما كان هذا أيضاً يمثّل نتيجة الضغط السياسي المنسق الذي

مارسته جماعات الضغط الاقتصادية والجمعيات القومية الفرنسية التي تربطها صلات وثيقة بالنخبة السياسية، وكذلك الجيش والبحرية، وكلها دعت إلى اتخاذ مستعمرات واستغلت الأقاليم المسيطر عليها حديثاً⁽⁴⁰⁾. فأفضت توليفات متبانية من العوامل السياسية والاقتصادية إلى فترات من الديناميات التوسعية والاستيلاء على الجزائر (عام 1830) وتونس (عام 1881)، بالإضافة إلى اتفاقية فرنسية إسبانية أبرمت في عام 1907 بخصوص تقسيم شمال أفريقيا. كما لعبت الشواغل الاستراتيجية الفرنسية بشأن حدود الجزائر أيضاً دوراً في الحالتين الأخيرتين، مثلما لعبت المنافسات الجغرافية السياسية مع بريطانيا وإسبانيا في شمال أفريقيا ومنطقة البحر المتوسط دوراً فيهما⁽⁴¹⁾.

وكانت اقتصادات السيطرة الاستعمارية السياسية المختلفة مهمة في هيكلة القدرات الاستخراجية والتعبوية التي برزت إلى السطح في عام 1914. فكان الحكم الاستعماري الفرنسي في الجزائر مباشراً واقتحامياً، وذلك على النقيض من أسلوب بريطانيا غير المباشر في حكم مستعمراتها. واتبعت فرنسا سياسة استيعاب جذبت المستعمرة تدريجياً إلى فلك العاصمة السياسي، وذلك مع منح أقاليم الجزائر الثلاث تمثيلاً برلمانياً في باريس وإقامة أكثر من 660 ألف أوروبي، معظمهم من المشغلين بالزراعة، مجتمعات استيطانية في الجزائر⁽⁴²⁾. وفي هذه الأثناء، أديرت تونس والمستعمرات الفرنسية الأخرى في أفريقيا كمحميات، حيث أبقى على مظهر السيادة المحلية لكن ابتكرت آليات لإعادة تشكيل السلطة الإدارية والاستيلاء عليها والسيطرة على المجتمع. وعلى الرغم من أن تونس أفلتت من الضم الصريح، إلا أنها شهدت -مثلها مثل الجزائر- زرع طبقة من المستوطنين كانت بمثابة حزام ناقل قوي للمصالح الإمبريالية على المشهد السياسي الفرنسي. والحقيقة أن كتاب غاري وايلدرز شديد الإبداع الذي يتناول التاريخ الاستعماري الفرنسي يوضح أن النظام الاجتماعي السياسي كان قد حُوّل، بحلول عام 1914، إلى «دولة أممية إمبريالية» تشتمل على تكوين سياسي واحد ذي شخصية ثنائية تتألف من بُعدين متشابكين هيكلياً؛ أحدهما جمهوري برلماني والآخر استعماري استبدادي⁽⁴³⁾.

وسبق اهتمام فرنسا الاستراتيجي والتجاري ببلاد الشام اهتمامها بشمال أفريقيا، وإن اتخذ شكلاً مختلفاً. وكان الاهتمام الفرنسي يعود إلى زمن غزو نابليون لسوريا (انطلاقاً من مصر) في عام 1799، وإن كان العثمانيون قد أوقفوا هذا الزحف في عكا. وفيما بعد، قدّمت فرنسا الدعم لوالي مصر محمد علي عندما قام هو ذاته بغزو سوريا في 1831 - 1832، لكن هذه المحاولة المجددة لكسب النفوذ ثبت من جديد أنها قصيرة العمر حيث انسحبت القوات المصرية من سوريا في عام 1840. وجاءت محاولة ثالثة لتثبيت النفوذ الفرنسي في المنطقة في أعقاب المذبحة التي ارتكبها الدروز ضد الطائفة المارونية في جبل لبنان في عام 1860، والتي أعقبها إرسال فرنسا 6 آلاف جندي بدعوى قيامها بدورها كحامية للسكان المسيحيين. ومن جديد كان هذا النجاح عابراً، حيث أعادت الحكومة العثمانية تأكيد سيطرتها، وظل النفوذ الفرنسي غير رسمي حتى لاحت الفرصة للقيام بعمل جريء باندلاع الحرب العالمية الأولى⁽⁴⁴⁾. وبدلاً من ذلك، تقدمت المصالح الفرنسية من خلال تأكيد ثقافي وديني على تعزيز اللغة الفرنسية و«رسالتها الحضارية»، بالإضافة إلى مسؤولية فرنسا عن حماية الكاثوليك في فلسطين وكذلك الموارد في لبنان⁽⁴⁵⁾.

ومن ثم اتخذت أنماط التغلغل الخارجي صوراً متعددة، داخل المناطق وفيما بينها على السواء. وحددت طبيعة النفوذ الاستعماري ومداه هياكل الحكومة والمؤسسات الاستخراجية التي تطورت. وقد مهد تضمين فرنسا مستعمراتها في هياكل العاصمة الطريق أمام التحويلات المباشرة للموارد العسكرية والعمالية من المستعمرات إلى فرنسا أثناء الحرب، لغرض القتال والعمل في المصانع على حد سواء⁽⁴⁶⁾. ففيما بين عامي 1914 و1918، أرسل إلى فرنسا نحو 450 ألف جندي بالإضافة إلى 135 ألف عامل مصنع، وأغلبهم من شمال أفريقيا الفرنسي⁽⁴⁷⁾. فتونس وحدها أرسلت 80 ألف فرد إلى الجيش الفرنسي وتكبّدت على الجبهة الغربية خسائر في الأرواح تزيد على 20 ألف فرد، بينما كان هناك 30 ألف تونسي آخرون يعملون في المناجم والمصانع والمزارع في فرنسا، مما فرّغ العمال الفرنسيين للانضمام إلى القوات المسلحة⁽⁴⁸⁾. واختلف هذا الضلوع المباشر في الحرب اختلافاً لافتاً للنظر عن تعبئة

موارد بريطانيا الاستعمارية خارج أوروبا، حيث ظلت القواسم المكانية والهرمية أصلب من هذا بكثير.

كذلك هيأت الأطماع الفرنسية في الشام المسؤولين للاستفادة من اندلاع الحرب مع الإمبراطورية العثمانية، وبلورت المطالب الإقليمية التي ستجعل الجهود الفرنسية التي استمرت على مدى أجيال كي تتوطد دعائمها حقيقة واقعة. وأثبتت تنافسات القوى الكبرى، الواقعية منها والمتصورة والخليط بين الاثنين كما في أزمة أغادير المغربية في عام 1911، بالتالي أنها مرتكزات مهمة لوضع السياسات في الشرق الأوسط. ففي حالة بريطانيا، مارست توليفة من الاعتبارات الاستراتيجية والتجارية، المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحماية الطريق إلى الهند، تأثيراً حاسماً على انتشار السيطرة الإمبريالية التي يغلب عليها الطابع غير المباشر في الشرق الأوسط، على الرغم من أن التنافسات الاستراتيجية والتجارية مع فرنسا (وفيما بعد ذلك مع ألمانيا) كانت محركات أخرى للسياسات. فصارت الهند «جوهرة تاج الإمبراطورية البريطانية»، وتطلبت تخطيطاً استراتيجياً للدفاع عن جنبها الشرقي والغربي في قوس ممتد من شرق أفريقيا إلى شبه الجزيرة العربية وحتى جنوب شرق آسيا⁽⁴⁹⁾. وقد كانت الموارد البشرية والعسكرية الهندية محورية لتنمية الإمبراطورية البريطانية، جزئياً من خلال توفير أيد عاملة إلزامية وتجار على مستوى صغير. ومع ذلك، فإن الجيش الهندي هو الذي كان يمثل الأساس الذي قام عليه أمن الهند وكان يضمن استقرار التجارة والاستثمار في الإمبراطورية⁽⁵⁰⁾.

وأثناء القرن التاسع عشر، ربطت ديناميات الأمن الإمبراطوري اقتصاد الهند السياسي بالتطورات الاستراتيجية في الشرق الأوسط وأفريقيا فضلاً عن آسيا، فتطور «نظام دون إمبريالي» إنجليزي هندي على مدى «قرن من التجارة والدبلوماسية» حبس الهند في نطاق حمائي شاسع من الدول والكيانات الموالية لبريطانيا، إذ كانت تعي في البداية وجود تهديد محتمل من تحرك روسي صوب الجنوب عبر أفغانستان أو إلى الخليج العربي. وتحقق هذا في معظم الأحوال من خلال التدخل

العسكري لتأمين أهداف بريطانية وهندية، وأثبت الجيش الهندي أنه أداة فعالة في سياق قوة الحملات الاستعمارية محدودة التبعة في القرن التاسع عشر. وهكذا تدخل الجيش الهندي في الصين (عام 1860) وفي الحبشة (عام 1868) وفي براق (عامي 1875 - 1976) وفي بلوشستان (عامي 1876 - 1879) وفي مالطة وقبرص (عام 1878) وفي أفغانستان (عام 1878) وفي مصر (عام 1882) وفي بورما (عام 1886) وفي نياسا (عام 1893) وفي مومباسا وأوغندا (عام 1896) وفي السودان (عام 1885 وأعوام 1896 - 1898)⁽⁵¹⁾. وكان دوره في ضمان أمن المحيط الإنجليزي الهندي تطوراً مهماً آذن بتجربة الجيش الهندي في الحربين العالميتين في القرن العشرين.

وفي أعقاب القصورين العمليتين واللوجستي اللذين كشف عنهما المجهود الذي استمر عامّاً لإخماد الانتفاضة الحدودية في تيراه في عامي 1897 - 1898، خضع الجيش الهندي لبرنامج تحديث تدريجي تحت إشراف اللورد كشنر ودوغلاس هايغ. وتوّج هذا البرنامج بوضع هايغ خططاً سرية في عام 1911 لإرسال «قوة حملة هندية» إلى أوروبا في حالة اندلاع حرب عامة في القارة. ومع ذلك، فقد شكّل الاقتصاد السياسي الحر والضرائب الطفيفة قيوداً سياسية ومالية قوية عرقلت تطور مجمع عسكري صناعي في الهند وما يرتبط بذلك من قدرة الهند على تنظيم الموارد واستخراجها في أزمنة الحرب⁽⁵²⁾. كما شكّلت الذكريات البريطانية عن ردة الفعل العكسية إزاء محاولة سابقة منها للتغلغل بشكل أعمق في المجتمع الريفي في عامي 1857 - 1858 قيوداً مماثلة، وكان الإرث الذي تركه التمرد الهندي الكبير عبارة عن نهج محافظ في الحكم وتأكيد على التعاون مع جماعات تُختار بعناية داخل المجتمع الهندي. وأثبتت هذه القيود أنها عوامل تضيق كبيرة في المرحلة الافتتاحية من الحرب العالمية الأولى مع اضطلاع الجيش الهندي بدوره المنوط به منذ زمن طويل بصفته «فرقة الإطفاء الإمبراطورية» بإرسال قوات إلى بلاد الرافدين وشرق أفريقيا وعدن بالإضافة إلى مصر. ومع ذلك، أخفق المسؤولون الحذرون في اتخاذ خطوات للضغط بشدة باللغة على المجتمع الهندي للتعبئة من أجل المجهود الحربي، فكانت النتائج كارثية في بلاد الرافدين في عام 1916⁽⁵³⁾.

لقد كانت الهند أحد مراكز الثقل لسياسة الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط. وكان المركز الآخر مصر، وقد أُنْشِئَ هذا المركز طريق المرور خلال البحر المتوسط وقناة السويس إلى البحر الأحمر والهند. وهنا أيضًا تطوّر اقتصاد سيطرة استعمارية سياسي معين في العقود التي سبقت الحرب فأثّر تأثيرًا مباشرًا على طبيعة قوة الحملات أثناء هذه الحرب. فكما هو الحال في أجزاء أخرى من الدولة العثمانية، ترك التحديث الجزئي للدولة وإدماجها التدريجي في النظام التجاري العالمي أثناء القرن التاسع عشر إرثًا قوامه قصور التحول نحو الإنتاج الصناعي وثقل المديونية التي بلغت ذروتها في إفلاس الدولة في 1876 - 1877. وتلا هذا تدخل خارجي كان في البداية على هيئة نظام رقابة ثنائية إنجليزي فرنسي للوصول إلى تسوية مالية وإدارة سداد الدين المصري⁽⁵⁴⁾. وتساعد السخط المحلي على فرض رقابة خارجية أشد إحكامًا إلى مشاعر مناهضة للأوروبيين فبلغ ذروته في ثورة عرابي في عام 1881. وكان يقود هذه الانتفاضة العسكرية أربعة ضباط مصريين برتبة عقيد، وقد رفعت شعار «مصر للمصريين» في تجلٍّ قومي وليد للغضب من الاجتياح الأجنبي. وقد تمكنت الانتفاضة من حشد دعم عابر للطبقات الاجتماعية من الفئات الريفية والحضرية على حد سواء قبل أن تتعرض للهزيمة على أيدي قوات الخديوي بدعم من الإنجليز في أعقاب أعمال الشغب المعادية للأوروبيين التي وقعت في الإسكندرية في يونيو 1882 والمخاوف من احتمال أن يترتب على علو النزعة القومية في مصر التوقف عن سدادها ديونها للدائنين الأوروبيين⁽⁵⁵⁾.

وشهدت العقود التي تلت إرسال السفن الحربية البريطانية (مؤقتًا) إلى الإسكندرية تطور نموذج حكم استعماري «إنجليزي مصري» خاص. استند هذا النظام إلى مبادئ ثلاثة هي حرية التجارة وقلة الضرائب ومحدودية دور الحكومة. كما تبنى المسؤولون البريطانيون أيضًا موقفًا بأن زيفه يومًا بعد يوم وهو أن الاحتلال ما هو إلا احتلال مؤقت، لكن بعد عام 1892 أيقنت وزارة الخارجية في لندن أن الانسحاب أمر مستبعد، وبدأ النفوذ البريطاني يتسع على نطاق أكبر⁽⁵⁶⁾. وبحلول عام 1914، كان المستشارون ومساعدو المفتشين البريطانيون قد تخللوا المستويات العليا من الحكومة المصرية

مسلمين بتفويضات لتحديث ما دعاه أحد الإمبراطورين القياديين، وهو ألفريد ملنر (وهو الذي سك أيضا مفهوم «المحمية المقنعة»)، سوء الإدارة المخيف تحت الحكم الخديوي⁽⁵⁷⁾. وفيما بين عامي 1882 و1914، كانت السياسة البريطانية في مصر تهدف إلى خدمة مصالح لندن التجارية والاستراتيجية وتأمين تعاون سياسي محلي كاف لتجنب فرض الحكم المباشر. وتطلب هذا توازنًا دقيقًا صعبًا، حيث أدت الإصلاحات التي أُتخذت لاستعادة استقرار مصر السياسي والمالي العام، للمفارقة، إلى ترسيخ النفوذ البريطاني من خلال المزيد من تدفق المسؤولين الذين حلوا تدريجيًا محل طبقة الموظفين البيروقراطيين المصريين⁽⁵⁸⁾.

غير أن الملمح الأساسي من ملامح الاقتصاد السياسي للإمبراطورية البريطانية، في الهند وفي مصر على حد سواء، كان يكمن في حجمها الرسمي الصغير واعتمادها على شبكات من العملاء المتعاونين المحليين. فقد ظل النفوذ البريطاني في المكانين صغيرًا جدًا، حيث بلغ العدد في مصر ما بين 300 و400 موظف مدني وما بين 4 آلاف و5 آلاف جندي، بالإضافة إلى طائفة تجارية صغيرة تضم خبراء زراعيين ورجال أعمال. وكان وجودهم مقصورا في أغلب الأحوال على المناطق الحضرية ولم يمتد إلى أرياف مصر التي ظل 68 في المائة من سكانها يشتغلون بالزراعة. وفي الأحوال التي حدث فيها اتصال (غير مباشر) بين أرياف مصر والاحتلال، كان ذلك من خلال سياسات الاحتلال الزراعية التي كانت استمرارًا لسياسية خديويات مصر فيما قبل عام 1882 المتمثلة في دمج مصر في الاقتصاد الدولي من خلال إنتاج القطن كمحصول نقدي قائم على التصدير⁽⁵⁹⁾. فجلب مهندسو ري من الهند فحولوا الزراعة المصرية إلى نشاط يمارس على مدار العام. وصارت زراعة القطن مربحة بشدة فتراجعت زراعة المواد الغذائية حتى أوشكت مصر على أن تتحول إلى اقتصاد محصول واحد يعتمد على الأغذية المستوردة لسد النقص في الإمدادات المحلية⁽⁶⁰⁾.

وفرض اقتصاد الإمبراطورية البريطانية السياسي في مصر والهند هيكل الوقائع التي تلت نشوب القتال في الشرق الأوسط في خريف 1914، حيث تبين في

بادئ الأمر أن الاقتصاديين التجاريين والحكم غير المتغلغل بعمق في كلا البلدين غير ملائمين -حتى مع الحصول على دعم لوجستي- لتنظيم واستخراج موارد القوة البشرية والحيوانية اللازمة لاستدامة حملات عسكرية واسعة النطاق. وفي كلتا الحالتين، تطلب الأمر تجربة تنفيسية تمثلت في صدمات عسكرية لحشد ما يلزم من دعم سياسي لتغلغل مباشر وسلطوي بدرجة أكبر في الأنماط الاجتماعية الاقتصادية المحلية لتحويل الموارد إلى المجهود العربي. وأفضى هذا إلى مرحلة غير متوقعة ومُخَلَّة (لكن في النهاية مؤقتة) في عملية وضع السياسات الإمبريالية التي عادت فيما بعد إلى تفضيلها الحكم غير المباشر من خلال نخب متعاونة بعد عام 1922. وعلى الرغم من ذلك، سلط مسار الحملات الضوء على القيمة الدائمة للشبكات التي أقامتها بريطانيا خارج أوروبا لدعم الراج الهندي قبل عام 1914. ووجهت هذه الروابط نقل الموارد البشرية والمادية إلى بريطانيا ومنها وفيما بين مختلف مناطق الصراع في الشرق الأوسط على حد سواء. وتيسرت هذه الروابط وقامت على القيمة الاستراتيجية لقناة السويس بوصفها «شريان الإمبراطوية» الحيوي وحماية الطريق إلى الهند والمستعمرات الجنوبية⁽⁶¹⁾.

وقد اتخذ هذا النظام أجلى صورة له في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي. فكان المخططون المدنيون والعسكريون في الهند يعتبرون المنطقة جنبًا حيويًا على الطريق البحري إلى الهند، وأبقوا أعينهم مفتوحة ترقبًا لأي بوادر منافسة روسية أو ألمانية على النفوذ. وفي عام 1903، دفع الحرص على التفوق البريطاني وزير الخارجية البريطاني اللورد لاندسداون إلى إعلان «ما يشبه مبدأ مونرو للخليج العربي» والتحذير من أن بريطانيا تعتبر إقدام أي قوة أخرى على إقامة قاعدة بحرية أو ميناء حصين بمثابة «تهديد خطير» لمصالحها⁽⁶²⁾. وكان هذا يعكس إنشاء بريطانيا المتأني نظامًا دون إمبريالي في الخليج العربي على مدى القرن السابق الذي بدأ بمعاهدة عامة تحرّم القرصنة البحرية في عام 1820 وتطور إلى التوافق على العلاقات التعاهدية الحمائية بين حكومة الهند والمشيخات العربية الصغيرة: إمارات الساحل المتصالح (عام 1835) والبحرين (عام 1861) والكويت (عامي 1899

و1914) وقطر (عام 1916)⁽⁶³⁾.

وإلى الشمال، اتسعت المصالح البريطانية والهندية بانتظام طوال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وإن كان بشكل غير رسمي. فاستفادت الشركات البريطانية والهندية من الإصلاحات الإدارية التي نفذتها الدولة العثمانية والتحسينات التي أدخلتها على وسائل النقل والاتصال المذكورة آنفًا. واكتسبت شركات الشحن البريطانية حق الملاحة في أنهار الولايات العثمانية في بلاد الرافدين في عام 1846، وبحلول عام 1911 كانت بريطانيا والهند (البريطانية) أهم شريكين تجاريين للبصرة⁽⁶⁴⁾. وجاءت وسيلة أخرى لتوسيع النفوذ البريطاني في بلاد الرافدين من خلال المشاركة في مشروعات الري والزراعة الكبيرة، وأما اكتشاف النفط في الخليج العربي المجاور في عام 1908 فأضفى المزيد من القيمة الاستراتيجية والتجارية المتصورة على المنطقة. فقد اشتبه المسؤولون البريطانيون في وجود احتياطات نفطية كبيرة حول الموصل، على الرغم من أنه لن تحدث اكتشافات مؤكدة حتى عام 1927⁽⁶⁵⁾. وفي عام 1914، اقتنت الحكومة البريطانية حصة أغلبية في شركة النفط الإنجليزية العربية، وبالتالي أمنت للقوات البحرية إمدادًا منتظمًا من النفط لسفنها، مما قلل اعتماد بريطانيا على مصادر النفط غير التابعة للإمبراطورية في الولايات المتحدة وروسيا والمكسيك ورومانيا، لكنه أضفى دينامية جديدة قوية على اعتبارات وضع سياسات بلاد الرافدين في عشية الحرب⁽⁶⁶⁾.

وكان فرض بريطانيا نفوذًا أكبر في الخليج العربي مدفوعًا برغبة منها في التصدي لما تتصوره من تحركات ألمانية أو روسية جريئة، وذلك مثلما كُتفت السياسة البريطانية في أفريقيا والبحر المتوسط تكييفًا دقيقًا مع المكائد الفرنسية المفترضة. وتلاشت تصورات وجود تهديد روسي يواجه المصالح البريطانية بعد توقيع الاتفاق الإنجليزي الروسي في عام 1907، وصارت من بعده ألمانيا هي الشغل الشاغل. وقد استيقظت الشكوك البريطانية في البداية على التحركات الألمانية في مجالي السكك الحديدية والتجارة. ففي عام 1903، منحت الدولة العثمانية شركة سكك حديد

الأناضول الألمانية امتيازًا لإقامة خط حديدي يمتد من قونية في الأناضول إلى الخليج العربي، وتابعت وزارة الخارجية البريطانية بعين القلق سير العمل في هذا الخط شرقًا. وبعد عام 1910، أثار احتمال تمديد الخط الحديدي إلى شواطئ الخليج العربي تكهنات قلقه حول النقطة التي سينتهي عندها هذا الخط، فضلًا عن زيادة الوعي بالأهمية الاستراتيجية لبلاد الرافدين ومنطقة شمال الخليج. وأتاح هذا فرصًا للزعماء العرب المحليين، وبالأخص الشيخ مبارك بن صباح الصباح، لاستغلال هذه الرّيب لضرب القوى الأوروبية إحداها بالأخرى لتعظيم المكسب المحلي والقدرة التفاوضية⁽⁶⁷⁾.

ثمة شاغل بريطاني إضافي تجاه الأهداف الألمانية كان يتعلق بحجم تجارتها مع شبه الجزيرة العربية وأنشطة بعض وكلائها في الخليج العربي. ففي 1912 - 1913، تجاوز عدد الطرود التي نقلتها شركة هامبورغ-أمريكا لاين (الألمانية) للشحن من أوروبا إلى البصرة، للمرة الأولى، إجمالي ما نقله منافسوها البريطانيون مجتمعين. وثار مزيد من القلق بسبب نشاط فلهم فاسموس، القنصل الألماني في مدينة بوشهر الفارسية المهمة (والتي كانت أيضًا مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي). فقد زعم فاسموس في رسالة بعث بها إلى برلين في ديسمبر 1913 أن المقيم السياسي البريطاني المنتهية خدمته في بوشهر، وهو السير بيرسي كوكس، «يخشى أي نفوذ اقتصادي قد تحوّل عليه ألمانيا في الخليج». وأضاف أن كوكس «رأى أن طموحه الرامي إلى جعل الخليج بحرًا بريطانيًا حكرًا على بريطانيا يتعرض للخطر مع كل حبل سفينة من شعير وكل طن من أكسيد يصدره الألمان»⁽⁶⁸⁾. وثمة شخصية ألمانية أخرى بارزة أثارت هواجس بريطانيا، وهي البارون ماكس فون أوبنهايم الذي تسببت أسفاره في شبه الجزيرة العربية وتقاريره الموسعة حول السياسة العربية التي أرسلها إلى وزارة الخارجية الألمانية شعورًا كبيرًا بالفرع في لندن من نبرته المعادية لبريطانيا وتأييده تمرّدًا إسلاميًا في المستعمرات المسلمة الخاضعة لبريطانيا، ولا سيما في حالة أي حرب مع الدولة العثمانية⁽⁶⁹⁾.

وكان كل من جون لوريمر، بديل كوكس المقيم السياسي (بالإنابة)، وستيوارت نوكس، القنصل العام بالإنابة في فارس، يؤمن بأن السياسة التجارية الألمانية تقوم في حقيقتها على، وتتأثر بفعل، دوافع سياسية تهدف إلى تحدي هيمنة بريطانيا الإقليمية التي يُعتبر «الحفاظ عليها ضرورياً للحفاظ على مصالحها في الهند». وقد اتضح القلق البريطاني الرسمي إزاء توجهات السياسة الألمانية في الخليج العربي فيما بعد، في أبريل 1914، عندما رفضت وزارة الخارجية البريطانية طلباً ألمانياً لتمديد كابل في الخليج العربي ليكون جزءاً من الربط التلغرافي المباشر بين ألمانيا والصين⁽⁷⁰⁾. وهكذا، بحلول الوقت الذي اندلعت فيه شرارة الصراع في عام 1914، كان «التهديد» الألماني المفترض في مواجهة مصالح بريطانيا الشرق أوسطية قد حل باستحكام محل التحدي الروسي المتصور السابق في مواجهة أمن الإمبراطورية، وهو الذي كان سائداً قبل ذلك في الذهنية الرسمية قبل التوقيع على الاتفاق الإنجليزي الروسي لسنة 1907.

وكان المسؤولون البريطانيون على دراية تامة بمنافسة ألمانيا المتنامية في الشرق الأوسط، ويشعرون بقلق متزايد حيالها. وتجلّت طموحات ألمانيا العالمية بعد تسعينات القرن التاسع عشر في اتخاذها مستعمرات رسمية في شرق أفريقيا وغربها وجنوب غربها وفي المحيط الهادئ، فضلاً عن إسقاطها نفوذاً شبه مسيطر على الآلة العسكرية العثمانية. وكانت الروابط التي تجمع بين ألمانيا والجيش العثماني تعود إلى عدة أجيال سبقت، عندما عُيّن هلموت فون مولتكه (الأكبر) لتحديث الجيش الذي تولى قيادته فيما بعد في الحملة الأناضولية ضد والي مصر محمد علي في عام 1838. وفي ثمانينات القرن التاسع عشر، لجأ الحكام العثمانيون من جديد إلى المساعدة الألمانية في إعادة تنظيم القوات المسلحة، حيث قضى البارون كولمار فون دير غولتس اثنتي عشرة سنة (بين عامي 1883 و 1895) في القسطنطينية. وكان ذلك الإرث من النفوذ العملي والفكري على الجيش العثماني يعني أن تعيين ليتمان فون ساندروز رئيساً للبعثة العسكرية الألمانية في عام 1913 يمثل استمرارية عضوية لعلاقة قائمة منذ زمن بعيد. كما انتشر تأثير ألمانيا غير الرسمي من خلال إلحاق

ضباط عثمانيين كبار (من ضمنهم شوكت باشا) بالجيش الألماني في مستهل حياتهم العسكرية⁽⁷¹⁾.

ولقد استأثر منح ألمانيا امتياز سكة حديد بغداد في عام 1903، وما تلا ذلك من إنشاء (متعثر) للخط الحديدي، بخيال منافسي ألمانيا على النفوذ الإقليمي في الشرق الأوسط وأثار مخاوفهم. كما كان هذا الخط أيضًا موضوع عمل كبير نشر حديثًا تحت عنوان: «قطار برلين بغداد السريع: محاولة الدولة العثمانية وألمانيا كسب النفوذ العالمي» The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power. وامتزج هذا الخط جزئيًا بعقيدة «درانغ ناخ أوستن» (الزحف صوب الشرق)، على الرغم من أن المسؤولين البريطانيين تحديدًا كانوا يخشون أنه يشكل تهديدًا مباشرًا لمصالحهم التجارية والاستراتيجية في الخليج العربي، وحقول النفط المكتشفة حديثًا في المنطقة، والطريق إلى الهند⁽⁷²⁾. ولم يكن الخط الحديدي قد اكتمل بحلول عام 1914 إذ كانت سلسلة جبال طوروس في جنوب شرق تركيا تقف عقبة كأداء أمامه، وعندما اندلعت الحرب كان يفصل نهاية الخط الحديدي عن بغداد نحو 500 كيلومتر. علاوة على ذلك، تسبب هذا الخط في احتكاك بين المسؤولين الألمان والعثمانيين الذين رأوا أن الخط لا يلبي حاجاتهم العسكرية، مما يعكس أساسه الاقتصادي والمالي (لا الجغرافي السياسي)⁽⁷³⁾. ومع هذا، فدلالته كانت تكمن في تأثيره على المشككين البريطانيين في الدوافع والأهداف الألمانية تجاه الدولة العثمانية، على الرغم من أن المحاولات البريطانية الرامية إلى إبعاد الباب العالي عن التأثير الألماني كانت ضعيفة بينة الضعف ولم تفلح.

كما تجلّى النفوذ الألماني في الدولة العثمانية أيضًا في صور أخرى أقل بروزًا، وإن كان يقال إنها أكثر دلالة. فقد قام القيصر فلهم الثاني بزيارة إلى القسطنطينية في عام 1889، ثم مرة أخرى في عام 1898، حيث زار أيضًا بيت المقدس ودمشق وبيروت في مظاهر من الأبهة الشديدة. علاوة على ذلك، حى القيصر في كلمة

ألقاها في دمشق في نوفمبر 1898 السلطان العثماني عبد الحميد الثاني بصفته خليفة المسلمين في كل أنحاء العالم، في إساءة مباشرة للطوائف الإسلامية الواقعة تحت حكم الإمبراطوريات البريطانية والفرنسية والروسية في الهند ومصر وشمال أفريقيا والقوقاز وما وراءها⁽⁷⁴⁾. وفي ظل اعتماد السيطرة الاستعمارية البريطانية، على وجه الخصوص، على إسقاط القوة أكثر من اعتمادها على النشر الضخم لأدوات القهر، كانت أي محاولة لتقويض ركائز الحكم الإمبراطوري المتآزرة تشكّل تحديات خطيرة للمصالح البريطانية. وبلغ هذا التهديد ذروته في نهاية المطاف في إقامة حلف بين الدولة العثمانية وألمانيا في 2 أغسطس 1914، مع انضمام إمبراطورية النمسا والمجر إليهما بعد ذلك بثلاثة أيام، وإعلان الباب العالي الجهاد الإسلامي في 14 نوفمبر 1914، حيث حضّ المسلمين في كل أنحاء العالم على قتال بريطانيا وفرنسا وحلفائهما⁽⁷⁵⁾.

ظهور الهويات الوطنية بحلول 1914

لم يحدث إسقاط السيطرة الأوروبية وتشيديها على أجزاء كبيرة من الشرق الأوسط في جو من الفراغ، بل حدث ذلك جنباً إلى جنب مع تيارات فكرية قوية بدأت تعيد صياغة مفاهيم الانتماء وتصبها في قوالب هويات وطنية وليدة. ونشأت هذه التيارات نشأة متزامنة واعتمدت كل واحدة منها في بقائها على الأخرى في عملية تفاعل جدلية بين أفكار ومثُل متعارضة وواقع السلطة الخارجية المتكشف للعيان. وقد وثّق سي. إيه. بايلي كيف كان بزوغ المشاعر الوطنية ظاهرة عالمية لا منتجاً صدرته أوروبا، وأن أواصر القومية بدأت تظهر بشكل متزامن في أواخر القرن التاسع عشر في أجزاء كبيرة من آسيا وأفريقيا والأمريكتين. وهذا يعكس، في جزء منه، ما يسميه «مفارقة العولمة» حيث أسفر ترسيخ حدود «الدول الأمم» والإمبراطوريات بعد عام 1860 عن طرق جديدة للتنظيم الاجتماعي والاتصال اعتمدت في أغلب الأحوال على التاريخ والذكريات الوطنية لتتمتع بالجاذبية⁽⁷⁶⁾.

وكانت هناك عمليات عديدة تكمن وراء ظهور صور جديدة من الهوية، في

الشرق الأوسط وفي غيره من الأماكن. وتضمنت هذه العمليات نمو رأسمالية الطباعة وبروز طبقة جديدة من المثقفين، جزئيًا نتيجة المبادرات التعليمية الفرنسية في شمال أفريقيا و(بالأخص) في الشام. كما كان النشاط التبشيري الأمريكي أيضًا مهمًا في توسيع التعليم في الشام، وكان محورًا في إنشاء الكلية السورية البروتستانتية (صارت فيما بعد الجامعة الأمريكية في بيروت) في عام 1866. وبحلول سبعينات ذلك القرن، صارت اللغة الفرنسية لغة التجارة والنخب الحضرية، فيما صارت القاهرة وبيروت مركزين إقليميين للنشر، حيث تولت الصحف والدوريات نشر المعرفة الحديثة والأفكار الجديدة. وكانت النتيجة الطبيعية لهذا ظهور الصحافة السياسية وربط التوعية السياسية بالتنمية الاجتماعية، ولا سيما في مصر قبل الاحتلال البريطاني في عام 1882 وبعده على حد سواء⁽⁷⁷⁾.

وقد تزعمت طبقة المثقفين المتسعة والمطابع التي تطبع باللهجة العامية، بدورهما، انتشار وعي قومي عربي ونهضة فكرية. كانت هذه النهضة حركة واسعة اشتملت على مفكرين إسلاميين مجددين وأنصار هوية وطنية ضيقة في آن واحد. ومن بين الفئة الأولى، برز جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده بوصفهما «المجددين الإسلاميين» القياديين المنكبتين على إعادة تفسير الإسلام لجعله يتوافق مع الطرق الحديثة في تنظيم المجتمع والدولة مع بقائهما على إخلاصهما لدينهما⁽⁷⁸⁾. وكان لكتابتهما تأثير باق في العالم العربي، لكن بداية من أواخر القرن التاسع عشر بدأت أيضًا نزعات قومية أكثر خصوصية تطرح صورة مختلفة من التعبئة الاجتماعية السياسية. ففي مصر، أسفر التغلغل الغربي عن استجابة قوية تراوحت بين شعار تمرد عرابي سنة 1882 «مصر للمصريين» وبين الحنق المحلي الذي أثارته حادثة دنشواي في عام 1906 التي أذنت بنقطة التحول في المواقف المصرية تجاه الاحتلال العسكري البريطاني، وعلو نجم القومي المصري مصطفى كامل، مؤسس الحزب الوطني، قبل موته في عام 1909 بفترة وجيزة⁽⁷⁹⁾. وفي ليبيا المجاورة، لعب قومي مصري شاب يدعى عبد الرحمن عزام (صار فيما بعد أول أمين عام لجامعة الدول العربية فيما بين عامي 1945 و1952) دورًا مهمًا في صياغة المثل القومية

العربية ونشرها داخل صفوف المقاومة الليبية ضد الاحتلال الإيطالي، وهو الدور الذي تُوج في عام 1918 بإقامة الجمهورية الطرابلسية التي لم يكتب لها البقاء طويلاً⁽⁸⁰⁾.

ويبرهن مشوار عزام الطويل، وتحوله من قومي مصري إلى داعية طليعي لمثل الوحدة العربية، على سيولة مفاهيم الهوية المبكرة والانتماءات المتعددة. وكان صعود مشاعر الوحدة الإسلامية والمشاعر القومية العربية في أراضي الدولة في بعض الأوقات متوافقاً مع بقية ارتباط بالقومية العثمانية. وكما يوضح بايلي، استطاع القوميون المصريون أن يبقوا وطنيين عثمانيين على غرار كثيرين في مستعمرات بريطانيا البيضاء ممن ظلوا على ولائهم للصلة البريطانية حتى بعدما برزت هويات إقليمية متميزة في أستراليا ونيوزيلندا وكندا⁽⁸¹⁾. وفي هذا الصدد، خلق انهيار الدولة العثمانية في أعقاب خسارة كثير من طوائفها الأوروبية المسيحية، وما تلا ذلك من انكفاء حركة تركيا الفتاة على الذات بعد ثورة 1908، الظروف الملائمة لنمو فكرة أمة تركية ويسر ظهور استجابة قومية عربية في ولاياتها العربية. وقد غُيّر ظهور القومية التركية وميول الوحدة العربية المركز التقليدي للولاء السياسي في الدولة العثمانية تغييراً جذرياً، وذلك بطرق صارت بادية تمامًا في الصراعات الإقليمية أثناء الحرب العالمية الأولى وبُعِيدها مباشرة⁽⁸²⁾.

ويُبرز هذا، تحويل محور التركيز إلى المستوى الدقيق من المجتمع، مختلف الأساليب والاختيارات التي استوعب بها الأفراد والمجتمعات المحلية وشكلوا عمليات التغيير الكبرى المبنية فيما سبق. وقد ركزت الأدبيات الحديثة على دور المسؤولين الغربيين، وخصوصًا البريطانيين والأمريكيين، في تقرير شكل المنطقة على نحو ما نراه اليوم. فركز أحد هذه الكتب، وهو الذي نُشر في عام 2008 تحت عنوان مستفز: «صناع الملوك: اختراع الشرق الأوسط» - *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East*، تركيزاً حصرياً على عشر شخصيات بريطانية وثلاث أمريكية «كانوا محوريين في بناء الأمم وتحديد الحدود واختيار الحكام المحليين أو المساعدة على

اختيارهم». وتضمنت القائمة شخصيات مألوفة، مثل تي. إي. لورنس، وغيرترود بل، والسير مارك سايكس، بالإضافة إلى الشخصيتين المتأخرتين كيرميت روزفلت وبول وولفويتز⁽⁸³⁾. وقد لعب هؤلاء المسؤولون أدوارًا مهمة في إنشاء الدول الاستعمارية والهيكل ما بعد الاستعمارية التي ما زال صداها يدوي إلى يومنا هذا. ومع ذلك، يجب ألا يحجب عنا هؤلاء الدور المهم بالقدر نفسه الذي لعبه الوكلاء المحليون في تشكيل الواقع على الأرض، بعيدًا غالبًا عن أنظار «العقلية الرسمية» للإمبراطورية.

أتاح تقلب التنافسات بين القوى العظمى للزعماء المحليين درجة من المناورة في استغلال هذه الشواغل المتعلقة بتوازن القوى لصالحهم الشخصي، على الرغم من أن معظم القرارات المهمة التي كانت تؤثر على السياسة المحلية والاقتصاد المحلي والمجتمع في الشرق الأوسط ظل يُتخذ بمعرفة أطراف فاعلة استعمارية خارجية. ومع ذلك، فداخل هذا الإطار العام كانت توجد فرص للوكلاء المحليين ليكون لهم تأثير، وخصوصًا في المناطق الواقعة على أطراف الإمبراطورية كما في شبه الجزيرة العربية، حيث أظهر العديد من الحكام الشيوخ براعة كبيرة في استغلال المخاوف العثمانية والبريطانية من وجود الآخر. وقد مورست هذه السياسة الواقعية البراغماتية كأنجح ما يكون على يد حكام الكويت (الشيخ مبارك الصباح، 1896 - 1915) وقطر (الشيخ جاسم آل ثاني، 1878 - 1913)، فضلًا عن عبد العزيز بن سعود في فتحه التدريجي لوسط شبه الجزيرة العربية بعد عام 1902⁽⁸⁴⁾. وهنا لعب استدعاء الدعم الخارجي (البريطاني)، مدفوعًا جزئيًا باندلاع الحرب والرغبة في الحصول على حليف محلي في الحرب ضد العثمانيين في عام 1915، دورًا حاسمًا في تمكين التوسع السعودي على حساب سلالة آل رشيد المنافسة التي أيدت العثمانيين⁽⁸⁵⁾.

وإلى الشمال مباشرة من شبه الجزيرة العربية، وتحديدًا في البصرة في عام 1913، قاد أحد الأعيان المحليين الأقوياء، وهو السيد طالب النقيب، حركة سعت إلى حشد الدعم الشعبي من أجل المزيد من الاستقلال الذاتي عن الحكم العثماني واستبقاء جميع الضرائب التي تجمع من الولاية للاستخدام المحلي. وقد فصل نائب

القنصل الأمريكي في بغداد مدى ما كان يتمتع به السيد طالب، الذي كان ينتمي إلى أهم عائلة في البصرة، من نفوذ وحرية في التصرف، حيث نوّه قائلاً:

ما زال السيد طالب... يمارس سلطة يكاد لا ينازعه فيها أحد على تلك المناطق، وأما السلطات الحكومية العثمانية الرسمية فهي عملياً بلا نفوذ ومحكوم عليها بالخمول المطلق والمخزي بالنظر إلى مكانته الشخصية المترفعة...

ولكن حدثت في مارس 1914 مصالحة جزئية بين السيد طالب ووالي البصرة العثماني إلى درجة أنه بحلول يوليو من ذلك العام استطاع السيد طالب إقناع السلطات العثمانية في البصرة بحمل السلاح بالنيابة عنه ضد أكبر منافس محلي له، وهم شيوخ اتحاد قبائل وعشائر المنتفِق⁽⁸⁶⁾. وأنبأت الطبيعة العابرة لائتلاف السيد طالب مع أطراف فاعلة خارجية (فيما بعد بريطانية، لكن مؤقتاً) بسيولة التحالفات القبلية التي خرجت إلى النور ما إن اندلعت الأعمال العدائية في نوفمبر 1914. فأنشاء الحرب، أبدى زعماء العشائر في بلاد الرافدين حساسية فائقة تجاه التغيرات في علاقات القوة المحلية ومصدر النفوذ الاقتصادي والسياسي، وغالباً ما كانوا يبدلون ولاءاتهم مع تغير ظروف الجانبين في المعركة⁽⁸⁷⁾. فكانت اعتبارات المكاسب الشخصية والقبلية، لا الإحاطة بوعي سياسي قومي، في البداية أعظم دلالة في تشكيل ما يتقرر من اختيارات. وإن كان هذا الوضع قد بدأ يتغير بعد عام 1917 مع ظهور خطاب قومي في الاستجابة للأحداث الخارجية، وتحديداً إعلان بريطانيا عن نيتها البقاء في بلاد الرافدين وإعلان الرئيس الأمريكي وودرو ولسون عن «النقاط الأربعة عشرة» في يناير 1918 التي تضمنت مبدأ حق تقرير المصير الوطني⁽⁸⁸⁾.

وقد اتخذت المواءمات المحلية صوراً مختلفة في أماكن أخرى، وتحديداً في المناطق التي كانت السلطة المركزية فيها أشد استحكاماً، حيث أذعن الساسة المصريون لإعلان عسكري أصدرته بريطانيا في نوفمبر 1914 تعهدت فيه بالآيشارك مصري في الدفاع عن مصر، وقدموا دعمًا تعاونيًا في أعقاب إعلان لندن الحماية على مصر في ديسمبر. لكن هذه القرارات أحدثت تحولاً في العلاقة السياسية الإنجليزية

المصرية، وبثت بذور المرارة والقلق التي تحولت إلى عنف في عام 1919. وكانت بنود الحماية على مصر والإعلان العسكري مبهمة وعرضة لسوء التفسير من جانب الجالية البريطانية في مصر التي رحبت بهذه التدابير، والمصريين الذين اعتبروها تدابير طارئة اتخذت في زمن الحرب في انتظار التسوية النهائية لوضع مصر المستقبلي. والحقيقة أن بيرسيغال إلغود، الذي خدم في وزارات الحربية والداخلية والمالية أثناء مشواره المهني الطويل في مصر، نوّه فيما بعد (في عشرينات القرن العشرين) إلى أن الحماية «كانت تلمح إلى الكثير وتعد بالقليل»، وأن الإعلان العسكري «ما كان ينبغي إصداره قط» بما أنه «لم تكن هناك استخبارات بشرية في نوفمبر 1914 يمكنها أن تتنبأ بتطور الحرب، أو بما إذا كانت المساعدة المصرية ستصير ضرورية لنجاح العمليات العسكرية»⁽⁸⁹⁾.

ولا شك أن القوميين في لبنان وسوريا قد اعتمدوا على تطورات القرن التاسع عشر الثقافية والتعليمية لخلق مشهد أدبي وسياسي نابض بالحياة أثناء السنوات الأخيرة من الحكم العثماني. وكان كثير منهم سبق أن شارك في أول مؤتمر عربي عُقد في باريس في يونيو 1913 وتبنى قرارات تطالب بمزيد من الاستقلال الذاتي داخل الدولة العثمانية، وكذلك بجعل اللغة العربية لغة رسمية في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية. وقد شكّل هؤلاء طليعة حركة قومية عربية وليدة تسعى إلى إقامة سوريا كبرى في المنطقة التي تضم الآن سوريا ولبنان. وفي أعقاب اكتشاف خطط هؤلاء الناشطين في وثائق صودرت من القنصليتين الفرنسيتين في بيروت ودمشق، سُنقت مجموعتان كبيرتان منهم في المدينتين في أغسطس 1915 ومايو 1916. وإلى يومنا هذا، يُحتفى بذكرى واقعتي شنقهم بعطلة رسمية (عيد الشهداء الموافق 6 مايو) وبتسمية الساحتين اللتين نُفذ فيهما الإعدام في كلتا المدينتين باسم ساحة الشهداء⁽⁹⁰⁾.

الشرق الأوسط على شفير الحرب

لم تتورط الدولة العثمانية فوراً في الحرب الأوروبية في أعقاب اندلاع الصراع

في أغسطس 1914، غير أن ما حدث فعلاً أنها أبرمت تحالفاً ملزماً مع ألمانيا يوم 2 أغسطس، وهو اليوم التالي لغزو ألمانيا روسيا واليوم السابق لإعلانها الحرب على فرنسا. ونتجت هذه الاتفاقية إلى حد كبير عن ضغوط نمساوية لربط الباب العالي في الحلف الثلاثي من أجل السيطرة على الطموحات العثمانية في دول البلقان. وعلى الرغم من تأييد أغلبية من أعضاء الحكومة العثمانية البقاء على الحياد في البداية، تمكنت الدكتاتورية الثلاثية المؤلفة من الصدر الأعظم سعيد حليم باشا ووزير الداخلية طلعت بك ووزير الحربية أنور باشا من إقناع الحكومة بتأييد التحالف مع ألمانيا بحجة أن هذا يتيح بعض الحماية من التهديد الروسي وإمكانية كسب أراض جديدة في شمال أفريقيا والقوقاز. وسرعان ما تلا هذا القرار تولي ألمانيا السيطرة على البحرية العثمانية في 15 أغسطس⁽⁹¹⁾.

وعلى الرغم من أن الباب العالي لم يدخل الحرب الأوروبية حتى أواخر أكتوبر، فإن العلاقات مع دول الوفاق الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وروسيا) ساءت بسرعة بعد منح الطرادين الألمانيّين «غوبين» و«بريسلاو» ملاذاً في القسطنطينية من السفن البريطانية التي كانت تطاردهما في البحر المتوسط. وتأجج العداء بين العثمانيين وبريطانيا أكثر بفعل قرار من القوات البحرية البريطانية بالاستيلاء على بارجتين كانتا قيد الإنشاء لصالح البحرية العثمانية في ساحتي سفن بريطانيتين. وفي 1 أكتوبر تورط العثمانيون أكثر في الصراع الذي لم يكن معلناً بعد حتى ذلك الحين بإغلاقهم مضيق الدردنيل أمام الملاحة التجارية البريطانية والإمبراطورية، فقصوا بذلك على نصف تجارة الصادرات الروسية كاملة. وكان الباعث على إعلان الحرب شن العثمانيين ضربات بحرية استباقية ضد مينائي أوديسا وسيفاستوبول الروسيين على البحر الأسود في 29 أكتوبر. فأعلنت روسيا الحرب على الدولة العثمانية في 2 نوفمبر، تلتها بريطانيا وفرنسا في 5 من الشهر ذاته، لتعلن الدولة العثمانية الجهاد في 14 نوفمبر⁽⁹²⁾.

وسوف نتناول مسار الحملات العسكرية في الشرق الأوسط باستفاضة في

الفصول التالية. لكننا نود أن نؤكد هنا أن تغيّر الحظوظ العسكرية للأطراف المتقاتلة خلق فرصاً لإعادة صياغة الحدود السياسية ومجالات النفوذ التجاري. فعادت روسيا دخول الشرق الأوسط حيث كان معظم النشاط العسكري الهجومي العثماني في اتجاهي الشمال والشرق مدفوعاً بمشاعر «الوحدة الطورانية» لدى أتباع تركيا الفتاة ورغبة في تحقيق مكاسب في جنوب القوقاز. وعلى الرغم من أن تركيز معظم التاريخات العسكرية المكتوبة باللغة الإنجليزية للحملات الإقليمية اتجه نحو القتال في غاليبولي وبلاد الرافدين وفلسطين، فإن الآلة العسكرية العثمانية استنزفت إلى حد كبير على الجبهة الروسية⁽⁹³⁾. وقد أبرز هذا الإنهاك تجدد الأطماع التوسعية في القوقاز في أعقاب خروج روسيا من الحرب في 1917، مما أضعف بشدة مقاومة العثمانيين للتحركات البريطانية (والفرنسية) السريعة عبر بلاد الرافدين والشام في عام 1918⁽⁹⁴⁾.

علاوة على ذلك، عَقِدَت طبيعة المتحاربين الإمبرياليين متعددة الجنسيات سير الحملات، وهيأت السياق للمذابح وعمليات التشريد القسري لطوائف بأكملها في السنوات التي تلت ذلك. وتجلّى هذا واضحاً بصورة خاصة في المسرح الروسي العثماني، حيث كان المسلمون يشكّلون أكبر أقلية في روسيا والمسيحيون أكبر أقلية في الدولة العثمانية، وكانت هذه «الصورة المقلوبة» السبب في معاناة لا حد لها وفي سهولة التضحية بمن لا ذنب لهم على كلا جانبي القاسم الإمبريالي-الديني. كما اصطبغ التجنيد في كلا الجيشين الروسي والعثماني قُبيل الحرب وأثناءها بصبغة هذا المشهد الإثني، حيث ظل غير المسلمين في الدولة العثمانية مستثنين من الخدمة في القوات المسلحة طوال فترة تحديث هياكل الحكم (والهياكل العسكرية) في القرن التاسع عشر، ولم يتغير هذا الوضع إلا بعد وصول اتحاد «تركيا الفتاة» إلى الحكم وبدء إصلاح شامل للقوات المسلحة بتقليل الإعفاءات من أجل توسيع قاعدة التجنيد، وبالتالي عُدِلَ قانون الخدمة العسكرية الإلزامية في يوليو 1909، حيث وُسِعَ التجنيد ليشمل طلاب الكليات الدينية فضلاً عن اليهود والنصارى، فوافق زعماء الطوائف اليونانية والبلغارية والسورية والأرمنية على ذلك من حيث المبدأ لكن

جادلوا بضرورة أن يخدم أبناء طوائفهم في وحدات منفصلة، وفي حالة البلغاريين أن يتم نشرهم في الولايات العثمانية الأوروبية خاصة. ولما عارض القادة العسكريون العثمانيون هذا المقترح، تدبّر الشباب النصارى من الذكور الحصول على جوازات سفر أجنبية أو هاجروا لتفادي الخدمة العسكرية، وأما أبناء الطوائف المشكوك في «ولائها» (اليونانيون والأرمن في المقام الأول) فقد وُجهوا إلى وحدات الأيدي العاملة⁽⁹⁵⁾. وكان الجيش الروسي أيضًا متعدد الإثنيات يقوم على التجنيد الإلزامي بالجملة، وكان «مشهورًا بانعدام كفاءته وبافتقاره إلى سلك احترافي من ضباط الصف». كما كان أغلبية جنود الجيش الروسي، على نحو أشبه بالجنود العثمانيين، فلاحين جُندوا من القرى المتناثرة في عموم الإمبراطورية، ولم يكن كثير منهم يتحدث بالروسية أو لا يتحدث بها إلا قليلًا⁽⁹⁶⁾.

وبداية من عام 1914، اجتمع انتهاء عمليات الاستعمار الكبرى والتنافس على النفوذ الإقليمي لصياغة معلمات الحملات العسكرية التي تلت ذلك. فخلقت مسارات ما قبل الحرب التي سارت فيها الإمبريالية الرسمية وغير الرسمية وأنماط التغلغل الخارجي نماذج تنظيم سياسي متميزة أثرت على إدارة الحملات في أول الأمر وطرق التعبئة. واختلفت هذه المسارات اختلافًا كبيرًا بين المستعمرات البريطانية والفرنسية والعثمانية، لكن في الفئات الثلاثة جميعها شهدت سنوات الحرب توسعًا غير مسبوق في عرض سيطرة الدولة وعمقها وشحذ مؤسساتها الاستخراجية. وقد نوه ستيفن هايدمان إلى الكيفية التي أعاد بها التعرض لحرب واسعة النطاق والمشاركة فيها تهيئة الهياكل المؤسسية وقدرات الدولة مع تأثيره في الوقت نفسه تأثيرًا عميقًا على العلاقات بين الدولة والمجتمع وأساليب الحكم⁽⁹⁷⁾. وتبحث الفصول المتبقية من هذا الكتاب الأبعاد المتعددة للصراعات في الشرق الأوسط أثناء الحرب، ونستهلها بدراسة الحملات ذاتها دراسة مفصلة.

الفصل الثاني

الحملات العسكرية في الشرق الأوسط

كانت الحرب العالمية الأولى صراعًا عالميًا، إذ سرعان ما تدوّل القتال الذي اشتعل فتيله في جنوب شرقي أوروبا في نهاية يوليو 1914 وانتشر إلى ربوع الكرة الأرضية كافة، حتى جُرّت شبكات الاتفاقيات العسكرية والدبلوماسية أرجل قوى إقليمية غير أوروبية مثل اليابان (بعد أبريل 1917) والولايات المتحدة. وفي هذه الأثناء، صارت المستعمرات الإمبراطورية التابعة للمتحاربين الأوروبيين مناطق صراع كبير ومواقع تنافس على السيطرة على الموارد الاستراتيجية والوصول إلى الطرق في كل أرجاء المعمورة. وعلى الرغم من أن الحملات التي جُرّدت خارج أوروبا كانت أصغر في حجمها من الهجمات الهائلة على الجبهتين الغربية والشرقية، فإنه كان لها، مع ذلك، تأثير عظيم على المجتمعات المضيفة ذات الصلة بهذه الحملات، وحدث هذا فيما تصادمت المطالب اللوجستية للحرب ذات الطابع الصناعي مع الأرض التي يغلب عليها الطابع ما قبل الصناعي والتي دارت عليها رحى القتال.

ويبين هذا الفصل بعض المعالم السياقية التي أثّرت على الحملات العسكرية التي جُرّدت في الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى، وهو يقودنا إلى الباب التالي المؤلف من أربعة فصول تقدّم سرّدًا مفصّلًا للحملات العسكرية التي جُرّدت في الشرق الأوسط، بما في ذلك في الدردنيل ومصر وفلسطين وبلاد الرافدين، بالإضافة إلى سلسلة من المعارك بين الجيشين العثماني والروسي في القوقاز، وقتال على نطاق أصغر، لكن في الوقت نفسه مهم في بلاد فارس. فقد تواصلت الحملات العسكرية على هذه المسارح المتنوعة طوال مدة الحرب، بل واستمرت -نحو يوم واحد في بلاد الرافدين- إلى ما بعد إعلان الهدنة في نوفمبر 1918. وهو يتجاوز محور التركيز الضيق على التاريخ العسكري لكي يضع هذه الحملات في سياقها في

المسار الأوسع للحرب العالمية الأولى واتجاهها الاستراتيجي، ويدمجها في عمليات التغيير السياسي والتحول الاقتصادي والجيشان الاجتماعي التي أصابت المتحاربين كلهم بطرق مختلفة.

وينصب التركيز في هذا الفصل الذي يتناول سياق الحرب على العدد الهائل من التحديات اللوجستية والإدارية والإيكولوجية التي واجهت الحملات العسكرية في الشرق الأوسط الذي كان يتحتم الإتيان بغالبية الموارد إليه ونقلها باستخدام أيد عاملة بشرية عبر مسافات طويلة تخلو عادة من وسائل النقل أو البنية التحتية للطرق. وهو يقودنا إلى الباب الثاني من هذا الكتاب الذي يشتمل على أربعة فصول تخطط مسار الحملات بالتفصيل وتبين أثر الحرب الحديثة شبه التام على المجتمعات المضيفة والمجتمعات المحلية. وهي في مجموعها تهين الساحة لفصول الباب الثالث التي تستقصي المضامين السياسية والاقتصادية والمجتمعية المحلية فضلاً عن تأثير الحملات على المجتمعات المضيفة. علاوة على ذلك، يصف هذا الفصل أيضاً كيف صار دور الهند جزءاً أصيلاً من حملات الشرق الأوسط باعتبارها المركز الإداري واللوجستي للمجهود الحربي البريطاني في الشرق الأوسط، مما مهد الطريق أمام الراج لتصبح الضامن الأمني للمنطقة بعد عام 1919.

عادة ما تُبحث الحملات العسكرية التي جُردت في الشرق الأوسط كل واحدة على حده بمعزل عن دراسات المناطق والتخصصات العلمية من قبيل السياسة المقارنة أو العلاقات الدولية، رغم أن القتال اشتمل على كميات هائلة من القوة البشرية وقوة الدواب على كلا الجانبين، وشوّه أنماط التنظيم السياسي والنشاط الاجتماعي والاقتصادي القائمة أشد التشويه. وقد تصادف أن وقعت كل تلك الحملات -باستثناء حملة فلسطين- في المناطق الواقعة جغرافياً على أطراف الدولة العثمانية حيث كانت البنية التحتية للنقل والطرق في أضعف حالاتها، مما وضع أعباء إضافية كبيرة على كل المشاركين في الحرب وعلى المجتمعات التي دارت رحى تلك المعارك للاستيلاء عليها لتنظيم واستخراج الموارد اللازمة لشن الحرب واستدامتها.

كما كانت لنتائج هذه الحملات أيضًا تداعيات جغرافية سياسية عميقة على الإمبراطوريات الخمسة الضالعة فيها وعلى النظام الإقليمي الذي خرج من رحم تسوية ما بعد الحرب. وعلى الرغم من هذا فإن الأدبيات الحالية تفتقر إلى تأريخ عام للشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى يؤكد على التشابكات العديدة - العسكرية منها واللوجستية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وغيرها من الروابط الفكرية الأخرى الأقرب إلى غير الملموسة منها إلى الملموسة - التي ربطت مختلف مناطق القتال بعضها مع بعض (ومن الأمثلة المتطرفة على هذا الأمر ذلك التأريخ القصير للحرب العالمية الأولى الذي نُشر ضمن سلسلة دراسات سيمينارية في التاريخ *Seminar Studies in History* والذي يهدف إلى توفير «مقدمة مختصرة موثوقة لأحداث ونقاشات معقدة»، فقد تجاهلت فيه الحملات التي جردت خارج أوروبا بالكلية، وكانت الصفحات الثلاثة التي تتناول غاليلولي هي الإشارة الوحيدة التي تضمّنها العمل إلى اندلاع قتال من أي نوع فيما وراء الجبهات الأوروبية⁽¹⁾.

وبالتالي يركّز وصف الحملات العسكرية الوارد في هذا الفصل على العاملين الإداري واللوجستي الحاسمين لمحصلتها، ويركّز بالقدر نفسه على تطور الاستراتيجية والتكتيكات. وهو يبحث الروابط بين الحملات العسكرية التي جُردت في الشرق الأوسط والتطورات الاستراتيجية الأوسع، ويقيم إلى أي مدى كانت هذه الحملات محورية (أو هامشية) لواضعي السياسات في عواصم الإمبراطوريات. فقد أجهدت تلبية متطلبات الحملات العسكرية اللوجستية قدرات الشحن الضئيلة أشد الإجهاد، فتطورت شبكة من مصادر إمداد من خارج أوروبا لتلبيتها. ولم تقلّ عن ذلك أهمية أبعاد الصراع الإيكولوجية، ولا سيما في التضاريس القاسية التي جرى فوقها معظم القتال. وهنا نجد أن غياب الطرق أو السكك الحديدية نسيبًا عظم مصاعب إمداد القوات العسكرية وتموينها ونقلها واستدامتها، وأبرزّ التحديات التي تواجه تعبئة الموارد المحلية واستخراجها من مجتمعات مضيقة كانت مفقّرة من قبل.

بالإضافة إلى ذلك، تقاطع تعرّض المجتمعات للحملات العسكرية التي جُردت في

الشرق الأوسط ومشاركتها فيها مع قوى خارجية قوية، وهي ضعف الإمبراطوريتين العثمانية والروسية واحتدام التنافس بين الرؤى المتضاربة حول التنظيم المستقبلي للمنطقة لدى البريطانيين والفرنسيين والقوميين المحليين. وفيما تفاعلت عمليات التغيير هذه مع بعضها بعضاً، خلقت المعلمات الكبرى التي أعادت في النهاية صياغة هيكل الشرق الأوسط السياسي. علاوة على ذلك، فإن معالم ضرورات التعبئة زمن الحرب عمقت انتشار الدولة ومطالبها الاستخراجية ووسعتهما. وحقيقة أن الدول ذات الصلة كانت في الدرجة الأولى من زرع الاستعمار أضافت طبقة معقدة أخرى إلى تأثير الحرب على المجتمع. ومع أننا نتناول هذا بتفصيل أكبر في الفصول اللاحقة، كان لا بد أن نضعه في اعتبارنا عند النظر في تأثير الحملات العسكرية وما تركته من إرث.

يبحث هذا الفصل، وهو الذي يستهل بنظرة عامة على الصعوبات المادية واللوجستية التي واجهت الحملات العسكرية على المسارح المختلفة في الشرق الأوسط، التحديات التي تواجه شن عمليات عسكرية معقدة في بيئة مضيضة غير ودودة. وتركز المباحث الفردية في هذا الفصل على جوانب الحرب الإيكولوجية، وبُعديها اللوجستي والإداري، والعبء الذي أثقلت به كاهل الموارد المحلية المتمثلة في القوة البشرية والدواب. وينتهي الفصل بمبحث يفصل دور الهند في العمل كقاعدة تنظيمية وقاعدة موارد للغزوتين العسكريتين البريطانيتين الكبيرتين لبلاد الرافدين وفلسطين، مما يهيئ السياق للفضل التالي الذي يستقصي كل صراع على حده في الشرق الأوسط أثناء الحرب: القوقاز، ومصر والصحراء الغربية، ومضيق الدردنيل، وفلسطين، وبلاد الرافدين، وبلاد فارس. ومن واقع التحليل السالف يبرز لنا عدد من الموضوعات الجامعة، ومنها أهمية الاستفادة من الموارد المحلية لرفع القيود على الإمداد والتموين التي يشكلها القصور في إمكانيات الشحن، وإنشاء صور أكثر سلطوية من سيطرة الدولة اللازمة لتعبئة هذه الموارد واستخراجها، والطرق التي بدأت تعيد بها تجربة الصراع صياغة العلاقات بين الدول والمجتمعات في عموم المنطقة.

تحديات الحملات في الشرق الأوسط

تعدّ شن الحرب على مسارح الشرق الأوسط بفعل الكثير من التحديات التي كان أبرزها الفجوة بين شراة الطلب من جانب الجيوش الحديثة وتدني مستويات الموارد القائمة المتاحة للمخططين العسكريين بل والمدنيين. وترتبت على هذا، في المراحل الأولى من الحملات العسكرية، ضرورة جلب المؤن والإمدادات كافة من الخارج بما أنه لم يكن هناك إلا القليل جدًّا مما يمكن الحصول عليه محليًّا⁽²⁾. كما ترتبت عليه أيضًا الحاجة إلى إقامة توازن مضطرب بين الطلب المدني والعسكري على الموارد المحلية الشحيحة، وخصوصًا لأن تقسيم الشرق الأوسط إلى مناطق حرب تسبب في قطع طرق التجارة وتعطيل المناطق الاقتصادية الداخلية القائمة. وقد عظمت هذه العوامل بشدّة العبء الواقع على الشبكات اللوجستية التي كانت تربط الوحدات العسكرية بمستودعات قواعدها، وغالبًا ما كان ذلك يتم عبر خطوط مواصلات عُرضة للخطر تمتد لمسافات مئات الأميال. كما ازداد هذا العبء أيضًا بفعل الندرة النسبية في الطرق والسكك الحديدية في الشرق الأوسط، وتركز موارد الدولة العثمانية الصناعية المحدودة في الآستانة ومحيطها، أي على بُعد مئات الكيلومترات من جبهات القتال في شرقها وجنوب شرقها. وهناك قيود مماثلة واجهت الجيشين الروسي والبريطاني العاملين بعيدًا عن قواعدهما اللوجستية التي كانت في حالة الجيش الأخير موجودة على بعد أكثر من 2500 كيلومتر في الهند ريثما أمكن تحقيق استغلال كبير للموارد المحلية في المناطق التي وقعت تحت الاحتلال في فلسطين وبلاد الرافدين⁽³⁾.

وبالتأكيد على بُعدي الصراع اللوجستي والعملياتي المتشابكين يتسنى إدراك تكرارية انهيار هذه الحلقة الحاسمة من السلسلة. وقد ضمّن رئيس الوزراء البريطاني إبان الحرب ديفيد لويد جورج كتابه «مذكرات الحرب» *War Memoirs* وصفًا نابضًا بالحياة للأسلوب الذي قدّم به دوغلاس هايغ، قائد قوة الحملة البريطانية على الجبهة الغربية بين عامي 1915 و1918، إحاطة بمستجدات خطط مهاجمة الألمان في

إبير البلجيكية إلى اجتماع عقدته لجنة سياسات الحرب في يونيو 1917، والذي جاء فيه: «مستخدماً يديه بطريقة مسرحية ليبيّن كيف اقترح اكتساح العدو، إذ مرت اليد اليمنى في البداية مروراً جارفاً على السطح، ثم جاءت اليسرى، حيث مس إصبعه الخارجي في نهاية المطاف الحدود الألمانية فيما كان ظفره على الناحية الأخرى من هذه الحدود»⁽⁴⁾. وعلى الرغم من تنميق هذا الوصف بأثر رجعي ليتناسب مع أهداف لويد جورج خدمةً لمصالحه المكتسبة، فإن الوصف يوضح فعلاً ميل الساسة والجنرالات إلى الاستهانة بالتحديات التي على الأرض وواقع الحملات العسكرية، أو فعل ما هو أسوأ بتجاهلها، ولا سيما في تضاريس الشرق الأوسط الأشد صعوبة وتبايناً. كما واجه المخططون المدنيون والعسكريون بالإضافة إلى ذلك منحنى تعلم حاداً في خضم كفاحهم لتكييف المتطلبات الجديدة، وغير المألوفة غالباً، للحرب واسعة النطاق مع الظروف الخاصة التي أحاطت بالحملات الشرق أوسطية.

المناخ والإيكولوجيا

لعبت العوامل المناخية والإيكولوجية دوراً حاسماً في تقرير نجاح أو فشل العمليات العسكرية في الشرق الأوسط، حيث نتج عن تدني هامش الكفاف ومحدودية كمية البنية التحتية المادية كالطرق أو السكك الحديدية أو القدرة الصناعية أن صارت مرتبطة ارتباطاً تكافئياً بالقدرات اللوجستية والعملياتية. وعلى الرغم من هذا، كانت هذه العوامل تهمل بانتظام في تخطيط الحملات وتنفيذها، وكثيراً ما أُغفلت دلالتها في الدراسات التي أُعدت فيما بعد. وثمة مثال بارز على ذلك يعود إلى فترة مبكرة، وهو كتاب نشر في نوفمبر 1917 بعنوان «الطبوغرافيا والاستراتيجية في الحرب» *Topography and Strategy in War* يمضي فيه مؤلفه ليشرح «العلاقة المثيرة للاهتمام بين الطبيعة عديمة الحياة وعلم الحرب» حيث إن «الدور الذي لعبته أشكال الأرض في خطط الحملات وحركة الجيوش لا يقل أهمية اليوم عنه في الماضي». ومع ذلك، ركز الكتاب حصرياً على الجبهات الأوروبية متجاهلاً الشرق الأوسط والمسارح غير الأوروبية كافة تمام التجاهل⁽⁵⁾.

في القوقاز، جسدت المنطقة الواقعة حول ساريقاميش، وهي التي شهدت معظم القتال الأولي في 1914 - 1915، هذين التحديين الإيكولوجيين كما كانت أيضًا نموذجًا لعدم أخذ هذه التحديات بعين الاعتبار بشكل كاف عند تخطيط العمليات العسكرية. فقد كانت منطقة العمليات الواقعة طبوغرافيًا في واد محصور بين سلسلتي جبال شاهقتين نائية عن الطرق والسكك الحديدية وخطوط المواصلات الأخرى. زد على ذلك أنها كانت عُرضة لطقس شتوي شديدة القسوة، مع تساقط الجليد بغزارة وانخفاض درجات الحرارة إلى ما دون 30 درجة مئوية. ومع ذلك، اندلع قتال واسع النطاق بين الجيشين الروسي والعثماني في أواخر نوفمبر 1914 واستمر حتى مطلع يناير 1915، حيث عثرت القوات الروسية الزاحفة على 30 ألف جثة متجمدة في ساريقاميش وما حولها فقط خلال هذه الفترة. وينوه المؤرخ العسكري البريطاني الكبير للحرب العالمية الأولى، هيو ستراكان، مصيًّا إلى أن «عاملَي التضاريس والطقس والفشل في التخطيط لهما هما اللذان حطَّما الجيش الثالث التركي، لا قتال الروس»⁽⁶⁾.

وفي أماكن أخرى تجلت قضايا مماثلة بطرق مختلفة. ففي التضاريس التي تغلب عليها الصحراء في بلاد الرافدين ومصر، برزت الصعوبات المناخية في الدرجة الأولى من الحرارة المتطرفة لا من البرودة المتطرفة، على الرغم من أن برودة الأحوال الجوية إلى حد التجمد شكَّلت عقبة في تلال يهودا أثناء الزحف عبر فلسطين إلى القدس في ديسمبر 1917. وفي بلاد الرافدين، بدأ زحف القوات البريطانية والإمبراطورية من البصرة في اتجاه الشمال نحو بغداد في أبريل 1915 واستمر طوال قيظ الصيف. وبالمثل في مصر، فإن زحف القوات من قناة السويس صوب الشرق عبر شبه جزيرة سيناء إلى فلسطين في عام 1916 لم يبدأ بداية جادة إلا في يونيو مع حدوث مناوشة كبيرة مع القوات العثمانية في معركة رمانة في أغسطس. وقد تضمن خطاب مرسل إلى الديار من ضابط بريطاني في سلاح الهجانة المصري وصفًا نابضًا بالحياة لآثار مسيرة تمت أثناء حر النهار في سيناء في يوليو 1916: «غالبية الإنجليز والعشرات من السكان المحليين أصيبوا بضربة شمس ومات

كثيرون منهم، رجالٌ وإبلٌ على السواء... كان مشهَدًا يدعو إلى الرثاء، مرأى الناس والجمال يخرون فاقدى الوعي من العطش والحرارة والتعب، فيخرجون من التشكيل أو يمشون متناقلين على غير هدى»⁽⁷⁾. وفيما بعد، اتخذت هذه الصعاب شكلاً جديداً حيث فرضت الانتكاسات العملية في كلتا الحملتين مكان وزمان الحملات الأخرى لبعض الوقت. وكان هذا أشد وضوحاً في المحاولات الثلاث التي جرت بقيادة بريطانيا لتحرير حاميتها المحاصرة في كوت العمارة ببلاد الرافدين بين يناير وأبريل 1916.

وكانت المشكلات المتعلقة بطبيعة الأرض عامل تعقيد إضافياً في حملتي مصر وبلاد الرافدين بسبب الافتقار شبه التام إلى البنية التحتية في الصحراء. ففي مصر، أبعد الزحف عبر شبه جزيرة سيناء قوة الحملة المصرية عن قناة السويس وما يرتبط بها من خطوط مواصلات وخطوط إمداد. وشكَّلت التربة الصحراوية الرخوة الرملية تحدياً خاصاً حيث تبين في بادئ الأمر استحالة اجتيازها بالمركبات المدولبة ما لم تُركَّب كتل خشبية مخصصة في دواليبها⁽⁸⁾. فنتج عن هذا اعتماد كامل على النقل بالجمال لأغراض الإمداد والتموين والاحتفاظ بالمراكز المتقدمة في شبه جزيرة سيناء قبل الفراغ من إنشاء السكة الحديدية الصحراوية الممتدة من قاعدة القناة في القنطرة إلى بلدة العريش الحدودية في فبراير 1917. وقد امتد هذا الاعتماد على الإبل إلى إمدادات المياه حيث كانت مصادر المياه المحلية شبه منعدمة شرق ذلك الموقع عند قاطية على بعد 28 ميلاً فقط من قناة السويس، وغير كافية بالمرة لقوة كبيرة من أي نوع⁽⁹⁾.

على النقيض من ذلك، اتبع خط الزحف في بلاد الرافدين مساري نهري الفرات ودجلة اللذين أتاحا طريق التغلغل الوحيد للقوات الغازية التي تقودها بريطانيا. لكن العمليات المبكرة التي شنتها قوة حملة الرافدين قُيّدت بشدة بفعل قلة المعلومات المتاحة في الهند (القاعدة العملية والإدارية للحملة حتى عام 1916) حول حالة النهرين الهيدرولوجية والملاحية. حيث فوجئ المخططون البريطانيون

والهنود عندما تبينت لهم ضحالة الفرات إلى درجة تجعله غير صالح للملاحة أمام الزوارق العسكرية. وأما فيما يخص نهر دجلة فلم يدركوا إلا متأخرًا أن «أسلوب الملاحة ونوع القوارب المطلوبين فريدان من نوعهما تمامًا ويختلفان عن أي شيء مستخدم في المجاري المائية الداخلية في الهند»^(١٠).

لقد تقاطع المناخ وطبيعة الأرض في مناسبات عدة أثناء الحملات. فنهرا دجلة والفرات كانا يشهدان تفاوتات موسمية قوية في العمق وقوة التيار، فكان ذوبان الجليد في أعالي النهرين يتسبب في فيضانات واسعة في الربيع، لكن حرارة الصيف كانت تؤدي إلى انخفاض منسوب المياه في النهرين إلى ما بين 4 و5 أقدام فقط في الخريف، مما وضع قيودًا كبيرة على التحركات الاستراتيجية والتكتيكية والعملياتية طوال عام 1915 وأوائل عام 1916. وقد صوّر مسؤول بريطاني متمركز في البصرة حجم المشكلة تصويرًا نابضًا بالحياة في معرض وصفه كيف حوّل الفيضان السنوي في الربيع التربة الغرينية إلى «نوع شديد اللزوجة من الوحل... تعلق فيه السيارات والعربات التي تجرها الدواب بسرعة، وتنزلق فيه الخيل والإبل في كل اتجاه»^(١١).

وعلى العكس من ذلك حدث الزحف في اتجاه أعالي النهر صوب بغداد في عام 1915 بين شهري سبتمبر ونوفمبر، وذلك عندما كانت مياه دجلة في أدنى مستوياتها وأبعد ما تكون عن ملاءمة القوارب النهرية التي كانت توفر الخط اللوجستي الأولي إلى قواعد الإمداد والتموين الكائنة في البصرة. وفي أوائل عام 1916، لعبت الأحوال الجوية المعاكسة دورًا مباشرًا في العمليات الثلاثة التي شنت لفك حصار الحامية البريطانية الهندية في كوت العمارة، حيث أملت طبيعة الموقف العاجلة شن العمليات دونما اعتبار للظروف المناخية أو الإيكولوجية. وبالتالي جرت عمليات فك الحصار أثناء ذروة الفيضانات الربيعية، وواجهت المزيد من العراقيل بفعل الأمطار الغزيرة. وفي هذا السياق، كتب شاهد العيان البريطاني الرسمي على حملة بلاد الرافدين، وهو إدموند كاندلر، يقول إنه بعد فشل المحاولة الأولى التي جرت في يناير 1916 «هبّت رياح صرصر بينما رقد الجرحى في برك من الأمطار والمستنقعات

التي غمرتها مياه الفيضان طوال الليل، فغرق بعضهم ومات البعض الآخر نتيجة تعرضه لهذه الأجواء». وفيما بعد، وتحديداً في أبريل 1916، جرت المحاولة الثالثة في ظروف كانت فيها «المياه نظيفة في مواجهة جبهتنا وبعمق ست بوصات، بالإضافة إلى ست بوصات أخرى من الوحل... وكان خط الخنادق الثاني تغمره المياه حتى مستوى الركبة، ومن خلفنا كانت توجد شبكة من المخابئ والحفر التي كنا نغطس بعمق في مياهها»⁽¹²⁾.

وقد ارتكبت القوات البريطانية أخطاء أخرى في التقدير فيما يخص العاملين المناخي والإيكولوجي في فلسطين في عامي 1917 - 1918. وكان معنى إعادة التنظيم اللوجستي والإداري ألا يبدأ الزحف شمالاً من غزة نحو القدس قبل 31 أكتوبر 1917، وقد ترتب على ذلك التأخر أن عانى الجنود وأفراد الدعم ودواب النقل أشد المعاناة من الأمطار شديدة البرودة والأحوال الجوية الشتوية أثناء اجتيازهم تلال يهودا في شهري نوفمبر وديسمبر. وكاد الطقس المريع أن يعطل الزحف حيث صارت السكك الحديدية والطرق غير سالكة، وسقط كثير من الرجال والدواب ضحية التعرض للعوامل الجوية ولسعة الصقيع. وتفاقمت هذه الأوضاع بفعل افتقار الجنود والعمال إلى أغطية مناسبة أو ملابس شتوية ملائمة. وقد استغرب مراقب معاصر من أن وحدات العمل المصرية «لم تفر فراراً جماعياً إلى العدو لأن أوضاعهم في الأسر لدى الأتراك ما كانت لتصير أسوأ مما كانوا عليه فعلاً»⁽¹³⁾.

وفي غاليبولي، نتجت عن إخفاق المحاولة البحرية الإنجليزية الفرنسية الأولى لاختراق مضيق الدردنيل الضيق والمضيق في طريقها ظافرة نحو الآستانة ضرورة التحضير على عجل لهجوم بري. وفيما بين أبريل 1915 ويناير 1916، عملت مجموعة متناثرة من رؤوس الشواطئ المنعزلة كنقاط انطلاق للهجمات المتتالية التي شنتها القوات البريطانية والفيلق الأسترالي والنيوزيلندي ضد المواقع العثمانية على الأرض المرتفعة المشرفة على الشواطئ. وتألّف أحد مواقع الإنزال البري هذه (الشاطئ «إكس» عند رأس هيليس)، على سبيل المثال، من شريط من الرمل طوله 200 متر

وعرضه 10 أمتار. وبسبب الافتقار إلى خطوط مواصلات محمولة برًا وخطوط إمداد وتموين يدعم بعضها بعضًا، سرعان ما اكتظت رؤوس الشواطئ الصغيرة بأرصفة الموانئ والمخيمات والمستشفيات الميدانية المؤقتة والمقار المتقدمة المرتجلة ومستودعات الإمداد والتموين. علاوة على ذلك، فإن الأجراف شديدة الانحدار أتاحَت للعثمانيين موقعًا ممتازًا يصبون منه نيرانهم صباً على رؤوس الشواطئ من ثلاث جهات⁽¹⁴⁾. وقد كتب إيليس آشميد-بارتليت، المراسل الحربي المعروف بصراحته الذي كان ملحقًا بالحملة، فيما بعد يقول إنه «لم يسبق قط أن وجد جيش نفسه ملقى في موقع أكثر استحالة وأشد إثارة للسخرية، محاصرًا بالتلال من كل الجهات، ولا توجد لديه نقطة يمكنه من خلالها أن ينسلّ ليشن هجومًا إلا بتسلق هذه التلال»⁽¹⁵⁾. وبعد أن حُتِمت الضرورة شن هذه الحملة في هذه الأرض ذات الطبيعة القاسية، وبعد أن نال من أفرادها الإنهاك العسكري الذي أصاب القوات العثمانية بقدر ما أصاب القوات البريطانية والأسترالية والنيوزيلندية، انتهت الحملة بعاصفة رعدية عاتية في أواخر نوفمبر غمرت خنادق ومواقع كلا الجانبين بالمياه، وعاصفة ثلجية أوقعت الآلاف من المصابين نتيجة لسعة الصقيع والتعرُّض للعوامل الجوية. وقد لعبت ضراوة هذا الطقس الشتوي دورًا كبيرًا في فرض قضية الجلاء على عقول كبار القادة المدنيين والعسكريين البريطانيين، وأفضت إلى تنظيم انسحاب بالغ النجاح في ديسمبر 1915 ويناير 1916⁽¹⁶⁾.

ولم يكن شن حملات في أرض ذات طبيعة عدائية بالطبع حكرًا على مناطق القتال الشرق أوسطية. فالقتال الذي جرى في شرق أفريقيا فرض على المقاتلين وغير المقاتلين صعوبات مادية وطبية يقال إنها تجاوزت الصعوبات التي شهدتها أي مسرح آخر من مسارح الحرب⁽¹⁷⁾. وفي أوروبا، تعطينا الهجمات التي شنتها القوات البريطانية في الإقليم الفلامندي في خريف عام 1917 مثالًا أوضح ما يكون على التحديات الإيكولوجية والمناخية في القطاعات الأخرى. ومع ذلك، فإن القتال على الجبهة الغربية جرى في سياق بلدان صناعية، وقد يَسُرَّت هذه البنية التحتية القائمة الإنتاج الشامل للسلع ووفرت الآلات العسكرية ونقلتها حتى جبهة القتال، لكن بدلاً

من ذلك نجد أن هذه الجبهة هي المكان الذي بدأت تتصاعد فيه المشكلات. ففي الشرق الأوسط، نجد أن صعوبات شن حرب تتسم بالطابع الصناعي يلعب فيها النقل بمركبات ميكنة والمدفعية الثقيلة والطائرات أهمية متزايدة تدريجيًا عظمّت التعقيدات اللوجستية والإدارية أضعافًا مضاعفة، فعرقلت هذه التحديات السلسلة العملياتية وكبحت إمكانيات السرعة والمناورة التكتيكية التي تتيحها طبيعة الأرض التي كانت فيما عدا ذلك مفتوحة⁽¹⁸⁾.

اللوجستيات والإدارة

عظّمت التحديات سالفة الذكر التحديات اللوجستية التي كانت بالفعل هائلة والتي شكّلها نطاق الحرب الشاملة التي يغلب عليها الطابع الصناعي وتعقيدها. وأضافت مؤلفات جون لين ومارتن فان كريفلد تفصيلًا مهمًا إلى أبعاد الصراع ذي الطابع الصناعي اللوجستية، حيث استقصى لين التغييرات التكنولوجية السريعة التي جلبتها الثورة الصناعية في أوروبا وأمريكا الشمالية في القرن التاسع عشر، وجادل بأن هذه التغييرات أحدثت تحولًا في «كل من وسائل النقل والبند المستهلكة» و«أعادت تعريف اللوجستيات الحديثة» ومعها طبيعة الحرب الحديثة⁽¹⁹⁾. وفي الوقت نفسه، ذهب فان كريفلد إلى أن الحرب العالمية الأولى ثوّرت مفهوم اللوجستيات حيث حلّت السلع المنتجة آليًا محل الطعام والأعلاف باعتبارهما أهم بندين من بنود الاستهلاك، مما أسفر عن أوجه اعتماد جديدة على المصانع وخطوط الإمداد والتموين والنقل القائمة على السكك الحديدية والطرق البرية، مما ربط الجيوش بشبكاتها اللوجستية ربطًا فعليًا⁽²⁰⁾.

وهناك عوامل عديدة عَقَدت الصعوبات اللوجستية والإدارية التي واجهت الأطراف المتحاربة في مسارح الحرب في الشرق الأوسط وعظّمتها. فعلى صعيد «الموارد البشرية»، كانت الحملات التي جُرِدت في الشرق الأوسط ثانوية تمامًا مقارنةً بمحور تركيز الحرب الأساسي في أوروبا. وكان هذا يصدق على الدولة العثمانية -وهي التي لم تشكّل لها التطورات في فلسطين وبلاد الرافدين تهديدًا لنظامها الحاكم

كالتهديد الذي شكّله القتال في جنوب شرقي منطقة البلقان - مثلما كان يصدق على الفرنسيين والبريطانيين والروس. ولهذا السبب كان الأفراد العسكريون الذين أُرسِلوا إلى الشرق الأوسط في أحوال كثيرة أقل جودة من صفوة الموارد التي أُرسِلت إلى الجبهات الرئيسية. ففي عامي 1917 - 1918، على سبيل المثال، عمدت القيادة العليا العثمانية إلى حرمان جبهتي فلسطين والرافدين من الموارد، وأُولت اهتمامها لفرص التوسع الطوراني في القوقاز وبلاد فارس في أعقاب خروج روسيا من الحرب⁽²¹⁾. وقد امتد هذا الحرمان إلى غير المقاتلين والدعم الإداري أيضًا. وأما المسؤولون البريطانيون فرأوا من جانبهم أن قوة الحملة الهندية التي وصلت إلى البصرة في نوفمبر 1914 تشتمل على وحدات غير لائقة للخدمة في أوروبا، وأنها أيضًا مجردة من أي أشكال النقل البري⁽²²⁾.

وقد تعقدت هذه المشكلات بفعل القضايا الإيكولوجية والمناخية التي أتينا على ذكرها في المبحث السابق، حيث وضع شح الموارد المحلية في مستهل العمليات العسكرية عبئًا عظيمًا على الآلات اللوجستية لإمداد القوات العسكرية ونقلها، كالعبء العظيم الذي وضعته أيضًا أدوات الحرب ذات الطابع الصناعي التي زادت بشدة الطلب على كوادرات القوة البشرية والحيوانية المحلية، وقد تطلب الطعام والأعلاف في البداية إقامة خطوط مواصلات وإمداد. وبالإضافة إلى الغياب النسبي للطرق أو السكك الحديدية (وهو ما ترتب عليه في البداية لزوم جلب غالبية الإمدادات والمؤن من الخارج إلى مسرح الحرب)، أدى إنشاء شبكات نقل إلى زيادة شديدة في الطلب على الموارد المحلية حيث لزم أيضًا نقل مواد البناء يدويًا إلى وجهاتها عبر مسافات طويلة وتضاريس وعرة.

وثمة مثال على الصعوبات التي واجهت المقاتلين نراه في محاولات العثمانيين إمداد قواتهم العاملة في القوقاز وبلاد الرافدين بالمؤن، حيث كانت كلتا المنطقتين بعيدتين للغاية عن الآستانة ومركز الدولة العثمانية الصناعي. كما تفاقمَت وضعية هاتين المنطقتين الطرفيتين بفعل شبكة السكك الحديدية المتردية التي قلّما كانت

تمتد إلى ما وراء حدود تركيا الحديثة (مع اشتمالها على خطوط فرعية ممتدة إلى دمشق وشمال فلسطين، وسكة حديد الحجاز الشهيرة الممتدة إلى المدينة وكانت من النوع الضيق). فكانت نتيجة هذا أن كان الجنود العثمانيون الذين يحاربون الجيوش البريطانية والهندية في بلاد الرافدين والجيش الروسي في القوقاز منفصلين بمسافة تصل إلى 400 ميل من الصحراء (في الحالة الأولى) والجبال (في الحالة الثانية) عن أقرب نهاية خط سكك حديدية إليهم. فاعتمدت القوات العثمانية بالتالي -كما كان الحال مع المتحاربين الآخرين في الشرق الأوسط- على القوة البشرية والدواب المحلية. وفي نهري بلاد الرافدين، اعتمدت على قوارب نهريّة بدائية كانت تُصنع من جلود الحيوانات كحالها منذ قرون⁽²³⁾.

وأما اللوجستيات البريطانية فعقدتها الحاجة إلى تلبية الطلب المتنامي من جانب الحملات التي جُرّدت بشكل متزامن في غاليبولي وسالونيك وبلاد الرافدين وبداية من 1916 في فلسطين. فتحولت مصر والهند إلى مركزين رئيسيين للإمداد والتموين والإدارة لهذه الحملات. وبالطبع أثقلت هذه المتطلبات المتعددة بشدة كاهل الموارد القائمة المحدودة المتاحة للقوات الإنجليزية في مصر والجيش الهندي فيما اضطلعوا بمسؤولية الحفاظ على أمن الإمبراطورية البريطانية البحري. فقد جمعت الحكومة الهندية وأرسلت أربع قوات حملة هندية إلى فرنسا وشرق أفريقيا ومصر والبصرة فيما بين أغسطس وديسمبر 1914، مما أنهك احتياطات ما قبل الحرب من ضباط وكوادر نقل وغير ذلك من أفرع غير مقاتلة كسلاح الخدمات الطبية، وخشي القادة المدنيون والعسكريون البريطانيون في الهند أن القدرة التنظيمية واللوجستية للجيش الهندي توشك على نقطة الانهيار. والحقيقة أن اللورد هاردنج، نائب الملك في الهند، أحسّ في مارس 1915 أن موارده العسكرية تأكلت إلى درجة أن «الهند تُركت تقريباً من دون أي هامش لتلبية الظروف الطارئة». وبالتالي أعلم لندن أن الهند أدت واجبها تجاه الإمبراطورية مردفًا إنه «من المستحيل تمامًا... فعل المزيد»⁽²⁴⁾.

وفي مصر، هذد الحشد السريع للقوات البريطانية والهندية والأسترالية

والنيوزيلندية في أواخر عام 1914 وأوائل عام 1915 بالمثل بأن يلتهم الموارد الموجودة، حيث تسبب الوصول العشوائي للوحدات العسكرية في متاعب للحامية البريطانية وشيكتها المتواضعة من المرافق اللوجستية والإدارية. وفي الوقت نفسه، فإن التخطيط للحملات في غاليبولي في عام 1915 وفيما بعد في سالونيك زاد الشعور بالفوضى المحدقة. فكان الأفراد الذين يتصرفون نيابة عن قوة الحملة المتوسطة (التي كانت تقاتل في غاليبولي) والقوات الإنجليزية في مصر ينافسون بعضهم بعضًا على الموارد في السوق المفتوحة⁽²⁵⁾. فأثر هذا التخبط على سير العمليات في غاليبولي حيث نتج عن الافتقار إلى موانئ مناسبة في المياه العميقة في شرقي بحر إيجة أن صارت الإسكندرية قاعدة إمدادها الرئيسة. وأنشئت قاعدة متقدمة في ميناء مودروس فوق جزيرة ليمنوس في بحر إيجة وتولت 120 سفينة نقل إدامة القوة البالغ قوامها 75 ألف رجل بالموءن والذخيرة والتعزيزات بالجنود ودواب الحمل⁽²⁶⁾.

ووصلت الأمور إلى مرحلة حرجة عندما أدى إخفاق الإنجليز والفرنسيين في اقتحام المضيق إلى طريق مسدود من الناحية العسكرية في غاليبولي (نناقشها بمزيد من التفصيل في الفصل الرابع). وقد نوَّه تأريخ جديد مهم لهذه الحملة نُشر في عام 2011 لمؤلفه بيتر هارت، المؤرخ الشفهي لمتحف الحرب الإمبراطوري، إلى الحملة وكيف كانت تتألف من «جنود أتى بهم من كل أنحاء العالم وألقوا سويًا من دون تخطيط ولا رؤية... مع تفرق مختلف الوحدات على سفن مختلفة وتداخل عتاد أفرادها عشوائيًا في قعور السفن»⁽²⁷⁾. وبالطبع واجهت القادة العسكريين صعوبات كبيرة في تزويد رؤوس الشواطئ الخمسة بالرجال والذخيرة والمواد الغذائية ومخزونات المياه. وبحلول يوليو 1915، كان الجنرال السير أيان هاملتون، قائد قوة الحملة المتوسطة، «في حالة من اليأس» بسبب الافتقار إلى الأيدي العاملة وعدم كفاية القوارب اللازمة لتفريغ السفن الآتية من مصر. وكتب يقول إنه ترتب على ذلك أن «تصل السفن وعلى متنها أشياء القوات في أمس الحاجة إليها وعندئذ، وقبل أن يتسنى تفريغها، تُبحر راحلة من جديد... وعلى متنها كل المواد». وأضاف أن

«هناك سفناً تحتوي على منشآت هندسية جاءت خمس مرات ورحلت خمس مرات دون أن يستطيع أحد تفريغها بسبب الافتقار إلى قوارب تفريغ»⁽²⁸⁾. وقد اعترف هاملتون للسير جون كاونز، رئيس شعبة الإمداد والتموين في وزارة الحرب في لندن، قائلاً: «تقلقني الأشياء التي من ورائي بقدر ما يقلقني العدو الذي أمامي»⁽²⁹⁾.

ويسلط شن حرب صناعية واسعة النطاق عبر مساحات مفتوحة واسعة من البحر والأراضي الصحراوية والجبليّة في الشرق الأوسط والقوقاز الضوء على العلاقة المتوترة بين متطلبات الصراع الحديث اللوجستية ووسائل إمداد الجيوش بهذه المتطلبات، وهي وسائل يغلب عليها الطابع «التقليدي» والبدائي. ويضيف هذا قيداً مهماً على تأكيد فان كريفلد على حدوث ثورة لوجستية أثناء الحرب العالمية الأولى. فعلى العكس من ذلك، ظلت الحملات التي جردت في الشرق الأوسط معتمدة اعتماداً شديداً على الموارد المحلية، من طعام وعلف وكذلك قوة بشرية ودواب، حتى مرحلة متأخرة جداً من الحرب. والشيء اللافت للنظر أن الإدخال المتأخر للنقل المممكن والشبكات الكبيرة من الطرق البرية والسكك الحديدية في عامي 1917 - 1918 لم يقلل من الاعتماد على هذه البنود، بل على النقيض من ذلك تطلبت هذه المحدثات أيدي عاملة إضافية لإنشائها وصيانتها، وهو ما يبرهن بالتالي على أن المتطلبات الصناعية زادت في واقع الأمر الطلب على الموارد التقليدية (بدلاً من أن تحل محلها).

وتشابت المتطلبات اللوجستية مع الطلب العسكري على الموارد المنتجة محلياً اللازمة لاستدامة المجهود الحربي لكل واحد من الأطراف المتحاربة. فلوجستيات الحرب ذات الطابع الصناعي اقتضت مع تطورها أن تتفوق الدول المتحاربة على عدوها في الإنتاج وتتفوق عليه في القتال. وتوسعت القوة الاختراقية لدولة زمن الحرب (بوتيرات مختلفة) إبان هذه الحرب فيما اشتملت الاستراتيجية الكبرى تدريجياً على تعبئة الموارد (غير القتالية) الاقتصادية والتجارية والبشرية الوطنية. وفي القوى الأوروبية، استند هذا التوسع إلى الهياكل البيروقراطية والمؤسسية القائمة

التي وفرت إطاراً للتحركات صوب صور «الحرب الشاملة». وهناك تحد آخر واجه المخططين المدنيين والعسكريين بعيداً عن الهياكل الراسخة للدول الأوروبية، حيث قلّصت كل من القيود السياسية والمحدوديات الصناعية بشدة القدرات التنظيمية لدى الدولتين الروسية والعثمانية وكذلك النظام الإمبراطوري الإنجليزي الهندي لدى تطوّره فيما بعد التمرد الكبير لسنة 1857.

وهناك عوامل سياقية مهمة أعاقَت جهودية العمليات العسكرية وشنّها في الشرق الأوسط. فقد أكّد إدوارد إريكسون أن الجنود العثمانيين كانوا على مستوى رفيع من المقدرة (وإن لم تكن أسلحتهم المعاونة كذلك) وأظهروا قدرة على التحمل والصمود طوال الحرب، وغالبًا ما كان هذا في ظروف مريعة⁽³⁰⁾. لكن واضعي السياسات العثمانيين -وكذلك الروس والبريطانيون والهنود- واجهوا كلهم أوجه قصور في قدرتهم على تنظيم الموارد المجتمعية واستخراجها، وهي الصعوبة التي ازدادت بروزاً بفعل موقع الحملات في أقصى الأماكن تطرفاً في الدولة العثمانية. فقد عرقلت قاعدة التصنيع المحلية الصغيرة إنتاج الدولة العثمانية العتاد الحربي كالحديد الغفل والفولاذ والمواد الكيميائية والمنتجات البترولية المصفاة. علاوة على ذلك، فإن مصنع البارود الوحيد ومصنع قذائف المدفعية والخرطيش الوحيد ومسبك المدافع والأسلحة الصغيرة الوحيد في الإمبراطورية كلها كانت موجودة في محيط الآستانة، وبالتالي دعت الحاجة إلى نقل العتاد الحربي عبر مئات الكيلومترات من الطرق الرديئة وشبكات السكك الحديدية غير المكتملة إلى جبهات القتال في الشرق⁽³¹⁾. زد على ذلك أن الخطر الداهم الذي كانت تشكّله الحملات في الدردنيل ومقدونيا على الدولة العثمانية كان معناه أن تُعطى لها الأولوية على بلاد الرافدين وفلسطين في عامي 1915 - 1916، في حين اتجه الاهتمام الرسمي، في أعقاب الانسحاب الروسي من الحرب في عام 1917، إلى إمكانية تحقيق مكاسب إقليمية في القوقاز⁽³²⁾. ومع ذلك، وعلى الرغم من كل هذه المحدوديات، تمكنت الدولة العثمانية من استدامة مجهود حربي، وإن كان متعثراً، لمدة أربع سنوات طوال، وصد الهجمات على غاليبولي في عام 1915، وعرقلت أعداد كبيرة جداً من القوات الروسية

والبريطانية في القوقاز وفلسطين وبلاد الرافدين. وكما نوّه المؤرخ الاقتصادي التركي شوكت باموك، فإنه «على الرغم من كل هذه المثالب، من اللافت للنظر أن المجهود الحربي العثماني لم يشهد انهياراً تاماً» حيث «تمكن الجانب العثماني من الصمود في معظم الجبهات حتى النهاية في عام 1918»⁽³³⁾.

وكان المجهود الحربي الروسي أيضاً مركزاً على أماكن أخرى، حيث دارت معارك هائلة النطاق في شرق بروسيا ضد الألمان وفي غاليسيا ضد إمبراطورية النمسا والمجر. وبحلول أوائل عام 1915، كانت روسيا قد فقدت أكثر من مليون جندي، كما كان كثير من مناطقها الحيوية الصناعية والزراعية، بالإضافة إلى 20 مليون هم تعداد سكانها، يرزح تحت احتلال العدو. وترتب على المعارك الإضافية التي جرت في الصيف والخريف وقوع مليون ونصف المليون جندي في الأسر لدى العدو، ناهيك عن قتلوا وأصيبوا، علاوة على استسلام 90 ألف جندي في يوم واحد في أغسطس 1915 وحده⁽³⁴⁾. وهذا التهديد الوجودي لبقاء الإمبراطورية الروسية هو الذي سار على خلفيته المجهود الحربي الروسي في الشرق الأوسط والقوقاز. وكانت هاتان المنطقتان قد اعتبرتتا ثانويتين في التخطيط العسكري الروسي فيما قبل الحرب، ونُظر إليهما من خلال عدسة الأمن الداخلي لا الصراع مع الدولة العثمانية أو بلاد فارس. لكن كان ثمة تعقيد محلي كبير يغلي تحت السطح، وهو التوتر بين المركز والمحيط الذي تصاعد على هيئة رد فعل عنيف في عام 1916 من جانب الطوائف المسلمة في آسيا الوسطى ضد تجنيد أبنائها في الجيش الروسي⁽³⁵⁾.

كذلك واجهت التعبئة في الهند عراقل بفعل القيود السياسية التي فرضتها السلطات البريطانية وعززتها في السنوات التي تلت تمرد عام 1857، حيث نبهت محاولة المتمردين الاستيلاء على ترسانة فيروزبور المسؤولين البريطانيين إلى أخطار إنشاء مجمع للصناعات العسكرية في الهند. علاوة على ذلك، فإن لجنة بيل التي أنشئت بعد عام 1857 لتمحيص تدابير منع نشوب تمرد آخر أوصت بأن تقتصر مهام الجيش الهندي فيما بعد التمرد على مهام الأمن الداخلي التي تتطلب كميات

صغيرة من الأسلحة متدنية المستوى⁽³⁶⁾. وقد أعاقَت هذه القرارات بشدة توسيع صناعة الأسلحة في الهند على مدى نصف القرن التالي، حيث أعطت السياسات البريطانية الأولوية لتقليص القطاع الصناعي في الهند وتعمدت عدم استغلال مواردها الطبيعية والبشرية الوفيرة الاستغلال الكامل، مما ضمن افتقار الهند إلى العناصر الماهرة من العمال والفنيين والمشرفين والمديرين، فضلاً عن افتقارها إلى المصانع الهندسية ومصانع المعادن ومنشآت تصنيع الآلات، حيث كانت الغالبية العظمى من المصانع والمعدات والمؤن والأفراد المهرة تُجلب من الخارج قبل عام 1914⁽³⁷⁾.

ومن ثم تُرجم عدم اطمئنان البريطانيين لوضعهم في الهند إلى خوف من تدريب مَعين وطني من الخبرة العسكرية والتكنولوجية بين الهنود، مما ألحق ضرراً كبيراً بمصانع الأسلحة، فظل بالتالي إنتاجها ضئيلاً، وظل الجيش الهندي معتمداً على بريطانيا في الحصول على الخبرة الفنية والمعدات، إذ لم تنتج ترسانة فيروزبور، وهي الأكبر في الهند، في السنة التي شهدت ذروة إنتاجها في 1908 - 1909 إلا 12 قطعة مدفعية و22 ألف قذيفة مدفعية⁽³⁸⁾.

وبلا شك أن هذا أضاف طبقة أخرى من التعقيد إلى الآلة اللوجستية إذ لم يتسَنَ في الهند الحصول على كثير من الأصناف المطلوبة لبلاد الرافدين، بل لزم طلبها (وشحنها) من المملكة المتحدة أولاً. وفي حالة القوارب النهرية التي كانت هناك حاجة مستميتة إليها من أجل العمليات في البصرة في عامي 1915 - 1916، كان لتأخر توريدها نتيجة لذلك عواقب وخيمة على قوة الحملة الهندية في خضم كفاحها (وفشلها) لفك حصار الحامية في كوت العمارة⁽³⁹⁾.

الموارد المحلية والحرب في عرض البحر

اكتسبت أوجه النقص والقصور في الموارد الصناعية والقدرات الاستخراجية السابق بيانها دلالة أكبر مع استطالة أمد القتال، إذ سرعان ما تبددت أية طموحات مبكرة في أن تكون الحرب قصيرة، وفي حالة المتحاربين على الجبهة الغربية تبددت

هذه الطموحات مبكرًا في سبتمبر 2014، وبحلول الوقت الذي دخلت فيه الدولة العثمانية الحرب في 2 نوفمبر، كانت معركة إيبر الأولى تدور على أشدها، مما آذن بنهاية العمليات المتنقلة وتقوية المواقع المحصنة في فرنسا والإقليم الفلامندي، بل وكانت المعارك التي دارت على الجبهة الشرقية حتى أكبر حجمًا من هذا. وفيما بعد ذلك، استهدف شن حرب الغواصات والحصار الاقتصادي مواطني الضعف في خطوط المواصلات والإمداد المستطيلة في ظل انتشار الحرب إلى الشرق الأوسط وأفريقيا، ونتيجة لهذا ازدادت أهمية الحصول على الموارد المنتجة محليًا وتعبئة القوة البشرية والدواب من أجل تخفيف العبء الواقع على شبكات النقل البحرية والبرية المثقلة.

وثمة مؤلف حديث مهم يتناول اقتصاد الحرب العالمية الأولى أكد على جسامه العوامل الاقتصادية وتأثيرها على محصلة الصراع، حيث جادل ستيفن بروندبيرري ومارك هاريسون بأن «محصلة الحرب العالمية كانت في المقام الأول مسألة مستوى تنمية اقتصادية لدى كلا الجانبين ونطاق الموارد التي كان بمقدور كل منهما تدبيرها بنجاح»⁽⁴⁰⁾. واستند هذا العمل إلى بحوث رائدة قام بها أوفر وكريستوفر ريغلي تناول فيها البعد الاقتصادي للحرب، حيث سلط أوفر الضوء على الجانب الوجودي لحفاظ القوى الإمبراطورية على طرق الشحن والممرات البحرية، ولا سيما بريطانيا التي كان «نقل قواتها البرية وإمدادها بالمواد، حتى عبر القنال الإنجليزي ناهيك عن المسافات الطويلة عبر المحيطين الأطلسي والهندي، يعتمد على قدرة البحرية الملكية على تأمينها»⁽⁴¹⁾. وكان هذا تمديدًا منطقيًا للتطورات في المنظومة التجارية الدولية قبل عام 1914 التي دوّلت إنتاج السلع كالمواد الغذائية (وخصوصًا الحبوب) وتوزيعها وفقًا لمبدأ الميزة النسبية. ومن ثم، نؤم ريغلي إلى طبيعة الخلل الذي أحدثته الحرب في العلاقة بين «المركز» الصناعي الأوروبي في المنظومة التجارية الدولية والمناطق «المحيطة» المتخلفة نسبيًا⁽⁴²⁾.

وقد كان لهذا الخلل الاقتصادي تداعيات محلية وإقليمية، وكذلك دولية، وتفاقت

تأثيراته كثيرًا في المناطق التي كان هامش الكفاف فيها رقيقًا من قبل. ومن بين هذه التداعيات قطع طرق التجارة داخل المنطقة الواحدة وفيما بينها وبين المناطق الأخرى، فقد صارت الدولة العثمانية ومنطقة القوقاز -على سبيل المثال- مقسمتين إلى مناطق نفوذ حربية. وأثر الحصار الاقتصادي، وفرض مطالب هائلة على الموارد المحلية نتيجة وجود الآلاف من الأفواه العسكرية الإضافية اللازم إطعامها، والتنافس بين الحملات العسكرية والأنشطة الزراعية، على الأيدي العاملة والدواب. وبالتالي تطور توازن مضطرب بين الطلبين المدني والعسكري على الموارد، وهو ما لم يترك مجالًا كبيرًا للخطأ، وقد انهيار هذا التوازن الهش في مناسبات عدة أثناء الحرب، وذلك ما سنناقشه بالتفصيل في فصول لاحقة. ولعل المجاعة التي عصفت بسوريا ولبنان وأجزاء من فلسطين في عامي 1915 - 1916 كانت أوضح مثال على الخلل الاقتصادي الذي تسببت فيه هذه الحرب. ويمكننا القول إنه بحلول عام 1918 كان الأهالي في عموم المنطقة، من شمال أفريقيا إلى بلاد فارس والهند، يواجهون أوضاعًا من العسر الحقيقي والجوع الحاد.

ولا شك أن توليفات مزعزعة من هذه العوامل قد تفاعلت بطرق مختلفة لتصيب الأفراد والمجتمعات في عموم المنطقة بنكبة، ثم تضاعفت تأثيراتها بفعل صعوبات نقل الإمدادات إلى (وفيما بين) جبهات القتال طوال الحرب. وكما أوضحنا في المباحث السابقة، فإن الغياب النسبي لبنية النقل التحتية أو الموارد الصناعية في جبهات القتال الشرق أوسطية نتج عنه أن لزم جلب غالبية الإمدادات والتعزيزات في البداية إلى مواقعها عبر خطوط مواصلات طويلة، حيث لزم أن تبحر الإمدادات البريطانية المتجهة إلى حملتي بلاد الرافدين وفلسطين إما في البحر المتوسط (فيما يخص الإمدادات الآتية من المملكة المتحدة) أو بحر العرب (فيما يخص الإمدادات الآتية من الهند). وبالطبع كانت السفن العابرة للبحر المتوسط عُرضة للغوصات المعادية (مما أدى في منتصف عام 1916 إلى إعادة توجيه عمليات النقل مؤقتًا إلى طريق رأس الرجاء الصالح الأطول كثيرًا)، في حين واجهت السفن الآتية من الهند قاصدة بلاد الرافدين صعوبات بفعل الرياح الموسمية في بحر العرب وكذلك عدم

كفاية مرافق ميناء البصرة حتى عام 1917⁽⁴³⁾. كما كان العثمانيون أيضًا يعتمدون اعتمادًا كبيرًا على الإمدادات المنقولة بحرًا حيث استلزمت أوجه القصور الشديد في البنية التحتية للطرق والسكك الحديدية أن تتم غالبية حركة النقل والتجارة الداخليين والخارجيين بحرًا قبل عام 1914⁽⁴⁴⁾.

والواقع أن المراحل المبكرة من الحملات عانت من اختناقات ناجمة عن عدم كفاية مرافق الموانئ لاستقبال كل متطلبات الحرب الحديثة اللوجستية وإرسالها. وقد لمحت المباحث السابقة إلى صعوبات إنزال المؤن إلى رؤوس الشواطئ في غاليلوي. وفي مكان آخر، أقيمت قاعدة كبرى ومستودع إمداد وتموين ومركز للمسافنة في منطقة القنطرة الواقعة على قناة السويس لخدمة القوات البريطانية في سيناء وفلسطين. وأما في بلاد الرافدين، فقد وجد وفد بريطاني زائر في البصرة في عام 1916 أن منشآت الميناء «غائبة غيابًا ملحوظًا» عن القاعدة الرئيسة للعمليات البريطانية الهندية في كوت العمارة⁽⁴⁵⁾. وكانت نتيجة غياب الأرصفة في البداية أن اصطفت سفن النقل بطول شط العرب منتظرة دورها، فيما كانت المؤن تحمّل أولاً على متن قوارب تفريغ ثم يتم تفريغها من جديد على الشاطئ، وفي أحوال كثيرة يعاد تحميلها على القوارب النهرية الشحيحة لنقلها إلى أعالي النهر. وقد ازدادت هذه العملية كثيفة الأيدي العاملة المستهلكة للوقت صعوبة بفعل الجداول التي لا تعد ولا تحصى التي تناثرت على امتداد الشواطئ وكانت تعرقل المواصلات الجانبية على الشاطئ. كما كان الفيضان السنوي في كل ربيع يشكّل عقبة إضافية أمام تطوير الميناء، مما حدا بمؤرخ معاصر إلى وصف «أوضاع بلاد الرافدين المألوفة... فيما كانت هناك مياه أكثر مما يلزم للجيش، لم تكن هناك مياه كافية للبحرية»⁽⁴⁶⁾.

ومع استمرار الحرب واتساع نطاق الحملات تطورت طبيعة مشكلة الملاحة، فتحولت من قضية تخص قيودًا مادية أولية إلى قضية عدم كفاية الطاقة الاستيعابية. وحدث هذا فيما تواصل ازدياد الطلب على القوة البشرية والمواد وغير ذلك من الموارد مع ازدياد الأوضاع سوءًا أمام الملاحة الدولية. وعكست هذه التحديات

المتقاطعة «التوسع السريع في حجم المهمة» في الحملات التي جُزدت خارج الحدود الأوروبية والتي صارت التزامات عسكرية كبيرة بعد أن كانت في البداية مجرد «عروضٌ جانبية». وبحلول عام 1916، أحسَّ كل الأطراف المتحاربة بأثر هذه الاتجاهات المتباعدة في ظل تعرُّض الطرق عبر البحر المتوسط خاصة لأضرار شديدة، حيث ألحقت غواصات إمبراطوريتي ألمانيا والنمسا والمجر العاملة انطلاقًا من سبع قواعد واقعة على ساحل البحر الأدرياتي الدمار بالسفن التجارية والحربية التابعة لدول الوفاق الثلاثي العاملة بين مرسيليا وتارانتو (في إيطاليا) ومصر. ففي الربع الأخير من 1915، نجحت أربع غواصات فقط في إغراق 21 ألف طن من الحمولة المنقولة بالسفن، وعقَّد سوء الاتصال بين القيادات البحرية البريطانية والفرنسية والإيطالية، والافتقار إلى مدمرات ترافق قوافل السفن، اتخاذ تدابير استجابة فعالة⁽⁴⁷⁾. وفي ديسمبر 1915، لفت الجنرال أرشيبالد موراي رئيس الأركان العامة للإمبراطورية في لندن، وهو الذي سرعان ما صار القائد العام لقوة الحملة المصرية، انتباه وزير الدولة للحربية اللورد كتشنر إلى تهديد الغواصات في البحر المتوسط، حيث قال ساخراً في معرض تحسُّره على غياب التنسيق بين البحريات البريطانية والفرنسية والإيطالية في البحر المتوسط: «كل ما أعرفه أنه يوجد قادة بحريات يضيعون الوقت هنا أكثر مما يوجد من غواصات تعمل هناك!!!»⁽⁴⁸⁾.

ولقد تفاقمت الصعوبات الملاحية بشدة بداية من عام 1916 فصاعداً، حيث تصاعدت الخسائر الملاحية البريطانية والفرنسية والإيطالية في البحر المتوسط في هذا العام لتبلغ ذروتها فيما بين أكتوبر وديسمبر -نحو 113 سفينة و248018 طنًا من الحمولة- مع بقاء التعاون فيما بين دول الحلفاء على تراخيه⁽⁴⁹⁾. وفي ديسمبر 1916، قدمت رئاسة الأركان العامة البريطانية مذكرة اعترفت فيها بجُزء بأنها تواجه في مصر «موقفًا يصل عمليًا إلى نقطة الانهيار في ترتيباتنا الملاحية... لقد وصلنا في الحقيقة إلى مرحلة لا تفي فيها الحركة الملاحية المتاحة بالمتطلبات»⁽⁵⁰⁾. وفي مؤتمر إنجليزي فرنسي عُقد في لندن في أواخر ذلك الشهر، حذَّر قائد البحرية البريطانية الفريق أول بحري جون جيليكو آنذاك من صعوبات كبيرة في العثور على

سفن تجارية كافية لإمداد القوات المتمركزة في سالونيك ومصر. بل وأضاف قائلاً إنه من الصعب حتى أن يتم توفير حاميات مرافقة لسفن الشحن ونقل الجنود، وإن هذه الصعوبات يكاد يستحيل معها النظر في أي زيادة في عدد القوات في أي من المسرحين⁽⁵¹⁾.

وفي يناير 1917، أعلن المستشار الألماني تيوبالد فون بيتمان هولفيغ عن استراتيجية حرب الغواصات المطلقة، وهي الاستراتيجية التي اعتمدت على تطورات سابقة في الحرب البحرية. فقد استهدفت الغواصات الألمانية الملاحة التجارية الداخلة إلى المياه الإقليمية البريطانية والخارجة منها بشدة متزايدة منذ وقت مبكر في عام 1915. وكان إغراق باخرة الركاب البريطانية لوسيتينيا قبالة الساحل الأيرلندي في 7 مايو 1915 أبرز خسارة مبكرة في الأرواح، فضلاً عن أنه أثار علامات استفهام حول ماهية الشيء الذي يشكّل هدفًا مشروعًا حيث كانت باخرة الركاب تحمل كميات كبيرة من ذخائر الأسلحة الصغيرة المخصصة لاقتصاد الحرب البريطاني، بالإضافة إلى من على متنها من ركاب وأفراد طاقم قوامهم 1959 فردًا. وتجدر الإشارة إلى أنه كان من بين الوفيات التي بلغت 1198 حالة 128 أمريكيًا، وهو ما أثار غضبًا كبيرًا في الولايات المتحدة وتدهورًا شديدًا في العلاقات مع ألمانيا، وإن لم يصل الأمر إلى درجة إعلان الحرب⁽⁵²⁾. وقد ازداد الضغط العسكري الألماني في اتجاه سياسة قوامها إطلاق يد الغواصات للعمل بحرية طوال عام 1916 للتخلص من تأثير الحصار البريطاني للموانئ الألمانية ومحضلة معركة يوتلاند التي وقعت في 31 مايو، والتي برهنت على أن أسطول أعالي البحار الألماني لم يكن قويًا بما يكفي لهزيمة البحرية الملكية في معركة تقليدية، وهو ما كان يتطلب أساليب بديلة لمهاجمة خطوط الإمداد والتموين الواصلة إلى الجزر البريطانية⁽⁵³⁾.

ولا شك أن تداعيات قرار ألمانيا شن حرب غواصات مطلقة لمست بشكل مباشر شديد الوضوح عندما أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا في أبريل 1917، غير أنه كانت له تبعات مهمة على الحملات المنفذة في الشرق الأوسط، حيث

تصاعدت الخسائر الملاحية التي تكبدتها دول الوفاق الثلاثي على أيدي أسطول الغواصات الألماني النمساوي في البحر المتوسط العامل انطلاقاً من ميناء بولا (في كرواتيا الحديثة) في الربع الأول من عام 1917. فقد ارتفع مقدار حمولة السفن التي فقدت على أيدي أسطول البحر المتوسط والألغام البحرية التي زرعها الغواصات من 78541 طنّاً في يناير إلى 105670 طنّاً في فبراير، قبل أن تعاود الانخفاض إلى 61917 طنّاً في مارس، لترتفع بحدة إلى ذروتها وتصل إلى 254911 طنّاً في أبريل 1917. وعلى الرغم من تراجع الخسائر فيما بعد عن هذه الذروة بفضل ما أُتخذ من تدابير مضادة، ظل رقما شهريّ مايو ويونيو (وهما 170626 و164299) أعلى بما بين مرتين وثلاث مرات من أرقام الفترة من يناير إلى مارس⁽⁵⁴⁾.

ولقد حُددت هذه التدابير المضادة أثناء مؤتمر القوى الأربعة (البريطانية والفرنسية والإيطالية واليابانية) الذي عُقد في كورفو في أواخر أبريل 1917، وكان من بينها توصيات بسير حركة الملاحة ليلاً على امتداد الطرق الساحلية الخاضعة لدوريات الحراسة كلما أمكن، فضلاً عن توفير حماية أكبر لحركة السفن من خلال النشر المتأخر للقوافل وسفن الحراسة. وكان توفير غطاء حماية للسفن التجارية وسفن النقل التابعة للقوات البحرية ذا أهمية خاصة في الطرق غير الساحلية التي كانت تأخذ السفن إلى المياه المفتوحة، وأبرزها من مالطة إلى كريت، ومن كريت إلى مصر، ومن مالطة إلى مصر، ومن مرسيليا إلى الجزائر⁽⁵⁵⁾. ومع ذلك فقد استغرق تنفيذ هذه التدابير المضادة وقتاً وجاء بعد فوات الأوان فيما يخص التوسع الكبير في حملتيّ فلسطين وبلاد الرافدين اللتين جُردتا أيضاً في ربيع 2017، حيث تمخّضت الزيادة في حجم القتال والنطاق الإقليمي للعمليات العسكرية في كلا المسرحين عن صعوبات جديدة في الإمداد والنقل اللذين كانا قد بلغا بالفعل أقصى طاقة لهما، وعجلاً التحركات البريطانية نحو تعظيم استخدام الموارد المحلية (في مركزيّ الإمداد مصر والهند وفي المناطق الواقعة تحت الاحتلال على السواء) لتخفيف الطلب على الشحن بالسفن حيثما أمكن.

وفي هذا السياق، صارت تنمية الموارد المتاحة محليًا إلى أقصى حد هدفًا استراتيجيًا، وكان هذا يصدق بوجه خاص على المجهود الحربي البريطاني (والهندي) حيث ازداد عبء دعم حملات متباينة جغرافيًا زيادة حادة. فبالإضافة إلى تلبية متطلبات حملتي فلسطين وبلاد الرافدين اللوجستية، كان لزامًا على بريطانيا والهند أيضًا إمداد القوات المتمركزة في سالونيك وشرق أفريقيا. ودفع هذا الطلب المتنامي السير جون كاونز، رئيس شعبة الإمداد والتموين في وزارة الحربية في لندن، إلى أن يحض في صيف عام 1916 على استغلال الموارد المحلية إلى أقصى درجة ممكنة⁽⁵⁶⁾. كما قررت وزارة الحربية أيضًا جعل الهند قاعدة الإمداد والتموين للقوات البريطانية والإمبراطورية كافة شرق السويس، واستغلال الموارد الهندية لتلبية الطلب في بلاد الرافدين إلى أقصى درجة ممكنة⁽⁵⁷⁾. وبشكل كاد يتزامن مع هذا، حض المسؤولون في بريطانيا نظراءهم في مصر على تعظيم مواردهم من العلف لتقليص الطلب على شحن هذه السلعة التي تشغل حيزًا كبيرًا بالسفن إلى سيناء وفلسطين وبلاد الرافدين⁽⁵⁸⁾.

وعلى الرغم من ذلك، أثقل الطلب المتصاعد على الطعام والعلف وفرض أعداد كبيرة من الأفواه الإضافية اللازم إطعامها على الموارد إلى أقصى حد. ففي بلاد الرافدين، كانت البصرة ومناطقها الداخلية قد أصيبت بضرر شديد نتيجة النقص في المحاصيل المحلية في عامي 1912 و1913، فحالت واردات الأرز والقمح الكبيرة من الهند دون حدوث أزمة، لكن هذه الواردات توقفت مع بداية الحرب في عام 1914⁽⁵⁹⁾. وفي أماكن أخرى في الدولة العثمانية، أفضى نقص المحاصيل لمواسم متتالية بين عامي 1914 و1916 ووباء الجراد الذي حلّ في عام 1915 إلى مجاعات شديدة أصابت ولايات سوريا ولبنان وفلسطين، وتفاقم تأثيرها بفعل الطلب الشره على الموارد إبان الحرب. كما أن التدابير العثمانية القمعية قد قيدت تدفق الإمدادات الغذائية إلى المنطقة خشية أن تقع في أيدي الأعداء. علاوة على ذلك، فإن التأثير الاستخراجي المترتب على إجبار الدولة العثمانية الأهالي على توفير الأيدي العاملة ودواب الحمل والماشية والمعدات الزراعية لصالح المجهود الحربي زاد العبء الواقع على هؤلاء

الأهالي، ومما أضاف أيضًا إلى هذا العبء التشريد الداخلي للشعوب وتعطيل طرق التجارة وأنماطها⁽⁶⁰⁾.

لقد انهار التوازن المضطرب بين حصول الجانبين المدني والعسكري على الموارد انهيارًا تدريجيًا في مواجهة الطلب المتزايد والعرض المتعثر. ومن العوامل التي زادت الأمور تعقيدًا بشدة توقيت مواسم الحملات العسكرية كل ربيع الذي تزامن مع حصاد الربيع وذروة الطلب على الأيدي العاملة، فتدخل الطلب العسكري على الأيدي العاملة ودواب الحمل بالتالي مع أسواق العمل الريفية والدورة الزراعية. علاوة على ذلك، أدت التحسينات التي أدخلت على نظام الري في مناطق كمصر -وهي التي كانت قد جُزّت إلى الأسواق الدولية والزراعة ذات الطابع التجاري- إلى صيرورة الزراعة نشاطًا يمارس على مدار العام بحلول عام 1914. وعلى النقيض مما كان يحدث في الطلب على الأيدي العاملة (كالعمل بنظام السخرة) إبان القرن التاسع عشر، لم يعد لـ«موسم الركود» الزراعي وجود، فارتفعت تكلفة الفرصة البديلة المترتبة على التجنيد في الجيش ارتفاعًا حادًا في عامي 1917 و1918، فيما أدى النقص الصاعد في الأيدي العاملة الريفية أيضًا إلى دفع الأجور الزراعية إلى الارتفاع⁽⁶¹⁾.

وفي روسيا أفضى العبء الذي شكّلته الحملات التي جُردت ضد العثمانيين إلى تأثير إقليمي أشد وطأة، ففيما كانت السلطات العسكرية تبحث عن مصادر جديدة للقوة العاملة والموارد المحلية، ثارت ردة فعل عاتية من جانب الأهالي في آسيا الوسطى التي كانت تتمتع بمستوى عالٍ نسبيًا من الاستقلالية عن الطلب المركزي على الموارد قبل عام 1914. وكانت هذه هي نقطة التحول لاندلاع انتفاضة المتمردين القازاق والأوزبك والقرقيز التي استمدت وقودها من مصادر قائمة من قبل صعوبات ومظالم زمن الحرب، ومن بينها السخط السائد بين مجتمعات الفلاحين المحلية على نقص السلع المصنعة والمواد الغذائية وكذلك شراء الجيش الخيل بأسعار دون مستويات السوق. وفي ظل الغضب المتصاعد نتيجة شح السلع المحلية، وُقِر تجنيد المسلمين للخدمة العسكرية ضد إخوانهم في الدين في الدولة

العثمانية الشرارة التي أشعلت الفتيل. وقد أُخمدت الانتفاضة التي نجمت عن ذلك بوحشية مع تشريد ما بين 250 ألفًا و500 ألف نسمة قسرًا وترحيلهم عن ديارهم في عام 1916⁽⁶²⁾.

ولقد ازداد التأثير العسكري حدة في كل مسارح الحرب، لا في الشرق الأوسط وحده، في عامي 1917 و1918. فحدث شكل ما من أشكال «إعادة التعبئة» في المملكة المتحدة، فيما تطورت الاستراتيجية نحو صورة من «الحرب الشاملة» تتسم بنشاط الدولة التدخلي المباشر أكثر من ذي قبل⁽⁶³⁾. وفي فرنسا وروسيا، أفضت التوترات الاجتماعية المتصاعدة إلى تمرد في الأولى وثورة في الثانية في عام 1917، وذلك في الوقت الذي اشتد فيه تأثير الحصار المفروض على المدن والبلدات الألمانية⁽⁶⁴⁾. وقد ألحقت تكاليف القتال السياسية والاقتصادية والاجتماعية أضرارًا متزايدة بالأهالي الذين أنهكتهم الحرب في كل الأمم المتحاربة. فاندلعت في باريس مظاهرات متصاعدة للتنديد بشح المواد الغذائية في مايو ويونيو 1917، فيما أسفرت أحداث الشغب التي شهدتها مدينة تورينو الإيطالية على خلفية نقص الغذاء عن مقتل أكثر من 500 شخص في أغسطس، فيما برزت الصلات بين الإمدادات الغذائية والموارد والروح المعنوية لدى المدنيين بشكل حاد أمام أعين واضعي السياسات⁽⁶⁵⁾. فحتى في هاتين الدولتين الأوروبيتين، وهما اللتان كانتا تتمتعان بدرجة ما من السلطة السياسية الشرعية التي سمحت لهما بالإثقال بطلباتهما على كاهل مواطنيهما، كان الإذعان الشعبي قد بدأ يصل إلى نقطة الانهيار بحلول عام 1917. وفي ظروف الهياكل الاستعمارية في الشرق الأوسط -وهي ظروف مختلفة تمامًا- لم يكن هناك شيء من هذه الشرعية موجود لتعزid هذه الضغوط الاستخراجية الجديدة. وبدلاً من ذلك، فُرضت هياكل مؤسسية (وخارجية) أكثر شراهة لإدارة عملية تعبئة الموارد وتنظيمها⁽⁶⁶⁾. ونتيجة الافتقار إلى الجذور الاجتماعية أو الشرعية المحلية للوصول إلى قواعد المجتمع، بدأ يبرز سرد دياكتيكي لمقاومة السلطة، وهو ما سنناقشه بالتفصيل في الفصل الثامن.

دور الهند

كانت الحملات التي جردتها بريطانيا في الشرق الأوسط تعكس الأهمية الاستراتيجية لإمبراطوريتها الهندية وشرابين النقل البحري والقواعد البحرية التي كانت الهند تستديمها. وقد بينا في الفصل الأول التشكيلة الواسعة من الصلات العسكرية والاقتصادية والسياسية التي نمت أثناء القرن التاسع عشر فيما ازداد ارتباط اقتصاد الهند البريطانية السياسي بالتطورات الاستراتيجية في الشرق الأوسط. ومن ثم فبحلول عام 1914، أضفت مجموعة من الروابط الفكرية وكذلك المؤسسة درجة من التماسك على محيط بريطانيا الإمبراطوري، وشكّلت معيناً من الروابط التي يَسُرُت ونظّمت انتشار الأفكار بين مواقع الإمبراطورية المتناثرة. ويعتبر مشوار السير إيفلين بيرنغ (لورد كرومر فيما بعد) المهني مثلاً بارزاً على هذه الشبكة العابرة للحدود الوطنية من العقلية الحاكمة، حيث شكّلت تجاربه المهنية التكوينية في الهند بقوة رؤيته للحكم في مصر بصفته مندوباً عاماً لبريطانيا من عام 1883 إلى عام 1907⁽⁶⁷⁾. وكان هناك مثال آخر وهو ريتشارد ماينرتساغن الذي التحق بكلية القادة والأركان في مدينة كويتا [في باكستان الحالية] في عام 1913 وقضى عيد الميلاد في ذلك العام مسافراً في بلاد الرافدين، حيث أورد في مذكراته التي نشرها في عام 1960 كيف «طلبت مني حكومة الهند جمع معلومات عن النقل البري والنهري وماهية القوارب ووسائل النقل بالدواب المتاحة والطرق وما إلى ذلك». وقد حظي ماينرتساغن فيما بعد ببعض الشهرة بوصفه ضابط استخبارات في حملة فلسطين في عام 1917⁽⁶⁸⁾. وبالطبع اكتسبت هذه الصلات أهمية أثناء «الحرب العظمى» حيث أدى مسؤولون وموظفون من سلك الخدمة المدنية الإمبراطورية وضباط من القوات المسلحة الإمبراطورية في الهند (ومصر) أدواراً أساسية في شن الحملات في بلاد الرافدين وفي إدارتها في فلسطين.

وفي غياب أي تهديد ذي شأن للهند أثناء الشهور التي تلت إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا في 4 أغسطس 1914، قرر المخططون الدفاعيون والخبراء الاستراتيجيون

في لندن أن أفضل طريقة للدفاع عن المصالح الإمبراطورية هي من خلال استعادة توازن القوى في أوروبا، وهو ما سيقضي على التهديد الذي يواجه خطوط المواصلات الإمبراطورية والذي تشكّله السيطرة الألمانية على الموانئ المطلة على القنال الإنجليزي في البلدان المنخفضة. وأبرز هذا القرار طبيعة اعتماد الإمبراطورية البريطانية قبل كل شيء على الحفاظ على تفوقها البحري وقدرتها على استعراض قوتها البحرية⁽⁶⁹⁾. وبناءً على ذلك، أرسلت فرقتا مشاة هندية (فرقة ميروت الثالثة وفرقة لاهور السابعة) إلى فرنسا (عن طريق مصر) في أغسطس 1914، حيث لعبتا دوراً حيوياً في القضاء على الزحف الألماني عبر فرنسا في معركة إبير الأولى في نوفمبر⁽⁷⁰⁾.

وفيما بين أغسطس وديسمبر 1914، تولت حكومة الهند أيضاً المسؤولية عن جمع وإرسال أربع قوات حملة هندية، حيث أبحرت هذه القوات إلى شرق أفريقيا ومصر وبلاد الرافدين فضلاً عن فرنسا. وجاءت تعبئتها استجابة للتهديدات الصاعدة في مواجهة أمن بريطانيا البحري في ظل عرقلة الطرادات الألمانية تدفق الرجال والعتاد من المستعمرات إلى بريطانيا. ففي سبتمبر 1914، خرب الطراد إمدن حركة الملاحة في خليج البنغال، والطراد كونيغسبرغ حركة الملاحة في شرق أفريقيا، والطراد كارلسروهه حركة الملاحة في البحر الكاريبي، مما عطل نقل الجنود من أستراليا ونيوزيلندا حيث كان يلزم تنظيم سفن حماية دون علم مسبق بفترة كافية. وبالتالي صار القضاء على محطات التزود بالفحم والمحطات اللاسلكية الألمانية في شرق أفريقيا وغربها والمحيط الأطلسي أولوية على المدى القريب. وبحلول ديسمبر 1914، كان هذا الهدف قد تحقق من خلال ملاحقة الطرادات وإغراقها في المحيط الهندي وهزيمة أسطول شرق آسيا الألماني في معركة جزر فوكلاند⁽⁷¹⁾.

ولقد وفرت الهند معظم الجنود والمؤن الغذائية لهذه الحملات العسكرية العاملة خارج الحدود الأوروبية، وهو ما كان يمثل استمراراً لوظيفة الجيش الهندي فيما قبل عام 1914 باعتباره احتياطياً إمبراطورياً استراتيجياً⁽⁷²⁾. وصارت وظيفته الجديدة ضرورة

في خريف 1914 وذلك لسببين؛ أشدهما إلحاحًا هو اعتماد بريطانيا على المواد الغذائية المستوردة، وذلك على نحو ما بينا في المبحث السابق، وهو ما كان يقوم على تأمين الطرق البحرية من تهديد التعطيل. ويتصل هذا بالسبب الثاني، وهو تيسير مرور الجنود والعتاد والمؤن من الإمبراطورية إلى بريطانيا ومسرح الحرب الأوروبي. وكان العنصر حاسم الأهمية في هذا هو ضمان أمن قناة السويس في أعقاب إعلان الحرب مع الدولة العثمانية في نوفمبر 1914. وفي هذا السياق، كانت نتيجة استمرار السيطرة على مشيخات الخليج العربي لحماية طرق الوصول الاستراتيجية إلى الهند أن صار الحفاظ على التفوق البريطاني في منطقة المحيط الهندي الأوسع هدفًا إمبراطوريًا مهمًا⁽⁷³⁾.

ومع ذلك فقد قُيّدت قدرة الهند على المساهمة في المجهود الحربي من ناحيتين مهمتين، أولاهما أن حكومة الهند ظلت مسؤولة عن تمويل توسيع الجيش الهندي وصيانة جيوشها المنشورة في الخارج. وعلى الرغم من أن هذا أعفى الخزانة البريطانية من العبء الإضافي، فإن الافتراضات القوية السائدة بين النخب البريطانية الحاكمة بشأن الحاجة إلى دولة غير متغلغلة بعمق في الهند أدت إلى تقييد التمويل العسكري، فأُبقى على الإيرادات الضريبية عند معدل شديد التدني (لا يمثل إلا 5 - 7 في المائة من الدخل القومي) كما أخضعت النفقات العامة أيضًا للسياسة السائدة وهي ترشيد المالية العامة⁽⁷⁴⁾. والغريب أن هذه السياسات تواصلت خلال السنتين الأوليين من الحرب حتى بعدما ازدادت المتطلبات العسكرية (والإدارية) الواقعة على الهند زيادة ضخمة، مما تمخض عن اختناقات وفجوة متزايدة الاتساع بين مغزى السياسات وقدراتها بلغت ذروتها في الهزيمة التي مُنيت بها في بلاد الرافدين في عام 1916 (انظر الفصل السادس).

وقد تشابك هذا مع العقبة الثانية التي عرقلت تعبئة الموارد الهندية للحملات البريطانية في الشرق الأوسط، والتي كانت إرث عقود من السياسات البريطانية المتمثلة في تقليص القطاع الصناعي في الهند قبل عام 1914. فخلال هذه الفترة،

حوّلت الهند تدريجيًا من مصدر للسلع المصنّعة، وفي مقدمتها المنسوجات، إلى مورد للسلع الأولية وسوق استيراد للسلع الاستهلاكية تامة الصنع. وقد حدث هذا جزئيًا لأسباب تتعلق بـ«الأمن القومي» بعد أن هز تمرد عام 1857 الحكم البريطاني في الهند حتى النخاع، وجزئيًا لحماية المشروع التجاري البريطاني، فكانت النتيجة أن جُردت الهند من الخبرة الماهرة والقدرة الصناعية الوطنيتين اللتين ظلتا كلتاهما تعتمدان بشكل شبه كلي على العمال البريطانيين المهرة لاستدامة مجمع «الصناعات العسكرية» الذي كان قائمًا في الهند في عام 1914⁽⁷⁵⁾. ولم يحدث إلا في مرحلة متأخرة من الحرب، وذلك في عامي 1917 و1918، أن أفضت الضرورة العسكرية الملحة إلى تغيير حاد في الهيكل الضريبي والنفقات العامة في الهند، مما مكّن حكومة الهند متأخرًا من جمع وتجهيز جيوش غفيرة من الجنود والعمال شكّلت العمود الفقري لقوتي حملة مصر وبلاد الرافدين ويسّرت التقدم السريع الذي تحقق في أواخر عام 1918.

لهذه الأسباب صارت هناك صلة متشابكة تربط بين الهند والحملات البريطانية في الشرق الأوسط على مستويات متعددة، ومن ثم فتجربة الهند إبان الحرب جزء من هذا الكتاب، حيث إن القرارات التي اتخذت في الهند والأحداث التي جرت فيها كانت لها تداعيات مباشرة وخطيرة على شن الحملة في بلاد الرافدين، وكذلك على المخططين العسكريين والمدنيين البريطانيين في مصر والأرض التي وقعت تحت السيطرة البريطانية في فلسطين. وكما هو الحال مع ملامح النفوذ البريطاني في مصر، فإن العمليات التي جرت زمن الحرب لتعبئة واستخراج القوة البشرية والدواب والموارد المحلية تطلبت من الدولة الاستعمارية أن توسّع بسرعة حضورها السياسي وتغلغل على نحو أعمق في المجتمع، فحدثت تدريجيًا إعادة صياغة للعلاقات بين الدولة والمجتمع (في كل من الهند ومصر) حيث حشرت السلطات المدنية والعسكرية البريطانية أنفسها داخل التنظيم الاجتماعي المحلي وتدخلت في هياكل السلطة وهرمياتها القائمة. واتخذ هذا صورًا مختلفة في كل حالة، مما كان يعكس التعرض غير المنتظم للسيطرة المركزية، البريطانية والعثمانية على السواء،

قبل عام 1914، فضلاً عن الطرق المختلفة التي كان يتم بها تنظيم السلطة والنفوذ البريطانيين واستعراضهما.

نظرة عامة على الحملات في مسارح الشرق الأوسط

قدم هذا الفصل نظرة عامة على أهم العوامل السياقية التي شكّلت الحملات العسكرية في الشرق الأوسط إبان الحرب العالمية، حيث تفاعلت قضايا المناخ والإيكولوجيا، واللوجستيات والإدارة، والموارد المحلية، والحرب البحرية، مع بعضها بعضاً لتعظم تأثير القتال على الأهالي ذوي الصلة. كما عظم هذا التأثير بفعل التفاوت بين الطلب الشره من جانب الحرب الحديثة ذات الطابع الصناعي والأرض التي يغلب عليها الطابع ما قبل الصناعي التي شنت فوقها هذه الحملات. علاوة على ذلك، فإن موقع القتال الذي غالباً ما كانت تفصله مسافة شاسعة عن المراكز السكانية ترتب عليه أن اعتمدت الجيوش على خطوط مواصلات وإمداد طويلة عُرضة للخطر، مما زاد الاعتماد على الموارد المنتجة محلياً، وإن حتم أيضاً تعبئة كميات كبيرة من القوة البشرية المقاتلة والدواب لصيانة الآلات العسكرية أثناء الافتقار إلى وسائل نقل مميكنة في المرحل الأولية.

ويتجه الباب الثاني من هذا الكتاب بتركيزه إلى الحملات العسكرية ذاتها. وهو يشتمل على أربعة فصول تركّز على التجربة الإقليمية أثناء الحرب، فيستقصي أولها (الفصل الثالث) القتال بين الدولة العثمانية والإمبراطورية الروسية، حيث أسفرت المعارك التي دارت بين عامي 1914 و1917 عن الغالبية الساحقة من مجمل الخسائر في الأرواح التي تكبّدها الدولة العثمانية أثناء الحرب بأسرها. لذا تحوّل الاهتمام العثماني إلى تحقيق مكاسب طورانية في القوقاز في أعقاب قرار روسيا الانسحاب من الحرب ومعاهدة برست ليتوفسك في مارس 1918. ويبحث الفصل الرابع الحملة التي قادتها بريطانيا في الدردنيل في عام 1915 وقرار تحويل القوات البريطانية والفرنسية إلى سالونيك في أكتوبر من ذلك العام، حيث ظلت هناك حتى الزحف نحو الآستانة في سبتمبر 1918. ويركز الفصلان الأخيران في هذا الباب (الخامس

والسادس) على حملتين بريطانيتين كبيرتين ضد الدولة العثمانية، فيركز أولهما على الحملة في صحراء شبه جزيرة سيناء وفلسطين، والآخر على الحملة في بلاد الرافدين. وقد جرى تقييد كلتا الحملتين اللتين تجاوز قوام الواحدة منهما 400 ألف فرد، وكانت لهما تداعيات مهمة على ملامح التسوية الجغرافية السياسية فيما بعد الحرب. ولقد اشتملت كل هذه الحملات، بوصفها مجهودات حربية كبيرة، على أعباء هائلة على القوى الإمبراطورية، وبالأخص على المجتمعات المضيفة ذات الصلة بالحرب، حيث تشابكت تجربة شن الحرب مع تجربة بناء الدولة وإعادة البلورة الجذرية لأنماط التنظيم الاجتماعي السياسي والنشاط الاقتصادي المحليين.

الباب الثاني
العمليات العسكرية

الفصل الثالث

حملات القوقاز

في الكم الهائل من الأدبيات المكتوبة باللغة الإنجليزية التي تتناول الحرب العالمية الأولى، وُجّه قدر قليل نسبياً من الاهتمام إلى السلسلة المتعاقبة من المعارك واسعة النطاق التي دارت بين الجيشين العثماني والروسي في القوقاز. فهناك مؤلف ممتاز، فيما عدا هذا المأخذ، حول «اتجاهات جديدة في دراسات الحرب العالمية الأولى» نُشر في عام 2011 لا يحتوي، على سبيل المثال، على أي إشارة إلى هذه المنطقة ولا الحملات التي جُرّدت فيها⁽¹⁾. وفي تصرف يشكّل إلى حد ما انعكاساً لتركيز معظم الكتابات التاريخية على الناطقين باللغة الإنجليزية، افتقرت حملات القوقاز أيضاً إلى الإغراء الذي كان ينطوي عليه القتال في ساحات معارك مقدسة وتاريخية والذي كان يلهب خيال العامة، وهو الشيء الذي كان يصدق على الوضع آنذاك وما زال يصدق عليه منذ ذلك الحين. غير أن القتال في القوقاز كان مصدر استنزاف كبيراً للموارد العسكرية العثمانية إبان الحرب العظمى وساهم في «تآكل» قدراتها العملياتية وقواها البشرية. والحقيقة أن مايكل ياب قدّر تكبّد الدولة العثمانية في القوقاز في الفترة بين نوفمبر 1915 وفبراير 1917 ثلاثة أرباع الخسائر التي تكبّدها في الأرواح كافة، مما ترك الآلة العسكرية العثمانية شديدة الضعف عندما اشتدت الحملتان البريطانيّتان في فلسطين وبلاد الرافدين في عامي 1917 - 1918⁽²⁾.

لقد مثّلت حملات القوقاز صداماً بين إمبراطوريتين لن يُكتب لهما البقاء بعد الحرب العظمى، وضخّم هذا الصدام العداء التاريخي والمطالبات المتداخلة بالأحقية في أرض القوقاز اللذان داماً طوال حرب القرم في السنوات 1853 - 1856 والحرب الروسية التركية في عامي 1877 - 1878. فعُبّئت الآلة الإمبرطورية، في كل من سانت

بترسبرغ والآستانة، ووجهت موارد هائلة لشن حملة من جديد ضد عدو مألوف. ودارت رحى المعارك التي نتجت عن ذلك على نطاق ملحمي مأساوي على طول جبهة امتدت لأكثر من 700 ميل تناثرت فيها سلاسل جبلية شاهقة تغطيها الثلوج وتنخفض فيها درجات الحرارة إلى ما دون درجة التجمد. وقد وُصفت المعارك الفردية، مثل تلك التي دارت رحاها عند ساريقاميش وفي محيطها (22 ديسمبر 1914 - 4 يناير 1915)، بأنها «واحدة من أعظم الكوارث العسكرية في القرن العشرين» حيث أبيد الفيلق التاسع التابع للجيش الثالث العثماني عن بكرة أبيه⁽³⁾.

علاوة على ذلك، كان لخطورة الصراع بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية من العواقب ما تخطى الحدود الإقليمية، حيث ربط بين القتال الدائر في البلقان والشرق الأوسط، كما شمل أيضًا في طياته بعض القضايا العميقة كالإبادة الجماعية للأرمن ورؤى الروس والإنجليز والفرنسيين والعثمانيين المتعارضة بشأن تنظيم المنطقة. ومع اقتراب الحرب من نهايتها، وفيما أخذت الإمبراطورية الروسية في الانهيار والدولة العثمانية في الاضمحلال، برزت إلى الواجهة في لندن اعتبارات البترول المكتشف حديثًا التي كانت الدافع وراء الحملة الإنجليزية غير العادية (من حيث تحويل الموارد العسكرية الشحيحة على نحو متزايد) إلى باكو وبحر قزوين في سبتمبر 1918. وهكذا فإن الحملة التي بدأت تنافسًا على الهيمنة الإقليمية بين قوتين إمبراطوريتين واتسمت بمعارك بدت وكأنها تنتمي إلى زمن غابر صارت في نهاية المطاف استباقًا لإعادة ترتيب المصالح الجغرافية السياسية القائمة على النفط التي آذنت بما تلا ذلك من تطور السياسات في القوقاز في القرن العشرين.

إمبراطوريتان في حالة حرب

لطالما كانت المنطقة الممتدة من القوقاز حتى آسيا الوسطى ساحة قتال بين الإمبراطوريتين الروسية والعثمانية. وقد ارتبطت «المسألة الشرقية» إبان القرن التاسع عشر بمطامع روسيا في أجزاء من الدولة العثمانية ورغبتها في فرض سيطرتها على طوائفها المسيحية ومواقعها الدينية في الأرض المقدسة. وأُنذر احتمال التدخل الروسي

في الشؤون العثمانية بأن يُحدث اختلالاً في توازن القوى الأوروبية المضطرب الذي تقرر بموجب مؤتمر فيينا في عام 1815، والذي تأكد مجدداً في يونيو 1841 بموجب اتفاقية لندن للمضائق التي وقعت عليها كل من المملكة المتحدة وفرنسا والنمسا وبروسيا وروسيا والتي قضت بإغلاق مضيق البوسفور والدردنيل أمام السفن الحربية الدولية، وبالتالي حرمت روسيا من إمكانية الوصول إلى البحر المتوسط انطلاقاً من موانئها المطلّة على البحر الأسود. لكن في ظل ما كان يبدو على الدولة العثمانية من اضمحلال نهائي وما عُرف عنها من أنها «رجل أوروبا المريض»، سرعان ما تحولت هذه الاتفاقية إلى نقطة اشتعال بين القوى الأوروبية، وأفضت مباشرة إلى اندلاع حرب القرم في عام 1853. ذلك الصراع الذي دام ثلاثة أعوام وانحازت فيه كل من بريطانيا وفرنسا إلى صف الدولة العثمانية للدفاع عنها ضد الاعتداء الروسي. ودار قتال شديد العنف في القوقاز حيث اتخذ كل من الروس والعثمانيين موقفاً هجومياً وسعياً إلى توسيع وترسيخ نفوذهما في المنطقة كل على حساب الآخر.

وفي سبعينات القرن التاسع عشر ووصولاً إلى اندلاع الحرب العظمى، هيمنت مسألة الضعف العثماني من جديد على الأجندات الأوروبية. حدث ذلك في الوقت الذي بدا فيه أن النزعات القومية الصاعدة بين الأقليات الإثنية الكثيرة داخل الدولة العثمانية تنذر بتفتتها السياسي، ومن ثم انهيارها في نهاية المطاف. وكان عصر الصحوة القومية، وهو الذي استهلته الثورتان الصربية واليونانية في العقدَيْن الأولَيْن من القرن التاسع عشر، قد انتشر بسرعة خارج حدود البلقان. وتضمّنت هذه الصحوة القومية تحديثات محمد علي وإصلاحاته الرائدة في مصر إبان ثلاثينات القرن التاسع عشر وأربعيناته التي خلقت وعياً مصرياً خالصاً حل محل الارتباط بالأعراف والمُثل العثمانية. وبحلول الوقت الذي تدخلت فيه أوروبا في مصر بعد عام 1876، كان هذا الشعور الوطني المصري «دون العثماني» المستجد قد بات واضحاً قوياً. ثم جاء الاحتلال البريطاني عام 1882 ليوفر دافعاً إضافياً لظهور إحساس جديد بالهوية في الأرض التي كانت ما زالت تتبع الدولة العثمانية اسمياً. كما حدثت أيضاً صحوات متزامنة في بلاد الشام وفي أماكن أخرى من الأقاليم العربية التابعة للدولة

العثمانية، فيما تفاعلت الأيديولوجيات السياسية مع نمو طبقة بارزة من المتعلمين وظهور ثقافة الطباعة⁽⁴⁾.

وقد تصادمت الطموحات الوطنية الصاعدة مع برنامج الإصلاحات والتحديث العثماني. فكما بيّنا في الفصل الأول، تضمنت «التنظيمات العثمانية» التي بدأت في عام 1839 واستمرت حتى عام 1876 محاولة إعادة مركزية السيطرة العثمانية على أقاليمها البعيدة ضمن عملية أشمل لإصلاح هياكل الدولة والجيش وتحديثها. كما أدخلت بالتزامن مع ذلك تحسينات وإصلاحات إدارية على طرق الاتصال والنقل، إلى جانب بذل جهود لتوسيع قاعدة النظام العثماني الاجتماعية الضيقة. غير أن تلك الإصلاحات ترتب عليها أيضًا إحداث خلل في التوازن المضطرب بين سكان الدولة العثمانية المسلمين وغير المسلمين، زد على ذلك أنها قوّضت بفعل مستويات الفساد المتفشية ومشاعر النفور المتنامية مع ازدياد سفور السيطرة العثمانية وتغلغلها المباشر⁽⁵⁾.

ولقد تسارع التفاعل الملتهب بين النزعة القومية الإثنية والسيطرة الإمبراطورية في سبعينات القرن التاسع عشر، وتمحور حول البلقان وفيما بين الطوائف السلافية التي كانت تربطها بروسيا روابط دينية قوية، حيث تمرد الصرب الذين كانوا يعيشون في إقليميّ الهرسك والبوسنة العثمانيّين في عاميّ 1875 و1876 ثم التهام الطوائف المسيحية في الأقاليم العثمانية الأخرى في البلقان. وكان أبرز تلك الأحداث التمرد البلغاري الذي اشتعلت شرارته في أبريل 1876 قبل أن يتعرض للإخماد بوحشية على أيدي الوحدات العسكرية العثمانية النظامية وغير النظامية. وبالطبع استحوذ ما صاحب إخماد التمرد من عمليات انتقام ومذابح على الاهتمام السياسي والجماهيري في أوروبا، وها هو السياسي البريطاني المخضرم وليم غلاستون يشجب «الفظائع البلغارية» ويحث الحكومة البريطانية على سحب دعمها للدولة العثمانية، وهو ما كانت له عواقب سياسية ودبلوماسية فورية حيث رفضت بريطانيا الوقوف في صف الآستانة في الحرب الروسية التركية التي نجمت عن ذلك ونشبت في أبريل 1877.

ونجحت الجيوش الروسية في أثناء هذا الصراع الذي دام أحد عشر شهرًا، من أبريل 1877 حتى مارس 1878، في استعادة الأراضي التي كانت قد خسرتها في القوقاز إبان حرب القرم. فقد شنت روسيا هجومًا ثانيًا في البلقان والقوقاز أوصل القوات الروسية إلى مشارف الآستانة ذاتها مع استعادتها السيطرة على إقليمَي باطوم وقارص في شرقي تركيا. علاوة على ذلك فقد انهيار المركز العثماني في أوروبا وتفتت، حيث نتج عن ذلك إبرام معاهدة سان ستيفانو في 3 مارس 1878 التي اعترفت باستقلال صربيا والجبل الأسود ورومانيا، وأنشأت دولة بلغارية كبرى موالية لروسيا. لكن من زاوية أخرى أخلّت هذه التغيرات الجذرية في شكل السلطة في البلقان بشدة بتوازن القوى فيما بعد التسوية الأوروبية لسنة 1815 لدرجة أن المستشار الألماني أوتو فون بسمارك دعا إلى عقد مؤتمر برلين في يونيو ويوليو 1878 للفصل في الحدود النهائية. وأدى هذا المؤتمر إلى مراجعة كبيرة لخطط إقامة بلغاريا الكبرى بإعادة مقدونيا إلى السيطرة العثمانية ومنح صربيا والجبل الأسود، بدلًا من بلغاريا، أجزاءً من كوسوفو. كانت قضية كوسوفو بالأخص خطيرة، وذلك على نحو ما وصفه نويل مالكوم أبرز مؤرخي البلقان:

... كان تسليم منطقة يسكنها الألبان إلى دولة سلافية... الشرارة التي أشعلت حركة مقاومة في كوسوفو، في البداية لمعاهدة برلين وفي النهاية للحكم العثماني ذاته، وفي غضون أربع وثلاثين سنة سيكون الحريق الذي أشعلته أحد الأسباب الرئيسة لسقوط الدولة العثمانية⁽⁶⁾.

ومنحت معاهدة برلين، بالإضافة إلى ذلك، إمبراطورية النمسا والمجر حقوقيًا إدارية خاصة وحقوق احتلال في إقليمَي البوسنة والهرسك العثمانيين. وعلى مدى العقود الثلاثة حتى عام 1908، شددت إمبراطورية النمسا والمجر قبضتها حتى مع استمرار تبعية البوسنة والهرسك اسميًا للدولة العثمانية. وحُسم هذا الوضع الصوري عندما أقدمت النمسا من طرف واحد على ضم الإقليمين في 6 أكتوبر 1908 ودمجهما رسميًا في إمبراطوريتها، مما أثار توترًا خطيرًا طويل الأمد مع القوميين

الصربيين والسلافيين الآخرين الذين كانوا يتمنون إنشاء دولة سلافية جنوبية موحدة في البلقان. وفي 28 يونيو 1914، صار التجلي العملي لهذه التوترات السياسية والقومية المتصاعدة واضحًا عندما أقدم القومي الصربي الشاب غافريلو برينسيب على اغتيال الأرشيدوق فرانز فرديناند، ولي عهد إمبراطورية النمسا والمجر، وأطلق سلسلة الأحداث التي أدت في النهاية إلى اشتعال فتيل الحرب العظمى بعد ذلك بشهر بالضبط في 28 يوليو.

وفي القوقاز، حدث شحذ مماثل للهويات في أعقاب الاضطرابات العاصفة التي وقعت في سبعينات القرن التاسع عشر. ففي ثمانينات ذلك القرن وتسعيناته، استجابت السلطات الروسية لانضمام مجموعة متعددة اللغات من الفئات الإثنية إلى إمبراطوريتها بحملة «ترويس» منسقة استهدفت المجموعات السكانية الكبيرة من الأرمن وال جورجيين والتتار الذين كانوا يشكلون في مجموعهم نحو نصف سكان أقاليم القوقاز التي ضمت حديثًا. كما اشتملت أيضًا على التشريد القسري لنحو 75 ألف تركي وعلى تراجع عام في سكان المنطقة المسلمين. وازدادت بالتزامن مع ذلك القيمة الاقتصادية للقوقاز لدى الإمبراطورية الروسية بسرعة، إذ كما نوه هيو ستراكمان «تجاوزت قيمة السلع المارة عبر باكوف في 1913 قيمة السلع المارة عبر كل الموانئ الروسية الأخرى، وكان 85 في المائة منها عبارة عن منتجات نفطية». وكذلك ازدادت قيمتها لاقتصاد روسيا الصناعي (وفيما بعد 1914 اقتصادها الحربي) بفعل الكميات الكبيرة من السلع كالذهب والزنك والحديد والنحاس والكوبالت⁽⁷⁾.

ومن ثم فبحلول عام 1914، كان وضع الأقليات الإثنية المستوعبة داخل الإمبراطوريتين العثمانية والروسية يشبه الفتيل الذي ينتظر شرارة. والواقع أن النزعة القومية تضافرت مع صعود طبقة وسطى مثقفة بين المجتمعات الأرمنية والأذرية وال جورجية في القوقاز. وفي الحالة الأذرية، اندمج هذان العنصران مع الحماسة للوحدة الإسلامية من خلال تنظيم سري (يسمى «مساواة») كان يهدف إلى تحقيق المساواة بين المسلمين كافة، في روسيا وفيما وراءها، وفي النهاية توحيدهم⁽⁸⁾.

وقد تصادمت كل هذه النزعات القومية المنبعثة مع إعادة تنظيم الهوية التي كانت جارية على قمة جمعية الاتحاد والترقي بعد وصولها إلى السلطة في الآستانة في عام 1908. وفي خضم خلفية عامة من ضعف الدولة العثمانية عسكريًا وماليًا في أعقاب هزيمتها في الحرب الروسية التركية وفرض الضوابط الاقتصادية الأوروبية الصارمة عليها، صارت مشاعر العداوة الكامنة والفعلية بين الطوائف متعددة الإثنيات داخل الدولة العثمانية أشد قوة وأسهل في تعبئتها، وقد بلغ هذا خاتمته المقيمة بالإبادة الجماعية للأرمن في عام 1915، لكن جذوره يمكن عزوها إلى صدام الهويات والصحوات القومية في القرن التاسع عشر.

الحملة الشتوية (1914 - 1915)

بدأت الحرب العثمانية في المسرح الروسي، وتضمنت قصفًا بحريًا مفاجئًا للموانئ الروسية المطلة على البحر الأسود في 29 سبتمبر 1914 من جانب سفن تتبع أسطول البحر المتوسط الألماني الذي كان تحت قيادة اللواء بحري فلهلم سوشون الذي كان قد أفلت قبل ذلك من مطاردة الحلفاء إياه في البحر المتوسط في أغسطس 1914 ونجح في اللوذ بالآستانة. وكان من هذه السفن الطرادان الألمانيان «غوبين» (طراد قتال) و«بريسلاو» (طراد خفيف) اللذان بادرا برفع علم البحرية العثمانية لدى وصولهما إلى مضيق البوسفور. وقد تجلّى الإرث القوي للنفوذ العسكري الألماني في الآستانة في هذه المرحلة تجليًا واضحًا في ظل عمل سوشون والسفير الألماني المتنفذ هانز فون فانغنهايم مع أنور باشا الموالي لألمانيا لتوجيه العثمانيين إلى المشاركة في الحرب، وهو ما حدث من خلال سلسلة من المناورات البحرية المجابهية قام بها سوشون في شهري سبتمبر وأكتوبر 1914 وبلغت ذروتها في قصف موانئ سيفاستوبول وأوديسا ويلاتا الروسية في 29 أكتوبر⁽⁹⁾.

وما إن ضُمن دخول الدولة العثمانية الحرب العظمى، انصب تركيز أهدافها العسكرية على إعادة الاستيلاء على الأراضي القوقازية التي خسرتها في الحرب الروسية التركية. وكان شن الدولة العثمانية حملة في المرتفعات الأرمنية في المنطقة

الواقعة بين شرقي تركيا وبحر قزوين سيلبي غرضين في الآستانة، أولهما استعادة إقليمي قارص وباطوم ورأس السكة الحديدية الروسية في مدينة ساريقاميش الصغيرة، والثاني تحويل القوات الروسية عن الجبهة الشرقية التي بدأت تتطور على الجبهتين البولندية والغاليسية. بالإضافة إلى ذلك، ستقطع هذه الخطوة إمكانية وصول روسيا إلى منطقة بحر قزوين الغنية بالنفط، لذا حازت على رضا العسكريين الألمان الذين كانوا يشغلون مراكز نفوذ في الجيش العثماني. وقد واجه الجيش الثالث العثماني جيشًا قوقازيًا روسيًا مستنزفًا بشدة بسبب اضطراره إلى نشر نصف قوته في الجبهة الشرقية في أعقاب تدمير الجيشين الأول والثاني في معركتي تانبرغ وبحيرات ماسوريان الملحميتين في شهري أغسطس وسبتمبر. وبالنسبة للقيادة العليا العثمانية والروسية اللتين كانتا تصارعان للموازنة بين الطلب المتزاحم على نشر القوات في مسارح حرب متعددة، ساهمت الصعوبات اللوجستية والإدارية التي اشتملت عليها الحملات مساهمة كبيرة في الخسارة الهائلة في الأرواح التي تكبدها كلا الجانبين.

وكان التحرك العثماني صوب ساريقاميش الذي بدأ في 22 ديسمبر 1914 أول هجوم كبير في إطار تلك الحرب، وقد جرى ذلك في قلب الشتاء في ساحة قتال تتألف من هضبة مرتفعة يصل ارتفاعها إلى نحو 2000 متر فوق مستوى سطح البحر ولا يمكن الوصول إليها إلا بالسير عبر ممرات جبلية مرتفعة. وأضافت العواصف الجليدية العاتية ودرجات الحرارة بالغة الانخفاض المزيد إلى التحديات اللوجستية الهائلة التي واجهت الجيشين العثماني والروسي المتجمعين كل في حصنه في أرضروم وفي قارص. وكانت الحملة العثمانية تهدف إلى تطويق الجيش الروسي المنهك وإجباره على الانهيار بقطع خطوط مواصلاته في ساريقاميش. وجرأت التقارير العسكرية الألمانية التي تتحدث عن حدوث انهيار سريع في القيادة والسيطرة في الوحدات الروسية أثناء معركة تانبرغ أنور باشا وجنرالاته في الجيش الثالث، لكن الخطة العملياتية العثمانية كانت تعتمد أشد الاعتماد على خفة الحركة وتحذو إلى حد كبير حذو التكتيكات النابليونية المتمثلة في تثبيت قوة العدو وتطويقها وتدميرها. بيد أن مكن المشكلة تمثل في أن قسوة الأحوال الجوية الشتوية كانت تعني

ببساطة استحالة الوصول إلى مستوى سرعة الحركة المطلوب⁽¹⁰⁾.

فقد شن الجيش الثالث هجومه في 22 ديسمبر، حيث واجه 118 ألف جندي عثماني ما مجموعه 65 ألف جندي روسي، لكن أغلبية أنور باشا العديدة تدهورت بشدة إذ لم يكن بحوزة جيشه إلا ما يزيد قليلاً عن 200 قطعة مدفعية و75 رشاشاً. ومع ذلك ظل الفيلقان التاسع والعاشر التابعان للجيش الثالث يحققان في البداية تقدماً مطرداً بطول جبهة كانت تمتد في بعض الأماكن إلى مسافة 930 ميلاً. وكان هذا كافياً ليبث الذعر في البداية في قلوب القادة العسكريين الروس الذين أمروا قبل الأوان بإخلاء المنطقة برمتها، لكن سرعان ما بدأ الزخم العثماني يتباطأ إذ كان كثير من الجنود العثمانيين يفتقرون إلى الملابس الشتوية والمؤن الكافية، في حين أن عاصفة جليدية بدأت تهب في 25 ديسمبر زادتهم إنهاكاً على إنهاكهم فبدءوا يصابون بلسعات الصقيع وهبوط درجة الحرارة. وساءت الأوضاع في اليوم التالي فهلك عدة آلاف من الجنود العثمانيين من البرد بعد أن تدهورت درجة الحرارة إلى ما دون 26 درجة مئوية تحت الصفر. وبحلول الوقت الذي وصل فيه الجيش الثالث أخيراً إلى ساريقاميش في 29 ديسمبر، كان رجاله يقتربون من نهاية قدرتهم البدنية على الاحتمال. فشن فيلقاه التاسع والحادي عشر هجومين من المركز على ساريقاميش في 29 ديسمبر و1 يناير 1915 لكنهما رُداً على أعقابهما متكبدن خسائر فادحة في الأرواح. ومع فقدان الهجوم العثماني زخمه، طوّقت القوات الروسية ذاتها الجيش الثالث وأبادت الفيلق التاسع عن بكرة أبيه. وفي 4 يناير، بدأ العثمانيون يتقهقرون إلى أرضروم التي وصلوها في 11 يناير منهزمين في حالة رثة⁽¹¹⁾.

ولا ريب أن التكلفة البشرية في الأرواح والمعاناة في ساريقاميش كانت هائلة، حيث لقي ما يصل إلى 47 ألف جندي عثماني و28 ألف جندي روسي حتفهم، أي ما يقارب نصف إجمالي الرجال الذين نُشروا في تلك العملية. وتشير التقديرات إلى أن 15 ألفاً من العثمانيين و12 ألفاً من الروس ماتوا نتيجة سوء الأحوال الجوية لا بسبب أعمال العدو، حيث تم استخراج عشرات الآلاف من الجثث المتجمدة بعد

أن انتهى القتال أخيرًا. بل إن هناك فرقة عثمانية خسرت وحدها 4 آلاف من أصل 8 آلاف رجل هم كامل قوتها بسبب لسعة الصقيع في أربعة أيام فقط في أثناء الحملة⁽¹²⁾. كما ترتب على الافتقار إلى الطرق أو السكك الحديدية أن فاقم الحرمان من العتاد الصعوبات الناجمة عن الطقس الزمهريري وعدم وجود ما يكفي من مؤن. ونتيجة فناء غالبية الفيلق التاسع، بالإضافة إلى وباء التيفوس الذي اجتاح الجيش الثالث المنهك، لم يعد إلى أرضروم إلا أقل من خمس القوات العثمانية التي كانت قد انطلقت في الحملة⁽¹³⁾. وزادت محصلة الضحايا المريعة الناتجة عن الاشتباه في الخيانة وعن الأعمال الانتقامية التكلفة البشرية الهائلة للمعركة زيادة شديدة. وقد نؤه سترakan إلى تعرض الطائفة الأجرية (المسلمة) للقمع بلا رحمة على يد الإمبراطورية الروسية بعد انتهاء المعركة، مما قلص أفرادها من 52 ألفًا إلى مجرد 7 آلاف فيما بين شهري فبراير وأبريل 1915، في بادرة تنذر بما سيحل بالأقليات الأخرى التي تشكّل المزيج القوقازي من الأمم والإثنيات⁽¹⁴⁾.

بل وكان الأخطر من ذلك ما فعله العثمانيون بالعكس مع الطوائف الأرمنية التي تعيش داخل حدود السلطنة، حيث أنحى أنور باشا باللائمة في هزيمته الفوضوية على خيانتهم المزعومة. وكان ما بين 1.5 و2 مليون أرمني يعيشون في الدولة العثمانية (حوالي نصفهم يعيشون في شرقي الأناضول)، وإن كانت أعداد كبيرة أيضًا تعيش على الجانب الآخر من الحدود الروسية ولا سيما في البلدات القوقازية التي انتزعت روسيا السيطرة عليها من الآستانة في عام 1878. ولا شك أن حقيقة أن مجتمعات الأرمن كانت موجودة على كلا جانبي الحدود العثمانية الروسية قد جعلتهم عُرضة للخطر بشكل فريد من نوعه بعد اندلاع الحرب. والشئ الآخر أيضًا الذي جعلهم عُرضة للخطر هو حقيقة أنهم كانوا يمثلون أقلية مسيحية في حملة تُشن ضد أبناء ملتهم في روسيا. والحقيقة أن الزعماء الأرمن لم يكتفوا بالقسم على الولاء للآستانة في نوفمبر 1914 وتلبية أكثر من 100 ألف منهم أوامر التعبئة، بل إنهم رفضوا دعوة إخوانهم الأرمن الذين يعيشون على الجانب الروسي من الحدود إلى التمرد⁽¹⁵⁾. وإن كان عدة آلاف من الأرمن الذين يعيشون داخل السلطنة قد

قدموا مساعدات مادية إلى القوات الروسية وتحرشوا بالجيش الثالث العثماني أثناء تفهقره من ساريقاميش بخلاف الأرمن الذين يعيشون في روسيا الذين دعوا إلى المقاومة الشعبية ضد الغزو العثماني وعبثوا جماعات من المتطوعين المحليين. وبالطبع فإن قرارات الأرمن في كل من الدولة العثمانية وروسيا كانت انعكاسًا لعقود من الاضطهاد على أيدي أنصار القومية التركية، في ظل ما وقع من مذابح قبل ذلك في تسعينات القرن التاسع عشر، وفي تاريخ أحدث من ذلك من عمليات طرد جماعي للأرمن بالإضافة إلى اليونانيين في وقت مبكر من عام 1914. وفي ظل انخراط العثمانيين آنذاك في صراع وجودي مع روسيا الأرثوذكسية، عظمّت شكوك السلطنة في أقليتها المسيحية واتخذت شكلًا شديد العدوانية⁽¹⁶⁾.

الإبادة الجماعية للأرمن

بدأت الإبادة الجماعية للأرمن على أشدها في 24 أبريل 1915 باعتقال وترحيل الآلاف من الزعماء السياسيين والمثقفين الأرمن. وقد أثار هذا الفعل مذابح واسعة الانتشار أسفرت في النهاية عن مقتل ما يقدر بمليون أرمني. وشكّلت توليفة القتل المباشر والمسيرات القسرية عبر الصحراء السورية واحدًا من أبكر الأمثلة على ما يمكن أن يطلق عليه «جريمة ضد الإنسانية»، على الرغم من أن مصطلح «إبادة جماعية» لم يدخل المعجم إلا في عام 1944⁽¹⁷⁾. لكن هذا لم يحدث في فراغ، بل وقع بالأحرى في سياق مواجهة متزايدة المرارة بين النخبة العثمانية الإمبراطورية والهويات الوطنية المتقدمة لدى الكثير من الأقليات، حيث كانت «الحركة الثورية الأرمنية» قد برزت في أواخر القرن التاسع عشر للدفاع عن المجتمعات والقرى الأرمنية ضد قهر وهجمات العثمانيين، وبالإضافة إلى تدشينها الحزب الديمقراطي الليبرالي الأرمني في مدينة وان في عام 1885 فإنها طورت الحركة القومية الأرمنية الوليدة وعمّقت وعيها الذي انتشر بسرعة بين المثقفين والشتات الأرمني⁽¹⁸⁾. وتجدر الإشارة إلى أن الاضطرابات الثورية قد طالّت أيضًا الأرمنيين الذين يعيشون في الأقاليم الروسية في القوقاز، وبلغ هذا ذروته في انتفاضة قام بها الأرمن ضد الحكم

الروسي القهري في عام 1905 أسفرت عن مقتل الآلاف منهم في باكو وتبليسي (تفليس) وأريفان⁽¹⁹⁾.

وفيما بين عامي 1894 و1896، بلغت العلاقات المتوترة بين الأرمن والعثمانيين ذروتها في سلسلة من المذابح التي أسفرت عن قتل ما يصل إلى 100 ألف أرمني، وهي المذابح التي تُعرف باسم المجازر الحميدية والتي وقعت على خلفية اشتداد التأكيد على الهوية الإسلامية في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (حكم في الفترة 1876 - 1909). كما أن التراجع الاقتصادي والمالي الذي شهدته الدولة العثمانية قد زاد من تعرّض الأقليات الدينية الثرية نسبيًا للهجمات المحرّضة، وهكذا صار يُنظر إلى طوائف الأرمن داخل السلطنة نظرة ارتياب فيما أثّرت الشكوك في ولائها للباب العالي. واجتاحت نوبة من القتل والانتقام الآستانة والبلدات والمدن الواقعة في وسط وشرقي تركيا التي تضم طوائف أرمنية كبيرة، وهو ما أثار أيضًا استجابات مضادة، وذلك مثل الاقتحام الجسور للبنك السلطاني العثماني في الآستانة على أيدي الثوار الأرمن المطالبين بحماية أوروبية في أغسطس 1896. وفي مناطق أخرى، استهدفت الهجمات أقليات أخرى أيضًا مثل اليونانيين. ومن جديد، وكما هو الحال مع قتل البلغار في سبعينات القرن التاسع عشر، عبأت المحنة التي تتعرض لها أقلية مسيحية الرأي الدولي، وخصوصًا في أوروبا وفي الولايات المتحدة، وكلاهما موطن لجاليات كبيرة من الأرمن المغتربين⁽²⁰⁾.

ويبدو أن الخسارة المتتالية لأقاليم عثمانية في ليبيا والبوسنة والبلقان في العقد الذي سبق عام 1914 قد صعدت مشاعر القلق التي كانت تحس بها جمعية الاتحاد والترقي الجديدة التي وصلت إلى السلطة في الآستانة في عام 1908، مما أسفر عن إعادة نظر في «الهوية الإمبراطورية» اتخذت اتجاهات متباعدة نوعًا ما. ومن ناحية أخرى، تسبب التأكيد على الإسلام، على نحو ما ذكرنا من قبل، في ربط الأقاليم الكثيرة ببعضها بعضًا من خلال رباط الدين الموحد، وإن تطورت قومية ضيقة متمحورة حول الإثنية في قلب السلطة الأناضولي التركي وتحديداً بين الجيل الجديد

المتحمس من أنصار اتحاد «تركيا الفتاة» المتولي السلطة في الآستانة⁽²¹⁾. وقد ذهب المؤرخ عالم الاجتماع التركي الكبير تانر أكجام إلى أن «الاتحاديين ببساطة استخدموا العثمانية ستارًا لسياسة تترك البلد التي اتبعوها حول محور الإسلام»⁽²²⁾.

وقد وقع الأرمن واليونانيون، أبرز أقليتين في السلطنة وأكثرهما تنفدًا، بين شقي الرحى إذ كانت الفتان مُعرضتين لاتهامات التعاطف مع المصالح الأجنبية. تلك الاتهامات التي ازدادت بعد أن أقدمت جماعات أرمنية تعيش في تركيا في عام 1912 على مناشدة روسيا مساندتها في إقامة كيان يتمتع بحكم ذاتي داخل السلطنة العثمانية تحت حماية قوة عظمى⁽²³⁾. علاوة على ذلك، فإن حروب البلقان انتقل واحد من أشهر القادة العسكريين الأرمن إلى بلغاريا ونظم وحدات متطوعين لمحاربة القوات العثمانية، مما أدى إلى مزيد من تصعيد التوترات بين الأتراك والأرمن قبل نشوب الحرب العالمية الأولى⁽²⁴⁾.

وفي فبراير 1914، انطلقت في أوروبا مفاوضات متعددة الجنسيات للوصول إلى اتفاقية إصلاحات أرمنية، واشتملت هذه المفاوضات على لجنة معينة خصيصًا تضم ممثلين فرنسيين وألمان وروس وبريطانيين وإيطاليين ونمساويين ومجريين للنظر في خطة روسية تقضي بإقامة إقليم أرمني موحد في شرق تركيا تحت رعاية حاكم مسيحي عثماني أو أوروبي. وكان الروس متلهفين لمنع أي انتشار لعدوى التوتر من شرقي الأناضول إلى المزيج الروسي المتقلب من الطوائف الإثنية والدينية في القوقاز. وقد أخفقت اللجنة في البداية، إلى حد ما بسبب معارضة ألمانيا والنمسا والمجر، واستمرت الأوضاع على الأرض في التدهور، وفي النهاية أبرمت اتفاقية تسوية في 8 فبراير 1914. وجاءت المسودة النهائية مخففة المفعول بشدة، مما يعكس الجهود المضنية التي بذلها السفير الألماني في الآستانة فانغنهايم. بيد أن هذا لم يمنع وزير الخارجية الروسي سيرغي سazonوف من تحذير السفير العثماني في سانت بطرسبرغ من أن روسيا ستتدخل في حالة حدوث أي عمليات قتل جماعي أخرى للأرمن⁽²⁵⁾.

وفي أغسطس 1914، صرح الاتحاد الثوري الأرمني علانية بدعمه السلطنة العثمانية في حالة وقوع أي حرب بينها وبين روسيا، وسافرت وفود إلى القوقاز لإنشاء الأرمن عن التطوع لدى الجيش الروسي. ومع ذلك، كان بين الطوائف الأرمنية في الأقاليم العثمانية تعاطف هائل تجاه روسيا. وأبرز مثال على ذلك فرار ما يصل إلى 50 ألف جندي معظمهم من الأرمن من الحماية العثمانية في أرضروم وعبورهم إلى الخطوط الروسية فيما بين أغسطس ونوفمبر 1914 فقط. كما نظمت فرق من محاربي العصابات نفسها على امتداد الجبهة العثمانية في القوقاز وبدأت تتلقى إمدادات على هيئة أسلحة وذخائر روسية. وكانت هذه الأسلحة والذخائر تهرب عبر المنطقة الحدودية غير المحكمة، مما زاد من شبكات العثمانيين في وجود علاقة حميمة عابرة للحدود. 26 ثم في أواخر فبراير، أمرت وزارة الحربية بنقل كافة المجندين الأرمن العاملين في الجيش العثماني من الخدمة النشطة إلى الخدمة الخاملة في كتائب العمل. وعمد أنور باشا إلى فصل الأرمن داخل القوات المسلحة لتقليل احتمال الفرار الجماعي إلى الوحدات الروسية، مما برهن أيضاً على انعدام ثقة الأستانة في ولاء الأرمن⁽²⁷⁾.

وقد بدأ القتل الجماعي للأرمن في أبريل 1915 عندما أبدى السكان في بلدة زيتان مقاومة عنيفة لمحاولات تجنيدهم. وكان جودوت بك (الوالي العثماني على ولاية وان، صهر أنور باشا، المؤيد لاتباع سياسات قاسية تجاه الأرمن) قد أسند إليه هذا المنصب بعد اندلاع الحرب بفترة قصيرة في نوفمبر 1914 خلفاً لوالٍ آخر يميل إلى المهادنة. ويؤكد هنري مورغنتاو، السفير الأمريكي في الأستانة الذي عبأ وصفه المعاصر للمجازر الرأي الدولي عندما نشر في عام 1918، أن جودوت بك «كان يكره الأرمن»، ويضيف أنه «ليس هناك أدنى شك في أنه جاء إلى وان حاملاً تعليمات حاسمة بإبادة جميع الأرمن في هذه الولاية، لكن الأوضاع لم تيسر حدوث مثل هذه العمليات على مدى الأشهر القليلة الأولى»⁽²⁸⁾.

وعلى أية حال فإن القوات العثمانية ضربت حصاراً في 19 أبريل على مدينة

وان وقاتلت المدنيين الأرمن المسلحين لمدة أربعة أسابيع قبل انسحابها. وبعد ذلك بخمسة أيام، وتحديدًا في 24 أبريل، جُمع الأعيان والمثقفون الأرمن في الآستانة واعتُقلوا بناءً على أمر صدر من وزير الداخلية طلعت بك، ويُحتفى الآن بهذا التاريخ باعتباره «يوم ذكرى الإبادة الجماعية» في أرمينيا. وبحلول نهاية أبريل، كان نحو 50 ألف أرمني قد قُتلوا في ولاية وان في حملة عنف متصاعدة نسقتها «المنظمة الخاصة» التابعة لوزارة الحربية العثمانية، حيث أُطلق سراح 30 ألف سجين من السجون العثمانية لتشكيل نواة عصابات قتل، وإن عُززوا بعسكريين وأفراد شرطة من الولاية في إطار تنظيم منهجي للقتل الجماعي⁽²⁹⁾. وقد واجهت جماعات الميليشيات هذه مقاومة متزايدة من جانب الطوائف الأرمنية المحلية لكن مناشدات الحماية اليانسة الموجهة إلى أبناء ملتهم النصارى في ألمانيا لم تجد نفعًا. فلم تكن لدى المسؤولين الألمان في برلين إلا أقل الرغبة في إحراج حليفهم العثماني، وبالتالي لم يقدموا احتجاجًا رسميًا، وإن كان نائب القنصل في أرضروم قد قام بمحاولة فاترة للجم الأنشطة العثمانية⁽³⁰⁾. والواقع أن أولوية الفريق الألماني المتنفذ في الآستانة كانت تتمثل في الإبقاء على العثمانيين في الحرب وضمن عدم رحيلهم عن الحلف الثلاثي مثلما فعلت إيطاليا في عام 1914. وهو ما يفسر عدم ممارستهم ضغطًا كافيًا على حليفهم العثماني لوقف عمليات القتل أو محاولة تحسين أوضاع المرحلين الأرمن الناجين⁽³¹⁾.

وبدأت عمليات الترحيل واسعة النطاق للأرمن على أشدها في مايو 1915، حيث استجابت السلطات للأحداث الجارية في وان بأن أمرت باتخاذ سلسلة من التدابير التي دعت إلى إبعاد الأرمن عن المناطق الحساسة التي تشهد عمليات عسكرية في القوقاز. وبناءً على ذلك، أقرت اللجنة المركزية بجمعية الاتحاد والترقي في الآستانة في 30 مايو 1915 قانونًا مؤقتًا للترحيل سمح بترحيل أي شخص يعتبر تهديدًا للأمن القومي، وهو ما أفضى إلى إقامة سلسلة من معسكرات التجميع في الصحراء السورية لاستقبال المرحلين. وعلى الرغم من أن القانون لم يسمّ الأرمن صراحةً باعتبارهم أهدافًا مقصودة، وأنه طال في الحقيقة الطوائف المسيحية الأخرى أيضًا،

فإن الأرمن كانوا أبرز ضحايا عمليات التشريد الجماعي التي حدثت بعد ذلك. وبنوّه بيتر بالاكيان إلى أن تعريف الأشخاص الذين يمثلون تهديدًا للأمن القومي كان شديد الفضاضة لدرجة أنه أعطى «إذنا مطلقًا للشبكة الإدارية وفرق القتل بالعثور على الأرمن وترحيلهم وتنفيذ مجازر بحقهم». وفي 13 سبتمبر 1915، سن البرلمان التركي قانونًا آخر أتاح الاستيلاء على أملاك الأرمن ومواشيهم ومصادرتها⁽³²⁾.

ثم بدأت المجازر التي وقعت تحظى بتغطية إعلامية ضخمة في أثناء صيف 1915، ولا سيما في الولايات المتحدة، حيث تركّز الاهتمام على «مسيرات الموت» سيئة السمعة التي أُجبر فيها مئات الآلاف من الأرمن على السير من الأناضول إلى بلدة دير الزور السورية عبر الصحراء. وبالإضافة إلى التضاريس الصحراوية الوعرة والمناخ الصيفي القاسي، كان غالبية اللاجئين معوزين وسقطوا موتى بأعداد هائلة أثناء المسيرة. كما تعرّض كثيرون منهم، بما في ذلك النساء والأطفال، للسلب والاعتصاب والقتل على أيدي الجنود العثمانيين على امتداد الطريق. وترسم روايات الناجين التي جمعها دونالد ولورنا ميلر في إطار تأريخهما الشفهي للإبادة الجماعية صورة مروعة للبؤس الجماعي العام على امتداد الطرق من الأناضول إلى دير الزور:

في المحطة الأولى رأينا كثيرًا من الأرمن الذين وصلوا إلى هناك قبلنا بفترة وكانوا قد تحولوا إلى هياكل عظمية. لقد كنا محاطين بهياكل عظمية كثيرة جدًا مما جعل الأمر يبدو كما لو كنا في قلب الجحيم⁽³³⁾.

وفي أثناء سيرنا إلى القرية، كان الطريق على كلا الجانبين مملوءًا بالجثث. لقد رأيت بأم عيني آلاف الجثث. لم أر كيف قتل أصحابها لكنني رأيت الجثث... كان الوقت صيفًا، فكنت ترى شحوم الجسم وقد ذابت حول الجثة... كان الوضع سيئًا لدرجة أن الروائح الكريهة بدأت تفوح في كل مكان، لذا فإنهم [الأتراك] جمعوا كل الجثث وحرقوها بصب الكيروسين عليها⁽³⁴⁾.

وقد لاحظت «أغافني» في أثناء ترحيلها مئات من النساء الشابات ينتحرن بإغراق

أنفسهن في نهر الفرات. وقالت إن الأنهار كانت تعج بجثث البشر ممن قُتلوا على أيدي الأتراك وممن انتحروا غرقاً⁽³⁵⁾.

ووصفت رواية شاهد عيان آخر، قام بجمعها غوينتر لوي، عن الأوضاع في معسكر مرور عابر في مسكنة الواقعة على بعد 70 ميلاً شرقي حلب بسوريا أن «المعسكر كان يفد عليه الآلاف، لكن معظمهم لا يغادرونه أحياء»:

هؤلاء مجرد أشباح حية، حراسهم يوزعون عليهم كسرة خبز ضئيلة، وحتى هذا يحدث على فترات متباعدة. وأحياناً تمر ثلاثة أيام أو أربعة على هؤلاء الجوعى الذين ليس لديهم شيء يفتاتون به إلا هذه الكسرة من الخبز دون أن يتلقوا أي شيء مطلقاً. كما أوقعت الدوستتاريا المخيفة العديد من الضحايا من بينهم، وخصوصاً بين الأطفال الذين كانوا ينقضون بشراسة على أي شيء تطاله أيديهم، فهم يأكلون العشب والثرى وحتى برازهم⁽³⁶⁾.

وينوه كريستوفر ووكر في كتابه «أرمينيا: بقاء أمة» Armenia: The Survival of a Nation في حزن إلى أن كلمة «ترحيل» لم تكن إلا كناية عن القتل الجماعي، فلم تُوفر مؤن لرحلتهم ولا منافعهم، وكانوا يحرمون في معظم الأحوال من الطعام والماء إلا إذا استطاعوا رشوة الحراس». علاوة على ذلك، فإن من كُتب لهم البقاء منهم بعد تلك المسيرة انتهى بهم الحال في معسكرات تجميع بدائية في العراق، وقد قتل كثيرون آخرون في هذه المعسكرات على أيدي حراس سجنهم⁽³⁷⁾. وبحلول أغسطس 1915، نشرت صحيفة «نيويورك تايمز» رواية متفجرة لمحنة الأرمن وصف فيها شاهد عيان لم تسمه كيف «تناثرت جثث المنفيين على الطرق وفي مياه نهر الفرات، وأن من كُتب لهم البقاء كان محكوم عليهم بالموت المؤكد»⁽³⁸⁾.

وفيما تصاعدت الفظائع المرتكبة، أبدى كثير من الأرمن مقاومة دفاعاً عن أنفسهم وسبل كسب عيشهم، مما تسبب في المزيد من إراقة الدماء حيث قام العثمانيون ردّاً على ذلك بتعبئة ميليشيات غير نظامية بين المجتمعات المسيحية

والكردية المحلية. وأسفر الاقتتال الضاري الذي اندلع في مناطق شرقي الأناضول عن المزيد من المجازر، وبلغ ذروته بنهاية 1915 بالإبعاد القسري للغالبية الساحقة من الأرمن عن المنطقة. وعمومًا أسفرت سلسلة عمليات القتل الجماعي ومسيرات الموت عن مقتل مئات الآلاف من الأشخاص وتسببت في فرار مئات الآلاف الآخرين إلى المناطق التي يسيطر عليها الروس في القوقاز. والمؤسف أنه لا يوجد إجماع في الرأي فيما يخص إجمالي عدد الوفيات التي حدثت في أثناء الإبادة الجماعية للأرمن، فالقضية متنازع عليها بشدة بين الحكومتين التركية والأرمنية المعاصرتين مع تراوح التقديرات بين 500 ألف نسمة وما يزيد على مليون نسمة⁽³⁹⁾. وبنوه مارتن غلبرت، من جانبه، إلى الحجم العارم للمذابح الفردية، كالقتل الجماعي للسواد الأعظم من سكان طرابزون الأرمن البالغ عددهم 17 ألف نسمة على مدى أسبوعين في عام 1915، وقتل نحو 15 ألفًا آخرين في بتليس في ثمانية أيام فقط. كما يورد غلبرت أيضًا أرقامًا تخص 600 ألف حالة وفاة بين الأرمن في أثناء مجازر ارتكبت في الأناضول و400 ألف آخرين في أثناء ترحيلهم ومسيراتهم القسرية في الصحراء السورية، بالإضافة إلى إكراه ما يصل إلى 200 ألف أرمني على اعتناق الإسلام⁽⁴⁰⁾.

وعلى أية حال، فإن الروايات العديدة التي جاءت على لسان شهود عيان حشدت الرأي الدولي، ولا سيما في الولايات المتحدة التي مكّنها حيادها حتى عام 1917 من الاحتفاظ بشبكة من القنصليات والمسؤولين في الولايات العثمانية. وفي سبتمبر 1916، شكّلت «اللجنة المعنية بالفظائع الأرمنية» وتحولت فيما بعد إلى واحدة من «أبرز الوكالات الخيرية الدولية في التاريخ الأمريكي» حيث جمعت مبلغًا غير معقول من المال مقداره 116 مليون دولار من عام 1916 حتى إغلاقها في عام 1929⁽⁴¹⁾. والشيء الآخر الجدير بالملاحظة هو مذكرات هنري مورغنتاو، السفير الأمريكي في الأستانة فيما بين عامي 1913 و1916. فمنذ نشر مذكرات السفير مورغنتاو في عام 1918 وهي بمثابة مرجع مهم ومصدر أساسي لتتبع الفظائع التي ارتكبتها العثمانيون ضد الأرمن. وكان هناك عمل معاصر مهم آخر، نُشر لأغراض الدعاية البريطانية إبان الحرب ضمن أغراض أخرى، وهو «معاملة الأرمن في السلطنة العثمانية» - The Treat-

ment of Armenians in the Ottoman Empire. وقد تضمّن هذا الكتاب الذي وضعه السفير البريطاني السابق في الولايات المتحدة الفايكانت برايس والمؤرخ البارز أرنولد توينبي روايات لشهود عيان وإفادات أدلى بها ناجون من المذابح. وعلى الرغم من أن الكتاب تعرّض لانتقادات شديدة منذ ذلك الحين لاشتماله على جزء من حملة دعائية في زمن الحرب ضد السلطنة العثمانية، فإن الشهادات المستفيضة التي تضمّنها لعبت دورًا كبيرًا في تعبئة الرأي الدولي لدى نشره في عام 1916.

بلاد فارس وأرضروم (1915 - 1916)

انصبّ التركيز الرئيس للمجهود الحربي العثماني طوال ما تبقى من عام 1915 على صد محاولات الحلفاء الاستيلاء على شبه جزيرة غاليبولي. وكانت الموارد التي تدفقت على الحملة التي نجحت في نهاية المطاف انعكاسًا لما كان سيترتب على الهزيمة في الدردنيل من تداعيات خطيرة على محض وجود السلطنة. وقد مات أكثر من 60 ألف جندي وأصيب نحو ربع مليون آخرين في أثناء هذه الحملة التي استمرت أحد عشر شهرًا. وكانت تلك أعدادًا هائلة قلما أمكن تعويضها. وروسيا هي الأخرى كانت منخرطة في سلسلة من المعارك الطاحنة على جبهتها الغربية (الأوروبية) ضد إمبراطوريتي ألمانيا والنمسا والمجر. وكانت القوات النمساوية المجرية قد دحرت الروس في أثناء عام 1915 واستعادت السيطرة على مدينتي تشيرنوفيتس وبرودي على جبهة هابسبورغ، وقد أخفق الروس في محاولتهم شن هجوم مضاد في منتصف ديسمبر وتكبّدوا خسائر فادحة. غير أن الأخطر تمثل في الأنباء التي تتحدث عن اجتياح الجيش الألماني بولندا الروسية والأقاليم الليتوانية في الإمبراطورية الروسية. وبدأ الزحف النمساوي المجري العام بعد نجاح الإمبراطورية الساق في معركة غورليس تارنو في مايو 1915، مما أسفر عن انهيار تام للخطوط الروسية وبداية تراجع استراتيجي إلى داخل روسيا ذاتها. وفي هذه الأثناء، بدأ الإنهاك المتزايد من الحرب في روسيا يتجلى في حركة متنامية مناهضة للحرب وسلسلة متصاعدة من الإضرابات، بما في ذلك إضرابان وقعا في يناير 1916 بين

عمال الميناء في القاعدتين البحريتين في نيكولايف وسانت بطرسبرغ على نحو تزامن مع استئناف العمليات في القوقاز⁽⁴²⁾.

ومن ثم كانت القيادة العليا العثمانية والروسية منهكة عسكرياً بفعل معارك 1915، وإن كانت هذه المعارك قد أسفرت عن نجاح مذهل للعثمانيين استنهض روحهم المعنوية، وذلك على نحو يتناقض تناقضاً صارخاً مع سلسلة الانتكاسات العسكرية التي مُنيت بها القوات الروسية. بالإضافة إلى ذلك، تضررت المؤسسات العسكرية في كلا البلدين من صعوبات صيانة جيوش كبيرة في القوقاز البعيدة، وخصوصاً عند مواجهة مثل تلك التهديدات المباشرة لقلب الإمبراطورية. وقد شكّلت المسافة الطبيعية بطول الجبهة صعوبات إضافية أمام شن حملة فعالة في القوقاز، ونَجِمَ عنها أن تألّف النشاط على الجبهة في صيف وخريف 1915 إلى حد كبير من هجمات وهجمات مضادة منفصلة، فيما قام الروس بمحاولات متكررة للاستيلاء على مدينة أروروم العثمانية. وأسفرت هذه المحاولات عن خسائر فادحة في الأرواح على كلا الجانبين لكن أخفقت في تحقيق اختراق استراتيجي لأي من المتحاربين، فكانت النتيجة توقفاً مؤقتاً في العمليات فيما استقرت الجبهة مع محاولة القوات العثمانية والروسية إعادة التجمع واستعادة قدرتهما القتالية⁽⁴³⁾.

ولقد أحدث انتهاء العمليات العسكرية الكبرى في غاليبولي في ديسمبر 1915 تحولاً في الموقف، حيث صارت آنذاك أعداد كبيرة من فرق المشاة العثمانية متاحة للعمليات في أماكن أخرى، على الرغم من وقوع خلاف كبير حول مكان نشرها وكيفيته. فكان أنور باشا يرغب في الإبقاء على العمليات الهجومية، فيما كان مصطفى كمال (بطل غاليبولي) يؤثّر اتخاذ موقف دفاعي. وتماشياً مع رغبات أنور باشا، قام بنشر القوات العثمانية في ولايات قاصية بدلاً من تركيزها في احتياطي استراتيجي حول الآستانة والأناضول. ومع اقتراب عام 1915 من نهايته، كان يجري إعادة تنظيم القوات العثمانية في مسرح الحرب القوقازي على هيئة قوتي حملة والجيش الثالث الذي كان قد أعيد تجميعه تدريجياً في أعقاب الانتكاسة الساحقة

التي تعرض لها في ساريقاميش في شهر يناير⁽⁴⁴⁾. وفيما بين نوفمبر 1915 وفبراير 1917، ستتكدّ السلطنة العثمانية ثلاثة أرباع خسائرها البشرية كافة على جبهات القتال الروسية، مما سيضعف قدرة السلطنة العسكرية قبل النجاحات البريطانية النهائية في فلسطين وبلاد الرافدين في عام 1918⁽⁴⁵⁾.

وأما الروس فقد تفاقم إنهاكهم بسبب قرار إرسال قوة كبيرة إلى بلاد فارس في نوفمبر 1915 من أجل استباق الشائعات التي كانت تتحدث عن احتمال دخول البلد الحرب في صف الألمان والعثمانيين. وفجأة نحت بريطانيا جانبًا شواغلها القديمة، وهي التي يعود تاريخها إلى القرن التاسع عشر، بشأن المطاعم الروسية الشديدة في بلاد فارس وآسيا الوسطى لأجل صالح الحرب. وبدايةً من ديسمبر 1915، تقدمت قوة حملة قوقازية بقيادة اللواء نيكولاي باراتوف بسرعة داخل بلاد فارس، فاستولت على مدن قم وكنغاور وكرمانشاه وأصفهان بحلول مارس 1916. ووضعت تلك الانتصارات المتتالية القوات الروسية على مسافة تزيد قليلاً عن 100 ميل عن الحدود الفارسية مع بلاد الرافدين العثمانية. والمفارقة الساخرة أن هذا وضع باراتوف موضعًا قريبًا نسبيًا من الحامية البريطانية المحاصرة التي كان تحاول في استماتة تفادي استسلام مذلّ في كوت العمارة. وعلى الرغم من تلقي باراتوف أوامر من القيادة الروسية الإقليمية في تبليسي بالزحف ودخول بلاد الرافدين لإغاثة الفرقة الهندية السادسة بقيادة الجنرال تاونسند، فإنه لم يقدر على ذلك ولم يكن مستعدًا لفعله، وكان ما زال في أرض فارس عندما استسلمت الحامية في 29 أبريل⁽⁴⁶⁾.

كان قائد القوات الروسية في القوقاز في هذا الوقت الفريق نيكولاي يودينتس (وهو الذي كان يعمل بجانب الدوق الأكبر نيكولاس). وبدأ يودينتس يحضر لهجوم شتوي معتقدًا أن هذا سيأخذ الأتراك على حين غرة في أعقاب تجربتهم الكارثية مع الحملات الشتوية في 1914. وقد أتى هذا الرهان أكله في معركة كابروكوي في مطلع يناير 1916 عندما فاجأ يودينتس الفيلق الحادي عشر العثماني مفاجأة تامة. وكان الجيش القوقازي الروسي الذي شن هجومه في 10 يناير يتمتع بميزة عددية

كبيرة مكنته من التفوق على الفيلق الحادي عشر ودفع الجيش الثالث برمته إلى التقهقر تمامًا. ومثلما حدث بالضبط في ساريقاميش، قبل ذلك بعام، انسحب الجيش الثالث في حالة من الفوضى نحو أرضروم بعد أن تكبد خسائر فادحة بشكل غير عادي تركزت في الفيلق الحادي عشر المحاصر. ولكن الفرق في يناير 1916 تمثل في أن التقدم الروسي استمر هذه المرة وصولاً إلى أرضروم ذاتها، متوجاً بالاستيلاء على ثالث أقوى حصن في السلطنة العثمانية كلها، وذلك في 16 فبراير. ولا شك أن سقوط أرضروم شكّل انتصاراً استراتيجياً غير عادي للروس وكارثة للعثمانيين، حيث كان الدفاع عن شرق الأناضول برمته يعتمد على هذه المدينة⁽⁴⁷⁾.

وقد خُلد الاستيلاء على أرضروم فوراً في الذاكرة الشعبية بأن صار السياق الذي تدور فيه أحداث النهاية في رواية «العباءة الخضراء» Greenmantle للمؤلف جون بكان. كانت حبكة الرواية المثيرة التي نشرت في أكتوبر 1916 بعد معركة أرضروم الفعلية بفترة وجيزة، والتي كُتبت فيما كان بكان يعمل في مكتب الدعاية الحربية في لندن (قبل أن يصير مدير الاستخبارات في وزارة الإعلام)، تدور حول خطة ألمانية مفترضة لاستغلال الدين لتحريض المسلمين على الانتفاض ضد البريطانيين في العالم المسلم. وتجمع الشخصية الرئيسة في الرواية، وهي شخصية ساندي أريثنات («ذو العباءة الخضراء»)، بين كل من لورنس العرب والدبلوماسي ضابط الاستخبارات البريطاني البارز أوبري هيربرت. وفي المشهد الأخير الذي يمثل ذروة الرواية، يقود ساندي هجوم الخيالة على أرضروم الذي ينجح في إحباط المؤامرة الألمانية:

كان في المقدمة القريبة آنذاك من أسوار المدينة رجل يشبه الرمح الفولاذي الذي سرعان ما سيُغمد في الصدور... فيما كان يمتطي صهوة جواده بدا أن الأتراك الفارين تجمدوا بلا حراك وسقطوا على جانب الطريق متابعين بأعينهم المحدقة شخصه الذي لم يلتفت إليهم... عندئذ أدركت أن النبوءة كانت صحيحة وأنها لم تخذلهم، وأن الرؤيا التي طال انتظارها تحققت. أخيراً ظهر ذو العباءة الخضراء للجمهور الذي ينتظره⁽⁴⁸⁾.

وعلى أية حال، تواصل قتال ضار حول أرضروم طوال بقية السنة. وفي البداية حافظت القوات الروسية على الزخم الهجومي واستولت على مدينة بتليس في 2 مارس ومدينة طرابزون ذات الأهمية الاستراتيجية بمينائها المطل على البحر الأسود في أبريل 1916. وكان جيش القوقاز آنذاك متوغلاً بعمق في الأناضول وبدأ مهياً للقيام بالمزيد من التقدم الكاسح في اتجاه وسط الأناضول أو في بلاد الرافدين. علاوة على ذلك، فتح الاستيلاء على طرابزون خطوط المواصلات البحرية عبر البحر الأسود وصولاً إلى ترتيبات اللوجستيات والإمداد الروسية. ولكي يتفادى الجيش الثالث العثماني حدوث هذا حاول استعادة السيطرة على طرابزون في يونيو 1916 لكنه رُد على أعقابهِ في 2 يوليو، وذلك بعد نشوب معركة السوم بالغلة الأهمية على الجبهة الغربية بيوم واحد. بل والأسوأ من هذا بالنسبة للعثمانيين أن يودينتشن شن على الفور هجومًا مضادًا من جانبه، مما أسفر عن استيلاء الروس على مركز اتصالات العثمانيين في أرزينجان في 25 يوليو⁽⁴⁹⁾.

وجاءت هذه النجاحات في حملة القوقاز في وقت سانح للمجهود العسكري الروسي بشكل عام. ففي 4 يونيو 1916، كان هجوم بروسيلوف قد شُن ضد دول المركز على الجبهة الشرقية (في أوكرانيا الحديثة) واخترق الصفوف النمساوية المجرية عبر جبهة واسعة أخذًا أكثر من 70 ألف أسير في الأيام الخمسة الأولى وحدها. وكان هذا نجاحًا مذهلاً ترك النمساويين يترنحون. ولكن الزحف سرعان ما تباطأ بسبب توليفة من التأخيرات وسوء التخطيط العملياتي من جانب الجنرال ألكسي إيفرت قائد مجموعة الجيوش الغربية الروسية، واتساع خط الجبهة أكثر مما ينبغي، واندفاع التعزيزات الألمانية إلى الجبهة. وعلى الرغم من تواصل العمليات الهجومية طوال الصيف، فإنها عجزت عن إحراز تقدم، وأصيب الجنود بالإرهاك. كما بدأ أيضًا الآلاف من الجنود الروس يتخلون عن مواقعهم حيث تدهورت الأوضاع على امتداد الخطوط الأمامية الروسية وانخفضت الروح المعنوية إلى الحضيض⁽⁵⁰⁾.

ومع أن نجم الروس بدا في صعود بحلول منتصف 1916 حيث حققوا تقدمًا

كبيرًا على الجبهتين النمساوية والعثمانية، فإنهم لم يكونوا على دراية بالاضطرابات التحويلية التي توشك فصولها أن تتكشف. والحقيقة أن المجهود الحربي الروسي كان يحقق نتائج مذهلة في ظل توسع التعبئة الصناعية توسعًا سريعًا حيث تضاعف إنتاج قذائف المدفعية أكثر من الضعفين من عام 1915 إلى عام 1916، وساهم ذلك مساهمة كبيرة في النجاح المبكر الذي حققته هجمات 1916⁽⁵¹⁾. غير أن فقدان هجوم بروسيلوف زخمه في النهاية أحدث شرخًا نهائيًا في قشرة النجاح الخارجية وكشف عن معارضة داخلية محتدمة لمواصلة الحرب. فضلًا عن أنه بحلول أواخر عام 1916 كان اجتماع الخلل الاقتصادي والتشرد الداخلي الجماعي في روسيا يخلق أرضًا خصبة لتعبيرات جديدة عن المعارضة السياسية بل والثورية للنظام القيصري. ثم جاء فوق ذلك تدفق ما بين 200 ألف و300 ألف لاجئ أرمني إلى داخل روسيا فأضاف المزيد إلى أعباء نظام اقتصادي على شفا الانهيار، حيث كانت غالبية الوافدين الجدد من البائسين الذين يعانون من سوء التغذية ويحتاجون إلى مساعدة طبية وإنسانية عاجلة⁽⁵²⁾.

ثورة في روسيا

بحلول شتاء 1916 - 1917، كانت السلطة القيصرية قد بدأت تتعرض لهجوم غير مسبوق. فعلى الرغم من الحملة المشددة من رقابة الدولة وإنشاء مجالس خاصة لتعبئة وإدارة اقتصاد الحرب الروسي، ازداد السخط الشعبي في المراكز الحضرية والصناعية الرئيسة زيادة حادة أثناء أشهر خريف عام 1916. وشهد المحيط الإمبراطوري انتفاض مناطق كبيرة من آسيا الوسطى ثائرة في منتصف عام 1916 حيث أبدى الناس ردود أفعال ساخطة على صعوبات زمن الحرب، وخصوصًا النقص المتزايد في الغذاء والسلع الأساسية وتدفق أعداد كبيرة من اللاجئين وفرض مطالب باهظة للتجنيد في الوحدات العسكرية ووحدات العمل. وببساطة يمكننا القول إن روسيا، على غرار الاقتصادات الأخرى التي تهيم عليها الزراعة، قد «عانت نقصًا في الغذاء قبل أن تعاني نقصًا في البنادق والقذائف بزمان طويل». وكان هذا يعكس الصعوبات

العميقة المتمثلة في تنظيم اقتصادات الفلاحين للحرب حيث إن التعبئة الصناعية سحبت الموارد من الزراعة، وخصوصًا الأيدي العاملة والخيول⁽⁵³⁾. وكما سنحلل في الفصول التالية التي تتناول أثر متطلبات الأيدي العاملة على مصر وبلاد الرافدين، تداخل استدعاء القوة البشرية للخدمة العسكرية مع الأنماط الزراعية كثيفة الأيدي العاملة حيث تزامن مع موسم جني القطن (وسيتزامن الطلب البريطاني على الأيدي العاملة المصرية في عامي 1917 و1918 مع موسم حصاد القمح)⁽⁵⁴⁾. ولقد اتسعت رقعة الثورة لتشمل جماعات متمردين جيدة التنظيم في كازاخستان وقيرغيزستان وأوزبكستان قبل أن تُسحق بلا رحمة بنهاية عام 1916، مع فرار ما يصل إلى نصف مليون قازاقي أو ترحيلهم إلى الجهة الأخرى من الحدود إلى الصين⁽⁵⁵⁾.

وما كان أشد إثارة لقلق القيصر أن هذه القلاقل المتنامية على محيط الإمبراطورية قابلتها قلاقل متصاعدة في قلب الإمبراطورية حيث تصاعدت حلقات من القلاقل الاقتصادية والاجتماعية بشكل ملحوظ في أثناء خريف 1916، فيما ازدادت الإضرابات من حيث معدل حدوثها وحجمها. وقد تقاطع الشعور الشعبي بالإحباط تجاه السلطات، وما اعتُبر سوء إدارة من جانبها للمجهود الحربي، مع سخط عميق على توجيه السياسات المحلية. فترك هذا القيصر مكشوف الجانب بشكل خطير وجعله هدفًا لمشاعر الغضب في أعقاب قراره في عام 1915 تنصيب نفسه قائدًا عامًا للقوات المسلحة تاركًا مسؤولية حكم روسيا إلى زوجته الألمانية المولد (عديمة الشعبية) القيصرة ألكسندرا. والمؤكد أن خلفية ألكسندرا الألمانية كانت تثير الكثير من التعليقات والغضب مثلها مثل التأثير البارز للمتصوف المعالج الروحي غريغوري راسبوتين على عملية وضع السياسات الإمبراطورية. ولا شك أن اغتيال راسبوتين في ديسمبر 1916 كان بمثابة مؤشر على مستويات الغضب الجياشة على الحكم القيصري. ومن ثم تلاقت الانتكاسات العسكرية والسخط المتنامي على سوء الحكم السلطوي لتنصب آثارهما على الأسرة الإمبراطورية. زد على ذلك ما تزامن مع ما سبق من غلاء في أسعار الأغذية وضغوط تضخمية عامة قلّصت الدخول الزهيدة التي كانت تحققها الأسر المكافحة من أجل البقاء في ظروف الحرب وما فيها من مشاق⁽⁵⁶⁾.

وبحلول أواخر 1916 وأوائل 1917 تجلى الغضب الشعبي المتصاعد في موجات من الإضرابات استهدفت التعبئة الصناعية والعسكرية في روسيا. وكان آلاف العمال والجنود يجتمعون سويًا في المصانع أو منازل الإيواء وهو ما يسر تأثير هذه الملتقيات وعظمه في آن واحد. وقد وصلت الأمور إلى مرحلة درامية في فبراير 1917 عندما بدأت سلسلة من الإضرابات الشاملة في مصانع رئيسة في سانت بطرسبرغ، وفي غضون أيام كان ما بين 200 ألف و300 ألف عامل مصنع في حالة إضراب. ثم بدأت «ثورة فبراير» التي أطاحت بالقيصر من سدة الحكم بتعبئة جماعية للعمال الصناعيين في مصنع بوتيلوف للآلات، واستمدت زخمًا من التجمعات والملتقيات السياسية والمظاهرات احتفالًا باليوم الدولي للمرأة، وأفضت إلى توقف شبه تام في النشاط الصناعي والتجاري في المدينة بحلول 25 فبراير. وقد تآزر الطلاب والعمال للمطالبة بخلع القيصر وإنهاء ضلوع روسيا في الحرب، فرد القيصر نيقولا الثاني على ذلك بأن أمر الجيش بإخماد القلاقل بالقوة في 26 فبراير لكن آلاف الجنود تمردوا ورفضوا طاعة أمر قائدهم⁽⁵⁷⁾.

ومع الانحسار السريع في سلطة النظام القيصري، ومهاجمة رموز السيطرة الحكومية وتدميرها، تحركت الجماعات السياسية المعارضة لملء هذا الفراغ. وأنشأ مجلس الدوما لجنة مؤقتة في محاولة لاستعادة القانون والنظام في حين دشنت المنظمات الاشتراكية «سوفييت بتروغراد» لتمثيل العمال والجنود. وأدى تقاطع الجنود المتمردين مع القلاقل الصناعية الجماعية إلى إمالة كفة الميزان نحو جيشان ثوري. ثم تداعت آخر آثار السلطة الإمبراطورية بفشل خطط جاءت كمحاولات أخيرة لنقل السلطة إلى ابن القيصر أليكسي أولًا ثم لشقيقه الدوق الأكبر ميخائيل. فلم تجد هذه الخطط أي دعم سياسي حيث انهارت السلطة الحكومية في المدن الكبرى، ثم احتُجز القيصر نفسه على أيدي جنود خونة في 1 مارس ليعلن أخيرًا تنازله عن العرش في اليوم التالي الموافق 2 مارس 1917، مما وضع بالتالي نهاية لثلاثة قرون من حكم أسرة آل رومانوف في روسيا⁽⁵⁸⁾.

ولقد حُلّت محل القيصر حكومة مؤقتة شكّلها أعضاء مجلس الدوما وترأسها الأمير غيورغي لفوف ثم ترأسها ألكسندر كيرينسكي التابع للحزب الثوري الاشتراكي. ولخّص اختيار رئيسي الوزراء هذين الاتجاهات المتباعدة داخل الكفاح الثوري فيما بعد الإمبراطورية. فعلى الرغم من أن الحكومة المؤقتة مارست السلطة والسيطرة بشكل اسمي، فإنها لم تحتكر سلطة سياسية شرعية في روسيا حيث كان حكمها يواجه نزاعًا على الأرض من جانب شبكة من السوفييتات (مجالس العمال) تسيطر عليها فصائل اشتراكية أشد راديكالية. فتواصلت أحداث الإضراب والتمرد في أثناء الفترة المتقلبة التي أعقبت ثورة فبراير مما سمح للتنظيمات النضالية مثل الحزب البلشفي بإحراز تقدم داخل السوفييتات. ووصلت الخلافات إلى ذروتها على خلفية قرار الحكومة المؤقتة المثير للجدل مواصلة مشاركة روسيا في الحرب وإعادة تأكيدها على أهداف الحرب التي سبق أن أعلنها القيصر. فشن كيرينسكي هجومًا جديدًا رئيسًا على الجبهة النمساوية المجرية في يونيو 1917، وذلك تحت ضغط كبير إلى حد ما من الحلفاء في أعقاب حالات التمرد واسعة النطاق في الجيش الفرنسي والبولندي المتصاعدة على إنهاك الحرب في بريطانيا⁽⁵⁹⁾. ومن جديد، سرعان ما أفسح النجاح المبكر الطريق للإخفاق النهائي حيث شن العدو هجومًا مضادًا قويًا فتكبدت الوحدات الروسية خسائر فادحة. ورفض كثير من الجنود اتباع الأوامر بالعودة إلى ميدان المعركة وسرعان ما تطور وضع ثوري جديد في أثناء أزمة «أيام يوليو». وعلى الرغم من تفادي الحكومة المؤقتة الإطاحة الفورية، فإنها تركت في حالة من الفوضى وسقطت في النهاية في مواجهة البلاشفة الذين استولوا على السلطة في أثناء ثورة أكتوبر في 25 أكتوبر 1917⁽⁶⁰⁾.

وخلال هذه الفترة التي سادتها الفوضى والاضطرابات، ظلت جبهة القوقاز هادئة على الرغم من إعادة تأكيد الحكومة المؤقتة في 4 أبريل 1917 على هدفها من الحرب المتمثل في انتزاع السيطرة على مضيق الدردنيل والآستانة ذاتها. والجدير بالملاحظة أن إعلان النوايا هذا أصدره وزير الخارجية الجديد بافيل ميليوكوف تعرّض فورًا وعلانية للتوصل من جانب سوفيت بتروغراد والشجب من جانب

الزعيم البلشفي الطموح فلاديمير لينين بوصفه إعلانًا «إمبرياليًا بالكلية»⁽⁶¹⁾. وهكذا ترك ميلوكوف محرومًا من الحلفاء السياسيين بفضل دعمه القوي لمواصلة الحرب فاستقال من منصبه في شهر مايو، فيما اضطرت الجيوش الروسية في القوقاز وبلاد فارس إلى هضم واستيعاب الأمر رقم 1 الذي صدر فورًا بعد ثورة فبراير والذي ألغى معظم رتب الضباط واستبدل بها «سوفييتات الجنود». وعلى الرغم من هذا، أشارت البحوث التي أجريت مؤخرًا إلى أن الجيوش الروسية في الشرق الأوسط ظلت جاهزة من الناحية العملية لاستئناف الهجوم، وذلك في أعقاب النجاحات التي تحققت في عام 1916، مع عدم اقتصار قوة باراتوف في بلاد فارس على الاستمساك بموطئ قدمها في شمال بلاد الرافدين طوال عام 1917 فحسب، بل شنها هجومًا صغيرًا في تاريخ متأخر في يناير 1918 ضد قرية تبة في شمال شرقي بلاد الرافدين⁽⁶²⁾.

الكبرياء الإمبراطوري

على الرغم من أن السلطنة العثمانية عاشت أطول من الإمبراطورية الروسية، فإن هذا لم يحدث دون أن يمسه أذى. فالحملات التي جُرِّدت في القوقاز ألحقت ضررًا لا مثيل له بالآلة العسكرية العثمانية. فإثناء الخمسة عشر شهرًا التي انقضت بين نهاية العمليات البريطانية الرئيسية في غاليبولي في نوفمبر 1915 وبداية الانسحاب الروسي من الحرب الشرق أوسطية في فبراير 1917، تكبدت الدولة العثمانية ثلثي خسائرها في الأرواح كافة في الحملة الروسية. وكما نوه مالكوم ياب، فإن هذا الرقم شكّل تآكلًا للموارد العثمانية من قوة بشرية وعتاد، وأضعف مركز السلطنة العسكري بشدة فيما كانت الحملتان البريطانيان في فلسطين وبلاد الرافدين مهيأتين للتوسع في النطاق والحجم⁽⁶³⁾. وبعد جرعة الحماس التي تمخض عنها الدفاع الناجح عن الدردنيل في مواجهة الهجوم الإنجليزي الفرنسي، فعل القتال في القوقاز الكثير لإضعاف ضغط الهجوم العثماني فيما تباطأ الزخم إلى حد التوقف. فالجيش الثالث العثماني تلاشى عمليًا من الوجود باعتباره قوة قتالية بحلول صيف 1916، وأنت العمليات المتواصلة في القوقاز على شطر كبير من الجيش الثاني العثماني في

أثناء شتاء 1916 - 1917 حتى فيما كانت روسيا تترنح متجهة صوب الثورة. والحقيقة أن إجمالي عدد المقاتلين العثمانيين انخفض انخفاضاً حاداً من ذروته عند 800 ألف جندي في عام 1915 إلى 400 ألف جندي في مارس 1917 قبل أن ينتصف من جديد فيصير قوامه 200 ألف جندي في مارس 1918⁽⁶⁴⁾.

وكما سيبين الفصلان الخامس والسادس، تجلّى الإنهاك العسكري في 1917 - 1918 مع ازدياد ضعف القوات العثمانية في فلسطين وبلاد الرافدين. وعلى الرغم من قدرة المجهود الحربي العثماني على إلحاق هزائم مهمة بالقوات البريطانية والهندية في بلاد الرافدين في أبريل 1916 وفي فلسطين في مطلع عام 1917، فإنه لم يقدر على التصدي إلا قليلاً لما تلا ذلك من حشد لقوات العدو في كلتا المنطقتين. وبالمطبع أضافت مشكلة الإمداد والنقل في تضاريس القوقاز وآسيا الوسطى الشاسعة الوعرة عبئاً هائلاً إلى الصعوبات التي كانت في مواجهة القوات العثمانية في عام 1918، حيث أشارت تقديرات إلى أن الجنود العثمانيين في القوقاز وفلسطين وبلاد الرافدين لم يتلقوا إلا ما بين نصف وثلث مؤونتهم الاسمية، إلى حد كبير بسبب تعطل وسائل النقل التقليدية للمواد الغذائية بحرّاً. فقد تضررت وسائل النقل هذه أشد الضرر من الحصار البريطاني الخانق للخط الساحلي العثماني في البحرين المتوسط والأحمر، وأثقلت تماماً على كاهل شبكة السكك الحديدية العثمانية المحدودة. وكان معظم هذه الشبكة عبارة عن سكك فردية، كما أن الأنفاق بالغة الأهمية عبر سلاسل جبال طوروس الموصلة بين الولايات الأناضولية والعربية ظلت دون اكتمال حتى سبتمبر 1918. فكانت نتيجة هذا أن تطورت اختناقات شديدة، ولم يكن هناك قط أي اتصال بالسكك الحديدية بين أنقرة وأي من المواقع العثمانية على الجبهة الروسية. بل إن تفشي الفساد والافتقار إلى دواب النقل (وعلى رأسها الإبل) عظم أوجه القصور في الإمداد والتموين التي كانت تهدد بالقضاء على الآلة العسكرية العثمانية في الشرق الأوسط بحلول عام 1918⁽⁶⁵⁾.

ومع ذلك تواصلت تطورات مهمة في المسرح القوقازي في أثناء السنة الأخيرة

من الحرب، وذلك على الرغم من معاهدة برست ليتوفسك للسلام التي أبرمت بين روسيا ما بعد الثورة ودول المركز في بيلاروس الحديثة في 3 مارس 1918، والتي آذنت بخروج روسيا رسميًا من الحرب العالمية الأولى حيث قدم البلاشفة تنازلات كبيرة عن الأرض في فنلندا ودول البلطيق وبولندا وأوكرانيا، فضلًا عن إعادة الأقاليم القوقازية التي استولت عليها روسيا في عام 1878 إلى الدولة العثمانية. فقد كان لنطاق الخسارة الإقليمية الروسية في برست ليتوفسك أثر ثانوي هو تأجيج الطموحات القومية التركية الكامنة لدى النخبة العثمانية في الآستانة، فتكشفت الأحلام الوحدوية في القوقاز وفي آسيا الوسطى فجأة حيث «فتحت معاهدة برست ليتوفسك للسلام مجالات واسعة للأحلام بقيام إمبراطورية طورانية وحدوية». وبالتالي، ففي أثناء السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى صارت منطقة القوقاز ومنطقة بحر قزوين بل وبلاد فارس، من جديد، على رأس الأهداف العثمانية⁽⁶⁶⁾.

ولقد دقّت التقارير التي تتحدث عن تسيير حملة عثمانية إلى آسيا الوسطى وبلاد فارس أجراس الخطر لدى السلطات المدنية والعسكرية البريطانية في لندن ودلهي. فربما تكون «اللعبة الكبرى» بين الإمبراطوريتين البريطانية والروسية على النفوذ في بلاد فارس وأفغانستان قد انتهت بإبرام الاتفاق الإنجليزي الروسي في عام 1907، لكن إرثها الاستراتيجي ظل حيًا باقياً. وبناء على ذلك، أعدت وزارة الإعلام في لندن «تقريرًا عن حركة الوحدة الطورانية» في أكتوبر 1917. وجادل هذا التقرير الذي كُتب قبل خروج روسيا من الحرب والتوقيع على معاهدة برست ليتوفسك بأن أي انهيار روسي سيؤثر بالسلب على أمن الإمبراطورية البريطانية، وذهب -على نحو طموح نوعا ما- إلى أن الطريق بات مفتوحًا أمام الزحف العثماني إلى قلب آسيا الوسطى، وأنه لو تمكن الجنود العثمانيون -وبالتبعية الألمان- يومًا من الوصول إلى أفغانستان فمن شأن هذا أن يشكل تهديدًا مباشرًا لأمن الهند. وبحلول مايو 1918، زعم تقرير مُرجف أعدته إدارة الاستخبارات السياسية التابعة لوزارة الخارجية في لندن أن «تقدم الألمان السريع صوب الشرق عبر أوكرانيا يلفت الانتباه من جديد إلى أطماعهم الواضحة في القوقاز». لكن بحلول مطلع عام 1918، كانت الآلة

العسكرية العثمانية عاجزة عن دعم التمديد الطويل للعمليات العسكرية. كما لم يحظ هذا بدعم حلفاء الآستانة الألمان الذين لم يحبذوا تحويل الجنود العثمانيين عن مواقعهم التي أوقفوا فيها تقدم مئات الآلاف من الجنود البريطانيين في فلسطين وبلاد الرافدين⁽⁶⁷⁾.

وعلى الرغم من هذا، أثار انسحاب الروس والتوقيع على معاهدة برست ليتوفسك جزءًا شديدًا في لندن، فكان منطقيًا أن قاد نائب سابق للملك في الهند، وهو اللورد كيرزون، تيار الرأي المرجف في مجلس وزراء الحرب. وفي 25 يونيو 1918، مضى كيرزون بعيدًا إلى حد أنه صرح بأن «بندول الحرب الذي يتأرجح بعنف شديد في الغرب يتأرجح أيضًا... بشكل متزايد نحو الشرق»⁽⁶⁸⁾. وكان هذا تصريحًا مثيرًا منه في ضوء الهجمات الألمانية المتعاقبة التي كادت تخترق صفوف البريطانيين والفرنسيين على الجبهة الغربية بين شهري مارس ومايو 1918. لكنه بوصفه متحدًا رسميًا متنفّذًا باسم الامبراطورية وصاحب وزن سياسي ثقيل في كل من حزب المحافظين والحكومة الائتلافية بقيادة ديفيد لويد جورج، كانت وجهة نظر كيرزون موضع اعتبار كبير. وكان كيرزون يرى أن الخطر الحقيقي الذي يواجه أمن الإمبراطورية البريطانية ناشئ عن المكاسب الألمانية المحتملة في روسيا والمكاسب العثمانية في آسيا الوسطى. وبالتالي، فإن التطورات التي جرت في روسيا في 1917 - 1918 أيقظت من جديد مخاوف أقدم من حدوث زحف ألماني صوب الهند، وهو الشيء الذي كان قد شغل بال كيرزون كثيرًا في أوائل العقد الأول من القرن العشرين إبان أن كان في منصب نائب الملك في دلهي⁽⁶⁹⁾.

وقد نوّه بنجامين شوارتز إلى كيف «أذن انهيار روسيا بمنعطف في الحرب بتسليطه الضوء على الجانب الإمبريالي للصراع، ومن ثم تحتيمه إجراء تغيير في أولويات بريطانيا من الغرب إلى الشرق» في أعين بعض المخططين الاستراتيجيين الإمبراطوريين من أمثال كيرزون ممن كانوا يشغلون مراكز نفوذ في لندن⁽⁷⁰⁾. ولا شك أن حكومة الهند (البريطانية) بدأت تصاب بالذعر في أعقاب التوقيع على معاهدة

برست ليتوفسك، وكذلك معاهدة بوخارست التي فرضت سلامًا تأديبيًا على رومانيا في مايو 1918. ومع وصول القوات الألمانية إلى أوديسا على ساحل البحر الأسود الروسي، أعرب القادة العسكريون البريطانيون في الهند عن فزعهم من احتمال حدوث غزو تركي ألماني وشيك لأفغانستان⁽⁷¹⁾. وبدأ للمرشحين في لندن ودلهي أن عقيدة «الزحف صوب الشرق» (دراغ ناخ أوستن) انبعثت من جديد وتوشك أن تتحقق. ونتيجة لذلك بدأت حكومة الهند تحوّل مسار كمية كبيرة من المؤن العسكرية التي كانت القوات البريطانية الهندية في حاجة ماسة إليها للتصدي للتهديد المتصور النابع من بلاد فارس⁽⁷²⁾.

ولا شك أن هذه المخاوف التي سادت بين المسؤولين الإمبراطوريين في لندن ودلهي من الاستيلاء الوشيك على بلاد فارس وأفغانستان حوّلت مركز ثقل الحملة من القوقاز إلى آسيا الوسطى في عام 1918، وعبرت عن الإدراك المتنامي بين واضعي السياسات البريطانيين بأهمية مكامن النفط التي اكتُشفت في بلاد فارس في عام 1908 والتي كان يُعتقد على نطاق واسع وجودها حول الموصل في شمال بلاد الرافدين. ونمّخص الصعود السريع لنفط بلاد الرافدين وبلاد فارس إلى صدارة أجندة مجلس وزراء الحرب في بريطانيا تمحيصًا كاملاً في الفصل السادس، بجانب الحملة التي نُظمت على عجل إلى بلدة باكو الأذربيجانية الغنية بالنفط بقيادة الجنرال ليونيل دانسترفل في أغسطس 1918. أما هنا فيكفي أن ننوّه إلى أن إضافة الضغوط الألمانية والتركية الجديدة المتصورة أجبرت واضعي السياسات البريطانيين على إعادة تقييم دوافعهم الإمبراطورية في الشرق الأوسط. وكما كتب أحد المؤرخين يقول: «عصفت موجة من الهستريا بالحسابات الدقيقة والريبة التي قامت عليها إمبريالية الحرب البريطانية في الشرق الأوسط» في أثناء ربيع وصيف 1918، حتى فيما تدهور الموقف على الجبهة الغربية تدهورًا يندّر بالخطر، مما أطلق عملية ستكون لها تبعات خطيرة على كل من التسوية السياسية فيما بعد الحرب في عموم المنطقة والمواجهة المتنامية بين الحركات القومية وأنصار مواصلة التدخل الغربي⁽⁷³⁾.

على أية حال، فإن الإمبراطورية الروسية والسلطنة العثمانية لم تتعافيا من التكلفة الباهظة لمشاركتهما في الحرب العالمية الأولى. فعلى الرغم من أن حملة القوقاز مثلت جزءًا واحدًا من معركة أطول كثيرًا على النفوذ في المنطقة، فإن القتال الذي دار فيما بين أواخر 1914 وأوائل 1917 عجل بالاستنزاف النهائي للإمبراطوريتين. وكانت حملة القوقاز هائلة بسبب حجم المعاناة الفردية والجماعية التي انطوت عليها. فبحلول أوائل 1917، كان هناك ما يقدر بستة ملايين لاجئ يعيشون في القوقاز والداخل الروسي. وفي أعقاب معارك شتاء 1914 - 1915، طردت السلطات القيصرية عشرات الألوف من المسلمين من إقليم قارص وباطوم اللذين كانت قد استولت عليهما من الدولة العثمانية قبل ذلك في عام 1878. كما تعرّضت الأقليات الأخرى غير الروسية في القوقاز مثل تار القرم، وهم الذين كان ولاؤهم أيضًا موضع شبهة، للترحيل هي أيضًا، وفي الوقت نفسه سُرد أكثر من مليون روسي وروسي أبيض وأوكراني كانوا يعيشون في المنطقة التي صارت منطقة الحرب عن مساكنهم. وساعدت هذه العمليات، بالإضافة إلى تبريرها عمليات الترحيل على أساس الاشتباه في الولاء للعدو العثماني، على إتاحة الأراضي والبيوت لاستيعاب اللاجئين الأرمن والناجين من الإبادة الجماعية على الجهة المقابلة من الحدود⁽⁷⁴⁾.

ولقد نجت السلطنة العثمانية (بالكاد) من هذه الحملة التي لم تنج منها نظيرتها الإمبراطورية الروسية. وعلى الرغم من ذلك تسببت الحملة في خسائر فادحة في الأرواح ودمار هائل في العتاد في شمال شرق تركيا. والشيء المهم أيضًا أن الحملة ساهمت في تفتيت السلطنة، حيث إن جاذبية استعادة الأقاليم التي خُسرت وتوسيع النفوذ الطوراني في آسيا الوسطى أجبا اللهيّب الأيديولوجي لقومية تركية أضيّق نطاقًا وأقل شمولًا. وكان من أثر أحداث 1917 - 1918، مقرونة بانسلاخ الأقاليم العربية تدريجيًا عن السلطنة (انظر الفصلين الخامس والسادس) الذي تبلور عام 1916 في الثورة العربية (نناقشها في الفصل السابع)، تسريع جذب السلطنة إلى الداخل متمحورةً حول قلبها الأناضولي. فعجل هذا بتفتت الدولة العثمانية حتى قبل انسحابها من الحرب في أكتوبر 1918، وأكد ما تلا ذلك من معاهدات

سلام وُقعت بين عامي 1919 و1923 على التفكك النهائي للنظام الإمبراطوري. وكما أن أفعال مصطفى كمال البطولية في الدردنيل في عام 1915 (انظر الفصل الرابع) دفعته إلى دائرة الشهرة الوطنية، سرّع إنهاء حملة القوقاز إعادة صياغة الهوية من العثمانية إلى التركية.

وعلى الرغم من ذلك، كان لتأثير الحملة إرث دائم ما زال يتردد صداه إلى اليوم، حيث كانت ذكرى الإبادة الجماعية للأرمن وتردد جمهورية تركيا فيما بعد الحرب في الاعتراف بعظم عمليات القتل الملمحين المميزين في السرد التاريخي للحرب العالمية الأولى في كل من البلدين، وهو السرد الذي قوي بعد استقلال أرمينيا عن الاتحاد السوفيتي في عام 1991. أما الأدباء الأتراك، كالروائي أورهان باموك الفائز بجائزة نوبل، الذين أشاروا مؤخرًا قضية المسؤولية العثمانية عن الفظائع التي ارتُكبت فيتعرضون للتحرش وتشويه السمعة، بل والاغتيال كما حدث في حالة هرانت دنك الذي اغتيل في عام 2007. وتواجه البلدان التي تتحرك للاعتراف بإبادة الأرمن باعتبارها إبادة جماعية حملات تنظمها جماعات اللوبي التركية وتهديدات صريحة بقطع العلاقات التجارية. كما أن إرث الصراع ليس أقل تشابكًا بكثير في المجال ما بعد السوفيتي في القوقاز حيث أشعلت العلاقات بين روسيا والأقليات المسلمة في الشيشان والأراضي المحيطة بعضًا من أشد الصراعات دموية في فترة ما بعد الحرب الباردة. وهنا تتشابك ذكريات معارك الحرب العالمية الأولى في أنماط أطول من الصراع الأهلي والقهر السياسي كانت ملمحًا متكررًا من ملامح المشهد الإقليمي. إن حملة القوقاز إذن كانت، عند جميع الأطراف، واحدة من الصعوبات غير المسبوقة فيما حاربت إمبراطوريتان متداعيتان إحداهما الأخرى مع فرض تشريد جماعي على الطوائف التي سعت إلى تحدي سيطرتهم الإمبراطورية التي بدأ يعثرها الضعف.

الفصل الرابع

غاليبولي وسالونيك

من بين كل الحملات العسكرية التي جُرِّدت بعيدًا عن الجبهة الغربية في أثناء الحرب العظمى نجد أن عمليات غاليبولي هي الأشهر والأرسخ في الذاكرة في يومنا هذا، إذ تضارع هذه العمليات معارك «فردان» و«السوم» و«إير» (تُعرف أيضًا باسم معركة «باشنديل») في البصمة الجماعية التي تركتها على الذاكرة التاريخية الحديثة. وقد صارت هذه الحملة في أعين الجنود الأستراليين والنيوزيلنديين (فيلق أنزاك) الذين شاركوا فيها «أسطورة تأسيسية» ضمن عملية بناء الأمة الحديثة، كما صارت الحملة ترمز إلى ظهور الوعي القومي في كلا البلدين، وما زال صدى ذكرى وشجاعة من شاركوا فيها يتردد بعد مرور قرن على تلك الأحداث، على الرغم من الموجة النامية من التأريخات «التنقيحية» التي شككت في كلٍّ من جدوى الحملة والدور الذي لعبته في عملية بناء الأمة، مما أثار جدلاً محتدمًا ولا سيما في أستراليا. وهناك كتابان صدرتا حديثًا، وهما «غاليبولي: نهاية الخرافة» Gallipoli: The End of the Myth و«أشقاء الدم: نشأة الأنزاك» Blood Brothers: The Anzac Genesis، وكلاهما نشر في عام 2009؛ يجادل الأول بأن «الحملة شُنت بلا جدوى. فهي لم تقصُر أجل الحرب بمقدار يوم واحد، ولا حتى أتاحت في الواقع قط مثل هذا الاحتمال»⁽¹⁾. والثاني بأن «محل الميلاد الحقيقي لأنزاك... لم يكن على شواطئ غاليبولي الرملية الدموية بل كان قبل ذلك بخمسين سنة» في الحملات الحدودية التي شنتها قوات المستعمرات على شعوب أستراليا الأصلية⁽²⁾.

وتحمل العمليات التي جرت في الدردنيل أهمية تاريخية مساوية للعثمانيين، حيث قاتل الجيش العثماني ببسالة وبامتياز، وفرض تراجعًا مدويًا على جيوش الحلفاء. والشيء الذي لا يقل عن هذا أهمية أن مصطفى كمال اشتهر بعد أن كان حامل

الذكر نسبياً ليبدأ تحوله إلى «أتاتورك» أو أبو الأمة (التركية) الحديثة. ويظل النصب التذكاري التركي للحرب المقام في رأس هيليس الذي يحمل نقش أتاتورك والذي أقيم تكريماً لمن سقطوا من كل الأمم واحداً من أشد النصب التذكارية للحرب العظمى وقعا وتأثيراً⁽³⁾. وأما بالنسبة للبريطانيين الذين كانوا يشكلون أغلبية القوات الغازية فلا يمكن نسج أساطير بطولية لإخفاء ما كان إخفاقاً عملياً مطوّلاً، ولولا أن ونستون تشرشل بلغ ما بلغ من مكانة عظيمة فيما بين عامي 1940 و 1945 لصار الناس يذكرونه اليوم على الأرجح بغضب شديد بصفته المحرض على هذا الإخفاق العسكري ومهندسه.

ويقيم هذا الفصل أصول ومسار المحاولة الإنجليزية الفرنسية التي استهدفت انتزاع السيطرة على مضيق الدردنيل ذي الأهمية الاستراتيجية، قبل أن ينتقل ليمحس بإيجاز الحملة التي استمرت ثلاث سنوات في سالونيك، إذ كانت هذا الحملة من مشتقات الفشل في تحقيق اختراق في غاليبولي وكان لها في النهاية تبعات عميقة الجذور فيما يخص إنهاء الحروب في الشرق الأوسط في عام 1918. كان الضغط من أجل فتح جبهة جديدة في البحر المتوسط يتراكم منذ دخول العثمانيين الحرب العظمى في نوفمبر 1914، وقد عظم هذا الضغط الطريق المسدود عسكرياً الذي كان يزداد تصلباً على الجبهة الغربية فيما أفسحت الميوعة الأولية في ساحة المعركة المجال لخطوط الخنادق التي امتدت من القنال الإنجليزي إلى الحدود السويسرية. وبقيادة تشرشل ومسؤولين بريطانيين مثل السير موريس هانكي، أمين عام مجلس الحرب المتنفذ فيلندن، نما الضغط من أجل إيجاد سبيل للتغلب على الجمود الدموي والقائمة المتطاولة من الخسائر البشرية على الجبهة الغربية. علاوة على ذلك، فإن الحاجة إلى فتح مضيق الدردنيل أمام حركة الملاحة الروسية، واهتمام نظام روسيا القيصرية القديم بمدينة الآستانة، أضاف بُعداً روسياً قوياً إلى هذه العملية. ومن ثم اجتذبت المعارك الرامية إلى كسب السيطرة على شبه جزيرة غاليبولي، لكل هذه الأسباب، تشكيلة واسعة من الأطراف الفاعلة ذات الرؤى المختلفة فيما يخص إعادة تنظيم المنطقة⁽⁴⁾.

الطريق إلى الحرب

مثلت غاليبولي تقاطع الأهداف التوسعية الروسية في الشرق الأوسط مع المحاولات البريطانية لإقامة تحالف مصلحة في زمن الحرب ضد الدولة العثمانية. رغم أنه إبان حرب القرم، قبل ذلك بستة عقود، كانت الرؤيتان الروسية والبريطانية المختلفتان اختلافًا جذريًا بشأن مستقبل الدولة العثمانية ومدينة الآستانة سببًا للحرب. وقد تناغمت رغبة روسيا المكنونة منذ زمن طويل في السيطرة على الآستانة (القسطنطينية) مع طموحاتها السلافية الوجودية وأهمية هذه المدينة بالنسبة للكنيسة الأرثوذكسية الروسية. والشئ الأقل إثارة للشجون، وإن كان أعظم أهمية على الصعيد المادي، أن مضيق الدردنيل كان أيضًا الدرب الذي يجب أن تمر من خلاله كافة التجارة المحمولة بحرًا الداخلة إلى موانئ روسيا الوحيدة على المياه الدافئة، وهي المطة على البحر الأسود، والخارجة منها. وقد تحدّث قائد الأسطول الروسي في البحر الأسود إم. إن. غيرس (وهو نفسه الذي كان سفيرًا سابقًا لدى الباب العالي) بلسان الكثيرين في روسيا عندما قال في أكتوبر 1914: «نريد زعيمًا قويًا يحكم القسطنطينية، وبما أننا لا نستطيع ترك أي قوة تتولى هذا الدور فلا بد أن نستولي عليها لأنفسنا»⁽⁵⁾.

وفيما يخص الجانب البريطاني، كانت عملية وضع السياسات حيال الدولة العثمانية تجمع بين احترام سلامة ترابها ممزوجًا بوعي بضعفها المتزايد. وقد اكتسب احتمال تفتت الدولة العثمانية اعتبارات استراتيجية مهمة خاصة بالنسبة لأقاليمها الواقعة على امتداد الطريق البحري الحيوي الواصل إلى الهند في شرقي البحر المتوسط وفي شبه الجزيرة العربية. وهكذا كان المسؤولون في لندن ودلهي ينظرون إلى أي تفكك محتمل للسلطنة بهواجس عميقة خشية أن يشجع القوى المنافسة مثل روسيا أو ألمانيا التي لديها مطاعم في اتجاه الشرق. ولا شك أن توقيع الاتفاق الإنجليزي الروسي في عام 1907 قد أدلى تخفيف حدة التنافس الذي كان موجودًا بين لندن وموسكو في آسيا الوسطى، وإن ظلت آثار هذا التنافس باقية. بيد أن المكان الذي

كان يشغله هذا التنافس مع روسيا في عقلية المسؤولين البريطانيين التآمرية صار مشغولاً آنذاك بألمانيا وروابطها التجارية، وعلى ما يبدو الاستراتيجية، المتنامية مع الباب العالي. وقد التحم منح شركة سكك حديد الأناضول المملوكة لدويتشه بنك امتياز إنشاء خط حديدي يمتد من برلين إلى بغداد مع ترويج القيصر الألماني للحمية الإسلامية الحدودية بأنشطة المسؤولين المدنيين والعسكريين الألمان (الحقيقية والمتخيلة المبينة في الفصل الأول)، مثل فاسموس وفون ساندرز، فكانت النتيجة كلاماً ممزوجاً بالأوهام بين واضعي السياسات البريطانيين عن عقيدة «درانغ ناخ أوستن» أو «الزحف صوب الشرق» الألمانية⁽⁶⁾.

والواقع أنه انقضت ثلاثة أشهر بين دخول بريطانيا الحرب العالمية الأولى في 4 أغسطس 1914 وإعلانها الحرب على الدولة العثمانية في 5 نوفمبر من ذلك العام. وقد تعقّدت خلال هذه الفترة عملية وضع استراتيجية بريطانيا الإمبراطورية بشدة بفعل تبني الآستانة سياسة الحياد العدائي. ثم تدهورت العلاقات بين لندن والباب العالي بسرعة فيما بدأ العد التنازلي للحرب. ففي 29 يوليو، صادرت بريطانيا بارجتين من فئة دريدنوت (السلطان عثمان والرشيديّة) كانتا قيد الإنشاء في ترسانتين بريطانيتين. وكانت الأموال المطلوبة لبناء هاتين القطعتين قد جُمعت بالاكْتِتاب العام، فتسبب الاستيلاء عليهما في ضجة في القسطنطينية. وبعد ذلك بأربعة أيام، وتحديدًا في 2 أغسطس، وقّع العثمانيون على معاهدة تحالف مع ألمانيا تلتها معاهدة مماثلة مع النمسا والمجر في 5 أغسطس. وساهم وجود بعثة عسكرية ألمانية كبيرة متنفذة في تركيا تحت قيادة الجنرال ليمان فون ساندرز، واستئناف السيطرة الألمانية على القوات البحرية العثمانية في 15 أغسطس، مساهمة أكبر في انهيار العلاقات الإنجليزية العثمانية. كما ساهم في انهيارها أيضًا قرار الآستانة السماح للطرادين الألمانين «غوبين» و«بريسلاو» بالإفلات من القطع البحرية التي كانت تلاحقهما في عرض البحر المتوسط بالمرور خلال الدردنيل قبل الوصول إلى الآستانة، حيث تم هناك نقلهما رمزيًا إلى البحرية العثمانية⁽⁷⁾.

ولقد تسبب هذا في صعوبتين محددتين لواضعي السياسات البريطانيين الذين كانوا على وعي شديد ويقظة تامة للبعد الديني لأي صراع مع الدولة العثمانية. وكان هذا يصدق بوجه خاص على «قوس الإمبراطورية» الذي كان يمتد من شرق أفريقيا مروراً بمصر ومشيخات الخليج العربي إلى الهند. فأولاً كان لادعاء الحكام العثمانيين سلطة الخلافة الإسلامية أصداء عميقة بين المسلمين في الهند ومصر، وفي أماكن أخرى في العالم الإسلامي. وبالتالي فإن أي إعلان للحرب على الدولة العثمانية كان سيتطلب من البريطانيين إقناع رعاياهم المسلمين بالانضمام، أو على الأقل الإذعان، إلى حملة مسيحية موجهة ضد إخوانهم في الدين ومصدر قيادتهم الروحية. وصار هذا أشد إلحاحاً عندما اكتسبت النزعة القومية العثمانية صبغة إسلامية متزايدة، وهو ما بلغ ذروته في إعلان السلطان العثماني الجهاد الإسلامي في 14 نوفمبر 1914⁽⁸⁾. لهذا السبب، أدرك المسؤولون البريطانيون تماماً ضرورة أن تُرى الآستانة وهي تقوم بأول تحرك عدواني في اتجاه الحرب. وقد تبين فيما بعد أن شواغلهم بشأن ولاء الجنود المسلمين الهندود الذين أرسلوا إلى مصر في عام 1914 بلا أساس، وذلك بفضل الفوارق الإثنية واللغوية الكبيرة التي حالت دون أي درجة ذات شأن من التواصل أو التعاون مع الأهالي المصريين⁽⁹⁾.

كان العامل الثاني الذي أثر على صياغة السياسات البريطانية في خريف 1914 هو التزام بريطانيا المستقر بالحفاظ على سلامة أراضي الدولة العثمانية. فقد كان هذا مكوناً جوهرياً من مكونات سياسة بريطانيا الشرقية منذ عام 1815. في البداية كانت هذه السياسة تعكس حتمية استراتيجية هي إبعاد روسيا عن الآستانة وعن طرق الوصول إلى الهند. وفيما بعد ذلك، وكما فصلنا في الفصل الأول، كان محور التركيز قد تحول إلى منع ألمانيا من تأسيس موطنٍ لقدم في الخليج العربي⁽¹⁰⁾. كما كانت تعكس أيضاً حقيقة أن مصالح القوى العظمى المنافسة في الدولة العثمانية أسفرت بالعكس عن التزام مشترك تجاه بقائها السياسي في القرن التاسع عشر. فقد كانت روسيا وفرنسا تتمنيان منع بريطانيا من أن تصبح أقوى مما ينبغي في الشرق الأوسط، في حين ازداد النفوذ الألماني في الدولة العثمانية وضوحاً قرب

نهاية القرن⁽¹¹⁾. لكن الاعتداء الأوروبي على الأراضي العثمانية في العقد السابق على عام 1914 أدخل بهذا الترتيب، في حين قلب إبرام المعاهدة العثمانية الألمانية في 2 أغسطس سياسة بريطانيا القائمة على دعم السلطنة رأسًا على عقب.

ولقد وُجد هذان العاملان أول ما وجدا في سياق توازن مضطرب من أغسطس إلى أكتوبر 1914. وأدى التلهف البريطاني على تجنب الظهور بمظهر المعتدي على الخلافة بوزير الخارجية السير إدوارد غراي إلى إعادة تأكيد التزام لندن بسلامة أراضي الدولة العثمانية. وبالطبع تسبب هذا القرار في إحباط البريطانيين أنصار إقامة تحالف بلقاني لاحتواء الدولة العثمانية والتصدي لها، غير أن الحساسيات المتعلقة بالمجموعتين السكانييتين المسلمتين الكبيرتين الواقعتين تحت سيطرة الإمبراطورية في الهند ومصر دفعت مجلس الوزراء البريطاني إلى التأكيد في 17 أغسطس 1914 على أنه «لا بد من دفعها [الآستانة] إلى توجيه الضربة الأولى». فأحبط هذا أنصار اتخاذ موقع أكثر عدوانية الذين كان من بينهم وزير الحربية المعين حديثًا هيربرت هوراشيو كتشنر ووزير البحرية النزاع إلى القتال ونستون تشرشل اللذين كانا يتمنيان إنشاء «كتلة بلقانية» تتألف من رومانيا واليونان وبلغاريا ضد العثمانيين⁽¹²⁾. ومع ذلك كانت السياسات البريطانية، في أثناء تلك الفترة، في حالة انجراف، وكانت تفتقر إلى الاتجاه. وقد تجسّد هذا في غياب السفير البريطاني في القسطنطينية (السير لويس ماليت) في عطلة دامت أكثر من شهر، حدث خلالها إبرام المعاهدة العثمانية الألمانية ومصادرة البارجتين التركيتين وملاحقة الطرادينغويين وبريسلاو، إلى أن عاد بعد فوات الأوان في 16 أغسطس⁽¹³⁾.

لكن في 1 أكتوبر زاد العثمانيون تورطهم في الأعمال العدائية التي لم تكن معلنة بعد بإغلاق مضيق الدردنيل أمام السفن البريطانية وسفن الحلفاء، وهو التحرك الذي قضى على أكثر من نصف تجارة الصادرات الروسية بأكملها وكشف عن موطن ضعف بريطانيا المتمثل في الإمدادات الغذائية المستوردة. فلم تكن بريطانيا، على نحو فريد من نوعه بين المتحاربين في عام 1914، قد رتبت ترتيبًا لضمان أمنها

الغذائي. بل إن رئيس مجلس الزراعة اللورد لوكاس قد قال في لامبالاة: «لماذا تجشّم نفسك عناء زراعته [القمح] وأنت بمقدورك استيراد أي كمية تشاء؟»⁽¹⁴⁾. لكن مع انتهاء كل واردات القمح الآتية من روسيا، بدأ صبر بريطانيا على الآستانة ينفد بسرعة، ثم جاءت الشرارة الفعلية لاندلاع الحرب عندما شنت البحرية العثمانية ضربات بحرية استباقية استهدفت موانئ أوديسا وسيفاستوبول ويالتا ونوفوروسيسك وفيودوسيا الروسية على البحر الأسود في 29 أكتوبر، فقطعت بريطانيا العلاقات الدبلوماسية مع العثمانيين في اليوم التالي وأعلنت الحرب في 5 نوفمبر، وذلك بعد إعلان روسيا الحرب على الآستانة بثلاثة أيام⁽¹⁵⁾.

والجدير بالملاحظة فيما يخص الحملة التي تلت ذلك أنه قبيل إعلان الحرب مباشرة كانت البحرية الملكية قد نفذت قصفًا أوليًا محفوفًا بالمخاطر للتحصينات العثمانية على مضيق الدردنيل. وجاء هذا القصف بناء على أمر من تشرشل ووقع في 3 نوفمبر 1914. وقام طرادان قتاليان بريطانيان وبارجتان فرنسيتان بقصف وجيز استمر قرابة 20 دقيقة. ونجحت السفن في إلحاق أضرار شديدة بأحد الحصون العثمانية، وهو حصن سد البحر على طرف شبه جزيرة غاليبولي شرق رأس هيليس، مما أسفر عن مقتل زهاء 86 جنديًا عثمانيًا ونحو 40 جنديًا ألمانيًا. وقد رفع النجاح النسبي لهذه العملية القصيرة مستوى توقعات البريطانيين وشجع اعتقادًا خاطئًا في نهاية المطاف، وهو أن المضيق مهيا للاستيلاء عليه. فعلى النقيض من ذلك، بدأ العثمانيون على الفور في تحسين الحصون وتقويتها، وذلك بعد أن نبههم الهجوم إلى أن هذا المضيق الاستراتيجي هدف مقصود للهجوم⁽¹⁶⁾.

ولقد أزال إعلان الحرب على الدولة العثمانية القيود الجغرافية السياسية التي كانت حتى ذلك الحين تعرقل وضع السياسات البريطانية في الشرق الأوسط. وتقاطع هذا مع تعالي الأصوات المعبرة عن القلق داخل الحكومة البريطانية في مستهل حرب الخنادق والطريق المسدود عسكريًا الذي بدأ يتبدى للعيان على الجبهة

الغربية، في خضم بوادر لا تخطئها العين تدل على أن الحرب سيستطيل أمدها ولن تنتهي «بحلول عيد الميلاد». وبعد أن بلغ «السباق إلى القنال» ذروته بمعركة إيبر (الأولى) في أوائل نوفمبر 1914، أطلقت تقوية خطوط الجبهة الفاصلة بين القوات البريطانية والألمانية في شمال فرنسا والإقليم الفلامندي عملية البحث عن نُهج بديلة محتملة. وقد برز تشرشل، وزير البحرية النزاع إلى القتال الذي كان متلهفًا على نشر وتعظيم الهيمنة المتاحة لأعظم قوة بحرية في العالم، كأكبر مناصر للاستخدام الحاسم للتفوق البريطاني على جبهة ثانوية بدلاً من إرسال قوات إضافية إلى الجبهة الغربية. ففي 29 ديسمبر 1914، كتب تشرشل عبارته الشهيرة إلى رئيس الوزراء هيربرت هنري أسكويث سائلاً إياه (في استفهام بلاغي): «كيف ينبغي لنا استخدام قوتنا العسكرية المتنامية؟ ألا توجد بدائل أخرى غير إرسال جيوشنا لمضغ الأسلاك الشائكة في الإقليم الفلامندي؟»⁽¹⁷⁾.

وفي الفترة التي تلت دخول العثمانيين الحرب مباشرة، شرع تشرشل في وضع خطة بحرية جسورة لاقتحام مضيق الدردنيل كتوطئة للرسو قبالة شاطئ الآستانة. وكان يرجو أن يجبر هذا التحرك العثمانيين على الجنوح للسلم وأن يفتح المضيق ليكون طريقاً للإمدادات القادمة من الحلفاء إلى روسيا، وفي الوقت نفسه (على أقل تقدير) يجبر العثمانيين على تحويل وجهة جنودهم لتخفيف الضغط الواقع على الجبهة الروسية السالف بيانه في الفصل السابق⁽¹⁸⁾. بالإضافة إلى ذلك، كان تشرشل يشترك مع الكثير من المسؤولين البريطانيين في وجهة النظر القائلة إن القدرات العسكرية العثمانية أوهنت بشدة بفعل حربي البلقان في عامي 1912 و1913، وكذلك بفعل النتائج الخادعة لقصف الحصون في 3 نوفمبر. وبالتالي، وبنص كلمات المؤرخ العسكري ديفيد فرنش، عندما اندلعت الحرب في نوفمبر 1914 كانت الحكومة البريطانية تعتقد أن بإمكانها إلحاق هزيمة سريعة بالعثمانيين، ومن ثم فإنه «يمكن احتواء الأخطار السياسية المترتبة على وضع بريطانيا في مواجهة مع خليفة المسلمين»⁽¹⁹⁾.

نشأة الحملة

بدأ يشتد الزخم لانتهاج استراتيجية لتحويل الاهتمام والتركيز على مدى شتاء 1914 - 1915. وكان تشرشل أول من طرح فكرة شن هجوم بحري على مضيق الدردنيل على مجلس الحرب البريطاني في 13 يناير 1915. وقد خرجت هذه الفكرة من رحم طلب من القائد العام الروسي لشن هجوم بريطاني خداعي لتخفيف الضغط الناتج عن الزحف العثماني ضد القوات الروسية في الأناضول. وكان دعم تشرشل لشن حملة ضد العثمانيين يعكس أيضًا فتور حماسه لفكرة أخرى من أفكاره، وهي فتح جبهة بحرية جديدة ضد العدو وذلك بالهجوم على الساحل الألماني الشمالي. وقد فازت دعوته لفتح جبهة في الدردنيل بدعم أعضاء متنفذين في الحكومة البريطانية من ذوي المسؤولية المباشرة عن المجهود الحربي، ومن ضمنهم وزير الحربية كتشنر ووزير الخزانة ديفيد لويد جورج، وإن كان جديرًا بالملاحظة أنها لم تحظ بتأييد قائد القوات البحرية المخضرم الفريق أول بحريجون فيشر الذي أعرب عن ريبته في استراتيجية لا يؤمن بأن فرصة نجاحها كبيرة⁽²⁰⁾. وكانت النتيجة وضع هدف عملياتهم للغاية، حيث كلف مجلس الحرب البحرية الملكية بـ«الاستعداد لحملة بحرية في فبراير لقصف شبه جزيرة غاليبولي والاستيلاء عليها، على أن تكون القسطنطينية [الآستانة] هدفها»⁽²¹⁾.

غير أنه مع اقتراب تنفيذ الحملة تبين وجود تناقض بين أهدافها العامة وأهدافها المرحلية منذ البداية. والجدير بالملاحظة أن عددًا من الأسئلة ظل دون إجابة حتى لحظة بدء العمليات في 19 فبراير 1915. أيمن لعملية بحرية بمفردها أن تخترق شبكة من التحصينات والدفاعات الشاطئية التي تحمي المضيق؟ كيف تستطيع السفن في الحقيقة «الاستيلاء» على هدف بري شديد التحصين؟ كان كتشنر يشعر أن الحامية العثمانية في شبه جزيرة غاليبولي ستفر أو تستسلم دون الحاجة إلى إنزال القوات البريطانية، لكن هل كان هذا مرجحًا؟ ولو نجحت القوة في اقتحام المضيق، فهل سيعجل وجودها على مشارف الآستانة بانسحاب الدولة العثمانية

من الحرب مع أخذ التوجيه والمساعدة العسكريين الكبارين المتقدمين من البعثات العسكرية الألمانية هناك في الاعتبار؟ وإذا لم يحدث هذا، فهل يستطيع المخططون العسكريون في لندن العثور على قوات كافية ووضع خطة عملياتية بسرعة كافية لاستعادة زمام المبادرة دون التضحية بعنصر المفاجأة في الحملة؟⁽²²⁾.

على أية حال بدأ القرار الأولي باستخدام القوة البحرية (من خلال توليفة من كاسحات الألغام والغواصات والبوارج) وحدها ينهار بشكل شبه فوري. ففي مطلع فبراير 1915، انتهى القادة العسكريون البريطانيون إلى أن العملية ستتطلب في النهاية فرقة مشاة تضاف إلى مجموعات جنود البحرية الملكية الصغيرة، فطلت فرقة نظامية واحدة متاحة لهذه الحملة، وهي الفرقة 29 التي كانت قد سُكِّلت في بداية العام بدمج وحدات متفرقة من المشاة كانت مبعثرة على هيئة حاميات على مواقع مختلفة في عموم الإمبراطورية البريطانية. وبناء على ذلك، أرسلت هذه الفرقة إلى مصر حيث انضمت هناك إلى قوات المشاة التي كانت تتوافد من أستراليا ونيوزيلندا في طريقها إلى العبور إلى مناطق الحرب في أوروبا، والآن في الدردنيل. وهكذا جُمِّع جنود أنزاك الذين كانوا يتلقون التدريب في مصر على هيئة الفرقة 1 الأسترالية والفرقة النيوزيلندية الأسترالية المِجْمَعَة، وشُكِّلت الفرقتان فيما بينهما «فيلق أنزاك» الذي تتحاكى به الأساطير الآن. ثم انضمت إلى هذا الفيلق الفرقة البحرية الملكية التي كانت عبارة عن توليفة غريبة من جنود بالكاد دُرِّبوا ولا يكادون يملكون تجهيزات مدفعية، وكان من بينهم الشاعر الإنجليزي الشهير الملازم روبرت بروك⁽²³⁾.

وكمَّلت قوة عسكرية فرنسية منظومة ضمن الفرقة 1 التابعة لقوة الحملة الشرقية الفرنسية هذه القوة التي جُمِّعت على عجل، وكان ذلك على ما يبدو بغرض مراقبة العمليات البريطانية في الشرق الأوسط عن كثب. والمفارقة أن تولي بريطانيا دور القيادة في حملة الدردنيل انتهك عمليًا التفاهم الذي توصل إليه في 6 أغسطس 1914 بين الحليفتين المتحفظتين أحيانًا بشأن تقسيم المسؤوليات البحرية في مسارح

الحرب. فقد كان هذا التفاهم ينص على أن تدير البحرية البريطانية العمليات البحرية في المحيط الأطلسي وبحر الشمال فيما تتولى البحرية الفرنسية المسؤولية عن البحر المتوسط. وهكذا لم تتفاعل البحرية الفرنسية بشكل جيد عندما عرضت عليها ما رأته سياسة أمر واقع بريطانية على هيئة خطة عملياتية مفصلة في 19 يناير 1915. وعلى الرغم من ذلك كانت مساهمة الفرنسيين طوال الحملة شديدة الأهمية، كما أنهم تكبدوا خسائر في الأرواح تزيد عن 27 ألف فرد، ومع ذلك أغفلوا بشكل شبه تام في التأريخ لهذه الحملة⁽²⁴⁾.

وقد جمّع البريطانيون والفرنسيون فيما بينهما قوة بحرية مؤلفة من بارجة واحدة من فئة دريدنوت وطراد قتال واحد و16 بارجة من الفئة القديمة و20 مدمرة و35 كاسحة ألغام. وكان في مواجهة هذه القوة (وهي التي صارت تعرف باسم قوة الحملة المتوسطية) في الممر البالغ اتساعه 1600 ياردة عبر مضيق الدردنيل الجيش الخامس العثماني تحت قيادة الجنرال الألماني ليمان فون ساندرز⁽²⁵⁾. وكانت القوة العثمانية المؤلفة من نحو 84 ألف رجل مقسّمة بين الفيلق الثالث والفيلق الخامس عشر، وتتألف من خمس فرق مشاة مع فرقة سادسة في الاحتياطي بجانب لواء من الفرسان. والمهم أن القوات العثمانية كانت متفوقة في العدد على القوات الغازية البالغ قوامها 75 ألف رجل، وكانت تملك ميزة عظيمة هي السيطرة على التلال المشرفة على نقاط الإنزال المحتملة كافة. بالإضافة إلى ذلك، كان جنود الجيش الخامس أقدر كثيرًا على الصمود وأرقى تدريبًا بكثير مما كان يعترف به البريطانيون، وقد أعدوا منظومة قوية مؤلفة من 11 تحصينًا ميدانيًا وخط دفاع حول مواضع الإنزال المحتملة. وقد اعتمدت هذه التدابير في بعض منها على الأعمال الدفاعية التي أقيمت من قبل للتصدي لهجمات يونانية أو بلغارية محتملة على المضيق في أثناء حربي البلقان⁽²⁶⁾.

الطقات الافتتاحية

بدأت الأعمال العدائية في 19 فبراير 1915 عندما قامت مدمرتان بريطانيتان

وبارجتان بريطانيتان بقصف الحصون العثمانية في شبه جزيرة غاليبولي، غير أن هذا الاشتباك والاشتباكات الأخرى التي وقعت فيما بعد في فبراير وفي مارس لم تحرز إلا تقدماً ضئيلاً في تطهير حقول الألغام العثمانية التي كانت قد رُصّت بعناية فائقة عبر المضيق. وترتب على عدم كفاية كاسحات الألغام عدم التمكن من تطهير هذه الحقول من أجل السماح للبوارج، وهي أكبر وأقوى، بالاقتراب من التحصينات. وإلى حد كبير لهذا السبب، لم تُجد عمليات القصف المتعاقبة كثيراً في إسكات مدفعية العدو أو إخراجها من الخدمة، وذلك في ظل تسجيل مقاومة عثمانية شديدة القوة والفعالية في يومي 10 و11 مارس. ومن ثم بدأت صعوبة اقتحام المضيق بالوسائل البحرية وحدها تزداد وضوحاً، لكن صبر تشرشل كان ينفد، فأبرق في 11 مارس إلى قائد بحري القوة المتوسطة الشرقية البريطانية في غاليبولي، الفريق أول بحري السير ساكفل كاردن، كي يضغط من أجل شن هجوم فوري منوهاً في الوقت نفسه إلى «أننا لا نريد استعجالك ولا حضك على تجاوز ما تراه صواباً...». وبعد ذلك بثلاثة أيام، أبرق إليه من جديد ليقول إن «خسارة مائتين أو ثلاثمائة فرد سيكون ثمناً معتدلاً يُدفع لكسح الألغام وصولاً إلى البوغاز»⁽²⁷⁾.

وفي اليوم التالي لهذه الرسالة استقال كاردن من منصبه بوصفه القائد البحري للقوات البريطانية. وكان الرجل يعاني أصلاً من اعتلال في صحته ومن الإجهاد المتزايد، بل إنه كان على شفا الانهيار العصبي. وهكذا حدث تغيير في قيادة القوة قبل شن الهجوم الرئيس أخيراً في 18 مارس بثلاثة أيام فقط، حيث تولى الرجل الثاني في التسلسل القيادي، الفريق بحري جون دي روبيك، أمر هذه القوة على عجل. وعلى عجل مماثل استدعى الجنرال السير أيان هاملتون إلى مقر وزارة الحربية بقيادة كتشنر في 12 مارس ووُلّي أمر قوة الحملة المتوسطة. جاء هذا بعد يومين من قرار إرسال الفرقة 29 لتشكّل حجر الزاوية في القوة القتالية، وذلك فيما بدأ المخططون السياسيون والعسكريون البريطانيون الانتقال من خطة هجوم بحرية محضة إلى خطة هجوم بزمائية⁽²⁸⁾. وفي ظل بقاء غالبية حقول الألغام العثمانية دون شق وبقاء غالبية المدافع أو الهاوتزرزات في مواضعها، كانت الساحة مهيأة لمجهود كبير من

جانب الحلفاء لاختراق الدردنيل والمضي صوب الآستانة.

وفي 18 مارس، تجمعت القوة البحرية الإنجليزية الفرنسية على هيئة ثلاثة خطوط هجوم، وتقرر أن تهاجم ست بوارج بريطانية أولاً تتبعها أربع سفن فرنسية، مع عمل أسطول يتكون من ست سفن بريطانية أخرى كقوة بديلة للحلول محل السفن المعطوبة. وشهد ذلك الصباح الشمس إخفاق مخطط تشرشل الفخم المبالغ في الطموح حيث أغرقت ثلاث بوارج وأصيبت ثلاث أخرى بأضرار خطيرة. وتسبب القصف العثماني المكثف بالمدفعية لكاسحات الألغام المحاصرة (كانت هذه الكاسحات في حقيقتها سفن صيد حُولت إلى كاسحات ألغام وزُودت بمدنيين عديمي الخبرة مذعورين) في عدم إمكانية شق طريق في حقول الألغام، زد على ذلك أن مسطحاً زُرع حديثاً بالألغام مضى دون اكتشاف فكانت الخسائر فادحة، حيث ارتطمت سفينة حربية فرنسية، وهي السفينة «بوفيه»، بلغم في أثناء محاولتها الانسحاب بعد أن أصيبت بقذيفة مدفعية ثقيلة، فتسببت هذه التوليفة القاتلة في غرقها في نحو ثلاث دقائق وخسارة 639 نفساً، ولم ينج من الحادث إلا 66 شخصاً. كما أصيبت سفينة القيادة الفرنسية «سوفران» أيضاً بقذيفة مدفعية ثقيلة تمخضت عن محصلة وفيات كبيرة، وذلك في مشهد وصفه اللواء بحري إميل غيبريت وصفاً يثير الشجن:

كان المشهد مأسوياً رهيباً؛ كان صورة تجسد الدمار إذ لم تترك النيران شيئاً. وأما شبابنا الذين كانوا منذ دقائق ملوهم اليقظة والثقة بالنفس فكانوا جميعاً يرقدون جثثاً هامدة على سطح السفينة المجرد، وقد حولتهم النيران إلى هياكل عظمية محترقة متفحمة دون أثر لأي ملابس حيث التهمت النيران كل شيء⁽²⁹⁾.

وبنهاية اليوم، كانت خطة اقتحام مضيق الدردنيل قد انهارت، وكانت الرؤية العملياتية للحملة بحاجة إلى إعادة صياغة. وفي مؤتمر دُعي إليه على عجل على متن السفينة «كوين إليزابيث» في 22 مارس، اتخذ دي روبيك قرار الجمع بين العمليات العسكرية وقوة المشاة. وقد تعارض هذا مع رغبة تشرشل في استئناف الهجوم، فأسندت القيادة إلى قوة الحملة المتوسطة التي يترأسها هاملتون. وكان

هاملتون قد وصل إلى مسرح العمليات في 17 مارس في الوقت المناسب ليرى بعينه الهجوم البحري الفاشل، فاتفق على ضرورة ألا تستأنف البحرية الملكية عملياتها إلا بعد أن تنتزع قوات المشاة السيطرة على هضبة قيلد البحر في شبه جزيرة غاليبولي⁽³⁰⁾.

ومن ثم وُضعت خطط على عجل لتنفيذ إنزال في شبه جزيرة غاليبولي ذاتها، لكن لزم انتظار الوصول الفعلي لتعزيزات القوات من بريطانيا، مما أعطى العثمانيين وقتًا هم في أمس الحاجة إليه لإعادة التجمع وإعادة تنظيم دفاعاتهم في مواقع الإنزال المحتملة؛ حيث كانوا هم أيضًا قد تكبدوا خسائر كبيرة في القتال الذي جرى في مارس. وعلى وجه التحديد، كانت الذخيرة توشك على النفاد لدى المدفعيين العثمانيين في 18 مارس قبل قرار سحب الأسطول البريطاني. وكان يتعين أيضًا على القيادة العثمانية أن تعالج انقسامًا في الآراء بين فون ساندروز ومصطفى كمال بشأن الأماكن المثلى لاتخاذ المواقع الدفاعية وتمركز التعزيزات، حيث كان كمال يعتقد أن البريطانيين سيهاجمون من عند أقصى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة عند رأس هيليس، وتحديدًا عند قابا تبه أضيق نقطة فيها. وقد تعارض هذا مع رؤية فون ساندروز الذي قرر تركيز أغلبية قوته في داخل الجزيرة كاحتياطي استراتيجي، ونشر بقية القوة على ثلاثة مواقع في هيليس وبولاير (عند الطرف الشمالي لشبه الجزيرة) وخليج بسيكا الواقع على الساحل الآسيوي لمضيق الدردنيل.

ومن ثم كانت تحضيرات هاملتون لعمليات الإنزال في غاليبولي تكتنفها المشكلات. ففيلق أنزاك كان عديم الخبرة يفتقر إلى التدريب الكافي، ومع ذلك كانت الأهداف المطلوب منه تحقيقها هائلة، وهي بنص كلمات أحدث تاريخ للحملة: «تنفيذ عملية إنزال ليلي على شاطئ معادٍ والتغلب على مواجهة غير محددة المعالم والسيطرة على التلال المحيطة بشواطئ الإنزال ثم التوغل في شبه الجزيرة...»⁽³¹⁾. وقد أثر هاملتون تنفيذ عمليات إنزال متزامنة عند ستة رؤوس شواطئ موزعة بين خليج أنزاك (على الجانب الغربي لشبه الجزيرة) ورأس هيليس (عند أقصى

الطرف الجنوبي لها). وكانت رأس هيليس تتيح ميزة توفير القوة النيرانية البحرية لها من ثلاث جهات، لكنها كانت بعيدة عن الأهداف العملياتية المهمة الأخرى ومنفصلة عنها بتضاريس وعرة تكثر فيها التلال.

وفي 25 أبريل 1915، نزلت القوات الأسترالية والنيوزيلندية عند خليج أنزاك وانقضت القوات الفرنسية على رأس هيليس. لكن نظرًا لافتقارهم إلى عنصر المفاجأة، واجهوا مقاومة شديدة من المدافعين العثمانيين المتمركزين فوق التلال المحيطة بكل رؤوس الشواطئ. وتكبّد الجنود البريطانيون والأيرلنديون الذين كانوا في مقدمة الهجوم في موقع الإنزال الرئيس على الشاطئ «في» عند رأس هيليس خسائر مروعة في الأرواح حيث اصطادتهم رشاشات العثمانيين وأسلاكهم الشائكة. ومن كثرة ما أُعمل فيهم من قتل لم ينجح في الوصول إلى الشاطئ حيًا إلا 21 جنديًا من أول 200 جندي حاولوا ذلك⁽³²⁾. وعلى الساحل عند خليج أنزاك، تمكنت غالبية القوة الأسترالية والنيوزيلندية من الاستيلاء على موطنٍ لقدم فوق شبه الجزيرة والتقدم إلى الداخل، فبدأ لبعض الوقت أن قوات أنزاك توشك أن تستولي على التلال حاسمة الأهمية التي كانت تتيح نقطة مشرفة على شبه الجزيرة بأكملها. لكن كمال رد على ذلك بأن تصدّر شخصيًا الهجوم العثماني المضاد وتقدم صفوف فوج المشاة السابع والخمسين بصيحته الشهيرة «لست أمركم بالقتال بل أمركم بالموت!»⁽³³⁾.

ولقد انتزع هذا العمل البطولي الزخم من القوات المهاجمة في الوقت الذي بدت فيه نتيجة المعركة غير واضحة، كما أنه وضع الأسس لإضفاء هالة أسطورية على أتاتورك ليصير ما صار إليه فيما بعد من شخصية وطنية عظيمة. وبنهاية أول يوم من الهجوم البري، كان العثمانيون قد تمكنوا من احتواء عمليات إنزال القوات البريطانية وقوات أنزاك في رؤوس الشواطئ ومن نشر الاحتياطيات لتعزيز خطوطهم الدفاعية. كما أنهم نجحوا أيضًا في احتواء هجوم فرنسي منفصل على الساحل الآسيوي (عند قوم قلعة) دون تحقيق أي من أهدافه. كما استفاد فون ساندرز كذلك من وصول تعزيزات تمكن من إشراكها في المعركة في اليوم الثاني والأيام التي تلتها، وقد

أثبتت هذه القوات الجديدة أهميتها المحورية في وقف موجات الهجوم على أيدي عدو بدأ يزداد إنهاكاً وضعفًا بسبب استمرار تكبده خسائر فادحة في الأرواح. وفي 28 أبريل، شنت العثمانيون أول محاولة للقيام بهجوم مضاد من رؤوس الشواطئ (عند رأس هيليس) بهدف الاستيلاء على قرية ألجيتبه ذات الأهمية الاستراتيجية. كما فشل أيضًا هجوم بريطاني ثان في 6 مايو على ألجي تبه، وهو ما كان عليه الحال مع معركة الثالثة دارت رحاها في 4 يوليو وأسفرت عن خسائر فادحة، مما أنهى ما بقي من آمال في تحقيق اختراق، وأنهى المرحلة الافتتاحية من حملة غاليبولي⁽³⁴⁾.

التحضيرات لإنزال صيفي

عندئذ شرع كلا الجانبين في عملية إعادة تنظيم وتعزيز دامت من مايو حتى استئناف هجوم الحلفاء في 6 أغسطس. فقد وصلت الفرقة 2 العثمانية في منتصف مايو وفي الوقت نفسه استقبل البريطانيون إحدى فرق الجيش الاحتياطي البريطاني (الفرقة 52) في يونيو. كما بدأ هاملتون أيضًا في تطوير خطوط مواصلاته وإمداداته بين قواعده المتقدمة فوق جزيرة ليمنوس في بحر إيجه ومستودعات الإمداد والتموين في مصر. وفي غياب موانئ عميقة المياه في شرقي بحر إيجه، وقع الاختيار على الإسكندرية لتكون القاعدة الرئيسة لقوة الحملة المتوسطية. وأقيمت قاعدة متقدمة في مودروس (فوق جزيرة ليمنوس)، وأخذ ما يصل إلى 120 سفينة نقل يبحر فيما بين القاعدتين لإمداد الجنود بالموءن والذخائر ونقل التعزيزات ودواب الحمل. لكن القاعدة المتقدمة لم تكن في أول الأمر أكثر من مرفأ طبيعي إذ كانت تفتقر إلى الأرصفة والمراسي وشبكات النقل، وكلها أشياء لزم بناؤها باستخدام مواد وأيد عاملة من مصر⁽³⁵⁾.

ومع تعثر عمليات إنزال الحلفاء وتبعثرها على خمسة رؤوس شواطئ منفصلة، صار هذا تحديًا لوجستيًا معقدًا في مواجهة هاملتون، وازداد هذا التحدي تعقيدًا بفعل الافتقار إلى مياه عذبة في المتناول في شبه جزيرة غاليبولي، إذ لم يستطع الجنود تأمين إمدادات كافية منها. وهذا أيضًا لزم ترتيبه على عجل من مودروس.

وفي غضون ذلك، فرض السيل المتدفق بغزارة من الخسائر البشرية والإصابات المطلوب إخلاؤها وإعادتها إلى مصر عبئًا إضافيًا على خطوط المواصلات البحرية. كما كان الموقف الطبي يهدد كذلك المساس بهيئة بريطانيا في مصر إذا ما برز للعيان أن الإمبراطورية تخفق في إحراز تقدم في الدردنيل. وفي مايو 1915، أحاط السير رونالد غراهام، مستشار الحكومة المصرية البريطاني المتنفذ، نائب الملك في الهند (السير تشارلز هاردنج) علمًا بأن «الجرحى ينهمرون علينا هنا حتى فاضت بهم المستشفيات، واستُولي على كل الفنادق والمدارس المتاحة وجهاز تولى أحسن وجه ممكن لاستيعابهم»⁽³⁶⁾. وفي خطاب آخر تلقاه نائب الملك في الشهر التالي، اعترف المندوب السامي البريطاني في القاهرة السير هنري مكماهون بأن «هذا البلد [مصر] بات على دراية تامة بالحرب وخسائرنا؛ لأن مصر صارت مستشفى واحدًا كبيرًا يؤوي الجرحى والمصابين، والأمر لا يقتصر على القاهرة والإسكندرية، بل كل عواصم الأقاليم مليئة بالجرحى والمصابين... في جميع المباني الحكومية والفنادق والمدارس»⁽³⁷⁾.

وبحلول شهر يوليو، كان هاملتون في حالة من اليأس بسبب الوضع اللوجستي المتدهور، مع ملاحظة أن عدم وجود ما يكفي من الأيدي العاملة والقوارب اللازمة لتفريغ سفن النقل ترتب عليه أن «تصل السفن وعلى متنها أشياء القوات في أمس الحاجة إليها وعندئذ، وقبل أن يتسنى تفريغها، تُبحر راحلة من جديد...». وأضاف في حزن أن «سفنًا تحتوي على منشآت هندسية جاءت خمس مرات ورحلت خمس مرات دون أن يستطيع أحد تفريغها بسبب الافتقار إلى قوارب تفريغ»⁽³⁸⁾. وقد مضى هاملتون إلى حد أن اعترف للسير جون كاونز، رئيس شعبة الإمداد والتموين في وزارة الحربية في لندن، بقوله: «تقلقني الأشياء التي من ورائي بقدر ما يقلقني العدو الذي أمامي»⁽³⁹⁾.

وللتصدي لعملية النشر المتنامية هذه وفي محاولة لقطع خطوط مواصلاتها البحرية الضعيفة، أرسل الألمان أسطولًا صغيرًا من الغواصات إلى مضيق الدردنيل

في أواخر أبريل تضمّن الغواصة «يو-21»، وهي واحدة من أشهر الغواصات وأكثرها حصولاً على أوسمة في البحرية الإمبراطورية الألمانية. وقد غادر الأسطول ألمانيا في 25 مايو، وهو اليوم الذي جرت فيه عمليات إنزال أنزاك، ووصل إلى رأس هيليس في 25 مايو حيث بدأ على الفور يطلق طوربيداته فأغرق بارجتين بريطانيتين؛ أولاهما البارجة «تريومف» في ذلك اليوم تلتها البارجة «ماجستيك» بعد ذلك بيومين. وبالطبع أحدث وصول الغواصات الألمانية أثراً كبيراً في تغيير توازن القوى في رأس هيليس حيث قيّدت أنشطة بوارج الحلفاء دعمًا للجنود الموجودين على الشاطئ وذلك باستهداف «سلسلة الإمداد الواهنة المعرضة للخلل والكوارث في كل حلقة من حلقاتها على طول الخط»⁽⁴⁰⁾. بل والحدث الأشد إثارة من كل ما سواه أنه بعد ذلك بنحو ثلاثة أشهر أغرقت غواصة ألمانية أخرى سفينة نقل بريطانية كانت تنقل الجنود من الإسكندرية إلى الدردنيل فغرق على متنها نحو ألف رجل. وأدت فعالية هذه الهجمات المذهلة بوزارة البحرية في لندن التي جردت من وزيرها ونستون تشرشل، مهندس هذه الحملة، إلى سحب اثنتين من كبريات بوارجها، وهما «كوين إليزابيث» و«إنفليكسابل»، إلى حيث الأمان النسبي الذي يتيح به بحر الشمال⁽⁴¹⁾.

ولقد تواصلت أعمال قتال صغيرة خلال يونيو وأوائل يوليو تركزت غالبيتها على الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة عند رأس هيليس، حيث حاول الحلفاء في البداية ثم العثمانيون انتزاع اليد العليا على شبه الجزيرة. وأسفرت هذه الأعمال عن محصلة خسائر بشرية كبيرة لكنها أخفقت في تغيير توازن القوات على الصعيد المادي. وإن كان بعض هذه الأعمال، كمعركة غالي رافين التي دارت رحاها عند رأس هيليس فيما بين 28 يونيو و5 يوليو، قد حقق إلى حد كبير أهدافه (المحدودة)، لكن بثمن باهظ على كلا الجانبين، بما في ذلك تكبد العثمانيين وحدهم خسائر بشرية بلغت 16 ألف فرد. وكانت الأعمال الأخرى عبارة عن جهود عديمة الجدوى لم يتسن خلالها اكتساب ميزة واضحة من الهجمات التي مضت قُدماً على الرغم من ذلك. وقد قال كينيث بست، القسيس الملحق بفرقة شرق لانكشير الثانية والأربعين، مستحضراً آثار إحدى هذه الهجمات في ألجي تبه في أوائل يونيو:

بطول الخندق بأكمله وأنا أتخطى جثث القتلى. بعض الرجال أصيبوا إصابات قاتلة في القلب أو الرأس فبدت ملامح وجوههم طبيعية ومطمئنة فيما عدا اصطباغ جلودهم بلون أخضر خفيف مائل إلى الاصفرار. وكان معظم الجثث يرتسم على وجوهها علامات الألم أو الرعب، هذا إذا لم تكن الوجوه قد طاحت أصلاً، وكانت غالبيتها مشوّهة بشكل مريع.... في بعض الأماكن كان المرء يضطر إلى وطء الجثث بقدميه في أثناء سيره. وكان المرء يسير في وسط كومة من الجثث. إنها أشد تجربة مريعة مخيفة يمكن أن تخطر لي ببال... قاتل شابنا كالأبطال لكنهم مُزقوا إلى أشلاء بشكل محزن. ولا توجد أوامر واضحة. فقد أمروا بالاستعداد للهجوم على هدف غير محدد واجتازوا خندقاً وراء خندق حتى لم يتبق منهم إلا قلة من الرجال ولم يستطيعوا المضي إلى ما هو أبعد من ذلك..⁽⁴²⁾

وعلى نحو مماثل تكبد لواءان من الفرقة 52 شناً هجوماً أخيراً في 12 يوليو خسائر بشرية بمعدل 30 في المائة دون تحقيق أي تقدم ملموس. ودارت رحى هذه المعركة الكارثية في أثناء نهار صيفي قاتظ ومن دون مياه كافية للقوات الزاحفة، وانتهت بـ«مئات الرجال يهيمون على وجوههم في شبكة الخنادق التي استولى عليها في الشمس الحارقة، وكانت الجثث متفحمة تفوح منها رائحة كريهة...»⁽⁴³⁾. ومع ذلك ظل الحلفاء عالقين في رؤوس الشواطئ التي أقاموها في حين ظلت التلال الحيوية استراتيجياً في أيدي العثمانيين، وتسببت نيران القناصة المتواصلة ودرجات الحرارة المتصاعدة في المزيد من الأضرار بين الجنود. وبحلول يوليو... بدأت الحرارة تصل إلى حد يفوق الاحتمال. فكانت الخنادق أشبه بالأفران، وكانت الأعشاب قد دُبلت وتلاشت منذ زمن طويل، وكانت الرياح الحارة تثير الغبار الذي كان يكتسح شبه الجزيرة مغطياً كل شيء ومشبعاً إلى حد مروع برائحة الحرب وبتن الجثث... أما على الشاطئ فإن الذباب الأخضر الكريه المتخم (كان الرجال يسمونه «ذباب الجثث») قد صار وبائياً بالمعنى الحرفي للكلمة. وكان يتغذى على الجثث المتناثرة في المنطقة المحرمة، ويحتشد بشكل مخيف في المراحيض، ويملاً كل خندق وملجأ ويغطي الطعام..⁽⁴⁴⁾

ومع تدهور الأوضاع عند رؤوس الشواطئ المقامة فوق شبه الجزيرة بفضل ما كانت تنشره الحرارة والذباب من أمراض مثل الدوسنتاريا والإسهال، والنقد في مقر القيادة العامة وتصادد الترتيبات اللوجستية، أدت حالة الجمود بهاملتون إلى النظر في نهج بديلة يمكنها فتح هذا الطريق المسدود عسكريًا.

وفي ظل الحصار الذي كان مضروبًا على الحلفاء في كل من خليج أنزاك ورأس هيليس، اقترحت عملية إنزال جديدة، وتقرر أن تتم على بعد 5 أميال شمال خليج أنزاك، وذلك في إطار الهجوم على تلساري بير. كانت الخطة الأولية صغيرة نسبيًا في حجمها واشتملت على أهداف محدودة تضاهي قدرات القوة الموجودة تحت قيادة هاملتون. لكن الإخطار الذي جاء من وزارة الحربية بأن ثلاث فرق مشاة إضافية يجري إرسالها للانضمام إلى قوة الحملة المتوسطة أدت إلى توسيع متناسب في نطاق العمليات. وقد وضع هاملتون آنذاك تصورًا لإفلات القوات من حصارها في منطقة الإنزال في خليج سوفلا، والاستيلاء على قمة شونك بير التي يحتاج التسلُّق إليها ست ساعات. وكان مطلوبًا تحقيق هذا في مواجهة نيران العدو المستمرة من التلال المحيطة من ثلاثة جوانب، وباستخدام توليفة من جنود الجيش الجديد عديمي الخبرة الذين لم يجربوا في معركة وجنود أنزاك المنهكين، وكلا الفريقين كان يفتقر إلى القدرة على الاحتمال اللازمة لتنفيذ المسيرة الشاقة إلى أعلى التل في قِظ الصيف حاملين مخاليهم ومعداتهم⁽⁴⁵⁾.

هجوم أغسطس

اختير تاريخ 6 أغسطس لشنّ الهجوم التعرّضي، فجمّعت فرق الجيش الجديد الثلاثة (10 و 11 و 13) باسم الفيلق التاسع الذي أسندت قيادته، على نحو أثار جدلاً، إلى الفريق متقاعد السير فريدريك ستوبفورد الجنرال ذي الواحد والستين ربيعًا المرتبط ارتباطًا وثيقًا بالكوارث العسكرية التي اتسمت بها بداية حرب البوير في عام 1899. وقد كُلف الفيلق التاسع بعمليات الإنزال الأولية في خليج سوفلا على الرغم مما أظهره ستوبفورد من تردد وعدم حسم في الاجتماعات المهمة التي عقدت في

مرحلة التحضير للمعركة. وفي الجنوب، كُلفت قوات أنزاك والفرقة 13 البريطانية بمحاولة الإفلات من الحصار في خليج أنزاك، والاستيلاء على التل والانضمام إلى العمليات الجارية إلى الشمال منها. وكان هدفهما المشترك هو الاستيلاء على تل ساري بير الذي كان يمتد عبر وسط شبه الجزيرة من الشمال إلى الجنوب، لكنهما واجها الجيش الخامس العثماني بعد إعادة تنظيمه وتلقيه تعزيزات كبيرة فصار آنذاك يتألف من ست عشرة فرقة كلها تسيطر على أراض عالية مشرفة على مناطق الإنزال⁽⁴⁶⁾.

ولقد عبّر المراسل الحربي البريطاني الملحق بقوة الحملة المتوسطة إليس أشميد-بارتليت فيما كتب في 25 يوليو، أي قبل شن الهجوم بأحد عشر يومًا، عن شكوكه عند مرأى جنود الجيش الجديد يصلون من بريطانيا. وبعد أن وصفهم أشميد-بارتليت وصفًا قاسيًا نوعًا ما بأنهم «قوم عجاف الهيئة»، تساءل تساؤلًا جادًا:

أنى لهؤلاء الوافدين الجدد الذين لم يسبق لهم قط الخروج من إنجلترا مقاومة الظروف السائدة؟ إنهم يجري إنزالهم على الرمال المقفرة التي تنتصب من فوقها خيامهم حيث حرارة الشمس حارقة والماء جد شحيح، وحيث يبرز بهم ملايين الذباب الذي ظل لأسابيع يقتات على جثث القتلى في رأس هيليس وخليج أنزاك⁽⁴⁷⁾.

علاوة على ذلك، أخرجت صعوبات النقل وصول ثلاث فرق تابعة للجيش الجديد، مما يعني أن الفرقة 13 فقط هي التي وصلت في الوقت المحدد كي تتأقلم (جزئيًا) وتكتسب بعض الخبرة القتالية الميدانية. وعلى النقيض من ذلك، نجد أن الفرقتين العاشرة والحادية عشرة خاضتا المعركة دون أي سابق رؤية لعمليات حربية من أي نوع، وكان أداؤهما أسوأ بشكل ملحوظ من الفرقة 13 نتيجة لذلك. وقد ساهم سوء عمل أركان الحرب، والهوس بالسرية في مقر القيادة العامة للقوات برئاسة هاملتون، وأداء القيادة العام دون المستوى من ستوبفورد إلى أدنى تسلسل القيادة، كلاهما في الإخفاق النهائي للهجوم التعرضي⁽⁴⁸⁾.

على أية حال، بدأ هجوم أغسطس التعرضي في 6 أغسطس بشن هجمات عند رأس هيليس وخليج أنزاك قبل الاقتحام الرئيس لخليج سوفلا. ففي هيليس، شنت ثلاث كتائب بريطانية تنتمي إلى الفرقتين التاسعة والعشرين والثانية والأربعين ما أريد أن يكون عملية خداعية صغيرة لكنها تحولت بدلاً من ذلك إلى سلسلة من المعارك الدموية. ولاقت الألوية البريطانية التي عرقل أداءها نقص المدفعية وتغيير آخر في القيادة مقاومة ثابتة فعالة على أيدي أربع فرق عثمانية. وأدت الهجمات العثمانية المضادة المتكررة فيما بين 7 و9 أغسطس إلى تحويل الزخم بقوة لصالح المدافعين، وتواصل القتال حتى 13 أغسطس مع تكبد كلا الفريقين خسائر بشرية فادحة. وتضمن الهجوم الثاني في منطقة خليج أنزاك اللواء الأول مشاة التابع للقوة الأسترالية الذي سعى إلى الإفلات من موقعه المكشوف بالاستيلاء على التل الكائن عند الصنوبرة الوحيدة. وكان هذا الهجوم أنجح حيث استولى الأستراليون على خط الدفاع العثماني الرئيس واستمسكوا بأرضهم في مواجهة الهجمات العثمانية المضادة، لكن المهم أنه أخفق في هدفه الأوسع وهو تثبيت حركة عدد كبير من الجنود العثمانيين بعيداً عن اتجاه الهجوم الرئيس عند خليج سوفلا.

بل والأدهى من ذلك والأمر كانت تجربة جنود كتيبة ولنغتون التابعة للواء النيوزيلندي التابع للفرقة النيوزيلندية والأسترالية الذين استطاعوا لفترة وجيزة كسر الحصار المفروض على قطاع أنزاك ووصلوا إلى قمة تل شونك بير في وقت مبكر من صباح 8 أغسطس، لكن التل كان معرضاً لنييران العدو ويصعب الدفاع عنه أو تعزيزه، ولا سيما في ظل فشل محاولات الاستيلاء على مواقع الأجانب بالغة الأهمية. وقد سارع ليمان فون ساندرز إلى تعيين مصطفى كمال ليتزعم الهجوم العثماني المضاد الذي اشتمل على ثلاث فرق بالإضافة إلى فرقتين أخريين في الطريق، وهو ما فعله بشجاعة عظيمة أكسبته مكانته الأسطورية في الجمهورية التركية فيما بعد الحرب، وفي 10 أغسطس تزعم هجومًا مضادًا طائفيًا أعاد الاستيلاء على أبرز نجاح (وإن كان مؤقتًا) حققه الحلفاء في أثناء هذه الحملة.

وعلى مدى الأيام الأربعة التي هي عمر المعركة التي دارت رحاها عند خليج أنزاك، تكبد فيلق أنزاك خسائر بشرية بمعدلات عالية فوق العادة حيث خسر 12500 رجلًا، أو ما يعادل 33 في المائة كاملة من إجمالي قوته. وفقدت الفرقة 1 الأسترالية والفرقة النيوزيلندية والأسترالية فيما بينهما 5800 رجل، في حين فقدت الفرقة 13 البريطانية وحدها 5500 رجل. والأشد صدمة وترويعًا أن 711 جنديًا من أصل 760 جنديًا من كتيبة ولنغتون الذين وصلوا إلى قمة شونك بير في 8 أغسطس كانوا من عداد الضحايا. يقول بيتر هارتفي ملخصها الموجه للمعركة: «التخطيط، السرية، الهجمات الباسلة.. في النهاية كان هجوم أنزاك بلا جدوى»⁽⁴⁹⁾. ومع ذلك فقد خلف هذا الهجوم إرثًا خالدًا على كلا الجانبين العثماني وأنزاك، حيث رسخت مقاومة كمال البطولية مكانته الصاعدة في الهرمية العثمانية. وفي الوقت نفسه فإن الشجاعة والإقدام اللذين أظهرهما الآلاف من الأستراليين والنيوزيلنديين في مواجهة المستحيل وجدا طريقهما إلى السرود الوطنية المؤثرة التي تطورت في أثناء الحرب وبعدها، وما زالت مغلدة ويحتفى بذكرها بعد مرور قرن من الزمان.

وبعيدًا عن هذه الهجمات التي أخذت في الكشف تدريجيًا، نزلت الفرقتان البريطانيان العاشرة والحادية عشرة التابعتان للفيلق التاسع عند خليج سوفلا ليلة 6-7 أغسطس، وكانتا تتمتعان بميزة عديدة مقارنة بالكتائب العثمانية الثلاثة التي كانت تقاومها، لكن عمليات الإنزال أفسدتها الفوضى العامة وسوء الإدارة وارتباك الأهداف. ونتيجة لذلك لم يُحرز إلا تقدم ضئيل يتجاوز تأمين رأس الشاطئ حيث وصلت التعزيزات العثمانية في 9 أغسطس وأجبرت القوات البريطانية على التراجع. وتكبد الفيلق التاسع خسائر بشرية مقدارها 1700 فرد في اليوم الأول من العمليات وحدها إذ قام بمحاولة صغيرة لاقتحام الأرض المشرفة التي كان يتمركز فوقها القناصة والمدافعون العثمانيون ومن هناك ألحقوا بهم تلك الخسائر الفادحة. وفي خضم شعور متزايد باليأس، أمر ستوبفورد الفرقتين الثالثة والخمسين والرابعة والخمسين بالقتال يومي 9 و10 أغسطس، لكنهما هما أيضًا أخفقتا في انتزاع ميزة في مواجهة مقاومة ازدادت قوة وصارت آنذاك بقيادة كمال. فأقيل ستوبفورد في 15 أغسطس

وحمله رؤساؤه في وزارة الحربية المسؤولية عن الإخفاق التام الذي مُني به عملية إنزال سوفلا. وكان خليفته المؤقت على رأس الفيلق التاسع قائد الفرقة 29 اللواء بوفوار دو لايل الذي قام بمحاولة واحدة أخيرة في 21 أغسطس للربط بين عمليتي إنزال خليج سوفلا وخليج أنزاك.

وبالطبع كان للإخفاق العنيد الذي مُني به هجوم أغسطس التعرضي وقعه الشديد على الروح المعنوية لجنود الحلفاء في غاليبولي. لقد راهنقادتهم على رمية واحدة أخيرة للنرد لكن تدني جودة القيادة التي مارسوها خذلهم. وكان أثر ذلك على الروح المعنوية للرجال الذين قاتلوا، وقتلوا، بالآلاف ساحقًا. وقد وصف أشميد-بارتليت الحالة المزاجية الكثيرة لدى مَنْ عاد من الدردنيل إلى القاعدة المتقدمة في أمروز في 17 أغسطس وصفًا نابضًا بالحياة:

لم أستطع وأنا في طريقي إلى الديار مقاومة تأمل التغيير الذي طرأ على جنود أنزاك والمستعمرات منذ زيارتي الأخيرة إلى معسكراتهم قبل الهجوم الكبير. كان أنزاك آنذاك أشبه بمدينة زاهية كثيفة السكان مفعمة بالحياة والأمل تتمتع بالثقة في نفسها وفي قدرتها على تنفيذ أي مهمة قد يكلفوا بأدائها... نحو نصف جيش الجنرال وليم بيردود كان قد تلاشى آنذاك نتيجة الموت والجراح والمرض. والرجال الذين يعودون يقفون خارج الملاجئ يفكرون في رفاقهم الذين لن يرونهم مجددًا... لهم سيماء الرجال الذين عرفوا مصائرهم لكن كلهم إصرار على أداء مهمتهم. كل ضابط وكل رجل يدرك تمام الإدراك أنه لا يمكن فعل ما هو أكثر⁽⁵⁰⁾.

نهاية الحملة

على الرغم من أن حملة الدردنيل استمرت أربعة أشهر إضافية قبل أن تصل إلى نهايتها، أذن إخفاق قوات الحلفاء في الإفلات من حصارها في رؤوس شواطئها في أغسطس بنهاية أية آمال متبقية في تحقيق نجاح عملياتي أو استراتيجي. ومع ذلك، فإن الاعتراف بالهزيمة والأمر بالجلاء عن شبه الجزيرة لم يكن بالأمر السهل

حيث تشابك في عقول واضعي السياسات البريطانيين مع قضية هبة الإمبراطورية. وكان المسؤولون في لندن ودلهي والقاهرة جميعهم يخشون العواقب على الحكم البريطاني إذا ما اعتُبروا أنهم لاقوا هزيمة على أيدي عدو «آسيوي». وازداد هذا الأمر تعقيدًا بفعل هزال دعائم الحكم الإمبراطوري في ممتلكاتهم الاستعمارية. فقد كانت مجموعات صغيرة نسبيًا من الجنود والموظفين المدنيين البريطانيين، تساندهم أعداد أكبر من المتعاونين المحليين، هي التي تقرر نطاق السيطرة الإمبراطورية وعمق تغلغلها⁽⁵¹⁾. وبنص كلمات المؤرخ العسكري ديفيد فرنش كانت الهيبة هي «الأسمنت الذي وطّد أسس حكمهم وأيديولوجيتهم التي كانوا يستخدمونها لبيان تفوقهم على الرعاع الذين يحكمونهم»⁽⁵²⁾.

ولقد تزامن فتور وطأة القتال في غاليبولي مع توسيع الحملات البريطانية في أماكن أخرى في الشرق الأوسط، وتحديدًا في مصر وفلسطين وبلاد الرافدين. ولم يكن هذا من قبيل المصادفة، كما سيبيّن الفصلان التاليان. فعلى رأس أولويات واضعي السياسات البريطانيين كانت الحاجة إلى تقليل الضرر والتأثير المحتمل الناشئ عن نكستهم في الدردنيل. وقد تحقق هذا إلى حد ما من خلال الرقابة الصارمة على الإعلام والنشر والعمل الحاسم والسريع ضد المحرضين المحتملين والفاعلين في مصر والهند. 53 لكنه دفع أيضًا المسؤولين إلى تأييد أعمال عسكرية - أو على الأقل الانصياع لها - ضد العثمانيين في مسارح أخرى ربما لولا ذلك لما كانت تمضي قُدُمًا. وهكذا من دون تأخير، وتحديدًا في مايو 1915، حذر نائب الملك في الهند السير تشارلز هاردنج من أن «الهزيمة، أو ضرورة تقليص خسائرنّا في الدردنيل، أمر بالغ الخطورة في هذا البلد» مضيفًا أن الدفعة التي سيعطيها لمعارضيه الحكم البريطاني ستعني أن «نزعة الوحدة الإسلامية ستكون خطرًا شديدًا جدًّا»⁽⁵⁴⁾. وبحلول شهر أكتوبر، وفيما اتضحت خطورة الوضع في غاليبولي، أخبر وزير الخارجية السير إدوارد غراي مجلس الوزراء مستيئسًا: «نحن في الوقت الحالي مجردون من الهيبة في الشرق، وليس من الممكن أن يكون وضعنا أسوأ مما عليه الآن...»⁽⁵⁵⁾. وقد كان لهذا تداعيات مباشرة (وكارثية كما تبين) على القوة البريطانية والهندية المعسكرة

في منتصف الطريق بين البصرة وبغداد في بلاد الرافدين (انظر الفصل السادس). وفي 21 أكتوبر، دعا وزير الدولة لشؤون الهند السير أوستن تشامبرلين إلى «نجاح مذهب في الشرق» لتعويض الانكسار الذي حدث في غاليبولي، مما تمخض عن المحاولة المتعجلة سيئة الإعداد التي تبين في النهاية أنها كارثية للاستيلاء على بغداد في نوفمبر 1915⁽⁵⁶⁾. ولقد وافقه السكرتير السياسي في وزارة شؤون الهند في لندن، السير آرثر هيرتزل، في ذلك حيث قال أمام لجنة التحقيق في كارثة بلاد الرافدين التي شُكلت فيما بعد إن الهيئة البريطانية في الشرق الأوسط في أكتوبر 1915 «كانت في مستويات أدنى من أي فترة أخرى في أثناء الخمسين سنة الأخيرة»، أي منذ التمرد الهندي لسنة 1857. وبالتالي أيد «استحباب توجيه ضربات غير عادية» في بلاد الرافدين عوضاً عن ذلك⁽⁵⁷⁾.

وأما في شبه الجزيرة ذاتها فقد تسبب التغير في الفصول في مشكلات جديدة، حيث أفسحت حرارة الصيف اللافحة المجال لبرد الشتاء القارس. وفيما أخذ الساسة والجنرالات يقبلون الرأي ويلفون ويدورون حول كيفية إنهاء الحملة ومتى يكون ذلك، تواصل القتال في مواضع محدودة طوال الخريف. علاوة على ذلك، أسفرت سيطرة العثمانيين على التلال التي تطوق كل رأس من رؤوس الشواطئ التي أنشأتها قوات الحلفاء عن سيل مطرد من الخسائر البشرية بفعل نيران القناصة. وما أضاف إلى البؤس والمعاناة على الشواطئ أن تفشت الأمراض المعدية وأمراض النقص بسرعة في المعسكرات عديمة النظافة الصحية المكتظة بساكنيها. وبحلول خريف عام 1915، يقدر هارت أن ما يصل إلى نصف المائة ألف أو نحو ذلك من قوات الحلفاء الموجودين في شبه الجزيرة كانوا غير صالحين للعمليات العسكرية⁽⁵⁸⁾. ثم ساءت الأوضاع تدريجياً حيث حل الطقس السيء مع هبوب عاصفة مطيرة دامت ثلاثة أيام في أواخر نوفمبر فغمرت الخنادق وجرفت الجثث غير المدفونة إليها. وفي 28 نوفمبر، تحولت الأمطار إلى جليد حيث انخفضت درجت الحرارة إلى ما دون درجة التجمد وسرعت الرياح العاتية معامل تبريد الريح. وقد ألحقت هذه التوليفة الخراب بالقوات على كلا الجانبين اللذين كانا ما زالا مجهزين بالمتعة الصيفية الخفيفة

ومعرضين بشدة لهبوط درجة حرارة الجسم ولسعات الصقيع. علاوة على ذلك، كانت تلك هي المرة الأولى بالنسبة لكثيرين من الجنود الهنود والأستراليين التي يعيشون فيها تجربة الأحوال الجوية المتجمدة وهطول الجليد. وعلى أية حال، تسببت العاصفة الجليدية الهائلة في أكثر من 200 حالة وفاة وأكثر من 5 آلاف إصابة بهبوط درجة حرارة الجسم في منطقة خليج سوفلا وحده، بالإضافة إلى 3 آلاف في منطقة خليج أنزاك وألف في رأس هيليس، على الرغم من أنها أتاحت الفرصة لبعض الجنود البريطانيين ليطلقوا النار على جماعات من العثمانيين تركوا الأمان الذي توفره لهم خنادقهم في محاولة بانسة لجمع حطب للتدفئة فأردوهم قتلى⁽⁵⁹⁾.

كان احتمال جلاء الحلفاء قد أثير أول ما أثير في 11 أكتوبر 1915 عندما طلب وزير الدولة للحربية البريطاني اللورد كتشنر من هاملتون التكهّن بالتكلفة البشرية المتوقعة لأي جلاء محتمل. وعندما رفض هاملتون بعناد مجرد التفكير في هذا الاحتمال أُقيل من القيادة بعد ذلك بثلاثة أيام وعُيّن محلهاالجنرال السير تشارلز مونرو. وكان مونرو قد تولى قيادة وحدات على الجبهة الغربية منذ بداية الحرب حيث بدأ بقيادة الفرقة 2 مشاة التابعة للفيلق الأول بقيادة دوغلاس هايغ، ثم حل محل هايغ قائدًا للفيلق في ديسمبر 1914 عندما رُقي هايغ إلى منصب قائد عام قوة الحملة البريطانية، وواصل ترقيه في المناصب في يوليو 1915 عندما وُلي مسؤولية الجيش الثالث (البريطاني) المنشأ حديثًا. وقد كان مونرو «غريبًا» ملتزمًا من حيث إيمانه الراسخ باستحالة الفوز بالحرب العظمى إلا بهزيمة العدو الأصلي (ألمانيا) في ميدان المعركة الرئيس في فرنسا والإقليم الفلامندي. وعندما أُرسل لقيادة قوة الحملة البريطانية كان نطاق المسؤولية الذي أناطه به كتشنر هو تقييم ما إذا كان الجلاء عن شبه جزيرة غاليبولي أفضل من القيام بمحاولة جديدة للاستيلاء عليها أم لا⁽⁶⁰⁾.

وما أن وصل مونرو إلى الدردنيل في 27 أكتوبر حتى شرع فورًا في جولة مدتها ثلاثة أيام لتفقد مواقع القتال، وفي أثناء قيامه بهذه الزيارة وإجرائه مشاورات مع أركان حربه، طالب كتشنر في 29 أكتوبر برّد فوري على سؤاله عما إذا كان مونرو

يؤيد «البقاء أم الرحيل». وعليه كان رد مونرو في 31 أكتوبر بمذكرة تنصح بالجلء مع التحذير من أن هذا الجلء قد يتكلف ثمنًا من الخسائر البشرية غير المسبوقة قد تصل إلى ثلث قوة الحملة البريطانية⁽⁶¹⁾. وكان تقييم الموقف العسكري الذي أرسله إلى كتشنر اتهامًا صاعقًا لهاملتون بالحماقة:

شكل الموقع الذي تحتله قواتنا موقفًا عسكريًا فريدًا من نوعه في التاريخ. ما تم تأمينه هو مجرد حافة الخط الساحلي، في حين أن الشواطئ والأرصفة التي يُعتمد عليها للحصول على كافة المتطلبات من أفراد وعتاد ومؤن كانت مكشوفة أمام نيران المدفعية المضبوطة والمرصودة، وغالبية خنادقنا تحت هيمنة الأتراك... خلاصة القول: إن قواتنا تسيطر على خط جمع كل العيوب العسكرية، فالموقع يفتقر إلى العمق والاتصالات غير مؤمنة وهي مرهونة بعوامل الطقس⁽⁶²⁾.

هكذا أعلن مونرو رأيه صراحة ودون موارد مؤيدًا للجلء: «بما أننا لا نرجو تحقيق أي غرض بالبقاء في شبه الجزيرة فإنها تكلفه بشعة تلك التي تتكبدها الأمة نتيجة الشروع في حملة خارجية دون وجود قاعدة متاحة للنقل السريع للمؤن والإمدادات والأفراد...»⁶³. وقد أثار هذا الرأي رد فعل هائجًا من مهندس هذه الحملة، ونستون تشرشل، الذي علّق عليه في كتابه الذي نشر بعد الحرب بعنوان «الأزمة العالمية» The World Crisis قائلًا: «الجنرال مونرو كان رجلًا سريعًا في قراراته. فقد جاء ورأي وأعلن استسلامه»⁽⁶⁴⁾.

وقد أبحر مونرو فور إرساله هذه الكلمات إلى مصر لمناقشة أثر الجلء عن شبه الجزيرة. وفي لندن، قررت لجنة الحرب المشكّلة حديثًا التابعة للحكومة البريطانية إرسال كتشنر نفسه لتفقد الأوضاع قبل اتخاذ أي قرار نهائي، فوصل كتشنر في 9 نوفمبر وكان حريصًا في البداية على القيام بمحاولة بحرية واحدة أخيرة، ربما انتحارية، لاقتحام المضيق، وهو ما ووجه بالرفض القاطع من جانب مونرو ورئيس أركانه اللواء آرثر لندن-بل اللذين اعتبرا الخطة غير قابلة للتطبيق للمرة. وقد أفضت المحادثات الإضافية التي جرت مع أركان حرب القوة والجولة التي تفقد فيها

جبهة القتال هو أيضًا باستحالة تحقيقهم مكاسب كبيرة من وراء تشبثهم بمواطني أقدامهم في غاليبولي⁽⁶⁵⁾.

وبدلاً من ذلك، عُقد مؤتمر شارك فيه القائدان العامان في مصر وغاليبولي وقائد عام القوة الإنجليزية الفرنسية المرسلّة حديثاً إلى سالونيك في مودروس في منتصف نوفمبر 1915. وفي هذا المؤتمر «درس الجنرالات الموقف بالتفصيل الشديد» واعترفوا بأن الموقف العسكري في غاليبولي يكاد يكون ميئوساً منه. وبعد دراسة خطط بديلة لـ «التغلب على التهديد التركي الألماني في الشرق»، سجل المندوب السامي البريطاني في مصر السير هنري مكماهون بأسى كيف تم الاعتراض على هجوم مقترح على ميناء الإسكندرية الصغرى (حالياً الإسكندرونة بالقرب من الحدود التركية السورية الحديثة) العثماني الواقع على البحر المتوسط. ومن ثم أخبر نائب الملك في الهند بحزن: «لقد تدهورت بنا الأوضاع حتى وصلنا إلى سياسة انتظار هجوم في بلاد الرافدين ومصر مع كل الأخطار السياسية التي ينطوي عليها أي تهديد مُحقق وما يصاحب ذلك من فقدان للهيبة والاعتبار وقلقل محلية»⁽⁶⁶⁾.

و في 22 نوفمبر 1915، اتُخذ قرار إجلاء قوة الحملة المتوسطية. وعلى الرغم من أن كتشنر اقترح ألا تُسحب غير القوات المتمركزة في خليج سوفلا وخليج أنزاك مع ترك القوات المتمركزة عند رأس هيليس في موضعها، غلبه قرار لجنة الحرب في لندن الذي أيد الانسحاب الكامل. وجاء هذا القرار فيما أوصى اجتماع عقده مؤتمر أركان الحرب المشتركة (الإنجليزية الفرنسية) في فرنسا في 8 ديسمبر بالجلء الفوري عن غاليبولي وتنظيم وتعزيز الجبهة التي فُتحت حديثاً في سالونيك في شمال اليونان. وتم الجلاء عن خليج سوفلا وخليج أنزاك بنجاح في ليلة 19 - 20 ديسمبر 1915، تلاه الجلاء عن رأس هيليس في 8 يناير 1916. واللافت للأنظار أن كلتا عمليتي الجلاء تمّت دون خسائر في الرجال، على الرغم من الاضطراب إلى ترك كميات كبيرة من عتاد الحرب خلفهم. وما لم يكن مقصوداً، وإن كان من قبيل المفارقة الساخرة، أن هاتين العمليتين مثلتا نجاحين مذهلين للغاية حققتهما حملة كبّدت الحلفاء

خسائر بشرية بلغت 230 ألف فرد (بما في ذلك أكثر من 27 ألف فرد من فيلق الحملة الفرنسية الأقل شهرة) والعثمانيين ما يصل إلى 300 ألف فرد⁽⁶⁷⁾.

وقد جادل تشرشل في كتابه «الأزمة العالمية» في عام 1931 بأن «حملة الدردنيل تعرضت للتجويع والعراقيل في كل مرحلة من مراحلها بسبب المعارضة المستمرة من جانب القيادتين العليينالفرنسية والبريطانية في فرنسا لسحب الجنود والذخائر من مسرح الحرب الرئيس». كما أنحى أيضًا باللائمة على هذا الانسحاب في تنشيط المجهود الحربي العثماني، وزعم أنه نتيجة لذلك ترتب على المقاومة اللاحقة التي ووجهت في حملات سالونيك ومصر وفلسطين وبلاد الرافدين أن نمت الحملات الثلاثة كلها «بسرعة متحولة إلى التزامات عظيمة جدًا، واستمرت كلها حتى اليوم الأخير من الحرب واستنزفت الموارد البريطانية بشدة...»⁽⁶⁸⁾. لكن ثمة رواية شديدة الاختلاف قدمها «المراسل الحربي» الرسمي في غاليبولي، إليس أشميد-بارتليت، عقب اجتماع مع تشرشل في 14 أكتوبر 1915 حيث وصف رجلًا نرجسيًا يعيش حالة نكران بشأن الكارثة العسكرية التي حرّض عليها:

... لدهشتي الشديدة أن وجهات نظره لم تتغير إلا قليلًا حتى مع الكوارث الأخيرة. ويبدو لي أنه لم يستفد كثيرًا من دروس الشهور القليلة الماضية وما زال يتسم بذات التفاؤل المبالغ فيه بشأن إمكانيات تحقيق نجاح في النهاية. فقد ظل يردد رأيه بأن الأسطول كان بإمكانه اقتحام المضيق لو سُمح له بالقيام بمحاولة أخرى بعد انتكاسة 18 مارس. بل إنه مضى حتى إلى حد اقتراح أن محاولة أخرى يمكن أن تنجح. وصارت هذه الفكرة هاجسًا دائمًا وولعًا يستحوذ على عقله ويعميه عن الحقائق ويملاً مخه بالأوهام⁽⁶⁹⁾.

والحقيقة، بالأحرى، أن قوات الحلفاء واجهت عدوًا جبارًا في غاليبولي حيث أدت القوات العثمانية في غاليبولي أداء قتاليًا عظيم الفعالية. وبنص كلمات مؤرخ الجيش العثماني الكبير في أثناء الحرب العالمية الأولى، إدوارد إريكسون، فلإن «الأترك فازوا بحملة غاليبولي لأن جيشهم كان، من نواح عديدة، أشد في الفعالية القتالية من

جيوش الحلفاء في 1915... نشر الأتراك جيشًا على مستوى عال من التدريب والهمة والحماس في شبه جزيرة غاليلوي التقى فيها الأستراليين والبريطانيين والفرنسيين رجلًا لرجل في أوضاع متكافئة تمامًا. 70 علاوة على ذلك، فإن هياكل القيادة والسيطرة العثمانية، وقدرة العثمانيين الحركية العالية في التضاريس الصعبة، وسيطرتهم على مواقع محورية في شبه الجزيرة، كلها شكّلت مزايا عملياتية، ومثلها كان التعاون الوثيق والتوافق التشغيلي مع الوحدات الألمانية والمستشارين الألمان المتناثرين في الجيش العثماني. والشيء المهم أن حملة غاليلوي أعادت الروح إلى المجهود الحربي العثماني، وأحدثت -مقرونة بالانتصارات على القوات البريطانية والهندية في بلاد الرافدين في قطيسفون في نوفمبر 1915 وكوت العمارة في أبريل 1916 والانتصارات في معركتي غزة الأولى والثانية في مارس وأبريل 1917- تحولًا في الزخم في حملات الشرق الأوسط⁽⁷¹⁾.

عرض جانبي في سالونيك

مع اقتراب حملة غاليلوي من نهايتها، تحوّل تركيز الاهتمام البريطاني والفرنسي 180 ميلًا نحو الغرب إلى مدينة وميناء سالونيك في شمال اليونان. فهناك، في أوائل أكتوبر 1915، بدأ عرض جانبي مثير للاهتمام ثبتت حركة أعداد كبيرة من قوات الحلفاء لنحو ثلاث سنوات قبل أن ينفجر فجأة ليجبر بلغاريا على الانسحاب من الحرب ويمهد الساحة للانهيال النهائي للجبهة العثمانية في أكتوبر 1918. ولنشأة حملة سالونيك علاقة أكبر بالمناورات السياسية الفرنسية الداخلية وحالة العلاقات العسكرية الإنجليزية الفرنسية منها بأي أساس منطقي استراتيجي أو حتى عملياتي كبير. ففي انعكاس للمقتضيات السياسية للتحالف، لا الاستراتيجية العسكرية، استمر الدعم البريطاني للحملة لما بعد انتكاسة غاليلوي نتيجة ضغط فرنسا ورغبتها في الحفاظ على التوافق السياسي الداخلي المضطرب الذي تقوم عليه السياسة الفرنسية.

ونقصد بهذا التوافق السياسي الداخلي المضطرب «الاتحاد المقدس» الذي وافق الجناح اليساري الفرنسي القوي بموجبه على عدم معارضة السياسات الحكومية

وعدم تقويض المجهود الحربي من خلال الإضرابات والاحتجاجات العمالية. وعلى الرغم من أن هذا الاتحاد انهار في النهاية انهياراً مريعاً في عام 1917، فإنها أثر في مراحل الأولى على واضعي السياسات البريطانيين الحريصين على منع رئيس الوزراء السابق جوزيف كايو من العودة إلى السلطة وإبرام تسوية سلمية مع ألمانيا (وهذا ما كانوا يخشونه). وأما المصالح الفرنسية في فتح جبهة في سالونيك فتمحورت حول شكوكهم في نوايا بريطانيا فيما بعد الحرب، والقلق من احتمال أن يجدوا أنفسهم في وضع غير موات في الشرق الأوسط. وهكذا، كما نوه ديفيد بتون، الباحث البارز المتخصص في هذه الحملة، كان بناء مركز فرنسي أقوى في منطقة البلقان مصمماً لمعادلة مركز بريطانيا في الشرق. ومن ثم، فإن مسار حملة سالونيك وإدارتها يبرهنان على التفاعل المضطرب بين الاعتبارات السياسية والعسكرية بين أهم قوتين حليفيتين.

بالإضافة إلى ذلك، أذنت نشأة حملة سالونيك أيضاً بالتقاطع المؤقت بين الجبهتين البلقانية والعثمانية. وقد بدأ هذا فيما اجتاحت الجيوش النمساوية المجرية والألمانية صربيا في 7 أكتوبر 1915، واستولت سريعاً على العاصمة بلغراد. وبعد ذلك بأسبوع، أنهت بلغاريا سياستها القائمة على التذبذب بين الحلفاء ودول المركز ودخلت الحرب في صف الأخيرة واقتحمت ما تبقى من مقاومة صربية في مقدونيا وحطمتها، وهو ما استثار التدخل البريطاني حيث كان وزير الخارجية غراي قد تعهد في مجلس العموم بدعم صربيا في حالة تعرضها لهجوم بلغاري. وبالتالي عُبات قوة حملة عسكرية متحالفة مؤلفة من 13 ألف رجل على عجل وحُولت من غاليبولي إلى هناك في منتصف أكتوبر على أن يتلوها سريعاً ما قوامه 18 ألف جندي فرنسي. لكن بعد تحرك القوات شمالاً من سالونيك أخفقت في اختراق الصفوف البلغارية على نهر فاردار، ناهيك عن دخول صربيا ذاتها. وبدلاً من ذلك بدأ الجيش الصربي تقهقراً يائساً عبر الجبال إلى ميناء دورازو المطل على البحر الأدرياتي، حيث نُقل من هناك إلى جزيرة كورفو اليونانية، ولقي ما يصل إلى 20 ألف جندي من الثلاثمائة ألف الذين انطلقوا في هذا الزحف حتفهم في أثناء

هذا التقهقر، وهلك عدة آلاف آخرين بسبب الأمراض المعدية في المعسكرات التي أقيمت لاستقبالهم في اليونان⁽⁷²⁾.

وعلى الرغم من ضياع أي أمل في إنقاذ صربيا بحلول نهاية 1915، تواصلت حملة سالونيك طوال مدة الحرب، وفي النهاية توسّعت لتشمل أكثر من 300 ألف رجل. وقد واجه الجنود المعسكرون في سالونيك العالقون حتى النخاع في شرك العملية السياسية الفرنسية الداخلية صعوبات شديدة في السهول التي يتفشى فيها مرض الملاريا في شمال اليونان وجنوب مقدونيا. كما أنهم علقوا أيضًا في شرك صراع سياسي يوناني مزمن بين حكومة رئيس الوزراء إلفثيريوس فينيزيلوس المؤيدة للحلفاء والملك قسطنطين الأول المؤيد لألمانيا. وكان الأخير يتمتع بقاعدة دعمه في أثينا، وقد تصاعدت التوترات بين الطرفين في أغسطس 1916 عندما أسس أتباع فينيزيلوس دولة مؤقتة في شمال اليونان مقرها في سالونيك ذاتها. وأدى هذا عمليًا إلى تقسيم البلد إلى نصفين، ولم يعاد توحيد هذين النصفين إلا في مايو 1917، وذلك في أعقاب تنازل الملك عن العرش في نوفمبر من العام الذي سبقه، وعندئذ عاد فينيزيلوس إلى أثينا وانضمت اليونان رسميًا إلى الحرب في صف الحلفاء. كانت بريطانيا وفرنسا قد اعترفت بالفعل، منذ انقلاب أغسطس 1916، بالدولة المؤقتة في شمال اليونان، وتعاونتا مع فينيزيلوس في فرض حصار بحري على القوات الموالية للملك في شبه جزيرة المورة في جنوب اليونان، في عمل لافِت للنظر من أعمال الاحتلال في بلد يُفترض أنهما كانتا متحالفتين معه⁽⁷³⁾.

والواقع أن السكون كان هو الغالب على الجبهة في سالونيك معظم الوقت. وكان هجوم موناستير التعرضي الذي وقع بين شهري سبتمبر وديسمبر 1916 استثناء كبيرًا من ذلك السكون نجح في انتزاع السيطرة على بلدة موناستير من أيدي البلغار لكن بثمن باهظ من حيث الخسائر البشرية التي شملت 80 ألف فرد راحوا ضحية المرض، وهو العدد الذي فاق ضحايا القتال البالغ عددهم 50 ألف فرد تكبدتهم الحلفاء. علاوة على ذلك، فإنه حتى هذا النجاح الموضعي طغت عليه فورًا

الانتكاسة الأكبر كثيرًا التي حدثت في رومانيا التي استسلمت للاجتياح الألماني في 6 ديسمبر 1916، أي بعد دخولها الحرب إلى صف الحلفاء بأقل من أربعة أشهر. وبعد ذلك عادت الجبهة إلى استقرارها حتى وقت قريب جدًا من نهاية الحرب في سبتمبر 1918، وذلك عندما حققت القوات الإنجليزية الفرنسية أخيرًا اختراقًا حاسمًا⁽⁷⁴⁾.

ومع ذلك فطوال عام 1917، في وقت بلغ فيه الإنهاك من الحرب ذروته في فرنسا وبريطانيا ولم تظهر المعارك الاستنزافية البطيئة على الجبهة الغربية إلا بوادر ضئيلة على اقتراب الحرب من نهايتها بأي حال، ظلت ست فرق مشاة فرنسية وسبع بريطانية مثبتة في سالونيك لا تستطيع حراكًا ضمن «جيش الشرق». وقد أُطلق على هذه القوات باللغة الدارجة اسم «بُستانيو سالونيك» حيث عكفت بشكل ممنهج على تنمية وتحويل مسار الموارد المدنية إلى الاستخدام العسكري. وعلى وجه التحديد، كانت «لجنة الإمداد المختلطة بسالونيك» تشرف على زراعة مناطق واسعة من الأرض، وذلك لزيادة الإنتاج المحلي من الخضروات والقمح والتبن والتصدي لتهديد الملاريا في آن واحد. وعملت هيئات أخرى على تحسين الآبار المحلية لتحسين إمدادات مياه الشرب، وأعادت فتح ستة مناجم ليغنيتلإتاحة الاكتفاء الذاتي من الفحم للقوات قدر الإمكان⁽⁷⁵⁾. وكانت الحملة ضد الملاريا عاجلة بوجه خاص حيث تكفّلت الأهوار والمستنقعات الكائنة عند مصب النهر بسرعة تفشي المرض بين الجنود والعمال الملحقين بالقوات، لدرجة أن 20 في المائة من القوة البريطانية كان نزيل المستشفيات في مرحلة من المراحل، وذلك قبل أن يؤدي برنامج مكثف للبحوث الطبية وتوزيع الكينين على نطاق واسع في عامي 1917 و1918 إلى تخفيض عدد الإصابات⁽⁷⁶⁾.

بل والأشدّ لفتًا للنظر، على خلفية المحدوديات الاستراتيجية والعملياتية سالفة الذكر، أنه عندما عادت الحملة أخيرًا إلى الحياة في سبتمبر 1918 فجّرت سلسلة الأحداث التي أدت إلى نهاية الحرب في الشرق الأوسط. فقد بدأ الزحف الحاسم في 15 سبتمبر 1918 في معركة دوبرو بول حيث هاجمت قوة قوامها 36 ألف جندي

فرنسي وإيطالي وصربي 12 ألف جندي بلغاري وألماني فاستولت على الممرات الجبلية الحيوية استراتيجيًا التي كانت توفر لبلغاريا دفاعًا طبيعيًا ضد الاجتياح، مما أعطى الحلفاء سيطرة على الوديان المؤدية إلى الشمال والشرق، ومنع هجوم بريطاني على الجانب الأيمن عند بحيرة دويران التعزيزات البلغارية من الإسراع إلى إصلاح الخرق الذي حصل في الصفوف، وإن بمعدل خسائر بشرية بالغة الارتفاع بين البريطانيين وصل إلى 30 في المائة. وسرعان ما انتهزت الخطوط الدفاعية التي اتسمت بالسكون حتى ذلك الحين عندما وجدت نفسها تواجه عدوًا يفوقها كثيرًا في العدد عاجل بتطويقها. وعندما تمرد فوجان بلغاريان، بدأ تقهقر واسع النطاق⁽⁷⁷⁾.

ولقد نجح سلاح الجو الملكي في إرباك القوات البلغارية فحوّل هذا التقهقر إلى هزيمة منكرة، فدخل جنود بريطانيون وفرنسيون ويونانيون الأرض البلغارية في 25 سبتمبر. وفي اليوم نفسه بدأ صرح دول المركز يتداعى فيما طلبت الحكومة البلغارية إبرام هدنة. وفي الوقت نفسه، قامت قوات المستعمرات الفرنسية بزحف خاطف لمسافة 60 ميلًا في 29 سبتمبر أوصلها إلى محيط خطوط العدو في مدينة سكوبيه التي أمّن الاستيلاء عليها نهاية الخط الحديدي الحيوي الذي كان يربط دول المركز بخطوط الجبهة، وحسم انسحاب بلغاريا من الحرب في اليوم التالي⁽⁷⁸⁾. ومن بعدها تفرقت قوات الحلفاء حيث بدأ الجنود الفرنسيون والصرب زحفًا مهيبًا صوب الشمال لتحرير صربيا وعبور نهر الدانوب لتهديد إمبراطورية النمسا والمجر ذاتها، في حين زحفت القوات البريطانية شرقًا عبر تراقيا صوب الجزء الأوروبي من تركيا مما شكّل تهديدًا مباشرًا لقلب الدولة العثمانية، القسطنطينية، على نحو لم تستطع ببساطة عمليات الزحف في فلسطين وبلاد الرافدين النائيتين فعله⁽⁷⁹⁾. علاوة على ذلك، كانت القوات الألمانية على الجبهة الغربية بحلول أكتوبر 1918 تشهد تقهقرًا تامًا، وما كان من خروج بلغاريا من الحرب إلا أن أكد للقيادتين في فيينا والقسطنطينية موقفهما الميئوس منه.

الفصل الخامس

مصر وفلسطين

يحلل الفصلان التاليان الحملتين الكبيرتين اللتين شنتهما القوات البريطانية (والقوات الإمبراطورية، وخصوصًا الهندية) في فلسطين وبلاد الرافدين. وعلى الرغم من أن كل واحدة منهما تشكّل الأساس لفصل مستقل، فإن هناك عددًا من القواسم المشتركة التي يجب أخذها بعين الاعتبار، لذا فإن ثمة مبحثًا تمهيدياً موجزًا سيتناول هذه المحاور المشتركة باختصار قبل أن يستأنف الفصل تناوله الحملة التي شنتها القوات التي يقودها البريطانيون في مصر وفلسطين. ثم يستأنف الفصل السادس هذا الاستعراض بتناول الحملة التي شنتها في المقام الأول (في بدايتها) القوات البريطانية الهندية في بلاد الرافدين. وقد مثلت هاتان الحملتان معًا محور التركيز الرئيس للحرب التي شنتها الإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط في أثناء الحرب العظمى، والتي كانت لها تداعيات ما زالت أصداءها تتردد إلى يومنا هذا.

بدأت كلتا الحملتين بمفرزتين صغيرتين تابعتين للجيش الهندي أرسلتا من الهند إلى مصر وبلاد الرافدين في خريف 1914. ثم توسعت القوات خلال عام 1915 وحققت مكاسب أولية مطردة في تضاريس شبه جزيرة سيناء الصحراوية وجنوب بلاد الرافدين. ثم تعرّضت كل منهما لانتكاستين كبيرتين خلال سنوات الحرب الوسطى، وذلك في قطيسفون وكوت العمارة في بلاد الرافدين بين نوفمبر 1915 وأبريل 1916، وفي معركتي غزة الأولى والثانية في مارس وأبريل 1917. وفي كلتا الحالتين، دفعت صدمة الهزيمة إلى عملية إعادة تنظيم عسكري شاملة وتجديد للهجوم، مما أسفر عن الاستيلاء على مدينتي بغداد في 11 مارس 1917 والقدس في 10 ديسمبر 1917. وقد قوبل كلا الحدثين بالترحاب في بريطانيا وأشيد بهما بوصفهما نجاحين رفعوا الروح المعنوية لشعب أنهكته الحرب، وجاء في سنة كانت -فيما عدا

ذلك- كتيبة مليئة بقصص الجمود العسكري والسخط الاجتماعي الاقتصادي المتنامي في أماكن أخرى.

ولقد نوهنا في الفصل الرابع إلى مصر والدور الذي قامت به بصفتها القاعدة الرئيسية لحملة الدردنيل سنة 1915، وكيف عادت الحملة العسكرية المتوسطة إليها في يناير 1916 وأعيد تنظيمها تحت اسم الحملة العسكرية المصرية لتبدأ زحفها عبر شبه جزيرة سيناء نحو الحدود مع فلسطين العثمانية. وفي بلاد الرافدين، تركت عمليات الزحف التي جرت على امتداد نهري دجلة والفرات في عام 1915 مفارز من الحملة العسكرية الهندية «د» وتحت سيطرتها مواقع منفصلة غير قادرة على دعم بعضها بعضاً وفي حالة اعتماد تام على منظومة نقل نهري مثقلة بالأعباء للحصول على ما يلزمها من مؤن وإمدادات. وعلى الرغم من أن مسار الحملتين كان متزامناً بشكل عام (زحف أولي، ثم وقف التقدم والمنع من الحركة، ثم هجمات تعرضية)، فإنهما اختلفتا اختلافاً كبيراً في الخططين الزمنيين للعمليات العسكرية واللوجستية، حيث سعى المسؤولون البريطانيون إلى أكثر مما يطيقون وعلى نحو أسرع مما يستطيعون في بلاد الرافدين بينما اتسم الهجوم التعرضي الذي شهدته شبه جزيرة سيناء وفلسطين بالتأني في حشد القوات والموارد اللوجستية.

والواقع أن هاتين الحملتين قد أثقلتا أيما إثقال على الموارد المحلية والمجتمعات المضيفة. فبحلول الوقت الذي وضعت فيه الحرب أوزارها، كان قوام الحملة العسكرية المصرية الإجمالي 458246 رجلاً محارباً وغير محارب، في حين كان القوام الإجمالي لقوة حملة بلاد الرافدين أقل بقليل عن 408138 رجلاً محارباً وغير محارب. وقد أجهدت هاتان الحملتان قاعدتي إمدادهما الرئيسيتين في مصر والهند إلى حد الانهيار بحلول عام 1917، كما استنزفتا الموارد من قوة بشرية ودواب وأغذية وأعلاف في الأرض التي وقعت تحت سيطرة الاحتلال البريطاني في فلسطين وبلاد الرافدين. علاوة على ذلك، اعتمدت الحملة العسكرية المصرية وحملة بلاد الرافدين على «جيوش» من العمال المحليين وأرتال من دواب النقل في تلبية حاجتهما اللوجستية، فضلاً

عن الموارد المحلية من أغذية وأعلاف. وقد تداخل التجنيد وأنماط الاستيلاء على الموارد مع أسواق العمل المحلية والاقتصادات الريفية، وتسببتا في خلل كبير حيث ازدادت المتطلبات بشدة في عامي 1917 و1918. علاوة على ذلك، فإن القاسم بين مجالي السيطرة البريطاني والعثماني قطع طرق التجارة والمناطق الزراعية الداخلية، وفاقم بشدة الصعوبات الناشئة عن نقص الغلات وتدهور المحاصيل بين عامي 1913 و1916. ومن ثم فقد أفضى تطفل قوات عسكرية كبيرة على المجتمعات المحلية إلى تدهور التوازن الدقيق بين الطلب المدني والعسكري على موارد كانت في أغلب الأحوال شحيحة.

وهكذا كان للتعرض لفترات قتال مطوّلة أثر شديد على المجتمعات المحلية العالقة في هذا القتال، وقد تطلبت شدة هذا الموقف من المتحاربين (كلا الجانبين العثماني والبريطاني) تعميق تغلغلهم في الأنماط السياسية والاقتصادية المحلية، فصارت مستويات استخراج الموارد وتدخل الدولة أكثر إرهاباً وإثقالاً، حيث ازدادت متطلبات «اقتصاد الحرب» تعقيداً. وفي المقابل، أدى تنظيم وإدارة عملية تعبئة الموارد واستخراجها إلى عملية قوامها اتساع نطاق سيطرة الدولة، وهو ما تكشف بسرعات متفاوتة بين الحملتين نتيجة اختلاف التفاعل بين العوامل السياسية المحلية والمتطلبات الإقليمية والدولية للموقف العسكري. كما عكس هذا التنظيم والإدارة تفاوت أنماط الاندماج في المنظومة الدولية (والاستعمارية) قبل عام 1914 واختلاف معدلات الاستيعاب في مجالات نفوذ جديدة في أثناء الحرب ذاتها. زد على ذلك أن المد والجزر الذي شهده القتال أتاح للأفراد والمجتمعات الساعين إلى تعظيم مصالحهم داخل النظام المحلي المتغير فرصاً جديدة.

وبالنسبة للبريطانيين، أدى تطور القتال إلى تحول واضح (وإن كان تدريجياً) في المواقف تجاه الحملات العسكرية خارج حدود أوروبا. وقد مثل ذلك تحولاً حاسماً عن «الحملات الحدودية» الضيقة التي كانت قد هيمنت ما قبل عام 1914. فزالت الذهنيات القديمة عن الحرب الحدودية وحل محلها تدريجياً إدراك الحاجة

إلى توسيع الاستراتيجية لاشتمال تعبئة القوة البشرية والحيوانية والموارد الزراعية المحلية. ومع ذلك فقد استمرت العادات القديمة، ولا سيما في الهند البريطانية، وتسببت توليفة من القيود المؤسسية والفكرية في البداية في إلحاق ضرر كبير بالمجهود الحربي وتخصيص الموارد للقوات في بلاد الرافدين. وربما نجد مثالاً بارزاً على مدى تحوّل المواقف في تلك الإفادة التي أدلى بها الضابط البريطاني المسؤول عن جميع ترتيبات نقل المياه لمفرزة الجيش الهندي التي استولت على البصرة في نوفمبر 1914، وذلك أمام «لجنة تحقيق بلاد الرافدين» في أكتوبر 1916، والتي قال فيها إن الحملة «كانمقرراً أن تكون حملة سريعة محددة الهدف على الشاطئ في الخليج العربي... لم يكن لديّ تصور، لم تكن لديّ فكرة من أي نوع عن أنها ستصل إلى شط العرب»⁽¹⁾.

ولقد شكّلت الحملتان اللتان شُنّتا في فلسطين وبلاد الرافدين الضغط الرئيس للهجومين التعرضيين البريطانيين في الشرق الأوسط في أعقاب الانسحاب من الدردنيل في ديسمبر 1915. وعلى النقيض من ذلك، كان التركيز العثماني بعد غاليبولي منصباً إلى حد كبير جداً على الجبهة الروسية، في ظل خسارة أرضروم في فبراير 1916 وما تلاها من قتال عنيف في ذلك الصيف. وكما سبق وذكرنا في الفصل الثالث، فإن قتال الروس تسبب في وقوع ثلاثة أرباع الخسائر البشرية العثمانية كافة بين نوفمبر 1915 ووقت قيام ثورة فبراير في روسيا في عام 1917⁽²⁾. فخلال سنة الثورات تلك، فتح ضعف روسيا وانسحابها من الحرب في النهاية إمكانية تحقيق مكاسب عثمانية في آسيا الوسطى والقوقاز، فتحوّل الاهتمام نحو خيار «الوحدة الطورانية». وبالتالي فبحلول الوقت الذي وقع فيه الهجومان البريطانيان الضاغطان الكبيران صوب بغداد والقدس، أضعفت توليفة من الإنهاك العسكري والأهداف التوسعية في أماكن أخرى الجيوش العثمانية التي كانت في مواجهتهما في بلاد الرافدين وفلسطين أشد الإضعاف⁽³⁾. علاوة على ذلك، فإن بُعد المسافة الجغرافية والعزلة النسبية التي اتسمت بها جبهات القتال عن قلب الدولة العثمانية ترتب عليه أنها لم تكن تنطوي على تهديد للأستانة يقارب بأي حال التهديد الذي كانت تنطوي

عليه الحملات التي شُنت في الدردنيل، أو الزحف انطلاقًا من سالونيك في سبتمبر 1918 الذي تسبب في الانهيار النهائي للمجهود الحربي العثماني⁽⁴⁾.

كما وقّرت الحملتان اللتان شنتهما بريطانيا أيضًا السياق للاتفاقيات الجدلّية التي أبرمت زمن الحرب مع شريف مكة والفرنسيين والصهاينة أنصار إقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين. فقد أبرمت هذه الاتفاقيات فيما كان المسؤولون البريطانيون والفرنسيون يسعون إلى استغلال التوترات الداخلية في الدولة العثمانية بالتلاعب بالتنازعات وتشجيع المشاعر القومية الوليدة⁽⁵⁾. ومع ذلك فإنها ألزمت بريطانيا باتباع ما سماه المؤرخ يوكانيفاكي-موفقًا-«نهج السياسات المتصادمة تصادمًا صارخًا». فقد خلقت هذه القرارات المتناقضة التي اتُخذت زمن الحرب إرثًا من المرارة العظيمة ومشاعر الغدر⁽⁶⁾. وسوف نتناول في الفصل السابع بالتحليل نشأة وتفاصيل مراسلات حسين مكماهون المتبادلة في عام 1915، واتفاقية سايكس بيكو المبرمة في مايو 1916، وتصريح بلفور الصادر في نوفمبر 1917. وبالإضافة إلى هذه «الاتفاقيات» المهمة الثلاث، فإن البيانات التصريحية الأخرى دعمًا لطموحات الحكم الذاتي المحلية، مثل «التصريح البريطاني إلى القياديين السوريين السبعة» و«التصريح الإنجليزي الفرنسي» لسنة 1918، رفعت مستوى التوقعات وزادت الآمال في حدوث تغيير سياسي ذي معنى بمجرد أن تضع الحرب أوزارها.

الحملة في مصر وفلسطين

استند الحكم البريطاني في مصر في العقود الثلاثة التي انقضت بين الاحتلال في عام 1882 ونشوب الحرب مع الآستانة في عام 1914 إلى وجود رسمي صغير. وكانت تسيّر هذا الحكم طبقات من الجماعات المتعاونة المحلية، مثل الموظفين المدنيين ومسؤولي المديريات والبلديات ورجال الجيش، بل وكان الحكم يعتمد عليها في الحقيقة. فقد أدت هذه الجماعات دور وسطاء على قدر عظيم من الأهمية بين الصرح الاستعماري «ذي اللمسة الخفيفة» والمطالبات المجتمعية بتحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتفعيل سيادة القانون. وكما في حالات الاحتلال الاستعماري

الأخرى، تمخضت التفاوتات السياسية والاقتصادية والاجتماعية المتأصلة في الحكم الأجنبي عن حركة قومية وروح مقاومة في مصر، وهو ما برز نوعاً ما استجابة للآثار الاقتصادية السلبية المترتبة على الاحتلال البريطاني الذي أزاح الصانع الماهرة المصريين مستبدلاً بهم مهاجرين من جنوبي أوروبا، وعرقل الاتجاه إلى الصناعة في مصر من خلال إصلاحات النظامين الضريبي والقانوني، وشجع الاستغلال التجاري للزراعة الذي حرم كثيرين من أصحاب الحيازات الزراعية الصغيرة من أراضيهم وفرض ربقة العبودية على كثيرين من الفلاحين ورسخ أقدام «أوليغارشية أعمال» جديدة قوامها أصحاب الأطيان الزراعية الواسعة والمستثمرون الأجانب ممن احتكروا الإمكانات المدرة للدخل في مصر قبل عام 1914. كما أدت وقائع معينة أيضاً، مثل مذبحه دنشوايسنة 1906 وما نجم عنها من تبرئة لمرتكبيها البريطانيين، إلى تعبئة الرأي القومي⁽⁷⁾.

ولقد وضع تعرض مصر للحرب العظمى ومشاركتها القسرية فيها عبئاً هائلاً على الشبكات التعاونية التي كانت تركز عليها السلطة البريطانية وتُسقط نفوذها من خلالها، حيث اقتضت المطالب العسكرية على الموارد والقوة البشرية والدواب من السلطات البريطانية توسيع وتعميق تغلغلها في الأنماط الاجتماعية والاقتصادية المحلية بشدة. علاوة على ذلك، فإن تمديد العمليات إلى فلسطين في عام 1917 وما تلا ذلك من استيلاء على أرض للعدو اشتملا على تولي المسؤولية عن منطقة مفقرة دمرتها الحرب وعصفت بها المجاعة. فحدثت التحويلات الطارئة للمواد الغذائية والقوة البشرية الشحيحة من مصر إلى فلسطين بالضبط في الوقت الذي بدأت فيه بؤادر الشح الموضعي تظهر وتنتشر على نطاق واسع في مصر ذاتها، مما قلص قدرة بريطانيا على الاحتفاظ بالسيطرة من خلال الوسائل غير المباشرة و«الرخيصة» - في إمبراطوريتها بوجه أعم كما في مصر - حيث ازداد عبء العمل الواقع على المسؤولين (وتقلصت أعدادهم من خلال تحويلهم إلى مراكز عسكرية)، فيما بدأ المتعاونون والفئات المتضررة من المتطلبات العسكرية يطالبون بعائد ملموس على المساعدة التي قدموها زمن الحرب. ومن ثم فبنص كلمات المؤرخ البريطاني أنطوني ستوكويل،

فقد «استنزفت الحربُ الإمبراطوريةَ، وبانت الشقوق على السطح»⁽⁸⁾.

وبالتالي فقد كانت للقرارات المتخذة فيما بين نوفمبر 1914 ونوفمبر 1918 تداعيات مهمة امتدت إلى فترة ما بعد الحرب. إذ أفضت الضغوط المترتبة على استدامة حملات عسكرية كبيرة إلى تحسين كبير في قدرات الدولة على التعبئة وقدراتها الاستخراجية. وتطورت صورة أكثر سلطوية من السيطرة الاستعمارية في ظل طلب السلطات البريطانية المزيد من الطلبات من النخب المحلية المتعاونة معها. وهذا بدوره أعاد تشكيل علاقات القوة المحلية وتمخض عن ردود أفعال محلية عنيفة ضد الطلب الذي ازداد إرهابًا وسفورًا على الموارد والقوة البشرية. وسوف نتناول هذه المسائل بالتفصيل في الباب الثالث من هذا الكتاب، أما المباحث التالية في هذا الفصل فسوف تبين كيف وُفّر المجهود العسكري السياق للتغيرات العميقة التي أعقبت ذلك. وبإدئ ذي بدء، كان على المسؤولين البريطانيين تسوية وضع مصر داخل الإمبراطورية.

تسوية وضع مصر الشاذ

في أعقاب إعلان الحرب على الدولة العثمانية في 5 نوفمبر 1914، ركزت السياسة البريطانية على تسوية وضع مصر السياسي والعسكري داخل الإمبراطورية البريطانية. وقد كانت مصر خاضعة للاحتلال البريطاني «المؤقت» منذ عام 1882، وكانت تستضيف حامية بريطانية صغيرة تتراوح بين 4000 و5000 جندي⁽⁹⁾. وفي عام 1914، كان القائد البريطاني المسؤول في مصر هو الجنرال المخضرم جون ماكسويل الذي كان يتمتع بخبرة تربو على ثلاثين عامًا في مصر. وقد عمل ماكسويل بجانب شبكات الحكومة البريطانية والمستشارين التجاريين والموظفين المدنيين والمفتشين التي كانت منتشرة في كل فروع الإدارة المصرية⁽¹⁰⁾. وقد وصف أحد البريطانيين، وهو بي. جي. إلغود، هؤلاء المستشارين بأنهم «مستشارون بالاسم مسيطرون في الواقع» يعملون من خلف واجهة الحكومة المصرية في فصل نظري بين السلطات⁽¹¹⁾. وقد دفع نفوذهم المستتر الإداري الإمبريالي والاستعماري البريطاني الكبير ألفريد ملنر إلى

وقد ظلت مصر تابعة اسمياً للدولة العثمانية في نوفمبر 1914، وكان طبيعياً أن ركّز نشوب الحرب مع الآستانة الاهتمام على هذه الحقيقة. فاقترح غراي في البداية ضم مصر ضمّاً صريحاً لكن هذا الاقتراح لاقى معارضة من القائم بأعمال القنصل العام في مصر السير ملنتشيتاما الذي دافع عن الإرث التعاوني للاحتلال «المؤقت» وجادل بقوله إن الضم سيتناقض مع هدف الحكومة البريطانية المعلن وهو الحفاظ على حقوق الأمم الصغيرة⁽¹²⁾. وكان البعد الديني (تناولناه في الفصل الرابع) عامل تعقيد إضافياً دفع المقيم السياسي البريطاني في مصر إلى تأييد نهج حذر في عام 1914، وحدث هذا لأن المسؤولين البريطانيين كانوا يعتبرون المصريين «أعداء محتملين وإن كانوا كامنين، ومن المستحسن شراء حيادهم وهجوهم بأي ثمن»⁽¹³⁾. كما تتبأتشيتام أيضاً بالمحاولات البريطانية اللاحقة للظهور بمظهر الحامي المشجع للمشاعر القومية العربية، حيث أشار إلى إمكانية إسقاط النفوذ البريطاني على المشاعر العربية والإسلامية بشكل أفضل من خلال «إنشاء أمة محمديّة [هكذا جاءت] تحت حمايتنا»⁽¹⁴⁾.

وكان المخططون الدفاعيون البريطانيون قد قرروا في أغسطس 1914 أن أفضل سبيل للدفاع عن المصالح الإمبراطورية يكون باستعادة توازن القوى في أوروبا، ومن هذا المنظور دخلت بريطانيا الحرب لكي تحافظ على الوضع الراهن لا لتحقيق مكتسبات في الأرض في الشرق الأوسط أوفي أماكن أخرى. وعلى الرغم من ذلك، كان مركز بريطانيا الإمبراطوري يستند إلى الحفاظ على السيطرة على «شريان الإمبراطورية الاستراتيجي»؛ ألا وهو قناة السويس التي وُصفت بحق بأنها «الجبل السري» للإمبراطورية الذي يصل بين الهند ودولتي الدومينيون في أستراليا ونيوزيلندا، والذي يسمح بمرور الرجال والعتاد والذخائر إلى مختلف خطوط الجبهة ومنها⁽¹⁵⁾. لذا كان تأمين قناة السويس وما يستتبعه من الحفاظ على الاستقرار في مصر وطرق الوصول إليها، بالإضافة إلى القضاء على شبكة ألمانيا العالمية من الاتصالات ومحطات

التزود بالفحم، حاسم الأهمية لتأمين سيطرة البحرية الملكية على المحيطات التي ستحافظ على بقاء إمبراطورية بريطانيا المترامية الأطراف.

وقد اتُخذ تدبير أولي في أكتوبر 1914، وذلك قبل اندلاع فتيل الحرب، تمثل في قرار المقيم السياسي البريطاني تأجيل دور انعقاد الجمعية التشريعية التي كانت قد أنشئت في عام 1911. وفي 2 نوفمبر، وفيما كانت الحرب مخدقة، أصدرت السلطات العسكرية البريطانية إعلانًا لشعب مصر جاء فيه أن بريطانيا ستتولى المسؤولية كاملة عن الدفاع عن مصر وأنه لن يُطلب من مصري المشاركة في القتال. وأضافت الرقابة الصارمة التي فُرضت على الصحف والعمل الاستخباراتي المزيد من طبقات الحماية، فنجحت هذه التدابير في مجموعها في إضعاف إعلان الآستانة الجهاد في 14 نوفمبر⁽¹⁶⁾. وفي أثناء هذه الفترة، كانت الوحدات العسكرية الآتية من الهند وأستراليا ونيوزيلندا كلها تمر عبر مصر في طريقها إلى الجبهة الأوروبية. وبالإضافة إلى ذلك، وصلت فرقتان هندية (الفرقتان 10 و 11 مشاة الهنديتان) لتكونا بمثابة نواة قوة إنجليزية جديدة في مصر أنيطت بها مهمة تأمين منطقة القناة⁽¹⁷⁾.

كانت الفرقتان 10 و 11 الهنديتان قد سُكلتا على عجل في الهند في ظل تدهور العلاقات بين لندن والآستانة، وكانتا تتألفان من ألوية مشاة متفرقة جُمعت سُويا من دون ما يكفي من أركان حرب أو مدفعية أو جنود تابعين لقيادة الفرقة. ومع ذلك فقد رَحِب السير رونالد ستورز، السكرتير الشرقي في مكتب المقيم السياسي البريطاني في مصر، بوصولهما إلى مصر حيث كان يعتقد أن مرأى القوات الهندية يمثل تصحيحًا عظيم القيمة للرأي القومي المصري الذي كان يزعم أن البريطانيين «يركبون» الهنود «مثل الحمير» وأن الهنود لن يحاربوا أبدًا في صفهم. كما كان ماكسويل أيضًا ينظر نظرة احترام للجنود الهنود الذين أعلن أنهم «مفعمون بالحماس وأنهم يتلهفون للقاء العدو». بل إنه كتب يقول إن الهنود يقيّمون أفضل من ثلثة من رجال الجيش الاحتياطي البريطاني كانوا قد وصلوا لتوهم من إنجلترا «والثلوج تغطيهم» ويبدون «متأثرين أشد التأثير باللقاحات التي أعطوها فلا يكادون يقوون على الحراك».

ولقد وضع ماكسويل الفرقتين الهنديتين على امتداد قناة السويس في خط ممتد من بور سعيد في الشمال إلى السويس في الجنوب. واستفاد موقعهما هذا من خطوط المواصلات الجانبية الممتازة المتمثلة في سكة حديدية من النوع الواسع تمتد بطول مجرى القناة بأكمله، ومن سيطرة البحرية الملكية على طرق الوصول البحرية إلى السويس وبور سعيد. وفيما وراء الخط الأمامي، أسس ماكسويل خطوط مواصلات مؤمنة على الضفة الغربية لقناة السويس ربطت الإسكندرية (وجهة الإمدادات الآتية من المملكة المتحدة والغرب) والسويس (وجهة الإمدادات الآتية من الهند والشرق) والقاهرة (مكان تجميع الإمدادات المشتراة في مصر). وفي تلك الأثناء، كانت القوات الهندية تخفر «المدقالمدكوك» الذي كان يمتد بطول الضفة الشرقية للقناة بأكملها وتقوم على صيانته. وكان هذا بمثابة نظام إنذار بدائي ضد أي نشاط معاد أو رص للألغام في قناة السويس الحيوية استراتيجيًا. فلم يكن يُسمح لأي سفينة بالمرور عبر قناة السويس إلا بعد أن يقوم الضباط البريطانيون بتفتيشها عند أول ضوء كل صباح ورفع تقرير يفيد خلوها من أي أثر تجريمي أو أية شواهد أخرى⁽¹⁸⁾.

وفي 19 ديسمبر 1914، أعلنت بريطانيا الحماية على مصر وخلعت الخديوي عباس حلمي الثاني الموالي للعثمانيين ونصبت ابن أخيه المطواع الموالي لبريطانيا حسين كاملاً منه سلطاناً على مصر^(*). وكان في هذه الخطوة تسوية لقضية السيادة المصرية، وفي الوقت نفسه اكتسبت لندن حليفًا محليًا ثمينًا. وصار وزير خارجية الحكومة الهندية السير هنري مكماهون أول مندوب سام في القاهرة خلفًا لآخر مندوب بريطاني في مصر وهو اللورد كتشنر الذي عُيّن في منصب وزير الدولة للحربية في لندن عقب اندلاع الحرب. بيد أن مكماهون كان يفتقر إلى الخبرة السابقة بمصر، ولم يكن يتحدث العربية ولا الفرنسية (لغة موظفي الدواوين في مصر)، ولم يبذل إلا قليلًا من الجهد للتواصل مع زملائه المدنيين والعسكريين في ظل نمو مطالب زمن الحرب وازديادها مشقة وتعقيدًا⁽¹⁹⁾. وعلى أية حال، أعلنت

* جاء في النص الأصلي أن السلطان حسين كامل ابن أخ الخديوي عباس حلمي الثاني، والصواب أنه عمه. (المترجم)

الأحكام العرفية في مصر التي ألغت نظام الامتيازات الأجنبية، وبناء على ذلك صارت القوات المسلحة البريطانية هي السلطة التشريعية والتنفيذية العليا الفعلية في مصر⁽²⁰⁾. غير أن هذا لم يكن له في البداية إلا أثر قليل على الحياة اليومية. فقد كان ماكسويل شخصية شعبية يملك خبرة طويلة في مصر، فضمن أن تحكم «إدارته اللبقة والقوية في آن واحد» البلاد في تناغم دقيق مع الإدارة المدنية⁽²¹⁾.

الاشتباكات الأولية في 1915

كانت هذه التدابير الأولية كافية لتفادي تأجيج المشاعر المناهضة للبريطانيين التي كان كثير من المسؤولين يخشونها بعد إعلان الأعمال العدائية ضد الآستانة. وقد دام التهديد العسكري المباشر لمصر حتى 3 فبراير 1915، وذلك عندما تمكنت قوة عثمانية قوامها 20 ألف رجل ووحدة متكاملة من مدفعية الميدان من عبور صحراء سيناء آتية من فلسطين. وكان الجنرال الألماني فريدريش كريس فون كرسنشتاين (أحد أعضاء بعثة ليمان فون ساندروز العسكرية) يقود هذه القوات التي تتألف من فرقتين (الفرقتان 10 و25 مشاة) قوامهما الإجمالي 25 ألف رجل، وهما تتبعان الجيش الرابع الذي يقوده جمال باشا. وقد تحدث جمال باشا في مذكراته التي كتبها بعد الحرب عن الأهداف العسكرية والسياسية المتشابهة لهذه الغارة فقال:

كنت أرجو أن يهبط الوطنيون المصريون، بعد أن يشجعهم استيلاء الجيش التركي على الإسماعيلية، هبة واحدة، وأن تُحرر مصر في زمن قصير غير متوقع بتوظيف قوة صغيرة جدًا وموارد فنية ضئيلة⁽²²⁾.

ولقد حاولت القوة المغيرة سد قناة السويس وتفجير ترعة المياه العذبة التي كانت تجري موازية لها. لكن الهنود المدافعين عن قناة السويس تصدوا لمحاولة التغلغل فيها باستخدام أطواف وزوارق قابلة للنفخ وكتبوا العثمانيين خسائر بشرية فادحة تجاوزت 1500 رجل، على الرغم من تمكن سريتين فعلاً من عبور القناة وإقامة رأس جسر صغير على ضفتها الغربية. لذا تقهقر كريس إلى فلسطين بعد

أن حقق أداء مشرفاً، وإن كان غير ناجح، لكن الصعوبة التي واجهها في شراء 14 ألف رأس من الإبل كانت الغارة بحاجة إليها كانت نذيراً بمدى كثافة الاستيلاء على الموارد المحلية لصالح المجهود الحربي الذي سنراه فيما بعد. وقد أذن هذا الاشتباك بنهاية التهديد العسكري المباشر لقناة السويس⁽²³⁾.

وكانت مصر في أثناء عام 1915 تعد بمثابة القاعدة الرئيسة لحملة الدردنيل. وقد شغلت العمليات العسكرية في غاليلولي بال البريطانيين في أثناء الربيع والصيف في ظل اتساع الحملة في نطاقها وحجمها. فصارت مدينة الإسكندرية المصرية القاعدة الرئيسة للحملة العسكرية المتوسطة نظراً لعدم وجود موانئ عميقة المياه ومنشآت بنية تحتية مناسبة في شرقي بحر إيجة. فظل أسطول مؤلف من 120 سفينة نقل يقطع المسافة جيئة وذهاباً بين الإسكندرية والقاعدة المتقدمة الموجودة فوق جزيرة مودروس، حيث كانت تلك السفن تزود القوات بما يلزمها من مؤن وذخائر وما تحتاج إليه من تعزيزات بالجنود ودواب الحمل. وفي تلك الأثناء، استفادت قاعدة الإمداد والتموين الرئيسة في الإسكندرية من القدر الكبير المتاح محلياً والموجود من قبل من منشآت تصنيع وإصلاح. كما افتتحت أيضاً قاعدة للإمداد والتموين اشتملت في البداية على مخزونات أخذت من مستودعات زمن السلم التابعة لجيش الاحتلال التي تعود إلى ما قبل عام 1914 في كل من الإسكندرية والقاهرة⁽²⁴⁾.

كما جند المسؤولون العسكريون البريطانيون في مصر «كتيبة أشغال مصرية» مؤلفة من 650 رجلاً و«فيلق عمل مصرياً» ناشئاً مؤلفاً من 1150 رجلاً للاشتغال بأعمال الإنشاء فوق جزيرة مودروس. فأدت كلتا الوحدتين خدمة جلييلة بإنشاء أرصفة ومراسٍ وشبكة سكك حديدية خفيفة، وغالباً ما كان يحدث ذلك في ظروف صعبة وتحت قصف المدفعية. غير أن كتيبة الأشغال تعرضت إلى «حادث مشؤوم» في سبتمبر 1915 أسفر عن مقتل تسعة مصريين وإصابة سبعة آخرين بعد أن فتح ضباط بريطانيون عليهم النار لإخماد حالة من البلبلة سادت بينهم. وكانت القلاقل قد ثارت بعد أن ادعى بعض العمال أنهم لم يتفقوا إلا على العمل لمدة ثلاثة

أشهر فقط وألا يكون عملهم تحت القصف. فطعن ضباطهم البريطانيون في صحة كلا هذين الادعاءين، وتفجرت التوترات في أعقاب أفعال قاسية ارتكبتها أحد الضباط حيث أقدم على جلد العديد من الرجال. وقد انتقد المسؤولون البريطانيون في مصر «الافتقار إلى الكياسة وضبط النفس بشكل يؤسف له» من جانب الضابط الضالع في الواقعة. لكن حقيقة الأمر أن الواقعة خضعت للتعمية بفعل الرقابة الصارمة على الإعلام، على الرغم من أنها أسفرت عن استدعاء الكتيبة إلى مصر. وقد أسي هاملتون في غاليلوي لخسارة هذه الكتيبة حيث علق في حزن على رحيلها بقوله إن «كتيبة الأشغال التي أسيء إليها والمثيرة للشغب قد قامت أيضًا بعمل رائع طوال وجودها هنا، ولكم كنت أتمنى بشدة لو كان لدي أخرى»⁽²⁵⁾.

وفي البداية لم تكن المطالب العسكرية الصريحة التي وقع عبئها على مصر ثقيلة في عام 1915، إذ كانت تتألف في أغلبها من إقامة مستشفيات لإيواء الجرحى الآتين من غاليلوي، ومصادرة أبنية لأغراض الأشغال العسكرية، وتنفيذ لوائح عسكرية للسيطرة على رزيلتي شرب الخمر والدعارة. ثم ازداد دور مصر في استدامة المجهود العسكري البريطاني في شرقي البحر المتوسط زيادة كبيرة في أكتوبر 1915 بعد أن غزت القوات الألمانية والنمساوية سيبيريا واجتاحتها بسرعة. وقد بينا في الفصل السابق كيف أفضى هذا إلى إرسال قوات بريطانية وفرنسية إلى مدينة وميناء سالونيك في شمالي اليونان وفتح الجبهة البلغارية المطولة في الحملة ضد العثمانيين. وبالطبع عقد بدء هذه العمليات دور مصر بوصفها قاعدة تموينية وإدارية حيث تولت المسؤولية عن إمداد سالونيك بالإضافة إلى غاليلوي⁽²⁶⁾.

ولقد أشرف الجنرال إدوارد ألتام، مفتش عام المواصلات في مصر، على التوسيع السريع لقواعد الإمداد والتموين في الإسكندرية، حيث أعيد تنظيمها تحت اسم قواعد بلاد الشام ووُضعت تحت سيطرة وزارة الحربية المباشرة من أجل تنسيق شراء المؤن وتخصيص الإمدادات للقوات في سالونيكوغاليلوي، وكذلك للقوات الموجودة في مصر. وأنشئ مجلس موارد لتولي أمر كافة المشتريات المحلية والتغلب على

التوترات في ظل التنافس في الطلب على الموارد الذي كان قد حدث من قبل في عام 1915 عندما وجدت الحملة العسكرية المتوسطة والقوات الإنجليزية في مصر أنفسهما تتنافسان في السوق المفتوحة على السلع ذاتها⁽²⁷⁾.

وترتب على الطلبات العسكرية بغرض إعاشة القوات في غاليولي وسالونيك أن كانت السياسة العسكرية في مصر محدودة نسبياً في عام 1915. فبالإضافة إلى إخماد الثورة التي وقعت في الصحراء الغربية (نناقشها في المبحث التالي)، اقتصر دور الستين ألف جندي الذين كانوا يشكلون قوام القوات الإنجليزية في مصر على الدفاع السلبي عن قناة السويس، مما أثار مخاوف فيما بين السلطات العسكرية في لندن مفادها أن «القناة هي التي يبدو أنها تدافع عن الجنود وليس الجنود هم الذين يدافعون عن القناة». وبالتالي أمر ماكسويل في 16 نوفمبر 1915 بتكديس المؤن والعتاد لتعزيز الدفاعات عن القناة، وهو الإجراء الذي اشتمل على إقامة ثلاثة خطوط دفاع متدرجة في بعدها عن قناة السويس تحميها سلسلة من النقاط الخارجية التي يدعم بعضها بعضاً وتغطي رءوس الجسور والمراكز الحيوية على الضفة الشرقية. وقد أتم العمال المصريون الذين جندوا ضمن فيلق العمل المصري، في أعقاب عودته من غاليولي، هذا العمل في مطلع عام 1916.

الثورة السنوسية في الصحراء الغربية

شنت القوات البريطانية والإمبراطورية أيضاً حملة عسكرية لإخماد التمرد السنوسي في الصحراء الغربية الواقعة بين مصر وليبيا. وكانت أصول هذا التمرد تعود إلى المقاومة السنوسية للغزو الإيطالي لليبيا في عام 1911، حيث قامت انتفاضة مسلحة في نوفمبر 1914 في إقليم طرابلس وإقليم فزان الواقع في جنوبي ليبيا قبل أن تنتشر غرباً إلى معقل الحركة السنوسية في إقليم برقة الواقع على حافة الصحراء الغربية المصرية^(*). ودفع قرار إيطاليا دخول الحرب العظمى في صف بريطانيا

* جاء في النص الأصلي أن الانتفاضة المسلحة انتشرت غرباً إلى إقليم برقة، والصواب شرقاً لأن هذا الإقليم يقع في شرق ليبيا. (المترجم)

وفرنسا العثمانيين إلى زيادة مستويات الدعم المادي الذي يقدمونه إلى الحركة السنوسية التي كانت هيذاتها قد أعلنت الجهاد من قبل ضد الوجود الإيطالي في إقليم برقة في أوائل عام 1913. وقد تقلّصت قبضة إيطاليا على ليبيا باطراد وبحلول نهاية عام 1915 اختزلت في مدينتي طرابلس وبنغازي الساحليتين. علاوة على ذلك فقد تعرّض الطليان لانتكاسة كبيرة في أبريل 1915 في معركة القرصاوية على أيدي حليفهم المحلي السابق رمضان السويحلي المصراتي، مما أسفر عن الإبادة الفعلية للقوة الإيطالية في ليبيا⁽²⁸⁾. ثم ألحق السويحلي هزيمة أخرى بحامية إيطالية كانت موجودة في بني وليد، وصار بمساعدة من تدفقات المعونات العثمانية والألمانية الشخص الأعظم نفوذًا من بين الأعيان في شرقي إقليم طرابلس، حيث شكّل حكومة محلية تمكنت من ممارسة السيطرة على قبيلة ورفلة المتنفة في الإقليم. وانتقامًا لما حدث، أمرت السلطات الإيطالية التي كانت تزدد بأسًا يومًا بعد يوم بإعدام أكثر من 700 ليبي شنقًا، لكن هذا العمل البشع لم يزد زخم وعمق حركة المقاومة المناهضة للاستعمار إلا شدة⁽²⁹⁾.

وإلى الشرق من هناك، تزايد الضغط العثماني على السنوسيا الكبير، السيد أحمد الشريف، لشن هجوم على القوات البريطانية في مصر من الخلف. وقد آتى هذا الضغط ثماره في نوفمبر 1915 حيث عبرت قوة قوامها 5 آلاف مقاتل الحدود وسارت شرقًا على امتداد الساحل نحو الإسكندرية. وبالتزامن مع ذلك، قامت غواصة ألمانية بنقل ضباط عثمانيين وألمان إلى مستوطنة السلوم الساحلية المصرية فتغلبت على قوة بريطانية كانت موجودة هناك. وردًا على ذلك، شكّل البريطانيون قوة باسم «قوة الحدود الغربية» مؤلفة من لواءين (أحدهما مشاة والآخر راكب) وسرب من الفيلق الجوي الملكي ووحدات من أستراليا ونيوزيلندا وجنوب أفريقيا والهند. وقد اتخذت القوة مقرها الرئيس في مرسى مطروح الواقعة في منتصف الطريق بين الإسكندرية والسلوم، وبدأت تصد الزحف السنوسي بشكل ممنهج. وقد أنجزت هذه المهمة فيما بين ديسمبر 1915 ومارس 1916 في سلسلة تألفت من خمسة اشتباكات أذنت بنهاية التهديد السنوسي على امتداد ساحل البحر المتوسط. لكن فتيل

القتال اشتعل من جديد في أكتوبر 1916 عندما احتلت القوات السنوسية عددًا من الواحات الاستراتيجية، مما أجبر القوات البريطانية على تحويل وجهة قوات من حملة سيناء للاحتفاظ بحامية في الصحراء الغربية. وأخيرًا، وذلك في فبراير 1917، ألحق لواء سيارات مدرعة خفيفة بريطاني هزيمة بالسنوسي وقواته وأجبرهم على الانسحاب النهائي إلى الجهة الأخرى من الحدود الليبية.

وفي مفاوضات السلام التي تلت ذلك، رتب البريطانيون لإقضاء السيد أحمد الشريف الذي كانوا يعتبرونه ذا نزعة جهادية وصاحب ميول وحدوية إسلامية، وإحلال ابن عمه إدريس السنوسي (وهو الذي صار فيما بعد ذلك بزمان طويل أول ملك لليبيا وذلك في عام 1951 إلى أن أطاحه العقيد معمر القذافي عام 1969) محله. وكان إدريس يؤيد إقامة علاقات طيبة مع البريطانيين ويُنحى على أحمد باللائمة في الهزائم العسكرية التي تكبدتها الحركة السنوسية في عام 1916. وقد جرّت بريطانيا رجله إلى شبكة محسوبيتها، فأبعد أحمد وبطانته من الضباط العثمانيين عن برقة، مما حقق هدف بريطانيا الاستراتيجية الذي كان يتمثل في السيطرة على نظام عميل مطواع على امتداد جانبها الغربي ووقف انتشار التأثير السنوسي إلى المتعاطفين مع الحركة في مصر وأماكن أخرى في شمال أفريقيا⁽³⁰⁾. وبقضاء البريطانيين على تهديد تعرضهم لهجوم من المؤخرة، استطاعوا التركيز على الزحف شرقًا عبر شبه جزيرة سيناء ومنها إلى فلسطين العثمانية.

إلى سيناء وفلسطين

عادت قوة التجريدة المتوسطة إلى مصر في يناير 1916 بعد نجاحها في الجلاء عن غاليبولي. وفي 9 يناير، خلف الجنرال أورشيبالد موراي الجنرال مونرو على منصب القائد العام. وتعايشت قوة موراي في البداية في جو من الشراكة المضطربة بجانب القوات الإنجليزية في مصر، حيث تولى موراي المسؤولية عن دفاعات القناة في حين احتفظ ماكسويل بالمسؤولية عن الشؤون الداخلية والأمن على حدود مصر الغربية. وعلى الرغم من ذلك تمخض وجود قيادتي جيش عن ثنائية في القيادة

وتعقيد دفع ماكسويل إلى أن اقترح على لندن إلغاء منصبه في مارس 1916، معللاً هذا بأنه وجد النظام الثنائي «غير ضروري، وينطوي على هدر، وغير مريح، بل وقد يكون خطيراً في أوقات الشدة»⁽³¹⁾. فتولى موارد المسؤولية منفرداً عن القوة المندمجة التي سماها قوة التجريدة المصرية. غير أن رحيل ماكسويل حرم مصر من قائد محترم صاحب خبرة طويلة في الأوضاع المحلية. وعلى النقيض من ذلك، كان خلفه يفتقر إلى الخبرة بالأوضاع المصرية، وفي أثناء الفترة التي قضاها هناك (وهي التي استمرت حتى يونيو 1917) جادل النقاد بأن مقر القيادة العامة صار مجتمعاً منغلِقاً ومنعزلاً عن الوعي بالقضايا والمشكلات المصرية⁽³²⁾.

ولقد واجه موراي تحدياً فورياً بصفته القائد الأوحـد في مصر حيث كان الموقف العسكري في ربيع 1916 تغلب عليه الفوضى. فقد عادت إحدى عشرة فرقة بريطانية وإمبراطورية من غاليبولي وكانت بحاجة إلى إيوائها وتزويدها بالمؤمن وإعادة تجهيزها وإرسالها إلى جبهات أخرى. وبلاشك فإن هذه المهمة أثقلت كاهل قدرات الإمداد والتموين المحلية إلى أقصى درجة حيث عجزت الموارد المتوافرة في مصر بشكل متزايد عن إمداد الجنود والدواب بالمواد الغذائية والأعلاف. وصار الوضع حرجاً عندما لاح في الأفق انهيار وشيك في الإمدادات الغذائية حيث طغى الطلب على الموارد القائمة. ولم يُتدارك هذا الموقف إلا بفضل شحنة طارئة هائلة من الخبز والتبن وصلت من الهند في مارس 1916⁽³³⁾. وكان هذا بمثابة إنذار مبكر بالصعوبات المترتبة على نقل قوات عسكرية كبيرة وزرعها في مجتمعات مدنية لم تكن تتمتع بهامش كفاف كبير. وسوف تكون هذه مشكلة متكررة في مواجهة المجتمعات المضيفة والقوات المتحاربة في مصر وبلاد الرافدين مع مضي الحملات قدماً وتوسعها، وكذلك في مواجهة الهند التي كانت «المورد الذي يمثل الملاذ الأخير» حتى اقتربت مخزوناتُها هي نفسها من شفا الأزمة في أواخر 1918.

وفيما بين مارس ويونيو 1916، أعيد تنظيم عشر فرق مشاة وأعيد تجهيزها وأُرسلت إلى فرنسا، في حين أُرسلت فرقة واحدة (13 مشاة) إلى بلاد الرافدين.

وظلت أربع فرق تابعة للجيش الاحتياطي البريطاني في مصر حيث بدأ موراي يعيد النظر في الوسائل المثلى لتأمين منطقة قناة السويس، وهوما تبلور في 15 فبراير 1916. فقد أبلغ موراي خلفه على منصب رئيس الأركان العامة الإمبراطورية في لندن، وليم روبرتسون، بأن أفضل وسيلة للدفاع عن مصر هي الزحف عبر شبه جزيرة سيناء إلى بلدة العريش القريبة من الحدود مع فلسطين العثمانية. وعلل موراي بأن هذا سيحرم العدو من الوصول إلى سيناء بتأمين السيطرة البريطانية على العريش، وهي البلدة الوحيدة القادرة على تزويد واستدامة أي قوة مغيرة بالمياه، مما يستحيل معه أي تكرار لهجوم فبراير 1915 الاقتحامي. علاوة على ذلك فإن الاستيلاء على العريش سيضع قوة التجريدة المصرية في وضع يمكنها من القيام بعمل هجومي سريع ضد أي حشد للعدو في جنوب فلسطين⁽³⁴⁾.

وكانت الخطط البريطانية القاضية بالقيام بزحف منهجي تبنني على إعداد لوجستي دؤوب، وهو ما عكس وعي البريطانيين المتزايد بالانهيار الراهن في الترتيبات اللوجستية في بلاد الرافدين (وهو الذي ناقشه في موضع لاحق في هذا الفصل). وفي سيناء، تقرر أن يترافق الزحف مع إنشاء سكة حديدية ذات اتجاه واحد وخط أنابيب لنقل المياه، وكان كلاهما يبدأ عند ميناء القنطرة المطل على قناة السويس ويشكل ما سماه أحد المراقبين المعاصرين «الحبل السري» الرابط بين القوات الزاحفة وبين طعامها ومياهها ومستلزماتها العسكرية⁽³⁵⁾. ولقد كان إنشاؤهما ضروريًا لأن التضاريس الصحراوية الرملية الناعمة كاد يستحيل معها استخدام النقل بالسيارات، وأما المياه التي كانت تجود بها الكثير من الآبار فكان معروفًا أنها آسنة غير صالحة للاستهلاك الآدمي.

وفي 9 مارس، أقرت وزارة الحربية في لندن إنشاء السكة الحديدية الممتدة من القنطرة إلى قاطية الواقعة على بعد 28 ميلًا شرق القناة، وهي التي تكمن قيمتها الاستراتيجية فيما بها من عيون كثيرة، وكذلك في رمانة التي تبعد عنها 5 أميال. ولقد كانت قاطية ورمانة تحتويان فيما بينهما على آخر إمدادات مياه متاحة قبل

العريش التي تبعد عنهما نحو 60 ميلاً في اتجاه الشرق. وبالإضافة إلى كونهما منطلقين حيويين لقوة التجريدة المصرية في أثناء زحفها، حرم احتلالهما العدو من مخزونات المياه التي ستكون ضرورية لاستدامة أي هجوم على القناة. وقد قاد كريس فون كرسنشتاين قوة عثمانية ثانية مغيرة مؤلفة من نحو 4 آلاف رجل عبر شبه جزيرة سيناء لشن هجوم مباغت على اللواء الخامس الراكب في قاطية في 23 أبريل. وكما حدث مع محاولة شن غارة على القناة في اليوم نفسه، ومع الهجوم الاقتحامي الذي سبق ذلك في فبراير 1915، صُد هذا الهجوم وإن بثمان فادح من الخسائر البشرية بين البريطانيين وبعد تفهقهم في أول الأمر عن مواقعهم. وكان هذا الهجوم بمثابة إشعار آخر بالحاجة إلى تأمين عمق استراتيجي في سيناء. وقد وصلت السكة الحديدية البريطانية إلى رمانة في 19 مايو، ومكنت الفرقة 52 من الزحف والاحتفاظ بالموقع وما يحتوي عليه من آبار⁽³⁶⁾.

وجاء آخر تهديد عثماني لمصر وقناة السويس في 4 أغسطس 1916 عندما قامت قوة تجريدة ألمانية عثمانية مشتركة مؤلفة من الفرقة 3 مشاة (الأناضولية) وسرايا رشاشات وكثائب هاون خنادق من مجموعة «الباشا 1» الألمانية بمهاجمة القوات البريطانية وقوات أنزاك في رمانة. فانضم اللواءان الأول والثاني خيالة خفيفة الأستراليان واللواء الراكب النيوزيلندي إلى اللواء الخامس الراكب لصد المهاجمين في قيظ ذلك اليوم من أيام الصيف، فأسروا ما يزيد على 4 آلاف أسير وأوقعوا خسائر بشرية بلغت 9 آلاف رجل بقوة قوامها 18 ألف رجل. وفي 12 أغسطس، تخلى المغيرون عن موقع الترحيل الذي كانوا يحتلونه في بئر العبد وتراجعوا إلى العريش. وأُمن انتصار بريطانيا في معركة رمانة أخيراً قناة السويس من هجومات العدو. وعند النظر إلى ذلك الانتصار بأثر رجعي، نجد أنه أذن بنهاية الدفاع عن مصر وبداية انتقال حملة سيناء من المناورات الدفاعية دفاعاً عن قناة السويس إلى وضع هجومي تعرضي يهدف إلى غزو الأراضي العثمانية في فلسطين ذاتها⁽³⁷⁾.

وقد استولت القوة الشرقية التابعة لقوة التجريدة المصرية على العريش في 21

ديسمبر 1916 وواصلت زحفها لتستولي على بلدة رفح الحدودية في 9 يناير 1917. وأذن هذان الاشتباكان بنهاية العمليات العسكرية في سيناء، وقد مكن سير العمل التدريجي (وإن كان غير مطرد) في السكة الحديدية وخط أنابيب المياه عبر الصحراء الجنرال موراي من حشد قوة عسكرية كبيرة على الحدود مع فلسطين العثمانية، مما سمح لقوة التجريدة المصرية بالمضي قدمًا بأعداد كبيرة والإعداد لزحف في أرض العدو. وبحلول مارس 1917، كانت ثلاث فرق مشاة وفرقتا فرسان قد زحفتا إلى الأمام إلى مجموعة جديدة من خطوط الجبهة قبالة مدينة غزة مباشرة. وردًا على ذلك، أمرت السلطات العثمانية بالإخلاء الجماعي للسكان المدنيين في المناطق الواقعة في جنوب فلسطين، بما في ذلك سكان يافا وعددهم 50 ألفًا، لأسباب من بينها أنهم كانوا يخشون احتمال استمالتهم على أيدي القوات البريطانية الغازية⁽³⁸⁾.

وبحلول ديسمبر 1916، كانت السلطات العسكرية البريطانية مسؤولة عن تأمين إعاشة قوة قوامها 200 ألف فرد مقاتل وغير مقاتل على امتداد الحدود مع فلسطين. وكانت الكمية المطلوبة يوميًا من المياه البالغة مليونًا ومائتي ألف غالون تعكس تعقيد العملية اللوجستية التي قام عليها الزحف وحجمها، حيث اشتملت هذه العملية على وحدات من قبيل فيلق العمل المصري وفيلق هجانة النقل اللذين شكّل كلاهما طلبًا متناميًا باستمرار على أرياف مصر للحصول على القوة البشرية والموارد. ومع اتساع نطاق العمليات في عام 1917، صارت الصلة بين الجاهزية اللوجستية والنجاح (أو الإخفاق) الاستراتيجي أو العسكري لا تنفصم. غير أن هذا تطلب من المسؤولين البريطانيين التدخل بشكل أشد عدوانية بكثير من أجل التغلغل وتحويل النشاط الزراعي والاقتصادي نحو المجهود الحربي. كما كشف أيضًا عن انقسامات داخل الإدارة البريطانية في مصر بفرعائها المدني والعسكري، وهو الانقسام الذي برز إلى الوجود في عام 1916 مع خوض مكماهون في «نزاعات متكررة مريرة» مع موراي. زد على ذلك أن مكماهون نقل قدرًا كبيرًا من السيطرة إلى مستشاره المالي إدوارد سيسيل الذي كان مكروهًا من سلطان مصر ووزرائه المصريين، مما بث بذور الصراع المستقبلي على فصل السلطات بين فرعي الإدارة البريطاني والمصري⁽³⁹⁾.

الهجمات على غزة (1917)

في مارس 1917، شنت قوة التجريدة المصرية عمليات هجومية تعرضية في جنوب فلسطين. وكان الهجوم الاقتحامي على بلدة غزة العثمانية في 26 مارس بمثابة المنعطف الذي تحولت عنده الحملة التي كانت حتى ذلك الحين دفاعية هدفها حماية قناة السويس إلى هجوم ضاغط في أرض العدو. وكانت توليفة من العوامل العسكرية-اللوجستية والجغرافية السياسية الأعم تكمن وراء قرار تمديد الحملة إلى الأراضي العثمانية، حيث كان الاستيلاء على غزة وبلدة بئر سبع من شرقها سيؤمن السيطرة على مصدرَي إمدادات المياه الرئيسيين في المنطقة⁽⁴⁰⁾. وكان مناخ غزة المائل إلى الاعتدال وطبيعتها الإيكولوجية بما تشتمل عليه من عشب وحقول قمح وشعير وحدائق وبساتين سيوفران لقوة التجريدة المصرية قاعدة صيفية أنسب صحياً من السهل الساحلي المفعم بالمalaria، فضلاً عن الإمدادات الحاسمة من أطعمة وأعلاف للجنود وما بصحبته من دواب نقل. وقد وصف أحد الملازمين البريطانيين المنطقة بأنها «ريف يبعث في النفس البهجة، وهو مزروع بدرجة عالية من الإثقان» وأعرب عن «ارتياحه لمراى هذا الريف بعد أميال وأميال من الرمال الجرداء...»⁽⁴¹⁾. كما أن السيطرة على غزة وبئر سبع ستحرم العثمانيين من استخدام هاتين البلديتين لسد طرق زحف قوة التجريدة المصرية. علاوة على ذلك، فإن الاستيلاء عليهما سيوفر غطاءاً لتمديد السكة الحديدية العسكرية إلى داخل فلسطين ذاتها⁽⁴²⁾.

ولقد تفاعلت هذه العوامل المحلية مع الاعتبارات الجغرافية السياسية على المستوى الكلي والاعتبارات الدولية في تشكيل السياسات العسكرية البريطانية. فخلال الأشهر الأولى من عام 1917، كان رئيس الوزراء الجديد ديفيد لويد جورج ضالماً في صراع مرير مع الجنرال وليم روبرتسون، رئيس الأركان العامة الإمبراطورية. وكان هذا النزاع المدني-العسكري يخص اتجاه العمليات العسكرية ومسألة ما إذا كان ينبغي نشر القوة العسكرية في المقام الأول على الجبهة الغربية أم في أماكن أخرى. وتجدد الإشارة إلى أن لويد جورج قد خلف هربرت أسكويث على منصب رئيس

الوزراء في ديسمبر 1915، إلى حد كبير بفضل دعمه مجهودًا حربيًا أكثر عدوانية، لكنه كان أيضًا من منتقدي الخسائر المتصاعدة في فرنسا والإقليم الفلامندي، وسعى إلى اتباع نهج جديد اعتمد على إصراره على اتخاذ نظرة أبعد مدى للحرب تحافظ على القوة البشرية البريطانية التي كان يشعر أنها تتعرض للتبديد في سلسلة من المعارك الاستنزافية على الجبهة الغربية. وقد اقترح بحث مبدع أجراه بروك ميلمان أيضًا أن الهجمات التعرضية التي شُنت في فلسطين وأماكن أخرى في الشرق الأوسط ربما كان هدفها تعزيز مكانة بريطانيا العالمية في حالة إبرام أي سلام بالتفاوض أو بالتراضي مع ألمانيا⁽⁴³⁾.

وعلى أية حال، كان اجتياح جنوب فلسطين جزءًا من استراتيجية دولية أعم لممارسة ضغط مجّمع على دول المركز على كل الجبهات، وهو ما جرى الاتفاق عليه في المؤتمر الإنجليزي الفرنسي الذي عُقد في كاليه في 26 فبراير 1917، وهذه مناسبة معروفة بمحاولة لويد جورج تهميش وتجاوز روبرتسون والجنرال السير دوغلاس هايغ بإنشاء هيكل عسكري موحد تحت قيادة القائد الفرنسي روبرت نيفيل⁽⁴⁴⁾. وعلى الرغم من هذا الجدل (تهديد روبرتسون بالاستقالة)، كان مجلس وزراء الحرب في لندن تعتقد أن فتح فلسطين سيساعد على إحياء الاستراتيجية البريطانية في الشرق. وكان هذا مهمًا بوجه خاص في أعقاب ما ذاقه البريطانيون من إهانة وهزيمة عسكرية في كوت العمارة في بلاد الرافدين في أبريل 1916، وهما اللتان كان المسؤولون يخشون أنهما وجهتا ضربة مؤذية لهيبة بريطانيا وهالة القوة المحيطة بها. كما كانوا يأملون أيضًا أن يستنهض النجاح في شن الحملة الثورة العربية في الحجاز، ويخفف ضغط القوات العثمانية عن القوات الروسية في أرمينيا والقوات البريطانية في بلاد الرافدين، ويساعد بوجه عام في طرد العدو من الشرق الأوسط⁽⁴⁵⁾.

وفي 26 مارس 1917، قامت قوة التجريدة المصرية بالمحاولة الأولى مما سيصير في النهاية ثلاث محاولات للاستيلاء على غزة. وفي البداية نجح الهجوم الاقتحامي،

إذ سرعان ما طوّقت وحدات الفرسان البلدة، على الرغم من أن خطط استخدام قذائف مدفعية مملوءة بالغاز السام لم تتحقق. وقد حدث هذا جزئيًا بسبب تقدير بريطاني خاطئ مفاده أن العثمانيين سيتراجعون إلى خط ممتد من القدس إلى يافا ولن يتشبثوا بموقعهم في غزة، ومن ثم فلم يكن موراي مستعدًا لأن «يكشف عن أسلحة المفاجأة التي في حوزته قبل الأوان»، وأثر بدلاً من ذلك أن يحتفظ ب ذخائره الكيميائية لاستعمالها في اشتباك مستقبلي⁽⁴⁶⁾. ولكن كان لهذا القرار، فضلًا عن التفاؤل المبكر، تأثير عكسي شديد حيث أسفرت توليفة من سوء أداء أركان حرب القوة وسوء الاتصال عن صدور أمر قبل الأوان بسحب وحدات الفرسان إذخشي ضباط الأركان خطأ احتمال نفاد ما لديهم من مياه قبل حلول الليل⁽⁴⁷⁾. وقد ألمح التاريخ الأسترالي الرسمي لحملة سيناء وفلسطين إلى عقم هذه المعركة حيث إنها «أثرت على الجنود على كلا الجانبين على نحو غير متكافئ بالمرّة مع الخسائر البشرية التي تكبدها الجانبان...»⁽⁴⁸⁾.

وعلى الرغم من هذا، أرسل موراي إلى لندن وصفًا للمعركة ممعّنًا في التضليل والتفاؤل، وقد تناولتها التغطيات الصحفية للأعمال العسكرية بصفتها نجاحًا. وردًا على ذلك، طلب مجلس وزراء الحرب من مواري مواصلة الزحف في أرض العدو في فلسطين⁽⁴⁹⁾. واستلزم هذا محاولة ثانية للاستيلاء على غزة في 17-19 أبريل تضمنت في النهاية أول استخدام للغاز السام في أي مسرح حرب شرق أوسطي. وسعت العملية التي اشتملت على مرحلتين إلى الهجوم على الدفاعات العثمانية الرئيسة على امتداد خط طوله 4 كيلومترات، وفي الوقت نفسه تثبيت تعزيزات العدو في جهة الشرق في أماكنها ومنعها من التحرك⁽⁵⁰⁾. ومع ذلك فقد صُد هذا الهجوم على أيدي حامية عثمانية معززة لديها سابق إنذار تفوق 20 ألف رجل في العدد، وهكذا لم يحرز أي تقدم مقابل الخسائر البشرية الباهظة التي تُكبّدت⁽⁵¹⁾. وقد تركت هذه الانتكاسة الثانية قوة التجريدة المتوسطة هابطة الروح المعنوية منهزمة، وسرعان ما نُحي موراي وقائد القوة الشرقية الجنرال تشارلز دوبل عن منصبيهما.

وخلف موراي في منصبه الجنرال السير إدموند ألنبي في 1 يونيو. وكان قد سبق لألنبي قيادة الجيش الثالث البريطاني في الجبهة الغربية في أثناء الهجمات التعرضية التي شُنت في ربيع 1917، لكنه دفع ثمن الإخفاق في استغلال اختراق تحقق في معركة أراس في أبريل. كما أنه كان مختلفًا مع هايغ في التكتيكات في إطار صدام شخصيات بين رجلين صموثيين وجدا نفسيهما ذات مرة بمفردهما داخل إحدى غرف مقر القيادة العامة فلم يقدرا على التفوه بكلمة واحدة لأحدهما الآخر⁽⁵²⁾. وبالتالي كان نقله إلى الشرق الأوسط يمثل زجرًا بقدر ما كان يمثل له فرصة كي يعيد صياغة سمعته العسكرية، وقد وصل إلى فلسطين في حالة من اليأس تخيم عليه سحابة من الريبة، على الرغم من أنه كان ذا معرفة وثيقة بالكتاب المقدس (واللغة اليونانية) وجغرافية الأرض المقدسة⁽⁵³⁾. وعلى الصعيد العملي، استفاد ألنبي من آخر قرار لموراي وهو في موقع المسؤولية، وكان يتمثل في اتخاذ تدابير متأخرة لدمج شبكته اللوجستية في رؤية استراتيجية صاعدة، وبالتالي يكون بمقدوره دعم زيادة كبيرة في قوة التجريدة المصرية في مواجهة غزة⁽⁵⁴⁾. وخلال صيف وخريف 1917، مكّن الاستقرار الذي تمخض عنه جمود خط الجبهة في غزة أيضًا قادة قوة التجريدة المصرية من تكوين صورة دقيقة لنوايا العدو الاستراتيجية وقدرات قواته في فترة التحضير لاستئناف العمليات الهجومية⁽⁵⁵⁾. كما حظي ألنبي أيضًا بالدعم السياسي الكامل من جانب رئيس الوزراء ديفيد لويد جورج الذي كلفه بمهمة تحقيق نجاح يرفع الهمم والروح المعنوية ويثبت الحياة من جديد في الجمهور البريطاني الذي أضنته الحرب يومًا بعد يوم.

وفي يوليو، أقر مجلس وزراء الحرب في لندن ازدواجية خط السكك الحديدية الممتد من القنطرة إلى خط الجبهة. وفي تلك الأثناء، رسم الضابط القائد الجديد للقوة الشرقية، وهو الفريق فيليب تشيتوود، ورئيس أركانه العميد غاي دوناي خطة جديدة لتطويق موارد المياه في بئر سبع والاستيلاء عليها، قبل أن يعودوا أدراجهم إلى غزة ويتعاملوا مع الدفاعات العثمانية⁽⁵⁶⁾. وكانت خطتهما تهدف إلى الحلحلة الجمود الذي سيطر على ميدان المعركة وتعتمد على إعادة تنظيم شاملة للسكك

الحديدية الجانبية ومستودعات الإمدادات الاحتياطية على مدى شهور الصيف. وقد مكن هذا التحضير المنهجي الجنرال أنبىمن تجميع فرقتي مشاة (العشرون والحادية والعشرون) وفيلق واحد راكب (الفيلق الصحراوي الراكب) بمجموع عشر فرق إجمالاً. ولقد واجهت تلك القوات الجيش الثامن العثماني الذي شكّل حديثاً تحت قيادة كريس فون كرسنشتاين، والذي كان يتألف من تسع فرق مشاة وفرقة واحدة فرسان. وعلى الرغم من أن العثمانيين كانوا قد قووا خطوط دفاعاتهم بدرجة أكبر في غزة منذ الربيع، فإن قدرتهم العملياتية ضعفت بفعل ارتفاع معدل تهرب الجنود من مواقعهم والنقص في وسائل النقل والذخائر والمواد الغذائية وانصباب محور التركيز الاستراتيجي الإقليمي على بلاد الرافدين لا على فلسطين⁽⁵⁷⁾.

ولقد دارت رحى معركة غزة الثالثة بين 31 أكتوبر و7 نوفمبر 1917، فبدأت بالاستيلاء على بئر سبع وما بها من إمدادات مياه على أيدي الفيلق العشرين والفيلق الصحراوي الراكب في 31 أكتوبر. وأطلقت الفرقة الثانية والخمسون قذائف الغاز على غزة لكن تبين عدم جدواها بوجه عام. وعزي ذلك في حينه إلى حقيقة أن «نسيم البحر في غزة صعب استخدام الغاز حيث كان الهواء صافياً متطايراً بدرجة أكبر مما يسمح بأن يكون الغاز شديد الفعالية، ولم يكن لدينا قط ما يكفي من غاز لإطلاق غلالة جيدة من قذائف المدفعية المملوءة به»⁽⁵⁸⁾. وبدلاً من ذلك اشتهرت معركة غزة الثالثة بالهجوم المفاجئ الشهير الذي شنته اللواء الرابع خيالة خفيف الأسترالي الذي اجتاح الخنادق العثمانية وأسفر عن الاستيلاء (الحيوي) على 15 بئراً من أصل 17 بئراً دون أن يمسه أذى. وقد وصف الضابط قائد الوحدة، وهو المقدم موراييوشر، في تقريره العسكري الذي أرسله إلى مقر القيادة كيف أن «روح العدو المعنوية اهتزت بشدة بعد أن وثب خيالنا على مواقعه وبالتالي تسببوا في فقدان رماة البنادق ورماة المدافع الرشاشة لدى العدو السيطرة على الانضباط في تنفيذ أوامر الرماية»⁽⁵⁹⁾. وفي ظل أمان جانب العثمانيين الأيسر، هاجم الفيلق الحادي والعشرون غزة في 2 نوفمبر، ونجح في اختراق الخطوط العثمانية في 7 نوفمبر⁽⁶⁰⁾. وكان مدى إعادة التنظيم اللوجستية التي نفذت منذ معركتي غزة الأولى

والثانية كبيراً جداً لدرجة أن المعركة الثالثة استُهلّت بأكبر قصف مدفعي خارج الحدود الأوروبية في الحرب كلها. وكان تكثيف رماية المدفعية يضاهاى ما شهده يوم 1 يوليو في معركة السوم، وهي شهادة على نجاح عملية الصيانة التحضيرية الدؤوبة التي خضعت لها شبكات الإمداد والنقل⁽⁶¹⁾.

ومع تقدم الفيلق العشرين بعد ذلك صوب الشمال، واجه عندئذ مقاومة عثمانية شديدة في تلال يهودا. فقد أجبر الاختراق الذي حدث في غزة وبئر سبع رئيس الأركان العامة الألمانية السابق (وفي عام 1917 قائد عموم القوات العثمانية في فلسطين) الجنرال إريش فون فالكنهاين على سحب الجيشين السابع والثامن إلى القدس. وقد دخل الجيش السابع على وجه الخصوص في اشتباك حرس مؤخرة قوي أوقف تقدم قوة التجريدة المصرية وتطلب قتالاً شديداً للعنف للتغلب عليه⁽⁶²⁾. ووقعت ثلاثة اشتباكات كبرى عند قمة جبل المغار (13 نوفمبر) وتلال النبي صموئيل (17 - 24 نوفمبر) بالإضافة إلى سلسلة من الهجمات العثمانية المضادة التي بدأت في 27 نوفمبر. وعلى الرغم من هذه الهجمات، وأيضاً على الرغم من الصعوبات النامية في الإمداد والنقل في ظل ترك القوات الإمبراطورية البريطانية نهايات خطوطها الحديدية خلفها وسيرها في التلال الباردة المكشوفة، استسلمت القدس في 9 ديسمبر 1917. فبدأت القوات المدافعة عنها انسحاباً غير منظم حيث كانت معظم وحدات الجيش العثماني في المنطقة في حالة رثّة تعاني من نقص مزمن في المؤن والتعزيزات وتقع تحت ضغط متواصل من قوة التجريدة المصرية، وفي حالة معنوية شديدة التدني. وبعد ذلك بيومين دخل النبي المدينة رسمياً عبر باب الخليل سيراً على الأقدام محاطاً بمسؤولين مدنيين وعسكريين من ضمنهم تي. إي. لورنس وفرنسوا جورج بيكو، فضلاً عن ممثلين من القوتين العسكريتين الإيطالية والفرنسية الصغيرتين الملحقتين بقوة التجريدة المصرية⁽⁶³⁾.

وفي 27 ديسمبر حاول هجوم عثماني مضاد استعادة المدينة، فأخفق في تحقيق هذا الهدف لكنه كبّد قوة التجريدة المصرية خسائر في الأرواح تزيد عن 1300

رجل، وتواصلت عمليات صغيرة من حول المدينة حتى فبراير 1918. كما دفعت الانتكاستان اللتان تعرض لهما العثمانيون في غزة وبئر سبع أيضًا القيادة العليا العثمانية إلى أن تحوّل إلى فلسطين مجموعة جيوش «الصاعقة» تحت قيادة الجنرال الألماني إريش فون فالكنهاين (وفيما بعد تحت قيادة ليمان فون ساندروز ابتداء من فبراير 1918) التي أريد لها أن تشكّل نواة هجوم عثماني مضاد في بلاد الرافدين في عام 1917. وكانت هذه المجموعة التي تعرضت لاستنزاف شديد لقوتها تتألف من ثلاث كتائب مشاة ألمانية وتسع فرق عثمانية موعودة، لكن هذه الفرق أخفقت في الوصول قبل سقوط القدس، وأخيرًا وصلت بين كر وفر وكانت موهنة بشدة حتى أن أحد المؤرخين المحدثين لحملة فلسطين، وهو المؤرخ ماثيو هيوز، وصفها بأنها «تشكيل من ورق» هو «مجرد اسم أكثر منه حقيقة»⁽⁶⁴⁾. وعلى الرغم من ذلك فإن الوحدات العثمانية أوقفت انسحابها وتخذلت في خط ممتد من الساحل شمال يافا مرورًا بتلال يهودا وصولًا إلى نهر الأردن. وتوقفت العمليات العسكرية الكبيرة في فلسطين آنذاك حيث كاد الألمان يخترقون صفوف الجيشين الثالث والخامس البريطانيين في فرنسا في هجومهم الربيعي الكبير في 21 مارس 1918. وفي غمرة الاندفاع لتعزيز الجبهة الغربية، حوّل ألنبي اثنتين من فرقته البريطانية الثلاث إلى فرنسا، واضطر إلى إعادة تنظيم قوته مستخدمًا وحدات شكّلت على عجل في الهند. ولم يُستأنف الزحف إلا في سبتمبر 1918، مع تحول الزخم العام تحولًا حاسمًا في اتجاه الحلفاء، وكانت النتائج مدمرة⁽⁶⁵⁾.

ولقد مثل الاستيلاء على القدس في ديسمبر 1917 انتصارًا سياسيًا أكثر بكثير منه انتصارًا عسكريًا أو استراتيجيًا. فقد جاء هذا الانتصار في نهاية فترة عصيبة للغاية بالنسبة لدول الوفاق وحلفائهم، وذلك بعد سنة شكّلت فيها الثورات الروسية والتمردات الفرنسية تهديدًا وجوديًا بمعنى الكلمة، وبدأ أن الجمود العسكري الدموي في إيبروباشنديلينهاك الروح المعنوية للشعب البريطاني بقدر ما ينهك قوة تشكيلات العدو. وتحقيقًا لرغبة جورج لويد جورج في لفتة مبهرة بتقديم القدس ك«هدية للأمة البريطانية بمناسبة عيد الميلاد»، احتُفي بالاستيلاء على المدينة بدق أجراس

الكنايس في عموم بريطانيا، بالإضافة إلى نشر رسم كاريكاتوري إبداعي في مجلة «بنتش» Punch الهزلية البريطانية بعنوان «الحملة الصليبية الأخيرة» ظهر فيه ريتشارد قلب الأسد وهو ينظر من على المدينة ويقول: «لقد تحقق حلمي»!⁽⁶⁶⁾. ومع ذلك فهو لم يفعل شيئاً لتقرير محصلة الحرب العظمى أو حتى التوازن المحدود في الحملة ضد الدولة العثمانية. ومن ثم كان تقييم الألمان لسقوطها أكثر براغماتية وتبصراً نوعاً ما حيث قالوا: «هذا بلا ريب نجاح للإنجليز، وإن كان نجاحاً معنوياً أكثر منه عسكرياً... فمن يفتح المدينة يكتسب بالطبع هالة تكسوه»⁽⁶⁷⁾.

فلسطين: الغزو والاحتلال

تطلب تمديد الحملة العسكرية إلى فلسطين من قوة التجريدة المصرية تولى المسؤولية عن أرض خربها أثر الحرب الاقتصادي. فقد كانت ولايات سوريا ولبنان وفلسطين العثمانية تعاني من صعوبة وخلل اقتصادي لا يمكن تصورهما في أثناء سنوات الحرب. كما تضررت تلك الولايات بوجه خاص من مجاعة شديدة بدأت في عام 1914 واستمرت حتى عام 1916، وعُزيت جزئياً إلى مواسم متعاقبة من تدهور المحاصيل ووباء الجراد الذي حلّ بأرض فلسطين فيما بين مارس وأكتوبر 1915، والطلب العثماني الشديد على القوة البشرية والحيوانية المحلية، وإغلاق طرق التجارة الذي حدث نتيجة تقسيم المنطقة إلى مناطق نفوذ وسيطرة متحاربة. فقد أتت أسراب الجراد على كل شيء أخضر في مناطق عديدة في سوريا وفلسطين وأفنت غالبية الإمدادات الغذائية المحلية، في حين أثرت رياح حارة متواصلة هبت في يونيو 1916 تأثيراً سيئاً على حاصلات القمح في منطقة إنتاج الجبوب المحيطة بحلب في سوريا. وتقلّصت إمدادات المواد الغذائية أكثر بفعل تعطيل التجارة، وعدم كفاية وسائل النقل لحمل المحاصيل إلى الأسواق، والافتقار إلى أي تنظيم لتنسيق إمداد الأغذية واستهلاكها⁽⁶⁸⁾. وبالتزامن مع ذلك، جُنّد آلاف الشباب للمشاركة في الآلة العسكرية العثمانية وألوية العمل في الوقت الذي أدت فيه مصادرة الأيدي العاملة ودواب الجرّ والمواشي والحاصلات الزراعية إلى تحويل وجهة ما كان متاحاً

من موارد شحيحة للاستخدام العسكري. وقد فرضت هذه التدابير وطأة شديدة جدًا على السكان المدنيين في سوريا ولبنان حيث بدأت مشكلات نقص الغذاء في المدن والبلدات قبل أن تنتشر بسرعة إلى المناطق الريفية، فمات بسبب المجاعة ما يقارب نصف مليون شخص⁽⁶⁹⁾.

ولقد عظم أثر هذه السياسات الاستخراجية بفعل التدابير العثمانية القهرية التي قيّدت تدفق الإمدادات إلى بلاد الشام خشية وقوعها في أيدي العدو. وفي عام 1915، عُيّن جمال باشا حاكمًا عسكريًا على سوريا بصلاحيات عسكرية ومدنية خاصة وواسعة. وكان جمال باشا، بالإضافة إلى قيادته الجيش الرابع العثماني، عضوًا في دكتاتورية اتحاد «تركيا الفتاة» الثلاثية بصفته وزير البحرية بالإضافة إلى وزير الحربية أنور باشا ووزير الداخلية طلعت باشا. ولعل إرساله إلى سوريا كان يعكس ارتباط الدكتاتورية الثلاثية في ولاء السكان العرب السياسي للدولة العثمانية وخصوصًا في المراكز الحضرية النابضة بالحياة التي ترعرعت بين أحضانها الجمعيات الثقافية والقومية الوليدة السرية قبل عام 1914. وكان هذا المناخ من الارتباط المتبادل إلى حد ما انعكاسًا للنفور المتنامي لدى الرأي العام والأعيان في سوريا منتبهيًا لحكومة جمعية الاتحاد والترقي في الآستانة توجّهًا قوميًا يغلب عليه الطابع التركي⁽⁷⁰⁾. علاوة على ذلك، صارت الطوائف المسيحية في المنطقة، ولا سيما في لبنان، مثار ريبة على خلفية صلاتها بالمصالح الفرنسية والنفوذ الفرنسي. ولا شك أن وضع المنطقة تحت الإشراف المباشر لشخصية قوية متنفذة مثل جمال باشا كان ينم عن نية الآستانة وضعها تحت المراقبة الدقيقة. وخلال السنوات الثلاثة التالية، اكتسب جمال باشا عن استحقاق لقب «السفاح» بفضل القمع الذي أخضع له المعارضين السياسيين، ولا سيما القوميين العرب.

وسرعان ما تلا وصول جمال باشا إلى سوريا في أوائل عام 1915 حدثٌ تمخّض عنه انقسامات بين مركز الدولة العثمانية التركي ومحيطها العربي، حيث ضُبطت وثائق سرية في القنصليتين الفرنسيّتين في بيروت ودمشق تحتوي على تفاصيل

دقيقة تخص أنشطة شبكة من القوميين العرب الذين يمارسون أنشطة هدامة في كلتا المدينتين. فألقي القبض على عدد من كبار الأعيان العرب ووُجهت إليهم تهمة الخيانة استنادًا إلى تلك الوثائق، وأصدرت محاكم عسكرية عليهم أحكامًا بالإعدام، فشنق أحد عشر شخصًا على الملأ حتى الموت في بيروت في أغسطس 1915 تلاهم واحد وعشرون آخرون شنقوا في بيروت ودمشق في مايو 1916. وقد صدمت هذه الإعدامات المجتمع العربي حيث كان من بين المشنوقين عضوبمجلسالأعيان (الشيخ) وثلاثة أعضاء بمجلسالمبعوثان (النواب) وأبناء العديد من كبرى العائلات في سوريا وأشخاص آخرون على صلة بنشاط حزب اللامركزية الإدارية العثماني. وقد وصف أحد المؤرخين البارزين، وهو وليم كليفلاند، كيف أن إعدامهم الذي حدث قبيل قيام الثورة العربية مباشرة «منح الضحايا هالة الشهادة... وصار يرتبط في أذهان الناس بقضية العروبة»⁽⁷¹⁾.

ولقد تقاطع إرث جمال باشا بما اشتمل عليه من سياسات قمعية متزايدة القسوة مع التعبئة العثمانية الأشد عمقًا وتغلغلًا للموارد البشرية والزراعية إبان الحرب، وازداد الوضع تفاقمًا بفعل تأثير الحصار الذي ضربه الحلفاء على الموانئ البحرية في فلسطين وسوريا، فضلًا عن الخلل الاقتصادي الناجم عن تعطيل طرق التجارة فيما بين القبائل بعضها البعض وداخل القبيلة الواحدة، وخصوصًا الطرق الممتدة إلى الموصل. ونتيجة لذلك، فإن المناطق التي انتقلت إليها قوة التجريدة المصرية في عامي 1917 و1918 كانت مبتلاة بالمجاعة والأوبئة مثل التيفوس، وهو ما فاقمه سوء التغذية والترحيلات القسرية للسكان والمستويات البالغة من المديونية الشخصية والخراب المالي. وأثرت هذه الأوضاع على سكان الحضر والريف في فلسطين وسوريا على حد سواء، ووجهت سلطات الاحتلال بالحاجة الملحة إلى إعادة إنشاء ما يشبه سلطة الدولة واتخاذ تدابير تخفيف طارئة. وكانت المستعمرة الأمريكية في القدس قد وفرت منذ عام 1915 قدرًا من التخفيف لهذه الشدائد عن كاهل السكان المحليين من خلال الأعمال الخيرية وافتتاح دور لرعاية الأيتام ومطاعم للفقراء وإدارة المستشفيات العسكرية العثمانية⁽⁷²⁾.

وفي يوليو 1917، ذكر الأمريكي وليم بيل، موظف شركة ستاندرد أويل النيويوركية الذي عاش في القدس فيما بين مارس 1915 ومايو 1917، في تقرير له أن «ثلاث سنوات من الحرب صيّرت فلسطين إلى حالة يرثى لها، حيث استنزفت القرى بفعل التجنيد العسكري وخُزبت بفعل الكوليرا والتيفوس والحمى المتكررة»، وأضاف أن الأوضاع في لبنان أسوأ حتى من هذا⁽⁷³⁾. وكان بيل قد أرسل إلى الشرق الأوسط في عام 1913 للتنقيب عن النفط وعاش في أول الأمر في الآستانة قبل أن يرتحل جنوبًا. ثم رحل عن فلسطين في عام 1917 لتولي منصب عميل خاص في القاهرة لدى وزارة الخارجية الأمريكية، ليعود إليها بعدها في عام 1918 مراقبًا عسكريًا أمريكيًا بصحبة قوات النبي. وفي تلك الأثناء، وثّق اللبناني جورج حبيب أنطونيوس مؤرخ بزوغ نجم القومية العربية (والمراقب المعاصر للحملة) أيضًا روايات شهود عيان على المعاناة في سوريا ولبنان فقال: «كانت هناك مشاهد يعجز المرء عن وصفها، ومن ذلك أن أسرًا بأكملها كانت تتلوى من الوجد على الأرض العارية داخل أكواخها البائسة، وكانت آهاتها تسمع من على مسافة ميل. وكانت هذه الأسر قد باعت كل مالهها من أمتعة المنزل لشراء الخبز...»⁽⁷⁴⁾.

ولقد أكد مسؤولون بريطانيون هذه الروايات التي تتحدث عن الحرمان والصعاب التي كابدهما سكان المنطقة المدنيون، حيث نوّه السير مارك سايكس في يونيو 1916 إلى أن «شعب لبنان يتعرض الآن للإبادة الممنهجة بالتجويع»⁽⁷⁵⁾. وفي أعقاب الاستيلاء على القدس في ديسمبر 1917، نوّه حاكمها العسكري الجديد السير رونالد ستورز إلى أن «المشكلة الأكثر إلحاحًا بالطبع هي الغذاء» حيث إن «الكابوس الذي يقلقني أشد القلق ويقض مضجعي كان شح الغذاء الذي يصل إلى حد المجاعة». وعكس هذا حقيقة أن الاستيلاء على المدينة حقق «بهاء ومجدًا قلما تمخضت عنه الحرب العظمى، لكن... القليل مما سوى ذلك». وقد عزا ستورز هذا إلى حقيقة أن القدس كانت تعيش على مؤن لا تكاد تسد الرمق منذ ثلاث سنوات، حيث انقطعت عنها إمداداتها التي كانت تصلها فيما قبل الحرب من حبوب تأتيها من أوديسا وأيضًا -قريبًا من الديار- من المناطق المنتجة للحبوب على الجهة الأخرى من نهر

الأردن⁽⁷⁶⁾. وكان ارتفاع معدلات انتشار الأمراض في المناطق التي خضعت للحكم البريطاني في أثناء عام 1917 مشكلة أخرى. كما كان تفشي مرض التيفوس في ربيع 1916 قد أودى بحياة آلاف الأشخاص في عموم جنوب فلسطين. وفي الوقت نفسه، وجدت دراسة بريطانية أجريت بعد الاستيلاء على القدس بزمان قصير أن 27.3 في المائة من تلاميذ مدارسها لديهم طفيليات ملاريا في دمائهم. وكانت الملاريا صورة شديد الخبائة ينشرها نوع خاص من البعوض (الأنوفيليس الملتشعب) يزدهر في كثير من الخزانات التي تحتوي على مياه الأمطار في المدينة⁽⁷⁷⁾.

الجمود والحل في 1918

في هذا السياق الاجتماعي الاقتصادي البائس بدأت سلطات الاحتلال البريطاني تنشئ هيكل إدارة محلية في المناطق الواقعة تحت سيطرتها في فلسطين. وكما سبق وفضلنا، فإن العمليات العسكرية واسعة النطاق توقفت بعد الاستيلاء على القدس في ديسمبر 1917، باستثناء مبادرات صغيرة نسبيًا لتعزيز وتقوية خط دفاع قوة التجريدة المصرية. واشتملت هذه المبادرات على الاستيلاء على مستوطنة أريحا القديمة في منتصف فبراير وتمديد للخط في أوائل مارس ليصير أكثر عمقًا. وكان الاستثناء الرئيس من هذا النشاط الموضوعي غارتان فاشلتان على الضفة الشرقية من نهر الأردن نحو عمان في مارس ومايو 1918، وكانتا تهدفان إلى دعم الجيش العربي الشمالي بقيادة الأمير فيصل بن الحسين في أثناء تنفيذه عملياته الهجومية من الأجانب بأسلوب حرب العصابات في الحجاز. وقد وقع الهجوم الأول فيما بين 21 و30 مارس لكنه صُد على أيدي القوات العثمانية والألمانية التي دافعت بنجاح عن مدينة عمان. وبدأ هذا الهجوم بالتزامن مع الهجوم الألماني الكبير على الجبهة الغربية، وأفضى في النهاية إلى إعادة تنظيم شاملة لقوة التجريدة المصرية لكنه لم يحل دون القيام بهجوم ثان (أكثر طموحًا) على منطقة شرق نهر الأردن بين 30 أبريل و4 مايو. ومن جديد أخفق هذا الهجوم في زحزة الجنود العثمانيين والألمان عن مواضعهم، كما أدى هجومهم المضاد على مدينة السلط إلى انسحاب

الفيلق الصحراوي الراكب من وادي نهر الأردن⁽⁷⁸⁾.

وقصرت قوة التجريدة المصرية أنشطتها خلال الصيف على الغارات الصغيرة الرامية إلى تحسين مواقعها على مستوى شديد المحلية. وناهيك عن عدم استحسان القيام بعمليات كبيرة في قيظ الصيف، كان النبي بحاجة إلى إعادة تنظيم قوته بعد خسارته معظم كتائبه البريطانية لصالح الجبهة في فرنسا. وقد تمخض هذا عن صعوبات لوجستية حيث احتاجت الكتائب البديلة الآتية من الهند إلى نقلها إلى مصر وتجهيزها وتدريبها قبل أن ترسل إلى الجبهة في فلسطين⁽⁷⁹⁾. علاوة على ذلك، فإن محور تركيز الحرب الأوسع كان يميل بشدة إلى الوضع على الجبهة الغربية في أوروبا حيث إن الجيوش البريطانية والفرنسية كانت تقاتل في البداية من أجل البقاء بعد الهجمات الربيعية الألمانية ثم بدأت تحوّل دفة الأمور بالنصر الذي حققته في معركة أميان في 8 أغسطس. وبعدها فقط، ومع تتابع سلسلة الانتصارات العسكرية في «المائة يوم» بثبات، تمكن الحلفاء من تعطيم المقاومة المتداعية من جانب دولالمركز في جنوب أوروبا والشرق الأوسط.

فقد بدأت معركة مجدو النهائية في 19 سبتمبر 1918، وتزامنت مع الاختراق الحاسم الذي حققه الجنرال لويس فرانشيه ديسبيريه من جبهة سالونيك في معركة دوبرو بول، وبالتالي أدرك دول المركز وهي في حالة تراجع عام. واقتحمت قوة النبي في فلسطين من جانبها الخطوط العثمانية في هجوم تعرضي مشترك بين المشاة والخيالة، وقطعت أعداد كبيرة من الطائرات وسيارات النقل الطريق على الجيوش العثمانية المنسحبة ودحرتها في معركة اعتُبرت فيما بعد مثلاً نموذجياً للمعركة العميقة خفيفة الحركة⁽⁸⁰⁾. وتحول الانسحاب العثماني غير المنظم إلى هزيمة نكراء أدهشت النبي نفسه وفاقت توقعاته. ومهد تدمير الجيشين السابع والثامن العثمانيين وتقهقر الجيش الرابع العثماني عن عمان الطريق أمام قوة التجريدة المصرية للزحف شمالاً عبر سوريا ولبنان⁽⁸¹⁾. وهو ما أسفر عن الاستيلاء على دمشق في 30 سبتمبر. وقد قدم تي. إي. لورنس وصفاً حيّاً لذلك المشهد البشع الذي رآه

في إحدى المستشفيات المحلية في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» Seven Pillars of Wisdom، إذ يقول:

خطوت إلى داخل المستشفى لتزكم أنفي رائحة ننته تثير الاشمئزاز. ثم ازدادت عينايا اتساعاً لمراًى مشهد يثير الغثيان حيث كانت الأرضية الحجرية مغطاة بجثث الموتى المرصوفة جنباً إلى جنب. وكان بعضها مرتدياً الزي العسكري الكامل وبعضها الآخر مرتدياً الملابس الداخلية وبعضها الثالث عاريًا تمامًا. وربما كان عدد الجثث ثلاثين، وفيما بينها كانت تتسلل الفئران التي أحدثت فيها أشكالاً فنية حمراء بأنيابها. وبدا أن بعضها جثث حديثة الوفاة، ربما لم يمض على وفاة أصحابها إلا يوم أو يومان، وأن بعضها الآخر قد مضى عليها زمن طويل وهي ممددة على الأرض⁽⁸²⁾.

وعلى أية حال فقد وقع نحو 75 ألف جندي عثماني في الأسر في أثناء ذلك الهجوم التعرضي الذي توقف بعد الاستيلاء على حلب في 26 أكتوبر نظراً لتجاوز الفرسان وسيارات النقل خطوط إمداداتها ونهايات خطوط السكك الحديدية بمسافات كبيرة، حيث كانت الفرقة الرابعة فرسان التابعة للجنرال ألنبي- على سبيل المثال- قد تقدمت لمسافة 70 ميلاً في أقل من يوم (في 20 سبتمبر) متجاوزة بذلك خدمات الإمداد والتموين والنقل الخاصة بها بمسافة 50 ميلاً. وأما الفرقة الراكبة الأسترالية أيضاً فتقدمت بسرعة (11 ميلاً في 70 دقيقة فقط في يوم 21 سبتمبر)، وكانت لهذا التقدم ميزة غير متوقعة وهي مفاجأة العدو والاستيلاء على كمية ضخمة من المؤن مصنوعة في جنين، ومن حسن حظهم أن كان من ضمنها 120 صندوق شامبانيا ألمانية وُزعت فوراً على الجنود الأستراليين الذين سرّوا أيما سرور⁽⁸³⁾.

وقد انتهت حملة فلسطين رسمياً بهدنة مودروس الموقعة في 30 أكتوبر التي أخرجت الدولة العثمانية من الحرب. وعلى الرغم من ذلك كان لغزو فلسطين واحتلالها بقيادة بريطانيا في 1917 - 1918 مضامين إدارية وإقليمية بعيدة المدى. ففي أعقاب الاستيلاء على القدس في ديسمبر 1917، أسس ألنبي إدارة أرض العدو المحتلة في فلسطين تحت رعاية كبير المسؤولين السياسيين في قوة التجريدة

المصرية غلبرت كلايتون، مع تعيين الجنرال رونالد ستورز في منصب الحاكم العسكري للقدس. وكان لهذا التعيين الأخير وقع المفاجأة على ستورز الذي قال في مذكراته «إنني لم أكن أملك كفاءة عسكرية من أي نوع، ولا أملك من الخبرة الإدارية إلا قليلاً»⁽⁸⁴⁾. وقد عكس تعيينهما في هذين المنصبين الحاجة الملحة إلى استعادة النظام وإيجاد إطار يمكن من خلاله ممارسة السيطرة على الأرض المحتلة. وعلى الرغم من ذلك فقد تعارضت دعوة كلايتون إلى إقامة إدارة عسكرية باعتبار أن هذا هو السبيل الوحيد للحفاظ على النظام في الأراضي المحتلة حديثاً مع فحوى اتفاقية سايكس بيكو⁽⁸⁵⁾.

والواقع أن مسألة الإدارة المحلية صارت أشد إلحاحاً في المواقع العثمانية المتداعية بسرعة بعد معركة مجدو في سبتمبر 1918. ففيما تقدمت قوة التجريدة المصرية صوب الشمال عبر سوريا ولبنان، تولت المسؤولية عن منطقة عصف بها المجاعة وهي تعيش في حالة انهيار اقتصادي. وركز الفراغ الإداري الذي نشأ عن انسحاب العثمانيين في نهاية الحرب مع الدولة العثمانية الاهتمام في لندن وباريس على الأشكال المحتملة التي يمكن أن يتخذها الحكم المحلي والإقليمي في المناطق الواقعة تحت الاحتلال. وتطلب هذا أيضاً من المسؤولين التوفيق بين مختلف التصريحات والتعهدات الصادرة في أثناء الحرب ذاتها، وهو ما تبلور في «التصريح الإنجليزي الفرنسي» الصادر في 7 نوفمبر 1918 بما اشتمل عليه من وعد بأن بريطانيا وفرنسا سوف «تساعدان في إقامة حكومات وإدارات وطنية في سوريا وبلاد الرافدين»، وإن لم يتضمن -بشكل صريح- الوضع في فلسطين. وتوجهت الأفكار العسكرية بالإضافة إلى ذلك إلى إمكانيات تحقيق المخططات التوسعية الإقليمية الأكبر التي بدأت آنذاك تخرج إلى النور مع انهيار الدولة العثمانية⁽⁸⁶⁾.

وسوف نأتي على هذه المسائل في الباب الثالث من هذا الكتاب، لكن يكفينا الآن أن ننوّه إلى أن البريطانيين أصدروا في 23 نوفمبر 1918 مرسوماً عسكرياً يقسم المنطقة رسمياً إلى ثلاث مناطق عدو محتلة؛ فشملت أرض العدو المحتلة

الجنوبية فلسطين وتقرر أن توضع تحت الاحتلال البريطاني، وفي المقابل كانت أرض العدو المحتلة الغربية تتألف من مناطق سوريا الساحلية ووُضعت تحت المسؤولية الفرنسية، فيما شملت أرض العدو المحتلة الشرقية مناطق سوريا الداخلية الممتدة من حلب إلى العقبة وأوكلت إلى إدارة عربية تحت قيادة الأمير فيصل بن الحسين (ابن شريف مكة وقائد الجيش العربي الشمالي). وأخيرًا كانت هناك أرض العدو المحتلة الشمالية التي اشتملت على البقاع الواقعة خارج هذه المناطق الثلاث (وأبرزها قيليقية) ووُضعت تحت الإدارة الفرنسية. ومن نافلة القول أن هذه القرارات تعارضت مع مختلف الاتفاقيات التي أبرمت في أثناء الحرب وبثت البذور للكثير من المرارة والشقاق المستقبليين⁽⁸⁷⁾.

وبهذه القرارات وصلت الحملة التي شُنت في مصر وفلسطين إلى نهاية رسمية وإن كانت فوضوية. غير أن الإرث الذي خلفته مشاق زمن الحرب ومضامين الاتفاقيات السياسية المبرمة فيما بين عامي 1916 و1918 صارت شبحًا يطارد أشكال السيطرة فيما بعد الدولة العثمانية، وما زالت تمثل قضايا شائكة بعد مرور قرن من الزمان، سواء من حيث أثرها الباقي على الديناميات الإقليمية أو من حيث الأمم والدول التي خرجت إلى الوجود (أو التي لم تخرج إلى الوجود كما في الحالة الكردية) بعد الحرب. علاوة على ذلك فإنها تشابكت مع آليات بناء الدولة لتؤثر على طبيعة أنماط التنظيم السياسي والتعبئة الاقتصادية والمؤسسات الاستخراجية التي تطورت لاحقًا في العقود التكوينية فيما بين الحربين العالميتين (وكذلك بعد الحرب العالمية الثانية) من بناء الدولة وإرساء دعائمها في الشرق الأوسط⁽⁸⁸⁾.

الفصل السادس

بلاد الرافدين

«إنني مسؤول عن السيطرة المطلقة والكاملة على كافة المناطق التي تعمل بها القوات البريطانية. لكن جيوشنا لا تدخل مدنكم ولا أراضيكم غازية أو معادية، بل محررة»⁽¹⁾. هذا التصريح لم يصدر عام 2003 عندما كانت القوات البريطانية تكتسح البصرة في إطار غزو العراق الذي دعا إليه جورج دبليو. بوش أيام صدام حسين، بل في 19 مارس 1917 —ومصادفة بعد مرور 86 عامًا على اليوم الذي دُشنت فيه «عملية حرية العراق» — على لسان قائد قوة تجريدة بلاد الرافدين الفريق السير فريدريك مود. وقد تنبأ إعلان بغداد الذي خطه الإمبريالي البارز السير مارك سايكس بشكل عجيب بالمشاعر نفسها التي كان يمكن أن يعرب عنها بعدها بتسعة عقود الرئيس بوش أو دونالد رامسفيلد أو طوني بليز. ولقد تبلورت الإحياءات التاريخية للصراع التالي إذ أطلقت واحدة من جماعات المقاومة العراقية الرئيسة على نفسها اسم «كتائب ثورة العشرين» تخليدًا لذكرى ردّة الفعل الوطنية التي تبعت الحرب العالمية الأولى.

وقد استمرت الحملة العسكرية في بلاد الرافدين من نوفمبر 1914 إلى نوفمبر 1918. وعلاوة على ضرب مثال للتدخل الغربي الذي تكرر ثلاث مرات (في الأعوام 1941 و1991 و2003)، فقد مهدت هذه الحملة الطريق أمام إنشاء دولة العراق الحديثة عام 1921. ولذلك مثلت التطور السياسي-التاريخي التشكيلي في التاريخ العراقي الحديث⁽²⁾. لكن هذه النتيجة لم تكن تبعة لسياسة منسجمة أو متسقة، بل إنها نبعت من «سلسلة من التبعات غير المقصودة» بحسب ما ورد في أحدث تأريخ مدون باللغة الإنجليزية لهذه الحملة⁽³⁾. إضافة إلى ذلك، كان إرث القرارات السياسية التي اتخذت خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها مباشرة محوريًا في

صياغة طبيعة الدولة العراقية التي انبثقت عن الثورة العراقية الكبرى. ولقد عكس الاستيطان السياسي والطائفي، أكثر بكثير من رسم الساسة البريطانيين لـ«خطوط في الرمال» (حسب عنوان كتاب حديث لجيمس بار)، أنماط المشاركة في زمن الحرب من قبل مجتمعات وجماعات محلية. وبتعبير آخر، كانت الوكالة المحلية ممثلة بالقدر نفسه باعتبارها هيكلًا (الأشكال الهرمية للسلطة المميزة للحقبة العثمانية) في تحديد التطورات اللاحقة.

وبالطبع تقاطعت المصالح البريطانية والعثمانية والمحلية بعدة طرق مختلفة طوال فترة الحملة العسكرية في بلاد الرافدين. وعكس ذلك التحولات التي حصلت في ميزان القوة العسكرية حيث تذبذب بين اتجاهين قبل أن يميل في نهاية المطاف باتجاه البريطانيين عام 1917. وتدرجيًا اكتسبت الحملة العسكرية «جانبًا مزدوجًا» مربكًا حيث اشتبك المسؤولون البريطانيون المدنيون والعسكريون مع بعضهم بعضًا بسبب الأهداف العملية ومستويات بناء المؤسسات في منطقة الاحتلال التابعة لهم. واكتسبت خطوط السياسة البريطانية المتشعبة زخمًا بينما دارت رحى الحرب. وبلغت ذروتها في نوفمبر عام 1918 بالتزامن مع التقدم المتسرع للاستيلاء على مدينة الموصل بعد عشرة أيام من إنهاء هدنة مودروس للحرب مع الدولة العثمانية. وجاء إخضاع المدينة بعد النهاية الوشيكة للأعمال العدائية بقيادة القائم بأعمال المفوض المدني البريطاني في بغداد أرنولد ولسون للبحث على بذل قصارى الجهود من أجل «تحقيق أكبر مكاسب ممكنة عند نهر دجلة قبل ضياع الفرصة»⁽⁵⁾.

ولقد أبان مسار الحرب العالمية الأولى في بلاد الرافدين بوضوح شديد التفاعل ما بين المتطلبات العسكرية والمدنية للنظام الإداري واستخراج الموارد كما سلف وصفه في الفصل الثاني. وبينت الحملة أيضًا كيف شكلت العمليات العسكرية طبيعة التوغل الكولونيالي وعمقه في المجتمع، والصراع الميرر ما بين المفاهيم البريطانية والبريطانية-الهندية للإمبراطورية والإمبريالية. فقد كان استسلام الحامية البريطانية في كوت العمارة في أبريل 1916 أكبر خزي عسكري للإمبراطورية البريطانية على الإطلاق،

حيث كشف عن انهيار السيطرة العملية بين السلطات المتشظية في لندن ودلهي وعلى أرض المعركة في البصرة. لكن المطالبات العسكرية للموارد المحلية تجاوزت تحديد مستوى تعبئة الأنماط الاجتماعية-الاقتصادية والتجارية الحالية وحسب. فقد لعبت ردود الأفعال المختلفة لهذه المطالبات دورًا محوريًا في تحديد تشكيلة بنى دولة العراق ما بعد الحرب والأشكال الهرمية للسلطة⁽⁶⁾.

أصول الحملة العسكرية وأهدافها

مثلت ولايات البصرة وبغداد والموصل الثلاثة الحد الجنوبي الشرقي للدولة العثمانية. وخلال القرن التاسع عشر، خلقت التحسينات التي طرأت على وسائل الاتصالات والبنية التحتية روابط سياسية واقتصادية وصلت ما بين الأقاليم الثلاثة وجعلتها وحدة إقليمية محدّدة تحديدًا فضفاضًا ببغداد مركز ثقلها⁽⁷⁾. ومع ذلك، فبعدها الجغرافي عن قلب الدولة العثمانية كان يعني أن الترحال منها إلى الآستانة يستغرق حوالي 14 يومًا حيث تبلغ المسافة حوالي 2400 كم بينهما. وقد أجبر ذلك الإدارة العثمانية على تحديد أولويات مهامها وأن تحصر عمليًا دورها في المهام الإدارية وتقديم الخدمات في المناطق الحضرية الكبرى وحدها⁽⁸⁾.

ورغم أن المسافة التي تفصل تلك الأقاليم عن الآستانة عَقَدَت الاتصالات الإمبريالية، فإن ولاياتبلاد الرافدين استفادت من عوامل أخرى. وتضمنت تلك العوامل مكانة الموصل بالنسبة لطرق التجارة المربحة الممتدة شرقًا وغربًا بين الشرق وبلاد فارس، والسيطرة على المواقع الشيعية المقدّسة بالنجف الأشرف وكربلاء التي اجتذبت الحجاج من شتى أرجاء العالم الإسلامي، وموقع البصرة الجغرافي عند تقاطع شط العرب مع الخليج العربي. وكانت البصرة تحديدًا ذات موقع استراتيجي بطول البرّ الرئيس وطرق التجارة المحمولة بحرًا التي تشعبت باتجاه الغرب إلى شبه الجزيرة العربية، وشرقًا باتجاه بلاد فارس، وجنوبًا باتجاه موانئ الخليج العربي والهند وشرق أفريقيا. ولقد عزز ذلك من رؤية عالمية وداخلية التوجه في المدينة. كما ساعدت تلك العمليات -إذا ما نظرنا إليها إجمالًا- على دمج ولايات بلاد الرافدين بقوة

وإحكام فأمست شبكات إقليمية و(بشكل متزايد) دولية من التجارة والتبادل⁽⁹⁾.

كذلك ازدهرت التجارة مع العالم الأوسع -وبما يخدم المصالح التجارية البريطانية- بسرعة مهولة بعد أن اكتسبت مصالح الشحن البريطانية حقوق الملاحة في نهري دجلة والفرات عام 1846 وافتتاح قناة السويس عام 1869. وبحلول عام 1914، سيطرت المصالح البريطانية أو البريطانية-الهندية التجارية على أكثر من ثلثي الواردات ونصف الصادرات التي تمرّ عبر البصرة⁽¹⁰⁾. علاوة على ذلك (كما فصلنا في الفصل الأول)، فقد كان المخطّطون الاستراتيجيون البريطانيون حسّاسين بشدة، بل وبشكل مبالغ فيه، تجاه مخاوف من توسعة ألمانيا أو روسيا لنفوذهما فيما اعتبر «جنب» الهند. وأوجزت مقالة افتتاحية في صحيفة تايمز حوالي عام 1903 تلك المخاوف إذ حذرت قائلة:

«إذا فقدنا سيطرتنا على الخليج، فلن نحكم الهند لفترة طويلة... ولحظة أن عُرف أن روسيا أو ألمانيا أو فرنسا أو أي دولة أخرى قوية أقامت مركزاً لها على مقربة من شواطئ الهند، سيتجلى أثر لا يحصى لسرعة زوال الحكم البريطاني في شتى أرجاء هندوستان⁽¹¹⁾.

ولقد تفاقمت هذه المخاوف بسبب المخاوف البريطانية الهندية من التهديد المرتقب النابع من الوحدة الإسلامية في ظل «ولاء» السكان المسلمين لها في الهند (وفي مصر). وتعمقت ذكريات المسؤولين عن ردود الأفعال القومية الوليدة في الهند عام 1857 وفي مصر عام 1882، وكذا الثورة الكبرى على الحدود الشمالية العربية للهند عام 1897. وعزز من تلك المخاوف نوعاً ما الملاهي و(في واقعة واحدة بوادي سوات) دعوة للجهاد. ولذلك كانت الحساسيات البريطانية تجاه رأي المسلمين الهنود عاملاً ضمن العوامل الأساسية في حسابات وضع السياسات في منطقة الشرق الأوسط، حيث اعتبر بعض المسؤولين أن الدولة العثمانية تستقر في قلب الوحدة الإسلامية المنبعثة من رقادها⁽¹²⁾.

وبالتالي كان المسؤولون في لندن ودلهي بحاجة إلى أن يضعوا نصب أعينهم مجموعة من الاعتبارات الأكثر شمولاً إذ عكفوا على وضع إطار لسياسة بلاد الرافدين. وتولت حكومة الهند وممثلوها في وزارة شؤون الهند في لندن مسؤولية الحملة، وكان من المقرر أن يقوم الجيش الهندي بأولى العمليات العسكرية. ومع ذلك، اختلفت الرؤية «الهندية» المستقبلية كثيرًا عن «العروبة» التي يتبناها الكثير من المسؤولين البريطانيين في وزارة الخارجية ومكتب المقيم السياسي البريطاني في القاهرة. وخلق ذلك الاختلاف أيضًا مجموعة متشعبة من الضغوط المحلية في السياستين المدنية والعسكرية. وبالطبع كان لهذا الصراع الثلاثي الأضلاع ما بين أقطاب السياسة البريطانية في الشرق الأوسط (لندن والقاهرة ودلهي) تبعات عميقة على (سوء) التصرف اللاحق للحملة في بلاد الرافدين. فقد أدت الآراء المتضاربة إلى فجوات قاتلة في السياسة أسهمت في الارتباك بشأن أهدافها الكلية⁽¹³⁾.

موطئ قدم في البصرة

رغم أن القوات البريطانية والهندية أرسلت إلى الخليج العربي وحسب في أكتوبر عام 1914، فإن خطط تشكيل قوة تجريدة هندية (إلى جانب القوات التي أرسلت إلى فرنسا وشرق أفريقيا ومصر) بدأت بعد اندلاع الحرب في أوروبا مباشرة. ففي الحادي عشر من أغسطس، وصلت تقارير إلى لندن مفادها أن الجيش العثماني شرع في عمليات التعبئة في بغداد وكان بصدد الاستحواذ على الممتلكات البريطانية بالمدينة. وحققة الأمر أن الجيش العثماني بدأ عملية التعبئة العامة في 3 أغسطس، وبعدها بثلاثة أيام أعلنت السلطات في بغداد عن العمل بالأحكام العرفية «نتيجة اعتراضات عامة الشعب على الالتحاق بالخدمة العسكرية»⁽¹⁴⁾. وتمت عملية التعبئة بطريقة عشوائية حيث أرسلت فصائل منفصلة شمالاً إلى الموصل وجنوباً إلى البصرة. وذكر شاهد عيان أن «حاكم بغداد أقر بأنه ليس لديه علم بعلقة تعبئة الجنود، لكن الرأي العام في المدينة ترقب أن ثمة اضطرابات ستقع من جهة روسيا»⁽¹⁵⁾. وبحلول منتصف سبتمبر، كان الجنود العثمانيون في البصرة يعدون العدة لاتخاذ

مواقع دفاعية بطول ساحل شط العرب، وكانت ثمة محاولات محدودة (ولو أنها لم تكلل بالنجاح) لتعبئة القبائل الكبرى التي تعيش حول بغداد⁽¹⁶⁾.

ومع ذلك، أثارت الأنباء التي تسربت من بلاد الرافدين قلق السير إدموند بارو السكرتير العسكري بوزارة شؤون الهند في لندن. وكانت وزارته وحكومة الهند مسؤولتين عن مشيخات الكويت والبحرين وإمارات الساحل المتصالح الخاضعة للحماية البريطانية في الخليج العربي. فقد خشي بارو أن تشوه تصرفات العثمانيين المكانة البريطانية المرموقة بالمنطقة وتزعزع ولاء مشايخ القبائل المحلية الذين اعتمد التفوق التجاري والسياسي والاستراتيجي البريطاني على تعاونهم في منطقة الخليج. وبالتالي اقترح إرسال قوة عسكرية إلى شط العرب بالرأس الشمالي للخليج. وزعم بارو أن ذلك من شأنه رأب الصدع في المكانة البريطانية وطمانة أي حلفاء محليين متذبذبين. علاوة على ذلك، فهذا من شأنه استعراض القوة العسكرية البريطانية للمراقبين الإقليميين، وحماية منشآت شركة النفط الإنجليزية الفارسية وخط الأنابيب الواقع بمدينة عبادان على ساحل الخليج الشرقي، وكفالة الغطاء اللازم لأية تعزيزات قد تقتضيها الضرورة لاحقاً⁽¹⁷⁾. وفي تلك المرحلة، وفي تضارب صارخ مع الأهمية التي اكتسبها نفط بلاد الرافدين لاحقاً عام 1918، كانت المصالح البريطانية في المقام الأول مدفوعة بمسألة المكانة والسؤدد لا مسألة السيطرة الاستراتيجية على المناطق الغنية بالنفط.

وقد غادر اللواء 16 الهندي التابع للفرقة 6 بالجيش الهندي بومباي في 16 أكتوبر 1914 ضمن قافلة متجهة إلى مصر، ومنها إلى فرنسا، لتعزيز قوة التجريدة الهندية «أ». ومع ذلك، صدرت أوامر لذلك اللواء بالانفصال عن القافلة والانطلاق إلى مشيخة البحرين الخليجية الخاضعة للحماية البريطانية حيث وصل في 23 أكتوبر. وما أن وصل اللواء حتى واجه -على غير المتوقع- استياءً محلياً شديداً من وجوده مما اضطر 5000 رجل و1200 حيوان أن يمشوا في سفن نقل الجند المكتظة في ظروف جوية حارة قاسية⁽¹⁸⁾. وقد ظلوا ماكثين كذلك حتى الحادي والثلاثين من

أكتوبر. ومع قرب إعلان الحرب على الدولة العثمانية، أبحر اللواء 16 شمالاً باتجاه شط العرب على رأس الخليج العربي وأعد العدة لشن هجمة على شبه جزيرة الفاو جنوبى شرقى البصرة. وفي الساعة 6 صباح يوم 6 نوفمبر 1914، أطلقت البارجة أودين أولى دانات الحملة إذ قصفت القلعة العثمانية المحلية وأنزلت 600 جندي على شبه الجزيرة. وتقدم اللواء باتجاه مدينة عبّادان (في الأراضي الفارسية) في 9 نوفمبر حيث ترجل بشيء من الصعوبة نظرًا لعدم وجود مركبات نهريّة ملائمة ورياح عاتية. وبعدها بيومين تصدى اللواء لهجوم عثماني مضاد لتأكيد موطن قدمهم على شبه الجزيرة⁽¹⁹⁾.

ولقد شكل اللواء 16 (ومن بعده ما تبقى من الفرقة 6) نواة ما أمسى قوّة التجريدة الهندية «د» في بلاد الرافدين. لكن مسؤولي الجيش البريطاني في لندن ودلهي لم يقيموا لها وزنًا كافيًا حيث اعتبروها غير مناسبة للقتال في أوروبا، بل كافية للعمليات الكولونيالية وحسب. ولا شك أن ذلك كان يعكس الاعتقاد السائد بين أبرز القادة العسكريين بالجيش الهندي وداخل قوّة التجريدة الهندية «د» نفسها بأن العملية العسكرية لن ترقى لشيء يتجاوز ممارسة تقليدية ل«دبلوماسية القوة». وحقيقة الأمر أنه في عام 1916 (بإدراك متأخر) اعترف كبير ضباط النقل البحري المسؤول عن كل ترتيبات نقل المياه لقوّة التجريدة الهندية للجنة تحقيق ببلاد الرافدين أنه تخيل حملة «كان مقررًا أن تكون سريعة محددة الهدف على الشاطئ في الخليج العربي... لم يكن لديّ تصور، لم تكن لديّ فكرة من أي نوع، عن أنها ستصل إلى شط العرب»⁽²⁰⁾. وقد أسفرت هذه العقلية والفرضية العامة بأن قوة التجريدة الهندية «د» ستضطلع بعملية محدودة على الحدود عن مغادرة اللواء 16 للهند دون دعمه البري الممثل في الجمال والحمير، وكذلك دون قواربه النهريّة⁽²¹⁾.

وأدى إعلان الحرب على الدولة العثمانية إلى إرسال السلطات العسكرية في الهند لواء مشاة ثانٍ على وجه السرعة (اللواء 18) لتعزيز اللواء 16. ووصل اللواء 18 إلى مدينة عبّادان في 14 نوفمبر وعلى رأسه قائد قوّة التجريدة الهندية «د» الجنرال آرثر

باريت وكمية كبيرة من الذخيرة والمدفعية ووحدات النقل بالجمال. وبعدها بيومين، أعطى مجلس الوزراء في لندن الضوء الأخضر للسيطرة على البصرة شريطة أن يكون الموقف السياسي العربي والظروف العسكرية العامة مواتية. وقد وقع اشتباك شديد بمدينة صالح في 17 نوفمبر، وسط انهيار الأمطار التي أحالت الصحراء إلى «بحر حقيقي من الطين»، وأسفر عن مقتل حوالي 500 جندي بريطاني وهندي وإصابة ما يربو على 1000 جندي عثماني⁽²²⁾. وخفف هذا الاشتباك من الضغوط على الموارد النادرة المنقولة عبر النهر بالفعل إذ أتاح لقوة التجريدة الهندية «د» عددًا من المراكب في ميناء المحمرة، ومهد الطريق للتوغل الأخير إلى البصرة. واستحوذ على المدينة في 21 نوفمبر في مؤشر أولي على الانتصارات البريطانية في الحرب العالمية الأولى⁽²³⁾. ومما أدخل السرور على الضباط البريطانيين المشاركين في القوة «د» أن النادي الإنجليزي لم يتأثر بأعمال السلب والنهب التي وقعت إثر انسحاب العثمانيين، مما سمح لهم باحتساء «كمية كبيرة جدًا من الجعة الألمانية العتيقة»⁽²⁴⁾.

وقد أكمل احتلال البصرة الهدف المبدئي لقوة التجريدة الهندية «د». فقد كان بمثابة المفاجأة للأركان العامة العثمانية نوعًا ما حيث لم تتوقع هجومًا بريطانيًا على بلاد الرافدين. علاوة على ذلك، أقرت قيادة الأركان العامة أن القوات العثمانية البالغ عددها 17 ألف جندي في الولايات الثلاثة كانت «دون مستوى التجهيزات، ودون المستوى من حيث التدريب والانضباط، وافتقدوا إلى التنظيم المناسب للإمداد والصيانة»⁽²⁵⁾. وبعيدًا عن هذه الإخفاقات، فقد ضمن احتلال المدينة مركزًا استراتيجيًا مهمًا على رأس الخليج العربي، وضمن تأمين منشآت شركة النفط الإنجليزية الفارسية بمدينة عبادان، وولاء أكابر العرب ومشايخ القبائل الكبرى في البصرة وما حولها. إذ أذعن كل الشخصيات المحلية البارزة للاحتلال البريطاني، ورغب المجتمع التجاري بالمدينة به. وعكس إظهار الدعم هذا العلاقة الملتبسة ما بين المجتمعات المحلية والدولة العثمانية البعيدة إلى حد كبير، علاوة على مستويات التفاعل والتواصل الأكبر ما بين البريطانيين والبصرة. وقد أدى دور الوسيط في التفاعل والتواصل بين الطرفين الحلفاء المحليون الممثلون في شيوخ الكويت والمحمرة عبر علاقات تجارية

أقيمت قبل عام 1914، وبالقرب الجغرافي للبصرة من الاتحادات القبلية القوية مثل اتحاد قبائل المنتفق وبنو لام والبو محمد⁽²⁶⁾.

توسيع العمليات العسكرية المبدئية

لم يفض الاستعواذ الناجح على البصرة إلى وقف في العمليات العسكرية في بلاد الرافدين، بل توسعت الحملة العسكرية، لأسباب تتعلق بالمنزلة والوجاهة إلى حد كبير، طوال عام 1915. وأدى ذلك إلى تعرض قوة التجريدة الهندية «د» إلى الخطر بشكل مهول لوجودها في مراكز يستحيل دعمها، وتحويلها على شبكة إمداد ونقل صدعت عند أطرافها قبل أن تنهار كلياً في أوائل عام 1916. كما حدث التوسع المستمر في العمليات العسكرية على خلفية انعدام الإشراف الكافي حيث ظل منقسماً ما بين لندن ودلهي. وقد عكس ذلك وعززه تقسيم المسؤوليات قبل عام 1914 للتجهيز العسكري وجمع المعلومات ما بين وزارة الحربية في لندن وحكومة الهند⁽²⁷⁾. وكانت النتيجة عملية اتخاذ قرار متشظية أنتجت فجوات في القيادة أثرت بشدة وبشكل سلبي على تنفيذ العمليات العسكرية في بلاد الرافدين. وكشف ذلك أيضاً عن الإخفاقات المادية والمفاهيمية لحكومة الهند غير المنظمة ببساطة بحسب تصريحات نائب الملك المنتهية ولايته اللورد هاردينج عام 1916 «بما يكفل لها التكيف مع الحرب الدائرة رحاها على مستوى مهول الآن... حيث ما يجدي للحرب لسته أسابيع لن يكون ذا فائدة على الجبهة مطلقاً...»⁽²⁸⁾.

سياسة الواجهة

كان خلط محدد يشوب الطبيعة التضاريسية التي تتجاوزها أية حملة تقتحم بلاد الرافدين. ولم يتبع امتلاك الحكومة البريطانية لمصالح نفطية مهولة في الخليج العربي عام 1914 أي إيضاح فيما يتعلق بكيفية الدفاع عن تلك المصالح إذا ما دعت الضرورة. ولم يكن هناك حتى موظفين سياسيين أو ضباط مخابرات في الهند يتمتعون بمعرفة محلية بالظروف الجغرافية أو القبلية أو الاجتماعية إما في بلاد

الرافدين أو في بلاد فارس⁽²⁹⁾. وضاهى قصور مشاركة المعلومات ما بين لندن ودلهي، بعد إعلان الحرب في نوفمبر، قصور الاستشارات أو الوعي بطبيعة العملية المتوقعة في بلاد الرافدين. وعلى المستوى العملي، تجلّى ذلك أَيْما تجلّ في الإخفاقات الجسيمة في المعرفة بالأنهار التي كانت تمثّل سبل التوغل الوحيدة داخل البلد. فقد تباينت تلك الأنهار تباينًا كبيرًا عن الأنهار الهندية من حيث ضحالتها وتنوّعاتها الموسمية الشديدة. لكنّ هذه الاختلافات لم يستوعبها واضعو الخطط العسكرية البريطانيون فور أن تولّوا القيادة العملياتية للحملة العسكرية. وكانت النتيجة، باعتراف مسؤول للجنة تقضي حقائق بلاد الرافدين عام 1916، أن «سمات نهري دجلة والفرات كانت مجهولة تقريبًا سلفًا لتوغلنا فيهما» حيث لم تكن هناك خطط لأجل «إنشاء وصيانة أسطول نهري مناسب أو وافي لمتطلبات العمليات العسكرية»⁽³⁰⁾.

ولقد تضاعفت أوجه النقص بفعل الضغوط المستمرة من دلهي ومن وزارة شؤون الهند في لندن (ولو بقدر أقل) بغية توسعة نطاق العمليات العسكرية إلى ما وراء البصرة. وترتّب ذلك على الحاجة المرتقبة للحفاظ على الهيبة والمكانة العسكرية، وأوضح أيضًا إغراءات تحقيق سلسلة متتابعة من الانتصارات العسكرية «اليسيرة» التي لم تكلف قوّة التجريدة الهندية «د» الهجومية الكثير نسبيًا خلال عام 1915. وساق خليط هذه العوامل المسؤولين البريطانيين في وزارة شؤون الهند وحكومتها إلى إجازة شتّى سلسلة من الهجمات العسكرية التي كانت، بحسب زعمهم، ضروريّة لتعزيز السيطرة على البصرة والأراضي الداخلية الأوسع نطاقًا تدريجيًا. علاوة على ذلك، أُمست الغنيمة العظيمة الممثّلة في بغداد مصدرًا مغريًا للوجاهة الضرورية إذ وصل القتال في أوروبا إلى حالة من الأزمة الدموية بشكل متزايد. وفي هذا السياق، استبعد السكرتير السياسي بوزارة شؤون الهند السير آرثر هيرتزل القيود العملياتية التي تواجه قوّة التجريدة الهندية «د» زاعمًا (في 25 نوفمبر 1914؛ أي بعد احتلال البصرة بأربعة أيام) أن «الاحتلال الحتمي لبغداد أمر منشود جدًّا مما يجعله ضروريًا من الناحية العملية»⁽³¹⁾.

وحتى في هذه المرحلة المبكرة، قدّم بارو (السكرتير العسكري بوزارة شؤونالهند) أيضًا الدعم لفكرة التوغّل باتجاه بغداد، وكذلك السير بيرسي كوكس كبير الموظفين السياسيين الملحقين بقوة التجريدة الهندية «د»⁽³²⁾. وأثيرت مسألة هيئة الإمبراطورية مجددًا بعد ثلاثة أيام وحسب من مذكرة هيرتزل. وفي 27 نوفمبر، حدّر بارو من «سياسة الجمود السلبي» إن «شئنا إبهار العالمين العربي والهندي بقدرتنا على دحر كل المخططات التي تُحاك ضدنا». وبناءً على ذلك، اقترح أن تتقدّم قوّة التجريدة الهندية «د» إلى مدينة القرنة التي تبعد 50 ميلاً عن البصرة جهة الشمال، وتقع عند ملتقى نهري دجلة والفرات. فاحتلال تلك المدينة، بحسب زعمه، «سيضمن لنا ميزة استراتيجية قويّة ومركزًا مهيمناً» يكفل لنا غطاءً للطرق المؤدية إلى البصرة⁽³³⁾. وسيمكّن ذلك القوّة «د» من السيطرة على المياه العميقة الممتدة بالكامل بين البصرة والقرنة، وهي النقطة التي لم تكن سفن النقل ذات الغاطس العميق تستطيع أن تتجاوزها بأيّ حال من الأحوال. ووافق الجنرال السير بوشامب داف رئيس أركان الجيش الهندي على ذلك المقترح، وأضاف (دون أن يزور البصرة قط) أن القرنة «كانت بمنتهى الوضوح المركز المتقدّم للبصرة حتى أن احتلال الثانية يستتبع ضمناً احتلال الأولى أيضًا»⁽³⁴⁾.

ولقد كشف التوغّل إلى القرنة في بداية الأمر مدى القيود اللوجستية التي أعاقَت القوّة «د» لاحقًا. وضاعف من قصور عدد المراكب النهرية المناسبة حقيقة أن مياه النهرين كانت في أدنى مستوياتها بعد أشهر الصيف القانضة. ودعت الحاجة إلى التخلي عن المحاولة الأولى للاستحواذ على القرنة في 4 ديسمبر حيث أجبر نقص عدد الحيوانات المستخدمة في نقل الإمدادات (وهي التي كان من المستحيل حملها في النهر بعكس اتجاه التيار) الفرقة المتوغّلة على العودة إلى البصرة. واستدعى هذا الفشل محاولة ثانية باءت بالنجاح، رغم المواجهة العنيدة للمقاومة العثمانية، في احتلال المدينة في 9 ديسمبر 1914⁽³⁵⁾. ومثّل الاستيلاء عليها حدًا فاصلًا في الحملة الوليدة ببلاد الرافدين، حيث إنه من هذه المرحلة فصاعدًا تحوّلت ركيزة الإشراف على العمليات العسكرية من وزارة شؤونالهند في لندن (وهي التي كانت

قد أقرّت كل التحركات حتى ذاك الحين) إلى السلطات السياسية في الهند و«الرجال الموجودين في أرض المعركة» بصحبة قوة التجريدة الهندية «د» في البصرة⁽³⁶⁾.

فجوات في المسؤولية

حدث هذا التخلي عن المسؤولية إلى حدّ كبير نتيجة للتعقيد المتزايد للعمليات العسكرية في أوروبا، وخلال عام 1915 في الدردنيل. فقد هيمنت تلك العمليات على نقاشات مجلس الوزراء البريطاني، ولم يلق أحد بالاً للتطورات الجارية في بلاد الرافدين. وفي الهند، كانت الحواجز المُحصّنة بين حكومة الهند والجيش الهندي تعني أن الحكومة لم تتدخّل في أنشطتها الخاصة ولا تكثرث بها أصلاً. ونتيجة لذلك الفراغ في السيطرة والإشراف، آلت السلطة إلى الموظفين العسكريين (والسياسيين) في قوّة التجريدة الهندية «د» حيث تجلّت عملية كبرى بشكل افتراضي تقريباً. وعلى مدار عام 1915، أحدث ذلك تحولاً في عملية الإعاقة المبدئية في الخليج العربي التي أمست حملة عسكرية واسعة النطاق جدّاً حتى أن مخططيها لم يتوقعوها ولم يعدّوا لها العدة.

لقد شوّشت نشوة الانتصارات العسكرية المبدئية على الصعوبات اللوجستية التي كادت أن تفسد التوغّل إلى مدينة القرنه. وبدلاً من ذلك، عزّزت تلك الانتصارات من الشعور بالرضا بينما أقرّت حكومة الهند إرسال لواء مشاة ثالث إلى بلاد الرافدين في يناير 1915. وإذ كانت الغاية منه تعزيز السيطرة على الأراضي المُحتلة حديثاً، كان هذا اللواء واحداً من الكثير من «مستجدات المهمة» التي وقعت في الأشهر التالية. وأدّى ذلك في نهاية المطاف إلى وصول فرقة مشاة ثانية شكّلت العمود الفقري للتحركات شمالاً باتجاه نهري دجلة والفرات. وفي الوقت الذي كانت فيه لندن منشغلة بالحرب الأوروبية وتسلسل معارك الاستنزاف على الجبهة الغربية عام 1915، ضحّت حكومة الهند بالتفاصيل الإدارية واللوجستية لقاء انتصارات رخيصة. ومع ذلك، ضمن انقطاع الاتصالات ما بين لندن وحكومة الهند الإخفاق في الكشف عن ثغرات متسعة في السياسة وحلّها قبل فوات الأوان ووقوع الكارثة.

وخلال عام 1915، توسّعت قوّة التجريدة الهندية «د» إلى ما وراء نقطة انتشارها حيث تجاوز تمذّدها العمليّاتي بكثير قدرة شبكة إمدادها ونقلها المنهكة. وحدثت عمليات توغّل متزامنة باتجاه نهري دجلة والفرات، ولكن دون أن تتسق مع أيّة خطة استراتيجية. واستُولي بسهولة نسبية على مدينتيّ العمارة (الواقعة على نهر دجلة) والناصرية (الواقعة على الفرات) في يونيو ويوليو، بينما صُدّ هجوم عثماني مضاد واسع النطاق بمدينة شيبه في 12 أبريل. وبحلول شهر يوليو، جعل هذا التمدّد العشوائي القوّة «د» موزعة عبر خمسة مراكز مختلفة متباعدة في جنوب بلاد الرافدين: البصرة والقرنة والأحواز والعمارة والناصرية. علاوة على ذلك، كانت القدرات الاستخباراتية القاصرة تعني أنه لا قائد فيلق الجيوش الجديد الفريق جون نيكسون (وهو «جنرال مقاتل من النوع المندفع») ولا القائد العام للفرقة 6 اللواء تشارلز تاونسند كان واعيًا بوصول التعزيزات العثمانية الكبيرة إذ بدت بغداد دانية جدًّا حتمًا. وكان ذلك يرجع إلى «الحماس الغضّ» للموظفين السياسيين الوافدين الذين صارعوا من أجل التكيف مع الأعباء الواقعة على:

... المكاتب السياسية المكتظة بمقدمي العرائض المفتقرة للأثاث المناسب القائم عليها موظفون هنود التي شهدت قضايا حيازة الأراضي والتصرف فيها وقضايا العوائد وقضايا القبائل والمحاكمات الجنائية والأعمال البلدية والشُرطيّة ومحاولات سدّ العجز في المعلومات والذخيرة والعمالة والإمدادات العسكرية التي لم تفتأ تزداد⁽³⁷⁾.

ولقد أسهمت تطورات أكبر في الحرب واعتبارات دولية أيضًا في تحمّس المسؤولين في لندن ودلهي للإنجازات العسكرية التي كان من شأنها تعويض حالة الجمود القائمة في الدردنيل. وإذ أدّت الهيئة البريطانية دورًا محوريًا في «التمويه الإمبريالي» الذي مكّن مجموعات من الجنود والموظفين الحكوميين من السيطرة على قطاعات كبيرة من الأراضي الهندية (والمصرية آنذاك)، أمسى المسؤولون متشوقين لأنباء عظيمة من شأنها التشويش على الفشل في شقّ الصف العثماني ودحر القوات العثمانية بحسم في معركة غاليبولي⁽³⁸⁾. وتساعدت نبرة مخاوفهم

بقدر أكبر بسبب حساسيات مواجهة عدو خليفته هو نفسه الزعيم الروحاني للإسلام السُني، وحقيقة أن الحملة التي شُنّت في بلاد الرافدين كانت قريبة من مدينتي النجف الأشرف وكربلاء الشيعيتين المقدستين. وبينما أثار الجانب السني قلق السلطات البريطانية في مصر (ذات الأغلبية السنية)، فقد أدار الجانب الشيعي وجهه القبّيح في أوائل 1915 إذ رفض نائب الملك في الهند اللورد هاردينج إرسال الكتّيبة 136 إلى بلاد الرافدين لأنه شعر أنه لا يستطيع الوثوق بولاء سريتها (الشيعيتين) المنسوبتين لقلبية الهزاره⁽³⁹⁾.

. وفي هذا المناخ المعقّد من الآمال والتوقّعات المشوبة بالخوف والترقب، ستر الاستيلاء الناجح (في نهاية المطاف) على البصرة والقرنة حالات العجز اللوجستي والإداري والعملياتي لقوّة التجريدة الهندية «د». وبينما توسّع اللواءان فتحولا إلى فرقة مشاة كاملة (الفرقة 6 بقيادة تاونسند)، ظلّت تلك الفرقة مفتقرة تاريخياً إلى وسائل نقل نهريّة وبريّة. وكما حصل في المحاولة الأولى الفاشلة للاستيلاء على مدينة القرنة في ديسمبر 1914، سرعان ما أمست هذه مشكلة خلال فيضان فصل الربيع في فبراير 1915. فقد أحال هذا الفيضان التربة الطينية حول البصرة والقرنة إلى أرض سبخة شلّت حركة كل أشكال النقل البري (بالدواب أو بالمركبات). وقد وصف أثر هذا الفيضان المدمر ببراءة الرائد هربرت يونغ إثر نقله إلى بلاد الرافدين من الحدود الشمالية-الغربية للهند:

من الصعب على أيّ شخص لم يرَ أثر الأمطار على الصحراء الرسوبية المنبسطة لدلتا البصرة أن يشكّل فكرة عن المشهد الشنيع المترتب على ذلك حيث يتشكّل نوع شديد اللزوجة من الوحل يستحيل الوقوف منتصباً فيه، وتعلق فيه السيارات والعربات التي تجرها الدواب بسرعة، وتنزلق فيه الخيل والإبل في كل اتجاه⁽⁴⁰⁾.

وتذكّر يونغ كيف «وجد جنودنا أنفسهم في البصرة خلال فيضان عام 1915 على جزيرة وشطّ العرب على يمينهم شرقاً والمنطقة المغمورة بالمياه ممتدة لعشرة أميال جهة الغرب...». وذكر أيضاً كيف أن قوّة التجريدة الهندية «د» افتقرت إلى

الأفراد الذين «لديهم أية معرفة بالظروف المحلية أو بأثر الرياح والمد والأمطار على مياه وتربة حوض دجلة والفرات»⁽⁴¹⁾.

وبالتزامن مع توسع نطاق عمليات القوة «د» باستمرار طوال عام 1915، ربط قصور الدعم البري الكافي منطقة العمليات العسكرية بالنهرين. وزاد ذلك من اعتماد الجنود على المركب النهري المنهك بالفعل في عمليات الإمداد والنقل كلها. علاوة على ذلك، كان نمو حجم القوة «د» يمثل عبئًا كبيرًا على منشآت الميناء «المنعدمة تقريبًا» بالبصرة، وهي نقطة الدخول الوحيدة للإمدادات الضرورية للحفاظ على الحملة في ظل الغياب الكامل تقريبًا لأية بدائل يمكن شراؤها محليًا. وعندما احتلت البصرة عام 1914، لم تستطع أن تستقبل سوى ناقلتين كل ثلاثة أسابيع، كما أن حكومة الهند رفضت، شُحًا منها، أن تقرر أية نفقات إضافية لزيادة قدرات قوة التجريدة الهندية «د». ونتيجة لذلك عندما وصل جورج ماكسون ربيع عام 1916 ليتولى منصب المفتش العام للاتصالات لم يجد «مفهومًا مطلقًا لما يقتضيه النقل الحديث» حيث إن «أحدًا لا يعي ما يتطلبه الأمر إذا زاد حجم القوة العسكرية أو تحركت أعلى النهر»⁽⁴²⁾.

توسع دون إشراف

في خضم هذا التضارب ما بين قدرات القوة العسكرية والقدرات اللوجستية، زاد وصول المزيد من الجنود وحسب من المتطلبات اللوجستية، وفاقم من التكديس والاحتفاظ والفوضى في البصرة وخطوط الاتصال والإمداد المطولة. وهناك عاملان جعلوا الموقف أسوأ حتمًا؛ الأول القيود المالية الشديدة التي فرضتها حكومة الهند على الفريق نيكسون والقوة «د». فقد رفض المسؤولون في دلهي، بقيادة عضو اللجنة المالية الواسع النفوذ السير وليم ماير، بإصرار إقرار أية نفقات لمنشآت الميناء أو غير ذلك من أعمال البنية التحتية الأخرى مثل سكك الحديد المقترحة من البصرة إلى الناصرية لتخفيف الأعباء عن النهر ما لم يستقر الرأي على احتلال بلاد الرافدين احتلالًا دائمًا. علاوة على ذلك، لم تستوعب حكومة الهند ببساطة مدى

التدخل الدولي والتعبئة اللازمين لإدارة الحرب الصناعية ضد عدو حديث. فمنذ بداية الحرب حتى منتصف عام 1916 (عندما لم يعد من الممكن التغاضي عن إخفاقاتها في بلاد الرافدين)، اتبعت دلهي استراتيجية «تجارية كالعادة» لم تنفصل عن المبادئ العزيزة لـ «الإدارة الهندية»، ولاسيما الضرائب المنخفضة وسياسة الحرية الاقتصادية. ومن المدهش أن الموازنة العسكرية التي اعتمدت في مارس 1915 للعام المالي 1915-1916 ظلت على حالها كما في أوقات السلم، ولم يتناول أحد بالمناقشة تنفيذ العمليات العسكرية الخاصة بالجيش الهندي (في مصر وشرق أفريقيا وبلاد الرافدين) في مجلس نائب الملك قبل عام 1916⁽⁴³⁾. وقد أعاق أثر هذه السياسة باستمرار محاولات توسعة نطاق جهود الحرب الهندية حتى عام 1916 بينما ازدادت المتطلبات العملياتية بسرعة مهولة. ولقد أشار رئيس هيئة الشؤون الإدارية بالجيش الهندي السير فينتون أيلمر إلى «الإرهاب الذي خلقه المسؤول المالي» [ماير]، واختتم حديثه بنبرة تشاؤمية قائلاً إنَّ «محاولة إدخال أي شيء إلى مدينة شيملا الهندية أشبه برجل يصارع للخروج من الرمال المتحركة، أو مستنقع موحل، وقد أنهكته المقاومة من كل الجوانب»⁽⁴⁴⁾.

ولقد وضعت هذه السياسة حكومة الهند في تناقض صارخ مع عملية التعبئة الاستراتيجية المطردة الجارية في لندن في الفترة بين عامي 1914-1915. وتفاقم الشخّ المالي بفعل إخفاق شديد في الإشراف على العمليات المتصاعدة في بلاد الرافدين. وعكس ذلك الفجوات المتوسعة في المسؤولية ما بين حكومة الهند ووزارة شؤون الهند في لندن والموظفين السياسيين والعسكريين لدى القوة «د» في البصرة. وفي لجنة التحقيق في أحداث بلاد الرافدين عام 1916، أقر السير روبرت كارلايل عضو مجلس نائب الملك المسؤول عن الإيرادات والزراعة (وهو الذي يعتبر في موقف يسمح له بتقديم إسهام عظيم في تعبئة الموارد الهندية) أن «الحرب لم تُعامل كشيء تنعدم بجانبه أهمية أي شيء آخر»⁽⁴⁵⁾. ورفض السير بوشامب داف رئيس أركان الجيش الهندي زيارة بلاد الرافدين خلال فترة عمله وعرقل بإصرار كل طلبات الدعم اللوجستي. وظلت القيادة السياسية والعسكرية على حدّ سواء في

دهلي جاهلة إلى حد كبير بالانهيار التدريجي للخدمات الإدارية في بلاد الرافدين⁽⁴⁶⁾.

كذلك كان رؤيتهم قصيرة النظر أيضًا واضحة في العامل الثاني الذي أسهم في التمدد الكارثي الحتمي لقوة التجريدة الهندية «د». وقد تمثل هذا العامل في إخفاق العاملين في دهلي ولندن في إدراك الطلبات العاجلة بتوفير المزيد من المراكب النهرية أو التصرف بناءً على تلك الطلبات لسدّ متطلبات الإمداد والنقل المتزايدة للقوة «د». وكما ذكرنا آنفًا، تباينت السمات المحددة لنهري دجلة والفرات إلى حد كبير عن ظروف الأنهار في الهند مما جعل مجموعة المراكب المتنوعة التي جُمِعت من شركة إيراوادي فلوتيليا وغيرها من الشركات الموزدة في الهند غير ملائمة للعمل في مجرى النهر المؤدي لمدينة القرنة، وتفاقمت صعوبة الإتيان بمراكب مناسبة إذ أطلعت حكومة الهند القوة «د» باستحالة تصنيع مثل هذه المراكب في الهند نفسها. وعكس ذلك قاعدة التطوير الصناعي البريطانية المشوهة المحدودة في الهند قبل عام 1914 التي حالت دون إنشاء «مجمع صناعي عسكري» محلي يستضيف مجموعات من المهارات المحلية على الأسس الزائفة لـ «الأمن القومي»⁽⁴⁷⁾.

ونتيجة لذلك، قُدِّمت طلبيات إنشاء القوارب النهرية في إنجلترا. ولكن تسبب الجمود البيروقراطي الذي تمكّن من حكومة الهند ومكتبها، وكذلك قصور التعاون أو الاتصال المشترك بينهما، في حالات تأخر طويلة في إنشاء تلك القوارب. وكانت أبرز تلك الطلبيات طلبية كبيرة قُدِّمت في 3 أغسطس 1915 لتوفير 9 بواخر نهريّة و8 زوارق سحب و43 عبّارة لم تلبّي إلا في أغسطس 1916. وحينئذ لم يُسَلَّم فعليًا سوى باخرة نهريّة واحدة و8 زوارق سحب و20 عبّارة لبلاد الرافدين حيث وصلت تلك الشحنة بعد سلسلة من الكوارث العسكرية حاقت بالقوة «د» في الفترة ما بين نوفمبر 1915 وأبريل 1916. وفي تلك الظروف، أمست القوة «د» تعوّل بشدّة على المراكب النهرية التي يمكن الحصول عليها محليًا. فقد رافق عدد كبير من الزوارق الشجرية والمراكب الشراعية حملة تاونسند العسكرية باتجاه مدينة الكوت، وعُرفَت هذه المجموعة البائسة من القوارب باسم «زوارق تاونسند»⁽⁴⁸⁾.

وحتى في ظل تلك القدرات الإضافية، أخفق الأسطول النهري في مواكبة الزيادات السريعة في أعداد الجنود وخطوط النقل والإمداد الطويلة بينما توغلت القوة «د» في الوقت نفسه بطول نهر الفرات وصولاً إلى مدينة الناصرية وبتطوّل دجلة وصولاً إلى الكوت. وكان هناك إقرار متنامٍ بين العاملين الإداريين في البصرة بإخفاقات الحملة، مما دعا عضواً بارزاً بمجموعة العاملين (الرائد كيمبال) في يوليو 1915 إلى التحذير من أنه «إذا لم تُتخذ خطوات جادة للوفاء بتلك المتطلبات، فإننا بصدّد مواجهة خطر الانهيار التامّ في أية لحظة». ومع ذلك، كانت ردّة الفعل من الهند تأكيدية بقدر ما كانت رافضة حيث حدّر داف قادة القوة «د» من إزعاجه «بالمزيد من المطالبات المُعاتبة والمشاكسة للشحن»⁽⁴⁹⁾. وعكس ردّ فعله الموقف الضعيف داخل وزارة شؤون الهند في لندن حيث كان السكرتير العسكري بارو في إجازة عند استلام مذكرة كيمبال التي حدّر فيها من انهيار الأوضاع. وأقرّ بارو لاحقاً للجنة بلاد الرافدين بأن أول مرة سمع فيها عن المذكرة كانت عندما عرضها عليه المفوضون في أثناء مقابلته الشخصية (عام 1916). وعزّز صورة الجهل المؤسسيّ هذه -في دلهي ولندن على حد سواء- وزير الدولة لشؤون الهند حيث أبلغ اللورد كريبو اللجنة أنه خلال فترة ولايته (وهي التي امتدّت حتى مايو 1915) لم تكن هناك أية «أمانة أو تحذير من أن قدرات النقل كانت قاصرة» في البصرة⁽⁵⁰⁾.

ردود الفعل المحلية تجاه التوغل البريطاني

استفرت هذه المرحلة المفتوحة من الحملة مجموعة متنوعة من ردود الأفعال من أطراف محلية وإقليمية. وقد تجلّت ردود الأفعال هذه عبر مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية-الثقافية. علاوة على ذلك، فقد أجبرت حقيقة أن ولاية البصرة كانت مشهد القتال من البداية القبائل المحلية (واتحادات قبلية أكبر حجماً) على تبني استراتيجيات حفظ الذات و/أو التحيز في الصراع الوليد لفئة ما. ويحدد ناثر كريم ثلاثة معايير مهيمنة في صناعة القرارات القبلية: تاريخ ارتباطها السابق بالسلطة السياسية المركزية، والمنافع «السياسية-الاقتصادية» التي تتوقّع أن

تجنّبها من التحيّز لأيّ من القوات المتنافسة، واعتبارات الضرورة المتعلقة بالتوازن القائم ما بين القوات. ويقترح أن «أقصى حدّ للمزايا الشخصية يصبو إليه الكثير من المشايخ كان الاعتبار المطلق الذي يحدّد المواقف الفعلية التي تتبناها العديد من القبائل». ومن الأهمية بمكان التذكير بأن هذه المصالح لم تكن ثابتة أو جامدة؛ إذ كانت تتبدل مع تغيّرزخم العمليات العسكرية حيث نكص كثير من مشايخ القبائل الذين تعاونوا مع القوات البريطانية خلال عمليات التوغّل عام 1915 على أعقابهم وانحازوا للجانب العثماني إثر معركة المدائن في نوفمبر⁽⁵¹⁾.

وثمة حالة جديرة بالدراسة تمثّلت في المواقف المختلفة تجاه تصور السلطة السياسية العثمانية وتجاريها. فعلى النقيض من الفكر الرسمي البريطانية (والبريطاني-الهندي)، لم تشكّل الجماعات والاتحادات القبلية المتنوعة في بلاد الرافدين بالتأكيد كتلة موحدة، بل على العكس تمامًا كشفت عن تنوّعات كبيرة في الهيكل القبلي وعلاقته بالحكومة المركزية. وعكست تلك التنوّعات التشوّه الذي صُوّرت به السلطة العثمانية قبل عام 1914. فقد كانت القبائل التي تعيش بطول نهر دجلة أكبر حجمًا وأكثر تجانسًا ولها تاريخ أطول من الانفتاح على السلطة المركزية بموجب موقعها بطول الشريان التجاري لبلاد الرافدين العثمانية⁽⁵²⁾. وتباينت ظروف تلك القبائل بشدّة عن ظروف القبائل التي تقطن منطقة وسط وجنوب الفرات التي كانت أكثر عشوائية من حيث التنظيم ومتفرقة إلى عدد كبير من الوحدات القبلية الثانوية. وكان لتلك القبائل أيضًا تاريخ طويل من التمرد على تصور السلطة الحكومية. وعكس ذلك موقفًا وقائيًا بشراسة تجاه أراضيهم الزراعية من الدولة التي ينحون باللائمة عليها لإهمالها للأراضي، ما ترتّب عليه تغرين التربة وإفساد الإنتاجية الزراعية⁽⁵³⁾.

وهناك عامل إضافي كان له يد في ردود الأفعال المحلية، ألا وهو التركيبة الطائفية للحكومة العثمانية. ورغم أنني لا أودّ المغالاة في هذا الشقاق، ورغم اتفاقي الكامل مع ملاحظة فنار حدّاد أن «العلاقات الطائفية تحدّي التعميمات النموذجية» وترتبط بـ«اعتبارات اجتماعية-اقتصادية وظروف سياسية أكثر اتساعًا»،⁽⁵⁴⁾ فإنني لا أجد مفرًا

من الإقرار بأن الشيعة كانوا دُخلوا في الدولة العثمانية ولم يُعاملوا بمساواة مع الأغلبية السُنية⁽⁵⁵⁾. ففي مدن بلاد الرافدين كان أكابر الحضر من السُنة، وكانوا يهيمنون على مقاليد السلطة الإدارية بدعم من طبقة التجار التي تضمنت الكثير من أفراد الطوائف اليهودية والمسيحية. ولقد جعل الاحتلال البريطاني الطائفة الأخيرة تحديدًا عُرضة لاستهداف الدولة العثمانية. ففي أبريل 1915، وصف المجلس الأمريكي في بغداد كيف «أن هناك تحيزًا كبيرًا في بغداد ضد المسيحيين» بعد إعدام ثلاثة منهم على الملأ إثر اتهامات بالتجسس.

ولقد وصف المؤرخ الفلسطيني حنا بطاطو ببراعة تنوع التركيبة السكانية لمجتمع بلاد الرافدين في مؤلفه الكلاسيكي «الطبقات الاجتماعية القديمة والحركات الثورية في العراق». فإضافة إلى سرد العديد من الأقليات الدينية والعرقية «كالأكراد والتركمان والفرس والسوريين والأرمن والكلدانيين واليهود واليزيديين والصابئة وغيرهم» ممكن شكّلوا «كتلاً من مجتمعات متميزة متعارضة متوقعة على ذاتها»، حدّد بطاطو أيضًا انقسامات اجتماعية وسياسية واقتصادية وثقافية كبيرة بين المجتمعات الحضرية والريفية⁽⁵⁶⁾. وعكست تباينات أخرى الأنماط المتشعبة للتوجهات التجارية والاقتصادية التي أُمست بموجبها الروابط المهيمنة في الموصل غربية التوجه مع سوريا وتركيا، أما الروابط التي ربطت ما بين بغداد والمدنيتين الشيعيتين المقدستين النجف وكربلاء فكانت مع بلاد فارس، بينما انحاز أهل البصرة جنوبًا في علاقاتهم باتجاه شبه الجزيرة العربية وما وراءها وصولاً للهند⁽⁵⁷⁾.

ولاحظ عطية في دراسته الاجتماعية-السياسية المؤثرة للعراق أن الحرب العظمى «أُمست اختبارًا للولاء السياسي للعديد من الطوائف الاجتماعية داخل الدولة العثمانية»⁽⁵⁸⁾. فقد خلقت التركيبة العرقية والطائفية والاجتماعية المعقّدة لمجتمع بلاد الرافدين صدوعًا استطاعت الجيوش الغازية استغلالها. ولكن التعقيد نفسه أيضًا كان يُمثّل تحدّيًا مفاهيميًا عميقًا للموظفين السياسيين (والعسكريين) البريطانيين لحظة أن تولوا مسؤولية الإدارة المحلية. ولقد استعين بهؤلاء المسؤولين غالبًا من

الإدارة البريطانية في الهند، وكانوا متأثرين إلى حدٍ بعيد بـ«النماذج الهندية» للحكم الإمبريالي. ووفّرت تجاربهم السابقة الأطر المرجعية لهم وهم يضعون قوانين إدارية لمناطق السيطرة الجديدة في بلاد الرافدين. ولذا استُغلِصت قوانين النزاعات الجنائية والمدنية القبلية التي سُنّت ووضعت موضع التنفيذ في فبراير 1916 دون تغيير فعلي من القانون الكولونيالي الذي طُبّق على الحدود الشمالية-الغربية للهند.

ولذلك فاقم من أوجه القصور في المعرفة المحلية ردود الأفعال غير المناسبة الساعية لتصحيح الفجوات الناجمة عنها. وذكر توبي دودج كيف كانت القوانين الجديدة قائمة على سوء فهم معيب جدًّا لانقسام ثنائي ظاهريًّا في المجتمع بين المدن «الفاسدة» والقبائل «النبيلة». وأدّى هذا المفهوم إلى سوء توصيف المسؤولين البريطانيين لشيوخ القبائل باعتبارهم «ركائز المجتمع الريفي» الذين يستطيعون من خلالهم الهيمنة والحكم ونقل سلطتهم إلى من هم دونهم⁽⁵⁹⁾. ونتيجة لذلك، كان هدف السياسة البريطانية عكس ممارسة العثمانيين فيما يختص بتشجيع التشظي القبلي. وقام المسؤولون بتقسيم المناطق التي وقعت تحت الاحتلال إلى أقسام سياسية لكل منها موظف سياسي يتولّى مهمة جمع القوائم القبلية وتحديد المشايخ المحليين الذين يمكن إعادة تشكيل السلطة حولهم⁽⁶⁰⁾. وعُضدَ من الولاء القبلي المعونات السخية الممثلة في الذهب وكذلك، من بداية عام 1917، تهديد الانتقام الجوي السريع من القبائل المتمردة⁽⁶¹⁾.

كوت العمارة وقطيسفون

بحلول صيف عام 1915، كانت قوّة التجريدة الهندية «د» قد استولت بنجاح على ما كان يعرف بولاية البصرة ما قبل عام 1914، ولو أن السيطرة الفعلية ظلّت قاصرة على المدن الكبرى والمراكز العسكرية، وظلّت المبادرات الإدارية في مهدها. ولمّا حوصرت القوّة «د» ما بين رائحة الانتصارات والموقف اللوجستي غير المستدام بشكل متزايد، اتجهت مترنحةً باتجاه الكارثة في خريف عام 1915. فإثر الاستيلاء على العمارة في يوليو، أدّى منطق «توسّع مهمة البعثة» القاسي إلى أن

حدد واضعو الخطط السياسية والعسكرية للقوة «د» مدينة كوت العمارة لتكون الهدف التالي بطول النهر باعتبارها محوريّة للسيطرة على الأراضي المحتلة حديثًا. وجاء ذلك بوضوح في برقية أرسلها نائب الملك إلى وزير الدولة لشؤون الهند إذ ذكر هاردنج أن احتلال كوت العمارة هو «ضرورة استراتيجية بما أنها تهيمن على الألسنة المنبسطة لنهر دجلة والفرات» وأنه ضروري «لضمان الهدوء المستقبلي في كل من العمارة والناصرية»⁽⁶²⁾. ولقد كان الفراغ في المسؤوليات ما بين البصرة ودلهي ولندن يعني أن وجهة النظر هذه لا يوجد من يدحضها بقدر كافٍ حتى في ظل الدليل الناشئ على أن القوة «د» أمست ممتدة على نطاق واسع بشكل يمثل خطورة جسيمة.

وعلاوة على المخاوف المحلية من الحفاظ على الزخم وفرض السيطرة على القبائل القويّة بجنوب بلاد الرافدين، مثل اتحاد قبائل المنتفق الكائن حول الناصرية وقبيلة بني لام المحيطة بمدينة كوت العمارة، طرح الفشل العسكري الوشيك عند مضيق الدردنيل بعدًا خارجيًا قويًا لصنع السياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط. فطوال صيف وخريف عام 1915، أمست الأقدار المتشعبة للقتال «الدامي جدًا» في غاليبولي، والاستيلاء اليسير ظاهريًا على المراكز العسكرية في بلاد الرافدين حيث «أبدى الجنرال نيكسون براعة حربية منقطعة النظير وضرب الأتراك في مقتل»، أكثر جلاءً من ذي قبل⁽⁶³⁾. ولذا أمسى الساسة والقادة العسكريون في بريطانيا والهند متحمسين لنصر مؤزّر - كما حدث عند إسقاط بغداد - لموازنة الأضرار المرتقبة للهيبة الإمبريالية بمعركة غاليبولي⁽⁶⁴⁾. وتقاطعت هذه المسارات الإقليمية مع التبعات الكارثية حتمًا التي ألّمت بالقوة «د» في الفترة ما بين سبتمبر وديسمبر 1915.

وتحديدًا أنهك قصور وسائل النقل النهرية إلى حد كبير القدرات العملياتية للفرقة 6 بقيادة تاونسند قبل حتى أن تتعثّر أخيرًا بمعركة قطيسفون في 22 نوفمبر. فقد عرقلت نسب عالية من داء الإسقربوط وغيره من أمراض نقص التغذية كفاءة

قتال الجنود. وعُزي ذلك نوعًا ما إلى الشح الشديد لأي منتج طازج (كاللحوم أو الخضراوات) في مؤونتهم. وتفاقم الموقف بفعل رفض القوات المسلمة تناول اللحم المُعلَّب أو لحم الجياد في ظل عدم وجود فتوى تسمح بتناولها. فأسهم الضعف الغذائي الذي ارتبط بالعجز عن نقل مخزونات كافية إلى البصرة وشمالًا باتجاه النهر في ارتفاع معدّل الوفيات بنسبة مرعبة بسبب الأمراض. وأصبح مدى أثر هذا الضعف واضحًا تمامًا في الأرقام التي جمعتها وزارة الحربية في لندن والتي رصدت 207000 إصابة نتيجة الأمراض عام 1916 في مقابل 23300 إصابة وحسب بسبب الاشتباك مع العدو⁽⁶⁵⁾.

وبينما تحرّكت الفرقة 6 شمالًا باتجاه مدينة كوت العمارة في سبتمبر 1915، كان قادتها يفتقرون أيضًا لوسائل النقل البرية لتخفيف العبء عن النقل النهري وتيسير حركة الإمدادات والجنود. ولم يكن للنقل الآلي وجود تقريبًا قبل عام 1916 إذ كان قاصرًا على مجموعة محدودة من السيارات وستّ عربات إسعاف. وفي غياب وسائل النقل، خطّط القادة للاعتماد على وسائل النقل التي تجرها الحيوانات (وهي الوسيلة التقليدية التي يتبعها الجيش الهندي) خلال العمليات المحورية بين سبتمبر ونوفمبر 1915. ولكن هذا الأسلوب خلق صعوبات خاصة به حيث تطلّب قطيع من العجول أرسل من الهند لجرّ المدفعية الثقيلة علفًا أكثر مما يمكن تأمينه محليًا. وبحلول فبراير 1916، تعيّن الأمر سحب الوحدة العسكرية، وأعطيت الأوامر بالآ ترسل الهند أية وحدات أخرى حيث استحال ببساطة إطعام الحيوانات⁽⁶⁶⁾. ونتيجة لذلك ظلّت القوات تعوّل بشكل مبالغ فيه على النهر لإمداداتها.

ولقد كان لعدم كفاية جميع أشكال النقل النهري والبري تبعات مباشرة على توغّل تاونسند شمالًا. فقد حدث التوغّل في منتصف سبتمبر عندما كان نهر دجلة في أدنى مستوياته إثر الجفاف الصيفي الطويل، ومن ثمّ كان غير مناسب قط لأغلب أنواع المراكب النهرية. ونتيجة لذلك عجزت القوّة «د» عن إمداد حيوانات وقوآت المشاة وفرق الخيالة في المقدمة بالعلف والطعام. وترتب على ذلك أنهم

لم يستطيعوا استغلال المساحات المفتوحة من الصحراء أو تنفيذ عمليات تتطلب كفاية ذاتية من الطعام أو المياه. وحالت نقاط الضعف تلك ما بين فرقة الخيالة ومطاردة الوحدات العسكرية العثمانية المنسحبة وتدميرها بعد معركة كوت العمارة الأولى (الناجحة) في سبتمبر عام 1915. علاوة على ذلك، فقد فرضت نقاط الضعف هذه تعطيل العمليات العسكرية لمدة ستة أسابيع لاستحضار إمدادات كافية لمركز التجمع المتقدم في العزيزية. ومنح ذلك العثمانيين وقتًا كافيًا لإعادة تنظيم الصفوف بتعزيزات ضخمة وافدة من بغداد⁽⁶⁷⁾.

ورغم أن النصر الذي تحقّق في كوت العمارة كشف عن حالات قصور مثيرة للقلق في القدرات اللوجستية للقوة «د»، فإنه عزّز بقدر أكبر من الزخم الذي دفع تاوونسند إلى حافة الهاوية. ولقد أدّت التصورات السابقة بأن الهيئة البريطانية ستتضرر، أو ستضيع، إذا ما توقفت عملية التوغّل بصانعي السياسات إلى التشجيع، مجددًا، على الاستمرار فيها ومباشرتها. وتجلّى ذلك بوضوح في الرسالة التي أرسلها نائب الملك في دلهي إلى وزير الدولة لشؤون الهند في 6 أكتوبر، أي بعد المعركة بستة أيام. فقد احتوى هاردنج ببراعة وجهة نظر «سياسات الهيئة» وخلق لها سياقًا بداخل ملامح الحرب العظمى إذ قال:

من ناحية أخرى، ومن وجهة نظر سياسية، يمكن أن يترك احتلال بغداد انطباعًا مهولًا على منطقة الشرق الأوسط، ولاسيما على بلاد فارس وأفغانستان وعلى حدودنا، ومن شأنه أيضًا معادلة الانطباع السلبي الذي خلقه إخفاقنا في الدردنيل. كما سيعزل أيضًا الفرق الألمانية في بلاد فارس، ويحبط الخطط الألمانية الساعية إلى تصعيد أفغانستان والقبائل، بينما سيكون أثره في أرجاء الجزيرة العربية مذهبًا. كذلك سيكون الانطباع في الهند جيدًا لا شك. وإنني أعلق أهمية شديدة على تلك الاعتبارات⁽⁶⁸⁾.

وقد آتت هذه الصرخة من القلب ثمارها إذ استجاب أوستن شامبرلين بعدها بيومين قائلاً إن «مجلس الوزراء انبهر بشدّة بالمزايا السياسية والعسكرية لاحتلال

بغداد لدرجة أن كل جهد نبذله لتجهيز القوة العسكرية بات ضروريًا جدًا». ولكن من المهم أن وزير الخارجية الموفد للهند قال: «لا نريد أن نقدم على محاولة الاحتلال هذه بعدد غير كافٍ من الجنود»، وسأل هاردنج ما إذا كان يظن أن فرقة مشاة واحدة ستكفي⁽⁶⁹⁾. ومع ذلك، وفي اليوم نفسه، بعث نيكسون ببرقية مفادها أنه «ما من تعزيزات ضرورية لقوّتي العسكرية لهزيمة نور الدين واحتلال بغداد. وأنا على يقين من ذلك»⁽⁷⁰⁾. وبينما مرّ خريف عام 1915، ساءت الأنباء الواردة من الدردنيل بقدر أكبر، وأمسّت الحاجة المتوقعة لما أسماه شامبرلين في 11 أكتوبر «نجاحًا مدويًا في الشرق» ماسة⁽⁷¹⁾.

غير أن الحاجة إلى إعادة التنظيم وجلب الإمدادات استوجبتوقف العمليات العسكرية، مما يعني أن حوالي شهرين مرّا ما بين الاشتباك في كوت العمارة في 25 سبتمبر واندلاع معركة قطيسفون في 22 نوفمبر. وخلال تلك الفترة، كان لدى رئيس الأركان العثمانية نور الدين باشا وقت كافٍ لإعداد موقعين دفاعيين يمكن تعزيزهما بشكل مشترك. وواجهت فرق المشاة التي يبلغ عدد أفرادها حوالي 18000 جندي الفرقة 6 المنهكة بقيادة تاونسند التي كانت في تلك المرحلة في حالة تنقل لأكثر من شهرين ويجثم عليها آنذاك مزيج من المناخ السيء والأراضي الرطبة. علاوة على ذلك، فقد أخفق 2000 حمار نقل وكمية كبيرة من العربات التي جُمِعت في البصرة في الوصول إلى العزيزية في الوقت المناسب لتجديد التوغّل شمالاً في الحادي عشر من نوفمبر. وكان ذلك نتيجة حقيقة أن أكثر من نصف الزوارق النهرية كانت ضرورية لنقل الأغراض الضخمة الصالحة للأكل كالحبوب والحطب والعلف اللازمة ليقّات عليها جنود المقدمة يوميًا⁽⁷²⁾.

وعلى ذلك، مُنِعَ تاونسند من بناء احتياطيٍّ من الجنود أو وسائل النقل. وأمسّت هذه الإخفاقات حرجة إثر فشل الفرقة 6 في اختراق الدفاعات العثمانية في قطيسفون فيما بين 22 و24 نوفمبر. وقد تكبّد الطرفان خسائر مهولة جدًا وأصابهما الإنهاك بفعل القتال العنيف غير الحاسم. ولم يترك انعدام الاحتياطي الاستراتيجي

والعبء الزائد على وحدات النقل الحالية (الممثل في خسائر المعركة البالغة 3500 روح) إلا خيارًا محدودًا، فما كان منه إلا أن انسحب إلى كوت العمارة وانتظر التعزيزات. ووصلت الفرقة 6 في 3 ديسمبر، واتخذ تاونسند قرارًا مأساويًا بالتوقف هناك حيث كانت المدينة تحوي احتياطات وإمدادات ضخمة. ولقد كانت هذه الاحتياطات والإمدادات أصلًا مكدسة بوصفها احتياطيًا لدعم التوغّل النهري شمالًا، لكن تاونسند كان يعوزه آنذاك وسائل النقل النهري لإرسالها إلى البصرة. علاوة على ذلك، فقد كان جنوده منهكين بفعل أسابيع من القتال العنيف المستمر. ولذا ففي 4 ديسمبر قرر تاونسند أن يستقرّ في كوت العمارة ويحيل المدينة إلى معسكر مسلّح بينما ينتظر وصول التعزيزات من البصرة. وعلى ذلك، أخطر نيكسون أنه يمتلك مؤونة شهر واحد فقط للجنود البريطانيين وإمدادات تكفي الجنود الهنود الذين يشكّلون غالبية الفرقة 6 لمدة 55 يومًا⁽⁷³⁾.

وكان لرسالة تاونسند التي أبلغ فيها القيادة تقديراته تبعات جسيمة على العمليات اللاحقة الساعية إلى إنقاذه من هذا المأزق. فرغم أنه لم يكن يعرف ما يجري آنذاك، فإنّ رجاله صمدوا في نهاية المطاف لأكثر من أربعة أشهر على الاحتياطات المتاحة. ولقد خلق سوء تقديره إحساسًا (كاذبًا) بحساسية الموقف لدى القيادة البريطانية في البصرة، وأسهم في تنفيذ عمليات إغاثة متسرّعة غير منظّمة وُضِعَت دون تخطيط أو إعداد كافٍ.

وحقيقة الأمر أنه بينما أسرع فرقنا المشاة الهنديتان القابعتان في فرنسا (الفرقة 3 والفرقة 7) إلى البصرة إلى جانب الفرقة 13 التي انحرفت عن الدردنيل، فضح الوصول العشوائي للوحدات العسكرية والمؤن القيود التي تعانها البصرة بوصفها ميناء وقاعدة عسكرية. ونتيجة لرفض حكومة الهند السابق الذكر أعلاه لإقرار أية نفقات تتجاوز الحد الأدنى الضروري، لم يكن الميناء يحوي أية منشآت حديثة لإرساء السفن وتفريغها أو لتخصيص أماكن لتخزين المؤن. وبالتالي كان متوسط معدل التفريغ بارجتين كل ثلاثة أسابيع حيث كانت تُفَرِّغ الشحنات والرجال من السفن

العابرة للمحيطات إلى الصنادل التابعة للشركات المحلية، ومن ثم يُعاد شحنها على المراكب النهرية لنقلها إلى منبع النهر⁽⁷⁴⁾.

ولذلك أربك وصول فرق المشاة الثلاثة الإضافية معززة بوحدة مساعدة في الفترة ما بين يناير وأبريل 1916 المنشآت البديلة المؤقتة بالبصرة. وشكّل مجيئها واحدًا من الأسباب الأساسية للانهيّار التدريجي للعمليات العسكرية الذي بلغ ذروته عندما استسلم تاونسند وفرقته (الفرقة 6) في 29 أبريل. وأُمسّت البصرة ومينأوها مكتظّين بشدّة ومنهكين جدًّا إذ وصلت تعزيزات من الجنود والمؤن بمعدل أسرع مما يسمح بتفريغها وإرسالها شمالًا باتجاه النهر. وثبت أن القاعدة العسكرية وما يحيط بها من منشآت غير قادرة على التعامل مع التكدّس المروري المتزايد في غياب أرصفة الميناء والعدد الكافي من الصنادل وزوارق الجر وقصور عدد العاملين وتوافر مساحات اليابسة على الجبهة النهرية نفسها. وبأتت كل هذه العوامل حرجة بالنسبة للأعمال غير المنجزة التي تراكمت، واقتات كل منهما على الآخر بشكل متداخل خلق إحساسًا معزّزًا بالارتباك والفوضى في القاعدة العسكرية⁽⁷⁵⁾.

وتضاعفت هذه الإخفاقات اللوجستية بشدّة بفعل تقدير تاونسند الخاطئ للإمدادات. ووصف التاريخ البريطاني الرسمي لهذه الحملة على استحياء كيف أُجبر ذلك الجنرال فينتونايلمر على تنفيذ ثلاث عمليات إغاثة «بطاقم محدود الإمكانات وتنظيم بديل مؤقت ووسائل قاصرة»⁽⁷⁶⁾. والأدهى أن الحاجة الماسة للعجلة كانت تعني أن العمليات ستُنَفَّذ في أسوأ وقت لها خلال العام على الإطلاق من الناحية المناخية والبيئية. وقد أُمسّت النتائج واضحة جليّة في 11 يناير عام 1916 إذ باء هجوم على مواقع عثمانية في مدينة حنا بالفشل بعد أن أحالت الأمطار الغزيرة أرض المعركة إلى مستنقع موحل أصاب كل التحركات والاتصالات بالشلل⁽⁷⁷⁾.

وفي البصرة، تدهور الوضع الصحي لنيكسون وحلّ محلّه قائد القوّة «د» السير بيرسي ليك الذي تولّى المسؤولية في 19 يناير 1916. وعلى الفور أيد ليك توغّلًا جديدًا نظرًا «للريبة في تاريخ وصول التعزيزات وكفاية عدد المراكب النهرية اللازمة

لصيانة ودعم تلك التعزيزات على الجبهة»⁽⁷⁸⁾. ولكن عند هذه المرحلة كان داف في الهند وروبرتسون في لندن قد تراجعاعن حماسهما تجاه عمليات التوغّل العسكري السابقة إذ حذّرا من هجمة مبتسرة وحثّا أيلمر على التروي وانتظار وصول المزيد من التعزيزات⁽⁷⁹⁾. بيد أن الاكتظاظ داخل البصرة نفسها والعبء الواقع على منشآت مينائها كانا مهولين جدّا حتى أن هذا الاقتراح الحذر اعتُبر غير مناسب عمليًا. وبحلول 15 فبراير، بلغت الأزمة ذروتها إذ أخطر ليك لندن بأن القصور في وسائل النقل أصبح حادّا جدّا لدرجة أنه يستحيل نقل الفرقة 13 إلى الجبهة. وأقرّ أيضًا بأن «عدد الزوارق النهرية يحدّ من عدد الجنود والحيوانات الذين يمكن استيعابهم بالجبهة»، وأخطر داف بأن إرسال المزيد من الأعداد باتجاه المنبع سيقُلص كمية الإمدادات التي يمكن نقلها في الزوارق النهرية الشحيحة بنسبة 40 في المائة. وخلاصة القول إن قوّة التجريدة الهندية «د» كان بإمكانها إما نقل الإمدادات أو الجنود، لا الاثنين معًا⁽⁸⁰⁾.

وثمة محاولة ثانية قام بها أيلمر لإغاثة تاونسند بآء بالفشل في 8 مارس إذ صدّ العثمانيون هجومًا علحصرن الدجيلة وألحقوا بالمهاجمين خسائر جسيمة. وبعد هذه الانتكاسة، استُبدِلَ بأيلمر نفسه الفريق جورج غورينج («قاسي القلب») ليكون قائدًا عامًّا لفيلق دجلة. ومجدّدًا أخطر ليك القيادة العامة للجيش الهندي في الهند في 13 مارس أن العمليات العسكرية على نهر دجلة أصابها الشلل بسبب الوصول المتأخر المنقوص للزوارق النهرية⁽⁸¹⁾. وكان نقص وسائل النقل يعني أن على الفرقة 13 أن تمضي راجلة إلى الجبهة وأن تشارك في المحاولة الثالثة لإغاثة كوت العمارة بين 5 و9 أبريل دون أن تحظى بقسط من الراحة أو تحصل على وسيلة نقل بريّة مريحة. وكما حدث في المحاولة الأولى الملغاة في يناير، صادف أن هطلت الأمطار في أثناء هذه المحاولة أيضًا، وفاضت الأرض بالمياه التي أفسدت العملية العسكرية حيث باتت أرض المعركة «مستنقعًا حقيقيًا». وفي هذه الظروف، استطاع العثمانيون تعطيل الفرقة المنهكة ومنعها من الوصول إلى مبتغاه⁽⁸²⁾.

وانتهت محاولة أخرى أخيرة يائسة للمضي قدماً وإغاثة الفرقة 6 بالفشل في 25 أبريل. وعند تلك المرحلة، شعر غورينجبانة مضطر لإخطار الهند بأن فيلق دجلة وصل إلى أقصى حد له على الإطلاق من حيث قدراته الهجومية. وأضاف أنه لا يستطيع المضي قدماً دون وقف العمليات العسكرية حيث إن رجاله كانوا في حالة اشتباك مع العدو مستمرة تقريباً منذ 5 أبريل، وقد تكبدوا إصابات في صفوفهم بلغت 9700. وشكّل هذا العدد تقريباً ربع قوتها القتالية، ومع ذلك فقد ظلت على بعد يتجاوز 12 ميلاً من كوت العمارة⁽⁸³⁾. لكن الحامية المحاصرة كانت أيضاً قد بلغت أقصى حدود تحملها حيث كان رجال تاونسند على شفا المجاعة ويعانون من حالات مرضية يومية متصاعدة. وفي 24 أبريل، أُقْدِمَ على محاولة يائسة أخيرة لإعادة إمداد تاونسند، وذلك بتسيير سفينة محملة بإمدادات تكفي لشهر كامل باتجاه منبع النهر. ولكن هذه المحاولة أيضاً باءت بالفشل مما حدا بوزير خارجية الحرب في لندن اللورد كتشنر إلى أن يصدر أوامره على استحياء لداف ببدء المفاوضات على استسلام تاونسند والفرقة 6. ولقد كان استسلامهم في 29 من أبريل يُعتبر آنذاك أعظم إهانة عسكرية تعرّض لها الجيش البريطاني لدرجة أنها لا تضارع في بشاعتها سوى سقوط سنغافورة في ديسمبر 1941. ولم يكن كتشنر نفسه في ريب من حجم الضرر النفساني الذي ترتب على الاستسلام على الهيئة البريطانية في المستعمرات البريطانية خارج أوروبا. فقد راسل كتشنر داف سراً قبل استسلام تاونسند بفترة وجيزة قائلاً: «آمل مخلصاً أن تدرك أنت وجميع الضباط العموميين الذين يعملون تحت إمرتك أنه سيكون عار على بلدنا للأبد إذا استسلم تاونسند»⁽⁸⁴⁾.

والخلاصة أن تسليم كوت العمارة كان نتيجة للتدخل العشوائي لبعض العوامل التي نشأ كل منها استناداً للآخر وعظّم من أثره. وقد لحق العار ببعض القادة في أرض المعركة وفي دلهي، وانتحر داف في يناير عام 1918، وخلصت لجنة بلاد الرافدين لتقصي الحقائق إلى أن نيكسون كان مسؤولاً بصفة أساسية عن هذه الكارثة. أما تاونسند فلم يتغلب قط على ما لحق به من عار استسلامه والمعاملة التفضيلية التي تلقاها وهو حبيس في بيته بالآستانة بينما كابد جنوده عقوبات بشعة إذ

أجبروا على قطع الصحراء السورية، ليموت مخزياً عام 1924. ولقد أصدرت لجنة تحقيق بلاد الرافدين التي شكّلتها الحكومة البريطانية تقريراً مضرّاً جداً بخصوص الخطب الذي ألّمّ بتلك الحملة لدرجة أن الحكومة حارت لشهرين كاملين فيما إذا كان من الحكمة نشره أم لا. وعندما خرج إلى النور، أطاح التقرير بوزير الدولة لشؤون الهند أوستن شامبرلين حيث سلط الضوء بكثافة على سوء التصرف الإداري من جانب حكومة الهند وعجزها عن فهم العمليات العسكرية الحديثة أو الاضطلاع بها. ولكن التقرير أنحى باللائمة أيضاً على ازدواجية السيطرة بين وزارة شؤون الهند في لندن وحكومة الهند في دلهي؛ الأمر الذي أسهم في الإحساس بالشقاق والإخفاق في الإشراف على الحملة وهي تتعثر⁽⁸⁵⁾. ورغم أنه ما من عامل وحيد كان حاسماً في إفشال المحاولة الأولى للاستيلاء على بغداد، فإن العوامل جمعاء أربكت القدرات العسكرية البدائية لقوة التجريدة الهندية «د». وبالطبع أدّت الصدمة التصحيحية لتراكم الإخفاقات إلى إعادة تنظيم واسعة النطاق للمسؤولية العمليّاتية والإدارية واللوجستية، ومهدت الطريق أمام مواصلة التوغّل بعد أشهر من البحث عن الذات.

إعادة تنظيم الصفوف وتجديدها، 1916-1917

اثنا عشر شهراً فصلت ما بين العار الذي لحق بتاونسند بمدينة كوت العمارة ودخول الجنرال مود بغداد منتصراً في 11 مارس عام 1917. وخلال تلك الفترة، تحولت قوة التجريدة الهندية «د» إلى قوة تجريدة بلاد الرافدين وأعيد تجهيزها وتنظيمها. وأجرى الساسة البريطانيون في لندن تحقيقاً شاملاً في نطاق ومدى أهدافهم زمن الحرب بالمنطقة. وأضفى هذا الوضوح الشديد قدراً من التحديد على الغاية من العمليات العسكرية الجارية في بلاد الرافدين، والأهم من ذلك أنه أَمَاط اللثام عن الموارد المادية والبشرية الهندية المهولة التي يُستعان بها في المجهود الحربي. وفي تلك الأثناء، سرعان ما اضمحلّت المكاسب العثمانية التي جُنيت من الانتصار على تاونسند وإلحاق هزيمة ساحقة بالجيش البريطاني في مواجهة الخسائر الجسيمة المتلاحقة على الجبهة الروسية. وفي بداية عام 1917، تلاقت تلك التوجهات

حيث واصلت قوّة تجريدة بلاد الرافدين توغّلها في الوقت نفسه تقريبًا الذي شنت فيه قوّة التجريدة المصرية أولى هجماتها على غزة. ورغم أن أول هجمتين لموراي على غزة أخفقتا في اختراق التحصينات والتوغّل في المدينة (كما سلف وأوضحنا في الفصل السابق)، فإنهما أسهمتا في التركيز العام للحرب المتعددة الجبهات في مواجهة إمبراطورية عثمانية أنهكتها الحرب بشكل متزايد. ولاحقًا في عام 1917، أحدث هذا التزامن فرقًا مهمًا حيث حال دون المحاولات العثمانية لتبديل القوات ما بين مواقع المعارك المختلفة بما يسدّ حاجاتها الأكثر إلحاحًا.

نعم تعطلت الحملة العسكرية في بلاد الرافدين إثر الاستسلام الفاضح لحامية تاونسند بمدينة كوت العمارة، ولكن القوّة العسكرية تعرّضت على مدار الأشهر القليلة التالية إلى عملية غريبة ارتبطت بإعادة تنظيم شبيهة للمساهمة الهندية في الحرب. ويبدو أن الأمر كان يستدعي التعرّض لصدمة ما حدث لتاونسند لاستيعاب مدى الاختلال الذي عانت منه القوّة «د» وسوء إدارة الجوانب الأكثر شمولًا للحملة في بلاد الرافدين. لذا شكّلت لجنة تقضي حقائق في لندن لبحث الإخفاقات في بلاد الرافدين وفي الدردنيل. وخلال صيف وخريف عام 1916 والأشهر الأولى من عام 1917، تلقّى أعضاء تلك اللجنة سيلاً من الإدانات بخصوص قصور الإشراف الاستراتيجي والتخطيط العمليّ والأعطال اللوجستية التي بلغت ذروتها في محاولات إنقاذ مدينة كوت العمارة. وصدر التقرير النهائي للجنة تحقيق بلاد الرافدين في مايو 1917 بعد أن أفضى الاستيلاء على بغداد إلى استعادة الهيبة والكرامة البريطانيتين نوعًا ما، لكن بشاعة محتواه (كما ذكرنا آنفًا) دفعت وزير الدولة لشؤون الهند أوستن شامبرلين إلى الاستقالة، وتسبّبت في حرج عام لداف الأمر الذي أفضى لاحقًا إلى انتحاره في 20 يناير عام 1918⁽⁸⁶⁾.

كذلك فإن الآلات الإدارية واللوجستية التي عملت بوصفها دعائم ضرورية للحملة تحوّلت هي الأخرى في أواخر عام 1916 وأوائل عام 1917. فتولّت وزارة الحرب في لندن المسؤولية الإدارية عن الحملة في يوليو 1916 وتولّت المسؤولية بالفعل

عن جانبها العملياتي في فبراير. وفي وقت متأخر، دُمِجت الحملة في المجهود الحربي البريطاني، ووضعت ضمن إطار عمل مركزي لأول مرة. وأنهى ذلك العلاقة ما بين واضعي الخطط العسكرية في بريطانيا والهند التي أفضت إلى فجوات كارثية في السياسة والإشراف. وتحولت حيثة الهند للحملة العسكرية آنذاك من السيطرة العملياتية إلى التعاطي معها بوصفها مزوداً رئيساً للجنود والموارد المادية لتموين قوة تجريدة بلاد الرافدين. وقد أدى ذلك إلى استغلال الموارد المدنية والعسكرية على حد سواء لحكومة الهند بشكل أفضل حيث دشنت في وقت متأخر التعبئة الاستراتيجية للموارد التي قامت بها الدول المتحاربة في أوروبا عام 1915⁽⁸⁷⁾.

وقد تمثل العامل الرئيس في التحول الذي طرأ على دور الهند في إحلال الجنرال تشارلز كارمايكل مونرو المُعيّن من قبل وزارة الحربية محل داف الفاقد لمصداقيته المُحال إلى الأعمال المكتبية بتاريخ 1 أكتوبر 1916. وكان مونرو يتمتع بخبرة طويلة في القيادة الميدانية، وسبق (كما ذكرنا آنفاً) أن تولى قيادة قوة التجريدة المتوسطة في غاليبولي. وقد استقطب حوله مجموعة من المسؤولين الإداريين البارعين ذوي الخبرة العسكرية الحديثة في مصر وفي الدردنيل في نموذج أولي لاستيعاب الدروس المستفادة فيما بين الحملات العسكرية⁽⁸⁸⁾. وثمة مثال آخر على هذا المسار تمثل في تعيين الجنرال مود قائداً عاماً للقوة التي سميت حديثاً قوة تجريدة بلاد الرافدين في 28 أغسطس. فعلى النقيض من سلفه العجوز ليك، تولى مود مؤخراً قيادة الفرقة 13 في غاليبولي، وكان يلقب بـ «جو النظامي» في إشارة واضحة إلى أسلوبه المنهجي. والواقع أن مود ومونرو قد أقام على حد سواء وزناً لتعقيدات الحرب الصناعية الحديثة وأهمية وضع المتطلبات العسكرية داخل إطار عمل أعمق من التعبئة الاستراتيجية لجميع أشكال الموارد⁽⁸⁹⁾.

وخلال صيف وخريف عام 1916، وُسِّعت منشآت ميناء البصرة بسرعة مهولة، وأنشئ ميناء ثانويان في المعقل ونهر عمر لتخفيف التكدّس بقدر أكبر. وزادت هذه الإجراءات من معدل الأطنان التي تُفرَّغ من 38916 طنّاً في يوليو 1916 إلى

أكثر من 100 ألف طن في منتصف عام 1917، وبناءً على ذلك أمكن إرساء 14 سفينة صرفها في المرة الواحدة في غضون ثلاثة أيام. وطُرأت التحسينات على الجهاز التنظيمي والإداري أيضًا بسرعة كبيرة، وخلقت عملية انسيابية من تلقى المخزونات ونقلها أعلى النهر. لقد أحال مود ومونرو البصرة إلى ميناء إقليمي رئيسي شرق السويس، وعكسا بعدًا واحدًا للتصحيح العام لعملية بلاد الرافدين. وكان البعد الآخر الذي لم يكن يقل أهمية يتمثل في إعادة تنظيم خدمات النقل وتحويلها إلى منظومة متجانسة مسؤولة عن سياسة النقل العامة⁽⁹⁰⁾.

ولقد بدأت مديريات السكك الحديدية والأشغال المؤسسة حديثًا في إعادة تشكيل خطوط الاتصال التي وصلت ما بين البصرة والوحدات الأمامية والمراكز الدفاعية بينما أحدثت كميات من العربات المدرعة والطائرات تحولًا في القدرة الحركية العملية لقوة تجريدة بلاد الرافدين. والأهم أن ذلك حرّر قوة التدخل السريع من تعويلها شبه الكامل على الأنهار، ومكّن مود من إنشاء سلسلة من مراكز الإمداد المتقدمة والمستودعات والمستشفيات العسكرية بطول نهر دجلة استعدادًا لمواصلة التوغّل. وخلال عام 1917، توسّعت شبكة السكك الحديدية سريعًا كخطوط متشعبة للخارج من البصرة وبغداد بعد الاستيلاء على الأخيرة في مارس. ومع ذلك فقد أنجز هذا التوسّع بطريقة عشوائية متقطعة، وأدى إلى تطوّر ثلاثة تجمعات من السكك الحديدية المنفصلة التي ما برحت تعتمد على الهند فيما يتعلق بإرسال قاطرات ومعدات دارجة دون المستوى غالبًا⁽⁹¹⁾.

ولا شك أن الإصلاح الكامل للخدمات الإدارية لقوة تجريدة بلاد الرافدين كان مباشرًا محوريًا للتجديد النهائي للعمليات في ديسمبر 1916. فقد جاء هذا التجديد على خلفية وصول الغطاء الواقي بالكامل الممثل في الحملات العسكرية الصناعية بكل ما تتمتع به من متطلبات لوجستية ضخمة. وكما هو الحال في أي مكان آخر، خلق ذلك تعويلًا جديدًا شديدًا على السلع المُنتَجة صناعيًا حيث وصلت كميات مهولة من المدفعية الخفيفة والذخيرة وآليات نقل السكك الحديدية والنقل الجوي.

واقترضت المتطلبات النهمة للحرب الحديثة تعبئة موارد القوة العاملة المحلية والمحاصيل الزراعية واستخلاصها بالتزامن مع تطور بصمة أقوى بغية التغلغل في أنماط محلية للنشاط الاقتصادي⁽⁹²⁾. وسندرس هذا الجانب تفصيلًا في الفصل الثامن، لكن من الضروري هنا أن نذكر أن الفترة ما بين ديسمبر 1916 ومارس 1917 شهدت نقطة تحوّل حاسمة في بلاد الرافدين. فمن تلك المرحلة فصاعدًا أفسحت الحملة العسكرية الطريق تدريجيًا أمام تكثيف الهيمنة السياسية والاقتصادية البريطانية على القبائل والمجتمعات التي لم تكن معتادة حتى تلك اللحظة على تجلّي سلطة الدولة، والتي كانت تحمي بضراوة وشراسة مواردها الشحيحة.

تأكيد الهيمنة الإقليمية

لقد اكتسبت عمليات التعزيز هذه أيضًا بُعدًا إقليميًا إذ دعمت السياسات البريطانية من مكانتها لدى مشيخات الخليج العربي ذات الأهمية الاستراتيجية وفي شبه الجزيرة العربية نفسها. ورغم أن الكويت والبحرين وإمارات الساحل المتصالح التأمّت معًا في شكل خليط غير متجانس من الممتلكات الإمبريالية خلال القرن التاسع عشر، فقد تطلّبت الضربة الموجهة للهيئة البريطانية إجراء مضافًا لإعادة تأكيد هذه الهيئة. وكانت الكويت ذات أهمية خاصة بموجب قربها الجغرافي وعلاقاتها القبلية والاقتصادية المتداخلة مع البصرة. وقد سبق أن تعاون حاكمها الشيخ مبارك بن صباح الصباح عن كثب مع القوة البريطانية الغازية، وساهم بآلاف الروبيات إلى الصليب الأحمر البريطاني، وقدم دعمًا لوجستيًا لقوّة التدخل السريع «د»، وسمح للسفن الاستشفائية البريطانية بالإرساء في ميناء مدينة الكويت ذي المياه العميقة. لكن مبارك الذي وقّع على الاتفاقية الإنجليزية الكويتية عام 1899 توفي في 28 نوفمبر 1915، وخلفه ابنه الشيخ جابر المبارك الصباح⁽⁹³⁾.

وعلى النقيض من دعم أبيه الشديد للإمبراطورية البريطانية، كان الشيخ جابر أكثر استقلالية بكثير من الناحية الفكرية. ورغم أن فترة حكمه القصيرة لم تدم إلا 15 شهرًا وحسب حيث توفي في فبراير 1917، فإنه بدّل ولاءه وانحاز للعثمانيين حيث

سهّل حركة قوافل الجمال نوعًا ما بين الكويت وسوريا. ونتج عن حركة التجارة المترتبة على هذا التحيز كسر الحصار البريطاني المضروب على منطقة شرق البحر المتوسط، وأمتّته هذه الحركة وصول إمدادات حيوية للقوات العسكرية العثمانية في دمشق⁽⁹⁴⁾. وقد بلغت الاحتجاجات البريطانية المكثفة ذروتها في اجتماع عُقد في 23 نوفمبر 1916 في مدينة الكويت بين السير بيرسي كوكس وأكابر رجالات الكويت. وحاول كوكس، وهو كبير الموظفين السياسيين بقوّة تجريدة بلاد الرافدين، إعادة تأكيد الدعم المحلي للأهداف البريطانية الإقليمية لكن الاجتماع انتهى بلا حسم. وتولى الشيخ سالم المبارك الصباح بعد أخيه الحكم في فبراير 1917، فزادت التجارة مع العثمانيين لدرجة أن البحرية الملكية بالفعل حاصرت الكويت بغية منع تدفقات الإمدادات ووضع نهاية لها، الأمر الذي نسبته سالم (المتضرر) إلى عمليات التهريب المخالفة للقانون⁽⁹⁵⁾.

وإلى الجنوب من الكويت، حقّق البريطانيون نجاحًا أكبر إذ دمجوا قطر (وهي المشيخة الخليجية الوحيدة التي لم تربطها بهم علاقات حماية من قبل) إلى حظيرة الإمبراطورية البريطانية. وكانت عائلة آل ثاني الحاكمة قد دنت من العثمانيين بقدر أكبر في سبعينات القرن التاسع عشر، لكن المصالح القطرية والبريطانية تلاقت بقدر أكبر تدريجيًا خلال فترة الحرب. وحدث ذلك عندما سعى الحكام القطريون إلى تأمين سيطرتهم على مشيختهم الصغيرة في مواجهة استعراض عبد العزيز آل سعود لسلطوته الأوسع انتشارًا على شبه الجزيرة العربية. ولحماية استقلاليتهم المحلية والحصول على ضامن خارجي منشود لأنهم، وقّعوا على الاتفاقية الإنجليزية القطرية في 3 نوفمبر 1916. ورغم أن البريطانيين لم يُصدّقوا عليها حتى 23 مارس 1918، فقد منحت قدرًا محوريًا من الدعم للقيادة القطرية، وكانت وسيلة لإعادة التوازن في مواجهة الثقل الأكبر للقوات السعودية الناشئة⁽⁹⁶⁾.

وكما بيّنا أعلاه، عكس توتر عائلة آل ثاني في قطر إعادة تشكيل ميزان القوى داخل شبه الجزيرة العربية نفسها. وقد سبق ذلك الحرب العظمى، إذ انتزع عبد

العزیز آل سعود السيطرة على الرياض ومنطقة وسط نجد من عائلة الرشيد المنافسة له عام 1902. واستجابت الدولة العثمانية لهذا التحدي المحلي للوضع القائم بأن انحازت لعائلة الرشيد التي يربطهم بها تاريخ من التعاون، وأرسلوا قوات إلى شبه الجزيرة العربية. ورغم أنهم هزموا عبد العزيز آل سعود في بداية الأمر عام 1904، فإن هذا النصر لم يدم طويلاً إذ استعاد عبد العزيز سيطرته على منطقة نجد وانطلق شرقاً وصولاً إلى ساحل الخليج العربي بحلول عام 1912. وعزز هذا النصر مكانته المحلية في مواجهة المشيخات الساحلية المحمية من قبل الإمبراطورية البريطانية، وكذلك تحركاته المبدئية الساعية إلى توطين القبائل البدوية المحلية وتعبئتهم في قالب ميليشيا الإخوان المسلمين الدينية المهيبة. وقد حدثت أولى عمليات التوطين الزراعي هذه عام 1913⁽⁹⁷⁾.

وكان المسؤولون البريطانيون قد عقدوا اتفاقية مع عبد العزيز آل سعود بعد بداية الحرب بفترة وجيزة في إطار بحثهم عن حلفاء إقليميين داعمين. ولعلمهم استفادوا من العلاقة التي أقامها المندوب السياسي البريطاني في الكويت سابقاً الكابتن وليم شكسبير. فقد تواصل شكسبير مبدئياً مع عبد العزيز آل سعود خلال رحلاته عبر الجزيرة العربية، وأمسى لاحقاً مستشاره العسكري. وفي نوفمبر عام 1914، طلبت حكومة الهند منه تأمين دعم عبد العزيز آل سعود للعمليات التي تضطلع بها قوة التجريدة الهندية «د» في البصرة. ولكنه قُتل بعدها بشهرين في معركة ضد فلول آل الرشيد، وبعدها بفترة طويلة حلّ محله (تحديداً في نوفمبر 1917) سانت جون فيلبي المُستعرب البارز والد الجاسوس سيء السمعة كيم فيلبي. ولكن في تلك الأثناء اتخذت العلاقة الوليدة ما بين آل سعود والبريطانيين شكلاً رسمياً في «معاهدة العقير» عام 1915 التي اعترفت بعبد العزيز حاكماً على نجد والأحساء والقطيف والجبيل. وباعتبارها الاتفاقية الدولية الأولى التي يوقع عليها عبد العزيز، فقد عززت موقفه وسمحت له بتدعيم هيمنته على شبه الجزيرة وإحباط الأهداف العثمانية هناك⁽⁹⁸⁾.

ولن يتجلى الأثر الكامل لهذه التحالفات في إعادة التنظيم الإقليمية سوى في أعقاب الحرب. فهذه ليست المرة الأولى التي يؤدي فيها السعي قصير الأجل وراء المتعاونين المحليين إلى إقحام الأطراف المتحاربة في شبكات من التحالفات التي ثبت في نهاية المطاف فشلها وتضاربها. وسنمحص في هذه التحالفات بالتفصيل في الفصل الثامن. وفي حالة شبه الجزيرة العربية الخاصة، خلقت علاقات بريطانيا إبان الحرب مع آل سعود التباسًا شديدًا في ظل دعمها لشريف مكة في الثورة العربية حيث كان الطرفان يتنافسان على الهيمنة على شبه الجزيرة. كما هددت تلك العلاقات أيضًا استقرار وأمن المشيخات الأصغر حجمًا والأضعف بكثير والواقعة تحت الحماية البريطانية على الخليج العربي.

الزحف إلى بغداد

مع قرب اكتمال عملية إعادة التنظيم المحلية ورسوخ أقدامهم إقليميًا بقدر أكبر، واصل البريطانيون توغّلهم باتجاه بغداد في 14 ديسمبر 1916 إذ شنت قوة تجريدة بلاد الرافدين هجومًا على المواقع العثمانية في مدينة الحي. وهناك رسّخوا أقدامهم عبر روافد بلدة الحي، لكن الأمطار الغزيرة عرقلت أيّة عمليات جديدة حتى 19 يناير 1917 عندما استُولي على بلدة الحي نفسها. وفي 25 يناير، شنت قوة تجريدة بلاد الرافدين هجومًا على خط الدفاع الأمامي المحوري استراتيجيًا لبلدة الحي. وكان هذا الهجوم احتراقيًا جدًّا بالمعايير العسكرية حيث تضمن مُعايرة مبدئية للمدفعية وغطاء من النيران وقصفًا مبدئيًا مكثفًا على المواقع العثمانية، ثم هجمة منسقة من سلاح المشاة على هيئة أربع موجات بدعم من غارات القصف ونيران البنادق الآلية. وقد كشف هذا الهجوم عن أن قوة تجريدة بلاد الرافدين باتت على دراية واسعة بأحدث التقنيات العسكرية التي تمارسها القوات البريطانية على الجبهة الغربية في أوروبا. ورغم أن القوة تكبدت خسائر جسيمة، فإنها سحقت الخط الدفاعي للبلدة في 4 فبراير 1917⁽⁹⁹⁾.

وعلى الفور أتبع مود هذا النصر بالاستيلاء على الصناعات في 23 فبراير. وكشف

هذا الفتح له موقعًا استراتيجيًا ومكّن قوّة تجريدة بلاد الرافدين من عبور نهر دجلة وإعادة الاستيلاء على مدينة كوت العمارة في 25 فبراير؛ أي بعد عشرة أشهر من الفترة التي مثّل فيها سقوط المدينة نفسها قاع المجهود الحربي البريطاني. ودلّت تبعات هذه المعركة على القوّة الجديدة التي أمست رهن يمين مود حيث تعرضت الوحدات العسكرية العثمانية المنسحبة إلى نيران كثيفة من الفيلق الجوي الملكي بينما لاحقتهم العربات المدرعة وأنهكتهم. وبعدها توقف التوغّل مؤقتًا للسماح بإنشاء سلسلة متعاقبة من الموانئ المؤقتة ومخازن الإمدادات الوسيطة. وفي 4 مارس، أقرّ قائد الأركان العامة الإمبراطورية في لندن وقائد عام الجيش الهندي التوغّل الأخير نحو بغداد. وبدأ هذا التوغّل في 5 مارس، وبلغ ذروته بعدها بستة أيام إذ تقدم اللواء 35 مشاة إلى بغداد لاستعادة الأمن والنظام في المدينة ووضع حدّ لعمليات النهب التي بدأت إثر إجلاء العثمانيين في اليوم السابق⁽¹⁰⁰⁾.

ولقد كان احتلال بغداد بمثابة نصر سياسي مذهل وأوّل نجاح كبير يحققه البريطانيون في الحرب. وبالطبع أسهم إلى حدّ كبير في إصلاح الضرر الذي لحق بالهيئة البريطانية عام 1916. وقد ألقى مود بنفسه في 19 مارس بيانه على سكان بغداد الذي تعهّد فيه بأن جيشه لم يأت غازيًا بل محرّرًا. ولكن نظرًا لما كان يتمتع به من غرور وعنجهية، لم يوقف الاستيلاء على بغداد الحملة العسكرية في بلاد الرافدين ولم يحقق نصرًا عسكريًا أقرب على الدولة العثمانية ودول المركز. كما عكس ذلك الموقف المحيط بالحملة العسكرية الممثل في التوازن الجغرافي الاستراتيجي الأوسع للقوى حيث نشأ تعارض متنامٍ بين استمرارها والاعتبارات العسكرية الأشمل. ومع ذلك، واصلت قوّة تجريدة بلاد الرافدين وتيرتها العملياتية حتى نهاية الحرب في نوفمبر 1918، وزادت باستمرار من مسؤولياتها في الوقت الذي انبثق فيه شقاق بين المسؤولين البريطانيين المدنيين والعسكريين في بلاد الرافدين فيما يختص باتجاه الحملة ونطاق أهدافها.

كذلك عزّزت العمليات المبدئية إثر الاستيلاء على بغداد الهيمنة البريطانية على

الطرق المؤدية للمدينة والمناطق الداخلية الإقليمية الملحقة بها. فقد اتخذت قوة تجريدة بلاد الرافدين خطوات لتأمين المسارات النهرية المؤدية إلى بغداد، فاحتلت بعقوبة (الواقعة على نهر دبالى) في 18 مارس، والفلوجة (الواقعة على الفرات) في 19 مارس، ونهاية السكك الحديدية العثمانية بمدينة سامراء (الواقعة على نهر دجلة) في 23 مارس⁽¹⁰¹⁾. وفي فترة لاحقة من العام نفسه (تحديدًا في خريف 1917)، بسط المزيد من عمليات التوغّل نطاق الهيمنة البريطانية على ما تبقى من ولايات عثمانية بالاستيلاء على مدن الرمادي والكفل وتكريت. وكانت هذه المكاسب كبيرة حيث حرمت العثمانيين من ثلاثة خطوط اقتراب رئيسة لأية هجمة مضادة على بغداد⁽¹⁰²⁾. علاوة على ذلك، فقد شددت قوة تجريدة بلاد الرافدين حصارها الاقتصادي على المواقع العثمانية المتبقية في محاولة لسدّ الثغرات التي أحدثتها التجارة الكويتية مع الأطراف المحلية والإقليمية. وكان المقدم جيرارد ليشمان (ويُكنّى بـ «قائد الصحراء») مسؤولاً عن ذلك الحصار، وقد نفّذه بلا هوادة ولا رحمة لدرجة أنه أمسى مكروهًا جدًّا من السكان المحليين. وقد وصف مهمة من مهامه «لتأديب قبيلة كردية» بأنها «رائعة جدًّا لكنها كريهة جدًّا في آن واحد». وربما لم يكن من المستغرب في ظلّ تكتيكاته العدائية أنه قُتل على يد مجموعة من أعضاء قبيلة زوبع على مقربة من الفلوجة في أثناء ثورة عامة اندلعت في أغسطس 1920⁽¹⁰³⁾.

تداعي القوة: بلاد فارس والتنمية الزراعية

مات مود على حين غرة في 18 نوفمبر 1917 متأثرًا بمرض الكوليرا. وخلفه في قيادة قوة تجريدة بلاد الرافدين الفريق السير وليم مارشال. ومع الانتهاء من توحيد الولايات التابعة لبغداد، مثّل مفترق الطرق هذا نقطة منطقيّة كان من المفترض أن تتوقّف عندها العمليات العسكرية في بلاد الرافدين. ومع ذلك، فقد استمرت تلك العمليات مجددًا شتاء عام 1917 وخلال الأشهر الأولى من عام 1918 بعدما أدى خروج الروس من الحرب إلى استحضار مخاوف خيالية لدى الساسة البريطانيين في لندن ودلهي من توغّل تركي-ألماني مشترك عبر منطقة القوقاز وبلاد فارس باتجاه

الهند⁽¹⁰⁴⁾. واسترجاعًا لأحداث الماضي، تبدو هذه المخاوف غير واقعية مغرقة في الخيال عندما نضع نصب أعيننا الاعتبارات اللوجستية وحالة الإنهاك التي يعاني منها الجيشين العثماني والألماني في أوائل عام 1918. لكنها أدت مع ذلك إلى إرسال بعثة عسكرية بريطانية قوامها حوالي 1000 من خيرة القوات البريطانية والكندية والأسترالية والنيوزيلاندية إلى بلاد فارس تحت قيادة الجنرال ليونيل دونسترفيل. وقد أضفى ذلك تعقيدًا على خطوط الاتصال في مواجهة مارشال، وخاصة بعد الهجمة العسكرية الألمانية القويّة على الجهة الغربية في 21 مارس 1918. إذ كانت الحاجة لنقل وحدات بريطانية إلى فرنسا، وكذلك الضغوط التي فُرِضت على النبي في فلسطين، تفرض إجراء عملية إعادة تنظيم سريعة على قوّة تجريدة بلاد الرافدين حيث استبدلت بتلك الوحدات أخرى تم تشكيلها دون سابق إنذار في الهند⁽¹⁰⁵⁾.

وعلى أية حال، تقدّمت «قوّة دونستر» والوحدة الملحقة بها (قوامها 750 مركبة مدرعة) لأكثر من 500 كم عام 1918، وفي نهاية المطاف وصلت إلى مدينة باكو الأذربيجانية، ولكنها كانت تمثّل ثقلًا شديدًا على القدرات اللوجستية لمارشال الذي شكى من اضطراره إلى تحويل كل وسائل نقله إليها. وفي مايو عام 1918، أمست نتائج هذا التمدد المبالغ فيه واضحة إذ عجز مارشال عن إقامة حامية في مدينة كركوك الواقعة شمال بلاد الرافدين إثر إسقاط قوّة تجريدة بلاد الرافدين لها. وعزي ذلك ببساطة إلى أنه لم يكن لديه سوى عدد قليل جدًا من وحدات النقل المتاحة له في بلاد الرافدين لإقامة حامية في كركوك. ولقد استجاب مارشال بغضب للقيود المفروضة على قوّة تجريدة بلاد الرافدين، مما نجم عنه حالة من الإحباط العام بين كثير من الضباط البريطانيين في بلاد الرافدين حتى أن العمليات العسكرية بدت آنذاك محصورة في «ملاحقة مؤخّرة الجيش التركي إلى أن نفدت إمداداتنا»⁽¹⁰⁶⁾.

والواقع أنه لم يكن لهذه التحركات أية أهمية مطلقًا على النتيجة النهائية للحرب ما بين البريطانيين والدولة العثمانية. ولم يكن كذلك ثمة أهمية للانحراف الكبير لقوّة تجريدة بلاد الرافدين في أواخر عام 1917 وغالبية عام 1918 إذ انخرطت في

عملية عشوائية لـ «بناء الدولة» المبدئي في بلاد الرافدين. فمن ناحية، كان تطوير خطط التنمية الزراعية الكبرى ردّة فعل عملية لحالات القصور في الشحن بغية استيراد المواد الغذائية والأغراض المهمة للحملة من الهند⁽¹⁰⁷⁾. ومن ناحية أخرى، خلق التمدد السريع في مساحة الرقعة الواقعة تحت احتلال قوّة تجريدة بلاد الرافدين إثر الاستيلاء على بغداد صعوبات شديدة في سدّ الحاجات المدنية والعسكرية للموارد، ولاسيما المواد الغذائية. وأوجبت هذه الصعوبات استغلال قرار سابق اتخذته وزارة الحربية في لندن في يوليو 1916 يقضي باستفادة حكومة الهند من الموارد المحلية قدر الإمكان للوفاء باحتياجات قوّة تجريدة بلاد الرافدين. وعلى ذلك، أقرّت السلطات البريطانية في خريف عام 1917 في بغداد خطة للتنمية الزراعية واسعة النطاق في إطار مشروع طموح لتحقيق الاكتفاء الذاتي من القمح والشعير والقش⁽¹⁰⁸⁾.

ولذلك حصل تكثيف استخلاص الموارد المحلية إلى جانب الغزو العسكري لبغداد والولايات المحيطة بها. وصرّح مود في 3 مارس 1917 أنه توقّع أن يُمكنه من «استغلال جوارها إلى حدّ كبير لأغراض الإمداد، وخاصة إمداد المواد الغذائية والعلف». وقد شغلت هذه الأشياء الضخمة مساحة نقل كبيرة. ومع احتلال الفلوجة في التاسع عشر من مارس، بسطت قوّة تجريدة بلاد الرافدين هيمنتها على مناطق زراعة المحاصيل الخصبة في وادي الفرات التي كانت بغداد والأراضي الداخلية التابعة لها تقتات عليها. وقد اعتبرت غيرتروود بل سكرتيرة الشؤون الشرقية لدى المندوب السامي البريطاني في بغداد خسارة العثمانيين لتلك المنطقة الغنية بالمحاصيل «واحدة من أكثر التبعات كارثيّة لسقوط بغداد»⁽¹⁰⁹⁾.

وإذ توسّعت الهيمنة البريطانية في شتّى أرجاء بلاد الرافدين، تصاعدت بحدّة كميات الإمدادات والموارد المحلية المنشودة. وانتشر الموظفون السياسيون في الأراضي العراقية بمساعدة من الوحدات العسكرية التي أضافت إلى قوتهم الجبريّة في جهودهم الساعية إلى كسب الولاء القبلي بأساليب توافقية. ولكن ثمة استثناء مهمّا تمثّل في مدينتي النجف وكربلاء الشيعيتين المقدستين اللتين كانت إدارتهما

تتمّ بشكل غير مباشر عن طريق مشايخهما المحليين. وقد يَسَّرت السيطرة المباشرة (وغير المباشرة) إنشاء مديرية الموارد المحلية، وسهّلتها أيضًا شبكات الإمداد ومسؤولو النقل الذين رافقوا الموظفين السياسيين إذ خفّفوا من توتّر القبائل المحلية. وتسارعت وتيرة التجنيد المنظم للعمال في الوحدات اللوجستية لقوّة تجريدة بلاد الرافدين بسرعة مهولة إثر الاستيلاء على بغداد. وشكّلت تلك التطورات العمود الفقري لمؤسسات الصناعات الاستخراجية التي بدأت آنذاك تنظيم التعبئة الشاملة لجميع الموارد الاقتصادية والمجتمعية المحلية للمجهود الحربي. وانطوى ذلك على ما أسماه البريطانيون تخفيفًا لوقعه «الإخضاع بالوسائل السياسية» للقبائل المحلية غير المعتادة إلى حدّ كبير على إسقاط الهيمنة المركزية على شؤونها الداخلية⁽¹¹⁰⁾.

لكن هذه الإجراءات شكّلت خلفية نزاع شديد على تحديد السيطرة المدنية والعسكرية تفاقم بين مود وكوكس. فباعتباره رئيس أركان قوّة تجريدة بلاد الرافدين، وانطلاقًا من تكليفه بمسؤولية الشؤون العسكرية في بلاد الرافدين، عارض مود إنشاء إدارة مدنية وأراد أن يركّز كل طاقته على إدارة دقّة الحرب. وفي يوليو عام 1917، حذّر مود السلطات العسكرية البريطانية في لندن ودلهي من أنه «لو حاولنا... تطوير المدينة... سنكون قد جاوزنا الحدّ وستبوء محاولتنا بالفشل»⁽¹¹¹⁾. وقد أثار هذا الرأي غضب كوكس، فاستجاب واصفًا مود بأنه «جندي قح لا يمتلك أية خبرة سابقة عن الشرق»، وبالتالي فهو «غير متفهم للمشكلات السياسية ويضيق صدره بها نوعًا ما»⁽¹¹²⁾. وأخيرًا توجّه إلى حلّ وسط حيث عُيّن كوكس مفوضًا مدنيًا في بغداد بينما احتفظ مود بالسلطة المطلقة في بلاد الرافدين. ولكن غسان عطية لاحظ أن هذا الاتفاق «لم يثنِ كوكس إلا قليلًا عن سياسته الساعية إلى إقامة إدارة مدنية»، وأن ذلك عجّل بوفاة مود في نوفمبر⁽¹¹³⁾.

النفط والموصل

أدار لنا التفاعل بين السياسة العسكرية والمناورات السياسية وجهه القبيح مجددًا في الأشهر الأخيرة من الحرب العظمى، وأفضى إلى التعجّل في احتلال الموصل قبل

نهاية الأعمال العدائية في ميادين الحروب العثمانية. وحدث ذلك بعد أن أدرك مجلس وزراء الحرب في لندن متأخرًا قيمة بسط السيطرة على ولاية الموصل باعتبارها مصدرًا محتملاً لإمدادات النفط للإمبراطورية البريطانية. ورغم أن النفط اكتُشِفَ في بلاد فارس المتاخمة عام 1908، وكان من بين مبررات إرسال جنود بريطانيين وهنود إلى البصرة عام 1914 حماية منشآت الشركة الإنجليزية الفارسية في المنطقة، فإنه لم يُشكَّل عاملًا مهمًا ضمن «غايات الحرب» البريطانية في بلاد الرافدين سوى قرب نهاية الحرب. ففي 30 يوليو 1918، وصف السير موريس هانكي (الأمين العام الواسع النفوذ لمجلس وزراء الحرب) السيطرة على الإمدادات النفطية (المفترضة) لبلاد الرافدين بأنها «من أبرز غايات الحرب البريطانية»⁽¹¹⁴⁾. وفي رسالة أمست ذات أهمية حاليًا إلى وزير البحرية (السير إيريك غيديس)، صرَّح هانكي بأنه «يبدو من المحبذ قبل أن نبادر ببحث عملية السلام أن نحكم سيطرتنا على المناطق الغنية بالنفط في بلاد الرافدين وجنوبي بلاد فارس حيثما كانت». علاوة على ذلك، أضاف هانكي أن «بسط السيطرة على دولة أخرى غنية بالنفط... قد يجعل من الجدير بالنسبة لنا أن نمضي قدمًا في بلاد الرافدين رغم أهميتها المحدودة نسبيًا من وجهة نظر استراتيجية بحتة»⁽¹¹⁵⁾.

ولقد استند تحوُّل هانكي إلى قيمة تمديد الهيمنة البريطانية في بلاد الرافدين إلى مذكِّرة لا تقل أهمية خطَّها الفريق أولبحريالسير إدموند سليد بعنوان «موقف البترول في الإمبراطورية البريطانية». وفيها احتجَّسليد بأن السيطرة على مصادر (ومواقع) وقود السفن محوريّ جدًّا «لبقائنا كإمبراطورية»، وأنه بما أن النفط من المتوقع أن يحلَّ محلَّ الفحم تدريجيًّا في مجال النقل البحري، «فمن المهم جدًّا بالنسبة لنا أن نبسط سيطرتنا الكاملة بلا منازع على أكبر كمية ممكنة من البترول تصل إليها أيدينا». وفي مثال مبكِّر على «تأمين الموارد»، صرَّح بأن «السيطرة يجب أن تكون مطلقة، ولا يجب أن تكون هناك أية مصالح أجنبية مشمولة»، وأنه «حينئذ فقط سنستطيع تأمين الموقف الاستراتيجي، وسنتمكن من استشراف المستقبل بثقة بقدرتنا على الهيمنة على اتصالات العالم البحرية حال اندلاع حرب أخرى»⁽¹¹⁶⁾. وتجدر الإشارة إلى أنه كان لدى سليد مصلحة قويَّة انطلاقًا من كونه مدير الشركة

الإنجليزية الفارسية للنفط، ونصيرًا لشراء الحكومة البريطانية لحصة ميطرة منها عام 1914. ولقد طرحت مذكرته أدلة مغرية على تأمين السلطة والنفوذ البريطانيين في عالم ما بعد الحرب العالمية في فترة كان فيها ميزان القوة في الحرب العظمى قد بدأ يميل نحو الحلفاء.

وسرعان ما نالت وجهة النظر هذه دعم رئيس الأركان الجوية المسؤول عن سلاح الجو الملكي المنشأ حديثًا الذي أضاف أن «مستقبل سلاح الجو بأكمله يعول على إمدادات كافية من النفط السائل»، وأن «المناطق التي تحوي هذا النفط يتعين حمايتها بحزام عريض جدًا من الأراضي التي تفصل بينها وبين الأعداء المرتقبين»⁽¹¹⁷⁾. وأدى تراكم الدعم من أجل حيازة بريطانيا لمساحات شاسعة من بلاد الرافدين وبلاد فارس بهانكي إلى أن يرأسل وزير الخارجية (ورئيس الوزراء الأسبق) السير آرثر بلفور مشجعًا إيّاه على دعم المقترحات الجديدة. ورغم تردد بلفور في بداية الأمر فيما يختص بما أسماه «غاية إمبريالية محضة من غايات الحرب»، ألح هانكي في طلبه كاتبًا أنه «يكاد يكون من الحتمي أن نمتلك المناطق الشمالية لبلاد الرافدين». وليضفي ثقلًا على محاجته ويخفف من دور المصالح النفطية فيها، أضاف نقطة ذات أهمية تتعلق بضمان السيطرة باتجاه المنبع على الموارد المائية لنهري دجلة والفرات للحيلولة دون سقوطها في أيدي العدو، الأمر الذي من شأنه أن يسدّ النهرين لأغراض الري ومن ثمّ يقلل من تدفق المياه باتجاه المصبّ. ولهذا السبب، طلب هانكي من بلفور إقرار توغّل جديد في شمال بلاد الرافدين «بقدر ما تقتضيه الضرورة لتأمين إمدادات مناسبة من المياه. وسيؤمن لنا ذلك بشكل عرضي أغلب الأراضي الحاوية للنفط»⁽¹¹⁸⁾.

إن هذه الجهود الساعية إلى استمالة أبرز متخذي القرار البريطانيين آتت ثمارها في نهاية المطاف. ففي أواخر أكتوبر 1918، انطلق فيلق الجيوش الأول التابع لقوة تجريدة بلاد الرافدين إلى الموصل بعد أن أدّت النهاية الوشيكة للأعمال العدائية مع الدولة العثمانية بالقائم مقام المفوض المدني (في غياب كوكس في لندن) السير آرنولد ولسون إلى أن يشجّع «كل الجهود... الساعية إلى السيطرة على أكبر قدر

ممكن من الأراضي الواقعة على نهر دجلة قبل انكشاف الأمر». وقد فرض التوغل ضغوطاً إضافية شديدة على قوة عسكرية كانت منهكة جداً بالفعل بسبب العمليات التي نفذتها في بلاد فارس وفي باكو، مما دّل على أن هذا القرار كان قراراً جغرافياً استراتيجياً خالياً من الغايات العسكرية. وحقيقة الأمر أن الموصل لم تُحتل في النهاية حتى 10 نوفمبر 1918. هذا اليوم الذي كان قبل نهاية الحرب في أوروبا، ولكنه جاء بعد 11 يوماً من إنهاء هدنة مودروس للصراع العثماني⁽¹⁹⁾.

وقد وضع الاستيلاء (المتأخر) على مدينة الموصل نهاية للحملة العسكرية في بلاد الرافدين. وتحولت العملية العسكرية المحدودة النطاق التي تصوّرها واضعو الخطط البريطانيون في الهند في أكتوبر 1914 إلى واحدة من أكثر الحملات العسكرية الممتدة زمنياً خارج المسرح الأوروبي للحرب العظمى. وعلى الجانب البريطاني، جمعت الحملة بين سوء الإدارة المبدئي الجسيم والخزي الحتمي من ناحية والانتصارات اللاحقة والمحاولات المُدبّرة لتأسيس الدولة. وبالنسبة للعثمانيين، كَمَّنَ النجاح الأساسي للحملة في حصرها لعدد مهول من القوات البريطانية والهندية في ميدان معركة ناءٍ جداً حيث لا يستطيعون الإضرار بقلب الإمبراطورية إلا قليلاً. وفي تلك الأثناء، سعت الجماعات القبلية المحلية في بلاد الرافدين والخليج العربي إلى استغلال الأقدار المتقلبة للطرفين المتحاربين لتعظيم مكاناتهم وقوتهم المحلية.

وكما سنوثق لاحقاً بالتفصيل في هذه الدراسة، كان للجهود المبدئية لبناء الدولة التي قام بها المسؤولون البريطانيون في بلاد الرافدين في عامي 1917 و1918 تبعات ممتدة. فقد انعكست خططهم على الأراضي المحتلة في سياسات سترت على استحياء خطتهم لما بعد الحرب. وسيصف الفصل الثامن كيف أدى ذلك إلى إنشاء دولة مركزية تختلف اختلافاً كبيراً عن سابقتها العثمانية في مدى سيطرة الدولة وعمق اختراقها للمجتمع. ومع ذلك، فقد أُنزِ التفات الذي رُسمت به الهيمنة البريطانية والبريطانية-الهندية، وكذا ردود الأفعال المتباينة التي أثارها هذا التفات، على ملامح الثورة التي اندلعت عام 1920، ومعها كذلك الحكومة العراقية التي تطوّرت بعدها.

الباب الثالث

السياسة والدبلوماسية

الفصل السابع

الصراع على الهيمنة السياسية في الشرق الأوسط

وصف الفصلان الثالث والسادس تفصيلًا الحملات العسكرية الأساسية التي جُردت في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا في الفترة ما بين أغسطس 1914 ونوفمبر 1918. فقد أُمست المنطقة بأسرها مسرحًا للصراع ما بين القوة المهيمنة ما قبل الحرب العالمية الأولى الممثلة في الدولة العثمانية والمصالح الإمبريالية الصاعدة لبريطانيا وفرنسا. وفاقم من أثر العمليات العسكرية شكل مبكر من أشكال «الثورة في الشؤون العسكرية» نتج عن الحرب ذات الطابع الصناعي الدائرة في المناطق التي يغلب عليها الطابع ما قبل الصناعي. فعلاوة على تعريض الدول والمجتمعات المعنية للتداعي الاقتصادي الوارد ذكره أعلاه والمشقات المتلاحقة المعاصرة لفترات الحرب، أفضت الحرب أيضًا إلى خطط لإعادة تشكيل النظام الإقليمي في الشرق الأوسط وإعادة رسم علاقته بنظام عالمي في حالة ميوعة وتغير دائم. ولقد بثت مجموعة كبيرة من الوعود المبهمة والاتفاقيات المتسارعة المبرمة زمن الحرب خلال الفترة بين عامي 1915 و1917 البذور الخبيثة للضغط والصراع ما أن أُمسى مداها الكامل وطبيعتها الإمبريالية المتعارضة بشكل صارخ واضحًا وجليًا عام 1918. إضافة إلى ذلك، فقد تضاربت تلك الوعود، خلال العام الأخير من الحرب، بالتزامن مع ظهور نقاط الرئيس الأمريكي ولسون الأربع عشرة استنادًا إلى فكرة «تقرير المصير» المخولة لمن يعتنقها، رغم المحاولات العقيمة للمراقبين البريطانيين للحيلولة دون الإعلان عن شروطهم في مصر وفلسطين وبلاد الرافدين.

ويستكشف الفصلان الأخيران من هذا الكتاب الأبعاد السياسية للصراع الساعي إلى إعادة تشكيل الشرق الأوسط في ضوء الفرصة التي أتاحتها الحرب العالمية الأولى للمسؤولين الإمبراطوريين والقوميين المحليين على حد سواء. ويروي هذا

الفصل قصة الجهود التي بذلها المسؤولون البريطانيون والفرنسيون لبسط نفوذهم عبر المنطقة وتعظيم مكاسبهم في أية تسوية نهائية ما بعد الحرب. ويعد هذا الفصل أيضًا رواية للتناقضات والمعلومات والمعارف الاستخبارية التي أدت إلى تركيز المعارف واتخاذ القرار في المراكز الإمبراطورية الخاضعة لسلطة عدد قليل ممن نصّبوا أنفسهم خبراء. وفي ظل مواجهة المسؤولين المزيد من الضغوط الوشيكة لمواصلة الحرب الأوروبية، منح هذا التعارض في المعلومات الخبراء الإقليميين درجة أكبر من الحرية في تشكيل السياسات بحسب ما يتراءى لهم. ولم يتجلى ذلك أكثر مما حدث في السياسات التي تبناها أيه. تي. ولسون في بلاد الرافدين عام 1918 وأوائل عام 1919. وما زالت أسماء بعض هؤلاء، ولاسيما تي. إي. لورنس (العرب) والسير مارك سايكس وفرنسوا جورج-بيكو، يتردد صداها في شتى أرجاء المنطقة بعد الحرب بقرن كامل، وكذا ذكر وزير الخارجية البريطاني عام 1917 السير آرثر بلفور الذي ما برح تصريحه في نوفمبر من ذاك العام موضوعًا خلافيًا حادًا وإرثًا مطعونًا فيه.

ويعصف الفصل الحالي أيضًا كيف تفاعل النفط، وغيره من الأسباب الجغرافية-التجارية والجغرافية-الاستراتيجية، مع الاقتصاد السياسي الدولي المتغير (بحسب وصف نقاط الرئيس الأمريكي ولسون الأربع عشرة)، بحيث اقتضى الأمر تبريرًا جديدًا للسيطرة الإمبريالية في الشرق الأوسط. ولقد تطلب ذلك من القوى الخارجية أن تنأى عن المخططات الإمبريالية بشكل فاضح، وتبتكر حججًا جديدة لوجودها. ومع ذلك، فقد تسلل المناخ المتغير في السياسات الدولية إلى الشرق الأوسط على الرغم من الجهود الإنجليزية-الفرنسية للسيطرة على تدفق المعلومات التي تصل إلى المنطقة. ولذا، فالفصل التالي والأخير يوثق صعود نجم الحركات القومية وغيرها من حركات المقاومة في الشرق الأوسط، وجولات المساومات التي دأبت آمال وأحلام الأطراف المحلية طمعًا في أن تكون جزءًا من أية عملية إعادة تنظيم للمنطقة فترة ما بعد الحرب. ولقد تحطمت هذه الآمال بالتبعية أثناء مؤتمر باريس للسلام، ويختتم الفصل الثامن ببحث كيف أن الامتناع القومي من محاولات القوى الإمبريالية

إضفاء شرعية على قواها فترة الحرب وتوسعة نطاق تلك القوى رسميًا إلى حقبة ما بعد الحرب تلاقى مع الصعوبات والمآسي الاجتماعية-الاقتصادية المتعددة الناجمة عن الحرب التي لحقت فعليًا بكل مَن في المنطقة. وكانت النتيجة اصطفاً خبيثاً لتحالفات متغيرة تجتمع حول برنامج غامض يقضي بحماية الموارد المحلية من المزيد من المطالبات الطامعة وضمان المنافع السياسية المترتبة على اختياراتهم فترة الحرب ومساوماتهم.

التحاييل من أجل احتلال مكانة متميزة

ما أن دخلت الدولة العثمانية الحرب حتى شعر خصومها بأن الفرصة باتت سانحة لتقسيم المناطق التي طالما سعوا إليها في الشرق الأوسط والسيطرة عليها. فطوال القرن التاسع عشر سُميت الآستانة «عجوز أوروبا»، ويبدو أن المسؤولين المتحمسين في لندن وباريس وموسكو وممثليهم في الخارج قد بدا لهم في ذلك الوقت أن تداعي الدولة وتفسخها صار وشيكًا. فمنذ 5 ديسمبر 1914، أي بعد أسبوعين من احتلال القوات البريطانية والهندية مدينة البصرة العثمانية في بلاد الرافدين، بعث نائب الملك في الهند اللورد هاردينج برقية إلى لندن «يوصي فيها بشدة بالاحتلال الدائم للبصرة»⁽¹⁾. فهذا من شأنه أن يؤمن «تفوقنا في الخليج العربي، وهذه الفرصة العظيمة لتدعيم مكانتنا هناك قد لا تلوح في الأفق مرة أخرى». ومع ذلك، فقد فوّتت الحكومة البريطانية هذه الفرصة الأولى للاحتلال الإمبريالي مبينة أن ضم البصرة سيكون «مناقضًا لمبدأ أن احتلال المناطق من قبل الحلفاء مؤقت ريثما تتم التسوية النهائية بنهاية الحرب»⁽²⁾. ولكن، في مثال على التسرع الذي كانت تُصنع به السياسات عام 1914، دعم وزير الخارجية البريطاني السير إدوارد غراي في الوقت نفسه فكرة ضم مصر، وصده الممثل البريطاني في القاهرة ملن تشيتام الذي جادل بأن هذه الخطوة ستقوض من غاية بريطانيا المعلنة بالتمسك بحقوق الشعوب الصغيرة⁽³⁾.

وبدأ التنافس بين القوى العظمى يظهر بمجرد بدء العمليات العسكرية الجادة،

وسرعان ما أفضى إلى تشظي واجهة سياسات التحالف. ومن بين الأمثلة الصارخة على ذلك العمليات التي قامت بها البحرية البريطانية في مضيق الدردنيل، وتدابير التنافس الإنجليزي-الفرنسي على المصالح في البحر المتوسط. كانت بريطانيا وفرنسا قد وقعتا اتفاقية في 6 أغسطس 1914، أي بعد يومين وحسب من دخول بريطانيا الحرب، تنص على أن تؤدي البحرية الملكية البريطانية دور الريادة في توجيه العمليات البحرية في المحيط الأطلسي وبحر الشمال ومضيق دوفر، بينما يمكن أن تتحمل البحرية الفرنسية المسؤولية العامة عن البحر المتوسط والقطاع الغربي من القنال الإنجليزي. ولقد عكس ترسيم السيطرة هذا إيمان واضعي الخطط الإنجليزي بأن بحر الشمال سيكون مسرح العمليات البحرية الحاسم للحرب، ومن ثم كان تركيز الوجود العسكري البريطاني هناك مهمًا⁽⁴⁾. ولكن الهيمنة الفرنسية في البحر المتوسط كانت دومًا شكلية، ولم يكن لها وجود فعلي، حيث إن أهمية مصر للمصالح الإمبريالية البريطانية اقتضت أن تتخذ لندن على الفور إجراءات شرقي البحر المتوسط من أجل حماية أمن مصر. وقد تسبب هذا في إثارة قلق باريس بسبب انتهاك بريطانيا الواضح لبنود الاتفاقية، فحث وزير البحرية الفرنسي ديوان البحرية في باريس على الإصرار على التقسيم الملائم لمناطق المصالح المتفق عليها في أغسطس، ولكن رئيس ديوان البحرية في لندن ونستون تشرشل رفض ذلك، وفي يناير 1915، أثار دعمه لهجوم بريطاني على ميناء الإسكندرونة العثماني دعمًا للعمليات المزمعة في الدردنيل أحقادًا وشكوكًا فرنسية شديدة في التكتيكات التوسعية المفترضة لبريطانيا. وتفاقم الموقف إذ أرسل وزير البحرية الفرنسي إلى تشرشل قائلاً:

يصر الوزير على الزعم أنه ينفذ بنود معاهدات 6 أغسطس والمسار الكامل الذي تسلكه العمليات في البحر المتوسط. وبموجب تلك الشروط، فإن أية عملية يجب التخطيط لها وإدارتها بمعرفتنا⁽⁵⁾.

ولقد ظلت العلاقات ما بين بريطانيا وفرنسا، وكلتاهما قوة إمبريالية ذات مخططات إقليمية بالشرق الأوسط، متوترة طوال فترة الحرب حيث توخت كلتاهما

الحيطة والحذر من الأخرى. وكما قال ديفيد داتون: «لم يشعر أي من الطرفين أنه قادر على أن يغمض الطرف عن المميزات التي يجنيها شريكه في الحرب»، مما أدى إلى مخاوف من أن تُترجم المكاسب العسكرية الفردية إلى إمكانية الهيمنة السياسية بعد الحرب⁽⁶⁾.

كان الروس أول مَنْ أعلنوا سيطرتهم الفعلية الرسمية على مناطق عثمانية. فبالاستفادة من جهاز المخابرات الرائع الذي حدّر المسؤولين الروس من تجهيزات العثمانيين لهجوم مفاجئ على روسيا، رفع السفير الروسي في الآستانة إم. إن. غيرس تقريرًا إلى سانت بطرسبرغ في 11 أكتوبر 1914. وإذ رفع تقريره بعد أن أدى إغلاق العثمانيين لمضيق الدردنيل أمام حركة الملاحة الدولية إلى تعطيل حركة الملاحة الروسية والتدفق التجاري، قال غيرس في تقريره «نريد زعيمًا قويًا يحكم القسطنطينية، وبما أننا لا نستطيع ترك أي قوة تتولى هذا الدور، فلا بد من أن نستولي عليها لأنفسنا». وأضاف السفير أن الصراع الوشيك مع العثمانيين يتيح لروسيا فرصة «لحل مشكلة المضائق إلى الأبد»⁽⁷⁾. وفي مارس 1915، أكد وزير الخارجية سيرغي سازونوف نية موسكو القديمة في ضم الآستانة والسيطرة على مضيق البسفور والدردنيل اللذين من دونهما ستظل حركة الملاحة البحرية ما بين الموانئ الروسية على البحرين الأسود والمتوسط عُرضةً للتعطيل والشلل التام.

وقد قبلت فرنسا مطالبة روسيا، وبدأت في وضع مطالب خاصة بها في الشام بطول الخط الساحلي الجنوبي الشرقي لتركيا. وبلغ بها الأمر أن طالبت بالاستحواذ على سوريا الكبرى (وهي التي تضم في وقتنا الحالي سوريا ولبنان وفلسطين والأردن) علاوة على مدينتي الإسكندرونة وأضنة العثمانيتين⁽⁸⁾. واستجابة لهذه التحركات، أعلن وزير الحربية البريطاني اللورد كتشنرأن الغنيمة السابق ذكرها الممثلة في مدينة الإسكندرونة ينبغي أن تنضوي تحت اللواء البريطاني في حالة حدوث أي تقسيم للمناطق العثمانية لموازنة ظهور روسيا على الساحة باعتبارها قوة من القوى المهيمنة على حوض البحر المتوسط وحصول فرنسا على موطن قدم في

الشام. ورغم أن خطة كتشنر حظيت بدعم تشرشل بوصفها برنامجًا ملحقًا بخطط الهجوم والسيطرة على شبه جزيرة غاليبولي، فإن غراي ورئيس الوزراء البريطاني هربرت أسكويث عارضا الخطة لأن التركيز البريطاني كان منصبًا على الدردنيل. ولكن بعيدًا عن الخشية من تعزيز المخاوف الفرنسية من أهداف لندن في حوض البحر المتوسط والشرق الأوسط على نطاق أوسع، لفت تدخل كتشنر نظر المسؤولين البريطانيين إلى ضرورة تحديد «الطموحات البريطانية في تركيا-آسيا في حالة إنهاء الحرب بنجاح»⁽¹⁰⁾.

وفي أبريل 1915، عُيِّنَت لجنة دي بونسن المشتركة بين الوزارات وأصدرت تقريرها بتاريخ 30 يونيو. وكان رئيس اللجنة السير موريس دي بونسن مساعد وكيل وزارة الخارجية في لندن، وأما أعضاء اللجنة فاخترخوا من وزارة البحرية ووزارة الحربية ووزارة شؤون المستعمرات ووزارة شؤون الهند. وحلّل التقرير النهائي بعناية أربعة احتمالات فيما يتعلق بالمصالح البريطانية في تركيا والشرق الأوسط، حيث أقر بأن هذه المصالح كانت مقيدة بضرورة الحال بفعل مصالح القوى المتحالفة. وتراوحت الخيارات التي بحثتها اللجنة ما بين تقسيم الدولة العثمانية والحفاظ عليها كدولة مستقلة في آسيا. وأوصى التقرير بأنه يمكن تأمين المصالح البريطانية بشكل أفضل بالحفاظ على الدولة العثمانية كيانًا مستقلًا، وإن كان لامركزيًا، مما يوحي بأن التقسيم في تلك المرحلة المبكرة من الحرب لم يكن حتميًا -ولا حتى محبذًا- من قبل واضعي السياسات البريطانيين⁽¹¹⁾.

ولقد فتح موقف بريطانيا الحذر والمُناوئ للتوسع بصفة عامة الباب أمام المزيد من الرؤى الطموحة الإمبريالية بشكل كاسح في ظل توسع الحملات الجارية في الشرق الأوسط. خاصة أن ذلك تزامن مع توسّع أثر رجال من أمثال كتشنر والسير مارك سايكس توسعًا مهولًا في صياغة سياسات لندن، وكذلك بذل المسؤولون البريطانيون في القاهرة ودلهي مجهودات أكبر من أجل إقناع واضعي السياسات المرتبكين بشكل متزايد بفعل ثقل مسؤوليات فترة الحرب في فرنسا والإقليم

الفلامندي. فخلال المرحلة المبكرة من الحرب عامي 1914 و1915، مَارَسَ كَتشنر ضغوطًا شديدة على عملية وضع السياسات البريطانية مستغلًا خلفيته العسكرية المرموقة بوصفه قائدًا عسكريًا وسياسيًا إمبرياليًا. فضلًا عن النظر إليه على أنه بطل من أبطال الحرب في بريطانيا بعد أن خدم في السودان (الأمر الذي يتجلى في لقبه «كتشنر إيرل الخرطوم») وحرب البوير، خدم كَتشنر أيضًا باعتباره رئيسًا لأركان الجيش في الهند خلال الفترة بين عامي 1902 و1909، وعُيِّنَ مندوبًا وقنصلًا عامًا لبريطانيا في القاهرة بين عامي 1911 و1914. وإبان اندلاع الحرب في أغسطس عام 1914، أصاب كَتشنر إذ تنبأ بأن الأعمال العدائية لن تقع «بحلول أعياد الميلاد المجيدة»، ووفق ينظم التعبئة العامة لـ«الجيش الجديدة» التي شكّلت العمود الفقري لمجهود الحرب البريطاني⁽¹²⁾.

ولذلك كان لرأي كَتشنر ثقل كبير بين أقرانه المدنيين بمجلس الوزراء في لندن. كما أن سجله في الخدمة ميّزه عن غالبية زملائه الذين كانت خبرتهم بالشرق الأوسط والعالم الإسلامي محدودة جدًا⁽¹³⁾. وبوصفه وزير الدولة للحرب، راح كَتشنر يؤيد بشكل قوي إقامة دولة عربية تتسق تمامًا مع المصالح البريطانية في منطقة الشرق الأوسط. ففي خطاب شخصي أرسله إلى غراي في 11 نوفمبر 1914، دعا كَتشنر وزير الخارجية أن يتخيل «العرب وهم يشنون حربًا على الأتراك. أعتقد أن سياستنا حينئذ يجب أن تكون الاعتراف بخليفة جديد لمكة أو المدينة من السلالة المناسبة، وضمن حماية الأماكن المقدسة من أي عدوان خارجي وكذا من أي تدخل أجنبي»⁽¹⁴⁾. وفي تلك الرسالة، سلط الضوء على الخوف الذي يكتنف المسؤولين البريطانيين في القاهرة ودلهي على مكانة بريطانيا في الرأي العام العربي، وذلك إلى حد كبير بغية موازنة التدايعات الحرجة المحتملة لإشراك مسلمي الإمبراطورية في حرب ضد الخليفة العثماني.

ورغم أن المسؤولين البريطانيين لاحقًا كانت لهم الريادة في المفاوضات والصفقات السرية الخلافية بشكل حاد التي أجريت بين عامي 1915 و1916، فإنهم لم يمثلوا

وجهة نظر موحدة بعد أن قُسمت مسؤولية وضع السياسات الشرق أوسطية بين العديد من المنظمات والمواقع. وتضمنت تلك المنظمات حكومة الهند في دلهي والمقيم السياسي البريطاني والمكتب العربي بالقاهرة (المنشأ حديثاً ليكون مركزاً إقليمياً لجمع المعلومات الخاصة بالحلفاء العرب والتنسيق معهم) ووزارة الخارجية ووزارة الحربية في لندن نفسها. وكانت التقسيمات ما بين المراكز دون الإمبريالية البريطانية في القاهرة ودلهي حادة، وعدائية تحديداً، سواء على المستوى الشخصي أو المستوى المؤسسي⁽¹⁵⁾. فحكومة الهند بأساليب سيطرتها المُجزأة ومسؤوليتها عن حكم عدد كبير من السكان المسلمين في الهند لم تُرحّب بالسياسية «الموالية للعرب» من جانب المندوبية السامية في القاهرة. علاوة على ذلك، فإن المسؤولين في دلهي أقاموا خلال العقود السابقة للحرب بكد واجتهاد شبكة من المشيخات العربية المتعاونة في الخليج العربي لضمان المصالح التجارية والاستراتيجية الأساسية عوضاً عما اعتبروه خطة كتشنر (وخطة الثورة العربية النهائية) المتكلفة لإقامة كيان عربي وحيد. وعلى مدار الحرب، أدى ذلك إلى ما وصفه يوكا نيفاكيفي بـ «نُهج السياسات المتعارضة تعارضاً صارخاً» حيث اتبعت كل مجموعة من واضعي السياسات في كل من تلك الأقطار الثلاثة — لندن والقاهرة ودلهي — أجنداتها الخاصة المتصادمة في أغلب الأحيان⁽¹⁶⁾.

وكانت عملية وضع السياسات في بريطانيا أيضاً تمر بالعديد من مستويات الفرز الممثلة في «خبراء» ظاهريين. فقد لقي كتشنر نفسه حثفه في 5 يونيو 1916 وهو في طريقه إلى مهمة دبلوماسية في روسيا إذ اصطدمت البارجة «هامبشاير» بلغم بحري وغرقت على مقربة من جزر أوركني في أسكتلندا. وكان قد بدأ يفقد نفوذه خلال الأشهر القليلة السابقة لوفاته نظراً للنقد المتزايد للطريقة التي يتعامل بها مع المجهود الحربي وعاداته العشوائية في العمل التي أكسبته لقب «كتشنر الفوضوي». وبعد وفاته، خفت وطأة بعض التصريحات البليغة الخاصة بدعم القضية العربية تدريجياً لصالح أسلوب أكثر تحفظاً، لكن أوجه الخلاف الأساسية بين دلهي والقاهرة ظلت كما هي، وكذا الاعتماد على مجموعة جديدة من الوسطاء. وحل محل كتشنر

السير مارك سايكس عضو البرلمان المحافظ والمُحرّض على إقامة المكتب العربي وجورج كيرزون نائب الملك الأسبق بالهند وكاتم سر رئيس الوزراء المُقبل ديفيد لويد جورج. وفي عام 1918، صرح وزير الحصار السير روبرت سيسيل بأن تعاقب اللجان ما بين الإدارات التي تأسست لتشكيل وصياغة السياسة البريطانية في الشرق الأوسط «الغرض منه أساسًا تمكين جورج كيرزون ومارك سايكس من أن يفسّر الواحد منهما للآخر مدى محدودية معلوماته عن الموضوع»⁽¹⁷⁾.

اتفاقيات زمن الحرب

سبقت الاتصالات الأولى ما بين المسؤولين البريطانيين والعرب تاريخيًا اندلاع الحرب العالمية الأولى. ففي أوائل عام 1914، قام عبد الله بن الحسين ابن شريف مكة بزيارة إلى القاهرة التقى خلالها السكرتير الشرقي بالمندوبية البريطانية السير رونالد ستورز، القائم بأعمال المقيم السياسي كتشنر. ولم يكن هذا الاجتماع حاسمًا حيث رفض ستورز طلب عبد الله الحصول على إمدادات عسكرية في حالة قيام الشريف بثورة ضد الآستانة. ورغم أن الشريف حسين بن علي كان تاريخيًا شخصية عظيمة الأهمية في العالم الإسلامي باعتباره الوصي على مدينتي مكة والمدينة، وكان على اتصال بجمعيات قومية سرّية تشكّلت من ضباط جيش عرب في سوريا، فإن السياسة البريطانية تجاه سلالة الهاشمية وُجدت في جو مضطرب مع دعم مماثل لمنافسه عبد العزيز بن سعود المطالب بالسلطة في الجزيرة العربية، والذي انتصر في نهاية المطاف بين عامي 1924 و1932 في الصراع المندلع من أجل توحيد الحجاز وقلب نجد المركزي والخط الساحلي الشرقي فيما يُعرف حاليًا باسم المملكة العربية السعودية. ولكن كتشنر أجاز لستورز باعتباره وزير الدولة للحربية في 24 سبتمبر 1914 تجديد التواصل مع عبد الله ليستشف ما إذا كان عبد الله «وأبوه وعرب الحجاز معنا أم ضدنا»⁽¹⁸⁾. وبعدها بخمسة أسابيع، وتحديدًا في 31 أكتوبر قبل إعلان الحرب على الدولة العثمانية بخمسة أيام وحسب، صدرت أوامر لستورز من كتشنر في برقية جديدة بإخطار الشريف حسين بالتالي:

إذا ساعدت الأمة العربية إنجلترا... ستضمن إنجلترا ألا يحدث أي تدخل خارجي في الجزيرة العربية، وستقدم للعرب كل الدعم والعون ضد أي عدوان خارجي. ولعل عربيًا أصيل النسب يتولى الخلافة في مكة والمدينة.

وتبع هذا التعهد إعلان بريطاني صدر في 5 ديسمبر 1914 جاء فيه عرض بالاعتراف بـ«الاستقلال التام» للعرب إذا طردوا الأتراك. وتبلورت هذه الوعود البراقة، وبعضها زين له ستورز في القاهرة استنادًا إلى النصوص الأصلية المرسلة من لندن، في تعهد بريطاني في أبريل عام 1915 بأن «تظل شبه الجزيرة العربية والأماكن المقدسة المحمدية مستقلة. وإننا لن نضم شبرًا واحدًا من تلك الأراضي، ولن نسمح لأية قوة بأن تفعل ذلك»⁽¹⁹⁾.

وعلى هذه الخلفية، تبادل حسين سلسلة من الرسائل مع السير هنري مكماهون الذي خلف كتشنر في مصر في أواخر عام 1914 بوصفه مندوبًا ساميًا (مقارنة بمنصب المقيم السياسي). وبلغت المراسلات المتبادلة بين حسين ومكماهون في نهاية المطاف ثماني رسائل خلال الفترة من 14 يوليو 1915 حتى 30 يناير 1916. واختصت تلك الرسائل بمستقبل المكانة السياسية للمناطق العربية التابعة للإمبراطورية العثمانية، وارتقت أساسًا إلى مفاوضات على الشروط التي سيشرح بناءً عليها حسين العرب ويقودهم في ثورتهم ضد العثمانيين. وتحديدًا في 24 أكتوبر 1915، عرض مكماهون على حسين خيار الاستقلال العربي ضمن الحدود المحددة فيما خلا إقليميّ البصرة وبغداد العثمانيين. وفي ظل تقدم القوات البريطانية والهندية بعد ذلك سريعًا باتجاه بغداد، صرح المسؤولون في لندن والقاهرة بأن أراضي بلاد الرافدين يجب أن تخضع للحكم باعتبارها وحدة إدارية خاصة بمساعدة بريطانية مباشرة. وسرعان ما انهار هذا السيناريو المتفائل بسبب الأحداث حيث انهزمت قوة التجريدة الهندية في مدينة قطيسفون، وأُجبرَت على الاستسلام المهين في كوت العمارة في أبريل عام 1916، وساعتها توقفت المراسلات ما بين حسين ومكماهون. ومنذ ذلك الحين، سُجلت طبيعة الرسائل ومغزى محتوياتها ونشبت شجارات بشأنها

لفترة طويلة شاركت فيها جميع الأطراف حيث استعان حسين ومكماهون بوسطاء لحل الخلافات، وكانت مشكلات التفسير والترجمة تعني أنه حتى المعنى الأصلي للرسائل كان غالبًا غير دقيق ويعوزه الوضوح⁽²⁰⁾.

وحتى في هذه المرحلة، بدأت مشكلات التخطيط والازدواج بين مختلف مراكز الثقل في عمليات اتخاذ القرار البريطانية في الظهور. فالعرض الذي قدمه مكماهون في 24 أكتوبر 1915 المتعلق بمنح الأراضي (سواء أكان صادقًا أم لا) أبطله على الفور تقريبًا توقيع معاهدة استقلال ما بين السير بيرسي كوكس كبير المسؤولين السياسيين في البصرة وعبد العزيز آل سعود في نجد. وأبرمت المعاهدة في 26 ديسمبر 1915 إثر المفاوضات التي سَيرها المندوب البريطاني في الكويت والتي تعتبر جزءًا من منطقة المراقبة التابعة لحكومة الهند. وضمنت المعاهدة لعبد العزيز الدعم البريطاني ضد أي عدوان أجنبي، ومنحت الزعيم السعودي المستقبلي إقرارًا بمكانته الدولية المستقلة. ولقد عكست المندوبية البريطانية في الكويت وكوكس نفسه بوصفه مقيمًا سياسيًا أسبق في الخليج، وكان آنذاك مُعارًا لقوة التجريدة الهندية في البصرة، النهج «الهندي» في الشرق الأوسط. وبالطبع أطاحت المعاهدة بالعهود التي قُطعت لحسين الذي استقى دعمه من المندوبية السامية البريطانية والمكتب العربي في القاهرة. وكان الدعم المنافس لعبد العزيز في وسط الجزيرة العربية (نجد) ولحسين على الخط الساحلي الغربي لشبه الجزيرة العربية (الحجاز) إيذانًا باندلاع معركة التفوق الإقليمي ما بين السلالتين السعودية والهاشمية التي استمرت لفترة طويلة بعد نهاية الحرب عام 1918⁽²¹⁾.

وقد تضاربت المراسلات ما بين حسين ومكماهون جزئيًا مع المفاوضات الأولى الممهدة لما سيصبح لاحقًا اتفاقية سايكس-بيكو. ووقعت هذه المفاوضات ما بين الدبلوماسي الفرنسي فرنسوا-جورج بيكو، سليل عائلة استعمارية شهيرة والقنصل العام الأسبق في بيروت الذي أفضى تساهله في تدمير الوثائق إلى مdahمة وإعدام أربعة عشر ناشطًا قوميًا عربيًا في بيروت في مايو 1916، وسايكس السياسي

البريطاني المحافظ القريب من كتشنر الذي ألحقه بلجنة دي بونسن عام 1915⁽²²⁾. كانت سطوة سايكس في لندن قد زادت بسرعة البرق حيث تمتع بنفوذ عظيم فيما يتعلق بتشكيل السياسة البريطانية في منطقة الشرق الأوسط، وكان رائدًا من رواد المكتب العربي الذي تأسس في القاهرة في ديسمبر عام 1915 تحت إشراف غلبرت كلايتون. ولكن سايكس لم يتفق دومًا وبشكل تام مع المكتب وطاقم عمله البارز، بمن فيهم شخصيات مرموقة مثل تي. إي. لورنس وأوبري هيربرت وغيرترود بل، ولم يُشارك المؤسسة في مفاوضاته مع بيكو⁽²³⁾.

وقد أبرمت اتفاقية سايكس-بيكو في أكتوبر 1916، وإن كانت مفاوضاتها استمرت عدة أشهر، وبدأت تحديدًا في أواخر عام 1915 بينما كان مكماهون يتبادل المراسلات مع حسين حيث قررت الحكومتان البريطانية والفرنسية إبرام اتفاقية رسمية حول تقسيم المناطق العثمانية بعد الحرب. وفتت الاتفاقية النهائية، وهي التي وافقت عليها روسيا أيضًا شريطة قبول بريطانيا وفرنسا لمطالباتها الإقليمية الخاصة بالأقاليم العربية للدولة العثمانية، إلى مناطق نفوذ بريطانية وأخرى فرنسية. وتم التصديق عليها في يونيو 1916، أي بعد عشرة أيام من بداية الثورة العربية. وبموجب شروطها الخاصة، أسندت إلى بريطانيا السيطرة الرسمية على ولايتي بغداد والبصرة في بلاد الرافدين، ومسؤولية غير رسمية على المنطقة الممتدة من غزة وصولًا إلى شمال الجزيرة العربية في كركوك. وتولت فرنسا المسؤولية الرسمية عن المنطقة الساحلية لسوريا وقيليقية في الشام، والمسؤولية غير الرسمية عن منطقة شاسعة من دمشق وحلب شرقًا إلى الموصل. وحددت الاتفاقية أيضًا حدود المناطق التي طالبت بها روسيا في القوقاز، وتركزت مصير فلسطين ليتحدد لاحقًا بموجب «إدارة دولية». وكما ذكر يوجين روغان بفطنة وعلى استحياء: «خلقت اتفاقية سايكس-بيكو مشاكل أكثر مما حلت من معضلات» كما أنها أيضًا «لم تحترم روح ومحتوى مراسلات» حسين ومكماهون⁽²⁴⁾.

وعندما وضعت الحرب أوزارها في ظل استحواذ القوات البريطانية في بلاد

الرافدين وفلسطين على مكاسب إقليمية مهولة إثر الاستيلاء على بغداد في مارس والقدس في ديسمبر 1917، ندم المسؤولون البريطانيون على العهود التي قطعوها لحسين والفرنسيين. وفي يونيو 1919، قال رئيس الأركان الإمبريالية العامة السير هنري ولسون للجنرال ألبي (وهو الذي كان حينئذٍ فعليًا الحاكم العسكري لمصر): «إننا قطعنا على أنفسنا كثيرًا من العهود للجميع لدرجة أنني لا أعرف كيف لنا أن ننقذ أنفسنا من هذه الفوضى دون أن نخلف عهدنا مع أحدهم»⁽²⁵⁾. وكان كيرزون أكثر حسماً وحدة حيث صرح في اجتماع للجنة الشرقية التابعة لمجلس وزراء الحرب البريطاني انعقد في نوفمبر 1918 قائلاً: «لقد تعرضنا لخرج شديد» بسبب تعهدات مكماهون لحسين، مضيفاً أن اتفاقية سايكس-بيكو «ظلت عبئاً ثقيلاً معلقاً في رقابنا... وفي مايو 1916، التزمنا التزاماً مشدداً بهذه الاتفاقية البائسة التي يبدو، كما نعلم جميعاً، أن الفرنسيين مبالغون للالتزام بها بكل ما أوتوا من قوة»⁽²⁶⁾.

والواقع أن الوساطة البريطانية بخصوص اتفاقياتهم السرية عكست الموقف المتغير الذي وجدوا أنفسهم فيه بنهاية الحرب. ولكن ببساطة شديدة، خلال الفترة بين عامي 1915 و1916، كانت بريطانيا بحاجة إلى حلفاء محليين ودوليين لتعويض ضعفها العسكري في الشرق الأوسط بعد هزيمتها في معركة غاليبولي واستسلامها المهين في الكوت. وبحلول عام 1918، تحول الموقف إلى هيمنة عسكرية، ولكن الموقف الدولي نفسه تغير هو الآخر. وعكس هذا التغير تطوريين أساسيين: إقدام النظام السوفيتي على الكشف علناً عن الاتفاقيات المبرمة زمن الحرب، وإضافة تعهد جديد بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين. لكن هذين التطوريين وقعا في أواخر عام 1917، وتبعهما تطور ثالث مهم؛ ألا وهو النقاط الأربعة عشرة التي أعلنها الرئيس الأمريكي وودرو ولسون في 8 يناير 1918، ونشأة مبدأ تقرير المصير في العلاقات الإقليمية والدولية.

فبعد فترة وجيزة من الثورة الروسية الثانية (والأخيرة) في أكتوبر 1917، وفي جهود مبذولة لزعزعة الثقة في المساعي الدبلوماسية للنظام القيصري، بدأ النظام

البلشفي الجديد في نشر وثائق سرية عُثر عليها في أرشيفات وزارة الخارجية في سانت بطرسبرغ. ومن بين الوثائق التي أعلن عنها نص اتفاقية سايكس-بيكو الذي نُشر أولاً في صحيفة برافادا الروسية في 23 نوفمبر 1917، ومرة أخرى في صحيفة مانشستر غارديان البريطانية بعدها بثلاثة أيام. ولقد خلق محتوى الاتفاقية معضلات خطيرة للمسؤولين البريطانيين والفرنسيين في شتى أرجاء الشرق الأوسط، حتى بينما تصاعدت حدة الخلافات ما بين شريكَي الحرب بسبب «تفسير وتنفيذ» بنود الاتفاقية⁽²⁷⁾. علاوة على ذلك، كانت الاتفاقية دعاية للانقلاب على العثمانيين الذين حاولوا على الفور الاستفادة من الثورة العربية لمصلحتهم الشخصية باستغلال الثقة المزعزعة المتزايدة بين العرب وحلفائهم البريطانيين والفرنسيين. ولكن الاتفاقية كانت، إبان تلك الفترة، منتهية الصلاحية بالفعل بعد أكثر من عام بقليل، بينما بدلت التطورات (والوعود) في فلسطين وفي الحجاز مسار السياسات الخاصة بالمنطقة تبديلاً عميقاً، مما أسفر عن تبعات بعيدة المدى ما زال صداها يتردد إلى الآن.

الثورة العربية ووعده بلفور

في خضم تلك التعهدات المتعارضة المتضاربة، أشعل الشريف حسين وأبناؤه ثورة عربية في يونيو 1916. ولقد أُرِخَ كثيرون لهذه الثورة، ولاسيما عن الدور (المبالغ فيه) الذي لعبه تي. إي. لورنس في كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» الذي ظل يُنشر على مدار سبعة عقود متعاقبة، وأُعتَبِرَ فيلم «لورنس العرب» إنتاج عام 1962 بطولة بيتر أوتول وعمر الشريف واحداً من كلاسيكات السينما العالمية. ولكن حقيقة الأمر أن الثورة العربية كانت عادية أكثر مما صورتها السينما حيث أخفقت سلسلة الهجمات المحدودة المفتقرة للتنسيق على نطاق واسع على القوات العثمانية أن تترك انطباعاً قوياً على توازن القوى في الشرق الأوسط، بل كان وقعها أقل من العادي إذا ما نظرنا إلى نتيجة العمليات العسكرية ضد الدولة العثمانية بصفة أكثر شمولاً. بيد أن الثورة العربية أُمست أسطورة بوصفها تجسيداً للمحاولات العربية للاستحواذ على المبادرة بعيداً عن قوى الاحتلال والقوى الخارجية، واستعادة السيطرة

للمواطنين والمجتمعات التي تحملت وطأة التفكك الاجتماعي والاقتصادي الناجم عن الحملات العسكرية. وما زال وقعها المستمر يتجلى في استخدام بعض المعلقين على الأحداث لعبارة «الثورة العربية الثانية» لتوصيف ثورات الربيع العربي التي اندلعت عام 2011.

لقد كانت النشأة السياسية والاقتصادية للثورة العربية كامنة في العديد من العوامل التي تقاطعت في بداية ومنتصف عام 1916. وكما رأينا أعلاه، رغم التصريحات البريطانية الكاذبة على لسان مكماهون بدعم الشريف حسين في أكتوبر 1915 وما بعدها، فإن ثمة أدوات قهر عززت منها كحصار قوات التحالف للجزيرة العربية الذي اعترض طرق التجارة والحج والإمدادات الغذائية، وإن كان هذا الحصار قد انحسر باعتباره دافعًا للحاكم الهاشمي. كما تسبب القمع الوحشي على أيدي جمال باشا للجماعات والزعماء العرب في بيروت ودمشق الخاضعتين للسيطرة العثمانية في غضب شديد بين القوميين في الحجاز، وقدّم للثورة الوشيكة أول شهدائها⁽²⁸⁾. وعلى أية حال تصاعدت هذه العوامل إلى أن أفضت إلى اندلاع الثورة العربية في 5 يونيو 1916. ويبدو أن الشريف حسين تمنى أن يبسط سيطرته على شتى بقاع شبه الجزيرة العربية والشام، ورأى أن ثمة فرصة سانحة لتحقيق ذلك بالدعم البريطاني. ففي أكتوبر 1916، اتخذ لقب «ملك العرب» في محاولة لتحديد منافسه الأبرز على السلطة الإقليمية عبد العزيز آل سعود الذي كان يتلقى دعمًا بريطانيًا هو الآخر، ولو أنه كان موجّهًا عبر شبكة المشيخات والعملاء السياسيين التابعة لحكومة الهند في الخليج العربي⁽²⁹⁾.

وفي مقابل طموحات الشريف حسين العظيمة، كانت هناك القوة المحدودة التي استطاع هو وأبناؤه ممارستها وحقيقتها أن نفوذهم مهدد في شبه الجزيرة العربية نفسها، لاسيما من قبل عبد العزيز آل سعود. علاوة على ذلك، استقرت قبائل عربية على خياراتها الشخصية حيال الطرف الذي ستدعمه، وغالبًا ما بدلت ولاءها بحسب إملاءات الموقف. وثمة تحليل حديث للقبائل في بلاد الرافدين خلال الحرب

انتهى إلى أن «المميزات الشخصية القصوى التي سعى وراءها الكثير من المشايخ كانت الاعتبار المطلق الذي حدد المواقف الفعلية لكثير من القبائل»⁽³⁰⁾. ولذا، فإن ما يصل إلى 5000 رجل من رجال القبائل المحسوبين على تحالف المنتفق القوي في وسط بلاد الرافدين انضموا إلى القوات العثمانية التي كانت تعرقل المحاولات البريطانية لتحرير الكويت في يناير 1916، ولم يحيلوا دعمهم إلى البريطانيين سوى في فبراير 1917، ذلك التاريخ الذي تحول الزخم بحلوله تحولاً حاسماً⁽³¹⁾. ولذلك، كان لمدى الانتصارات العسكرية البريطانية المتأخرة، سواء في بلاد الرافدين أو في فلسطين في الفترة بين عامي 1917-1918، بزعم الجميع أثر أعظم على الخيارات القبلية والمجتمعية من دعوة الحسين للثورة.

ولقد مارس الشريف حسين سيطرة على منطقة محدودة من جزيرة العرب (أرض الحجاز)، وانطوت الثورة على عدد أقل نسبياً يتراوح ما بين 10 آلاف و15 ألف رجل قبلي بأسلحة بدائية. وانقسم هؤلاء إلى وحدات نظامية وعصابات من مقاتلي حرب الشوارع غير النظاميين الذين اشتهروا لاحقاً بغزواتهم الانتهازية على شبكة السكك الحديدية في الحجاز. ورغم أنهم استطاعوا تأمين الحجاز والموانئ الواقعة على ساحل البحر الأحمر كجدة وينبع، واستحوذوا بصورة مذهلة على العقبة في 6 يونيو 1917، فقد واجهوا مقاومة ضعيفة من العدو وظلوا يعولون على الإمدادات البريطانية من مال وسلاح ومساعدات عسكرية بحرية، وأخفقوا في نشر دعوتهم للثورة بين الأقاليم العربية أو بين وحدات الجيش العثماني. ومن المخبى للآمال خصيصاً للشريف علي قصور عدد الملتزمين بدعوتهم للثورة، سواء بين الضباط العرب الذين يخدمون في الجيش العثماني أو بين أبناء القبائل العربية. وبدلاً من ذلك، سرعان ما تم احتواء الثورة في منطقة محدودة نسبياً من الحجاز والممتدة شمالاً باتجاه الساحل الغربي لشبه الجزيرة العربية ومنه إلى البحر الأحمر الذي استطاعت بريطانيا من موانئه إعادة إمداد الرجال بالسلاح والمال المرسل من السودان⁽³²⁾.

وحتى لورنس الذي أُنْمن له دوره المميز بوصفه وسيطاً الشهرة الواسعة بعد نهاية الحرب أقر في أكتوبر عام 1916 بأن «القادة العرب يعانون من قصور الموارد المادية، وسيظلون على قصورهم هذا دائماً وأبداً، وذلك لأن عالمهم زراعي رعوي، ولا يمكن لهم أن يكونوا أثرياء أو أقوياء جداً». ولو أنه أضاف أن هذا القصور أتاح لبريطانيا فرصاً مهولة لتحقيق مكاسب ما بعد الحرب «أعظم بكثير من المال والسلاح والذخيرة التي يدعونا البعض الآن للحفاظ عليها واستدامتها»⁽³³⁾. ورغم ذلك، حيث حُلَّ على ميناء رابغ الحجازي في 16 أكتوبر 1916، شعر لورنس بأن «الظروف كانت مثالية لحركة عربية»، ولو أنه استند في تقييمه إلى وجهة نظر متفائلة بشكل مبالغ فيه مفادها أن النجف وكربلاء كانتا في حالة ثورة وفوران في بلاد الرافدين، وأن «العرب الباقين في جيش هليل كانوا، وفقاً لاعترافه الشخصي، خائنين لتركيا»⁽³⁴⁾. لكن زملاءه المدنيين والعسكريين في القاهرة كانوا أقل اندهاشاً بالتراجع المنحسر للثورة حيث كانت قوات حسين القبلية لا تضاهي مشاة الجيش العثماني النظامي، وهي عاجزة عن مجابهتهم في ميدان المعركة المفتوح دون عون خارجي⁽³⁵⁾. وقد وصف واحد من كُتّاب السير الذاتية للورنس، وهو المؤرخ العسكري البريطاني لورنس جيمس، بالتفصيل المدى الكامل للعون البريطاني وغيره من المساعدات المقدمة إلى الثورة العربية على النحو التالي:

حتى نهاية الحرب، كان العرب يعولون على عمليات نقل لا حصر لها لأسلحة الحلفاء وذخائرهم، إضافة إلى الذهب البريطاني كي تصمد قواتهم في أرض المعركة. وفي المعركة، دعمهم المتخصصون البريطانيون والفرنسيون والمصريون والهنود، فمَنْهم المهندسون ومنهم المدفعيون وضباط الإشارة وضباط الإمداد، علاوة على المدرعات والعربات المصفحة والطائرات. وأُمنَ المحاربون البريطانيون والفرنسيون قواعدهم العسكرية في جدة وينبع البحر ولاحقاً في الوجه والعقبة⁽³⁶⁾.

ولقد ساورت رئيس أركان قوة التجريدة المصرية أرشيبالد موراي مثل هذه الشكوك فيما يختص بالفعالية العملية للقوات العربية غير النظامية. وحتى الاستحواذ

المدوي على ميناء العقبة في يونيو 1917، حيث كانت دفاعات المدينة مصممة لحمايتها من الهجمات البحرية لا من الهجمات البرية، كان يدين بالكثير للدعم الذي قدمته البحرية الملكية بقصفها تلك الدفاعات⁽³⁷⁾. وفي عام 1918 وحسب، في ظل المستويات المتصاعدة للدعم العسكري للحلفاء والمساعدات المادية، أمسى الجيش العربي الشمالي أكثر فعالية بقدر طفيف باعتباره قوة محاربة، وحينئذ قُسم الجيش إلى وحدات نظامية وغير نظامية، وشعبة بريطانية ومفرزة فرنسية. واكتسب الجيش العربي أيضًا إمكانات استخباراتية، وشرع يمد قوات النبي بمعلومات مفيدة حول التطورات على الجبهات الجنوبية والشرقية⁽³⁸⁾. لكن المرتين اللتين تعاون فيهما الجيش العربي الشمالي مع قوة التجريدة المصرية التابعة للجنرال النبي — وهما الغارتان اللتان نُفذتا على الجهة الأخرى من نهر الأردن في محاولة للسيطرة على عمّان في مارس وأبريل 1918 — باءتا بفشل ذريع، ودمرتا المكانة الرفيعة لبريطانيا آنذاك بعد النجاحات العسكرية التي حققتها في فلسطين، وأقنعتا القبائل العربية المترددة بالتزام بالإخلاص والولاء للسلطان العثماني⁽³⁹⁾.

وعلى مدار العقود المتخللة أمست الثورة العربية أسطورة، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى الجاذبية الشخصية لقاداتها بمن فيهم لورنس نفسه وفيصل بن الحسين الذي أمسى لاحقًا أول ملك للعراق. علاوة على ذلك، فإنه على الرغم من إطاحة ملوك العراق الهاشميين عام 1958 وعدم استمرار سطوتهم على سوريا سوى لأشهر قلائل عام 1919، أمست السلالة التي أسسوها في الأردن واحدة من الأعمدة الفقرية لـ«قوى الاعتدال» الموالية للغرب في الشرق الأوسط الحديث. وليس أدل على ذلك من سارية العلم العملاقة التي تحمل علم الثورة العربية على العقبة، وهي من أعلى الساريات في العالم حيث تُرى بوضوح من أربع دول هي مصر وإسرائيل والسعودية والأردن. ومع ذلك، فإن الشهرة اللاحقة للثورة العربية مبالغ فيها بشكل كبير بالنسبة لأهميتها المعاصرة، سواء على المستوى العسكري — لدرجة أن حسين لم ينجح لا في إشعال ثورة عربية عامة ولا في القضاء على منافسيه البارزين أمثال آل سعود — أو على المستوى السياسي. بل على العكس، يقدم لنا أشهر مؤرخ

للجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى، ويُدعى إدوارد إريكسون، التقييم البليغ التالي:

... كان الجيش العثماني قادراً على التعامل مع الجيوش العربية المتمردة بتجاهلها وحسب. ولقد أغارت عصابات لورنس على مواقع متفرقة، وبوتيرة أكبر دمرت خط السكك الحديدية العثماني الواصل إلى المدينة. وكانت تلك الخسائر مؤرقة للأتراك... فحتى في الحملة الأخيرة في سوريا، نشر الأتراك قوات عسكرية محدودة ضد العرب. علاوة على ذلك، فهم لم يصبهم القلق قط حيال ثورة عربية حقيقة وراء خطوطهم حيث كان للمتمردين تواصلاً محدود مع السكان المدنيين في كل من سوريا وفلسطين... وتسجيلاً للأحداث، لم تكن الثورة العربية قط حركة يدعمها بشكل عام الجمهور العربي⁽⁴⁰⁾.

وبالتوازي مع نشأة وعي سياسي عربي، شهدت الصهيونية تطوراً مشهوداً بوصفها مشروعاً قومياً منافساً. وبينما طالب الطرفان بالأراضي نفسها في فلسطين، اشتبك القوميون العرب الصاعدون والصهاينة في صراع على الأرض والموارد. وقد استلهمت الصهيونية، شأنها شأن الحركة العربية الموازية لها والقوميات العلمانية في أوروبا، مبادئها من الثورة الفرنسية ومبادئ التنوير الخاصة بالعقد الاجتماعي والمواطنة. ولعل الصهيونية أيضاً تطورت بوصفها استجابة لتصاعد نبذة عداة السامية في المجتمع الأوروبي التي تجلت مثلاً في سلسلة بشعة من المذابح جنوبي روسيا عام 1881. فقد أثارت تلك المذابح وغيرها من أشكال عداة السامية العنيفة نزعة لإقامة وطن يهودي في أرض إسرائيل التي جاء ذكرها في التوراة. وحدثت الهجرة الأولى إلى فلسطين خلال الفترة بين عامي 1882 و1903 إذ أسست جماعات صغيرة من الصهاينة من أوروبا الشرقية أول مستوطنات يهودية في روش بينا وبتاحتكفا وريهوفوت وريشون ليزيون⁽⁴¹⁾. وبالتوازي مع تلك الهجرة، أتاح نشر كتاب «الدولة اليهودية» لمؤلفه تيودور هيرتزل عام 1896 وعقده للمؤتمر الصهيوني الأول في بازل في العام التالي «إطار عمل عملياً ومؤسسياً» لإنشاء دولة يهودية. وقد جمع

المؤتمر اليهودي لأول مرة ما بين صهاينة من أوروبا الشرقية والغربية، وتمخض عن إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية التي كان من المقدر لها أن تلتزم بـ«إنشاء وطن لليهود في فلسطين يكفل له القانون العام الحماية». وكان من المقرر «تحقيق هذا المشروع بشكل تدريجي بواسطة شراء الأراضي والاستيطان فيها من ناحية، والجهود الدبلوماسية ومباركة القوى الكبرى من ناحية أخرى»⁽⁴²⁾.

ولذلك كانت الصهيونية قوة سياسية قومية متنامية بحلول عام 1914. وأدت موجة جديدة من المذابح في روسيا في أعقاب الثورة الدستورية عام 1905 إلى هجرة بأعداد غفيرة لليهود إلى فلسطين. وحتى عام 1914، كان مقر المنظمة الصهيونية العالمية برلين، وكان أبرز رجالاتها ومفكرها إلى حد كبير ألمانيون ونمساويين-مجريين أصلاً⁽⁴³⁾. ولقد أعاد مزيج من الديناميكية والقوة الأكبر للصهيونية والرغبة في تفادي خسارة دعاية الحرب أمام العدو تدريجيًا توجيه الدعم الحكومي البريطاني باتجاه الغايات والأهداف الصهيونية. علاوة على ذلك، كان الصهاينة بالفعل قد انخرطوا في جهود الحرب البريطانية في الشرق الأوسط حيث ألحق الفيلق اليهودي بقوة التجريدة المتوسطة في معركة غاليلوي، وخدمت العديد من الكتائب اليهودية تحت لواء الجنرال ألنبي في فلسطين⁽⁴⁴⁾. وجدير بالذكر أن شبكة نبلي للتجسس تحديدًا، وهي التي شملت حوالي 40 جاسوسًا يهوديًا، كان مقرها مدينة حيفا في فلسطين، ووزع أفرادها في أرجاء فلسطين وسوريا عام 1917 قبل أن يتم الكشف عنهم ومداهمتهم⁽⁴⁵⁾. ولا شك أن تعيين ديفيد لويد رئيسًا للوزراء وأرثر بلفور وزيرًا للخارجية —وكلاهما متعاطف مع الصهيونية— كان بمثابة الخطوة الأخيرة التي أحدثت تحولًا في السياسة البريطانية على أعلى مستوى، وإن لم يكن الأمر كذلك بين الموالين للعرب في وزارة الخارجية.

غير أن ثمة اختلافات في الآراء كبيرة بين اليهود البريطانيين فيما يختص باقتراح إقامة وطن يهودي في فلسطين. فقد صعد نجم هريرت صموئيل —وزير الداخلية البريطاني خلال الفترة بين يناير وديسمبر 1916، وأحد الثقات المقربين لوايزمان

وفيما بعد أول مندوب سام في فلسطين خلال الفترة بين عامي 1920 و1925— باعتباره المهندس الرئيس لإنشاء وطن يهودي في فلسطين تحت رعاية بريطانية. وقد عارضه في ذلك ابن عمه إدوين مونتاغيو الذي انضم إلى مجلس الوزراء كوزير دولة لشؤون الهند عام 1917، والذي كان يخشى أن يمسي هذا الوطن اليهودي في فلسطين «سببًا حاشدًا للمعاديين للسامية في كل دولة من دول العالم». فضلًا عن إيمان مونتاغيو بأن المشروع القومي المقترح سيقوض مكانة اليهود في بقاع أخرى بالشرق الأوسط، ويلقي بظلال الشك على ولاء المجتمعات اليهودية في أوروبا. لذا سلّم مونتاغيو مذكرة لزملائه بمجلس الوزراء وضع فيها أوجه اعتراضه على الصهيونية قائلاً: «أكاد أستسلم لإغراء حظر المنظمة الصهيونية باعتبارها مخالفة للقانون ومخالفة للمصالح القومية... وإنني أطلب من الحكومة البريطانية أن يتسع صدرها لرفض مقترح يجعل المواطنين اليهود ضمناً، إن لم يكن قانوناً، غرباء وأجانب»⁽⁴⁶⁾.

ولقد أرجأ تدخل مونتاغيو المقترح، لكنه لم يستطع في نهاية المطاف أن يطيح به. وفي 2 نوفمبر 1917، أرسل بلفور رسالته إلى حاييم وايزمان رئيس مجلس إدارة المنظمة الصهيونية البريطانية الذي عُيِّنَ أول رئيس لإسرائيل عام 1948. وكان وايزمان يعمل خلال الحرب العالمية الأولى أستاذًا لمادة الكيمياء بجامعة مانشستر، وكان بإمكانه الوصول بلا قيد أو شرط إلى أرفع المستويات في الحكومة البريطانية. وقد استندت علاقاته تلك نوعاً ما إلى أبحاثه الرائدة التي أجراها إبان الحرب فيما يختص بإنتاج مادة الأسيتون للدانات المدفعية. وبالطبع سمحت له علاقاته بالترويج للقضية الصهيونية وفكرة البحث عن وطن يهودي لدى بلفور ولويد جورج.

وبلغت عملية بناء الدعم للصهيونية أوجها بإصدار وعد بلفور التاريخي الذي نص على ما يلي:

إن حكومة صاحب الجلالة تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين وستبذل قصارى جهدها من أجل تسهيل تحقيق هذه الغاية، على شرط عدم ممارسة شيء من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية

التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين ولا الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلدان الأخرى⁽⁴⁷⁾.

وتضمنت الدوافع البريطانية الداعية لإصدار وعد بلفور الرغبة في الفوز بدعم الطوائف اليهودية ذات النفوذ في الولايات المتحدة وروسيا، وكذلك تقويض جهود الحرب الألمانية من خلال إقصاء المشاركين فيها. وبحلول عام 1917، «أمسى الصهاينة قوة ديناميكية متوسعة» بين الطوائف اليهودية في كلتا الدولتين «يتعين على الحكومة البريطانية بشكل مُلح التأثير فيها، ولم يكن عليها، فيما خلا الدعاية، سلطان كبير»⁽⁴⁸⁾. علاوة على ذلك، فإن إعلان الدعم البريطاني لتحقيق الهدف الصهيوني في فلسطين خلق دفعة لضمان تخصيص المنطقة لبريطانيا بدلاً من فرنسا. ولقد عزز استحواذ الجنرال ألنبي على القدس ودخوله المدينة بعدها بخمسة أسابيع سيطرة بريطانيا على فلسطين، وكان مؤشراً على انتهاء تدويل الوضع الفلسطيني (بحسب اشتراطات اتفاقية سايكس-بيكو)⁽⁴⁹⁾.

وإبان الفترة التي شرع فيها السوفييت في الإفصاح عن تفاصيل اتفاقيات وقت الحرب السريّة، كان على بريطانيا أن تحقق التوازن ما بين ثلاث مجموعات من التعهدات المتعارضة. وعلى رأس هذه التعهدات التعهد بإعادة تنظيم السلطة السياسية في الشرق الأوسط فيما بعد الحكم العثماني. وقد عادل الوعد المبهم الذي قطعه مكماهون على نفسه لحسين بإقامة دولة عربية مستقلة ذلك الوعد المبهم بالقدر نفسه بإقامة وطن يهودي في فلسطين، على الرغم من أن الوعدين ذاتهما كانت تقوضهما التعهدات الإقليمية الواردة في اتفاقية سايكس-بيكو. لكن بحلول عام 1917 تَعَقَّدَت سلاسة و يقين توازن القوى والمصالح في الشرق الأوسط بقدر أكبر بينما اشتعلت المعارك مجدداً. وفي هذا السياق، يقص المؤرخ الفلسطيني رشيد خالدي كيف أن وعد بلفور «استهل مسألة خيبة أمل العرب عمومًا في الحلفاء»، وذلك لأن الوعد أُعلن عنه «قبل بضعة أسابيع من دخول قوات ألنبي للقدس في ديسمبر 1917، في وقت أمسى واضحاً فيه أن البريطانيين سيكونون الحكام الجدد للدولة»⁽⁵⁰⁾.

ولذا، ففي الوقت نفسه تقريبًا الذي قطع البريطانيون على أنفسهم عهدًا بدعم إقامة وطن يهودي، صار لديهم أيضًا سلطان على الأرض في فلسطين يسمح لهم بأن يبروا بعهدهم⁽⁵¹⁾.

النقاط الأربعة عشر والتصريح البريطاني إلى السبعة والاتفاقية الإنجليزية الفرنسية

لقد أربك إعلان السوفييت عن الاتفاقيات السرية التي أبرمت إبان الحرب الحكومة البريطانية. ودفع الغضب الواسع النطاق الذي أثاره الإفصاح عن تلك الاتفاقيات في منطقة الشرق الأوسط وبين حلفاء بريطانيا رئيس الوزراء لويد جورج إلى أن يلقي كلمة غاية في الأهمية عن «أهداف الحرب» أمام مؤتمر النقابات العمالية في 5 يناير 1918. وكما لاحظ ديفيد وودوارد، فقد أدت الضغوط الدفاعية المتصاعدة من أجل مواجهة ردة الفعل السلبية للاتفاقيات السرية إلى «التصريح بأبرز بيان بريطاني على الإطلاق إبان فترة الحرب حول أهداف الحرب» و«اعتبر محاولة للتخفيف من حدة أهداف حرب دولته»⁽⁵²⁾. ولقد فاجأت صراحة الكلمة و«توجهها الليبرالي» بلا شك الجمهور الأساسي الذي استمع لها؛ ألا وهو واضعو السياسات الأمريكيون برئاسة الرئيس وودرو ويلسون الذي كان يعد العدة هو نفسه لإلقاء كلمته الشهيرة «النقاط الأربعة عشرة» بعدها بثلاثة أيام وحسب. ففي كلمته، قطع لويد جورج على نفسه وعدًا ب«الإقرار بشروطهم القومية المنفصلة» لرعايا الدولة العثمانية، وأكد دعم الحكومة البريطانية للتسوية الإقليمية ما بعد الحرب «استنادًا إلى حق تقرير المصير أو موافقة المحكوم». ولكنه تراجع عن طموحه الجريء على الفور مضيفًا التحذير القائل إن «ماهية الشكل المحدد لهذا الإقرار في كل حالة خاصة لا ينبغي مناقشتها هنا، اللهم إلا أننا يجب أن نوضح أنه من المستحيل استعادة سيادتهم السابقة...»⁽⁵³⁾.

وبعدها بثلاثة أيام، ألقى الرئيس ويلسون كلمة أمام جلسة مشتركة للكونجرس يَبَيِّن فيها رؤيته لأهداف الحرب الأمريكية والنظام السياسي المستدام ما بعد الحرب. ومثلت الكلمة نتاج جماعة بحثية واسعة النطاق جمعها ويلسون في سبتمبر 1917

لتطوير الأهداف الرسمية للحرب للولايات المتحدة الأمريكية. وترأس تلك الجماعة إدوارد إم. هاوس مستشار السياسة الخارجية القريب من ولسون. وعُرفت الجماعة باسم «التحقيق» وضمت حوالي 150 أكاديميًا وخبيرًا بالعلاقات الدولية. وشملت الأبعاد الأربعة عشرة لكلمة ولسون نطاقًا عريضًا من الموضوعات التي تراوحت ما بين حرية البحار وإزالة الحواجز الاقتصادية وممارسة الأعمال الدبلوماسية المفتوحة بدلًا من إجراء المفاوضات السرية. والأهم أن ولسون أيضًا أوغل في تفاصيل التعديلات الإقليمية التي آمن بأنها ينبغي أن تعزز أية اتفاقية سلام. وبعد أن فُصل الخطوط العريضة لهذه الاتفاقيات في أوروبا، انصبت النقطة الثانية عشرة على الدولة العثمانية وأقاليمها الشرق أوسطية:

12. ينبغي ضمان سيادة أمانة للشطر التركي من الدولة العثمانية، لكن الجنسيات الأخرى الخاضعة الآن إلى الحكم التركي ينبغي أن نضمن لها حياة آمنة وفرصة لا مساس بها مطلقًا للتطور المستقل، وينبغي فتح مضيق الدردنيل دائمًا وأبدًا بوصفه ممرًا حرًا للسفن والتجارة لكل الأمم بموجب ضمانات دولية⁽⁵⁴⁾.

لقد استحدث ولسون مبدأ تقرير مصير الشعب باعتباره مبدأً ينبغي أن يبنى عليه هيكل العلاقات الدولية فترة ما بعد الحرب. ورغم أن الرئيس لم يتشاور مع حلفائه قبل الكلمة التي ألقاها، فإنه التزم هو ولويد جورج —على الأقل علنًا— بسياسة تقرير المصير في الشرق الأوسط، ولو أن الشيطان كان كامنًا في التفاصيل أو إن شئنا الدقة قصور التفاصيل، فيما يتعلق بالأقاليم المحددة في النطاق العثماني الجغرافي.

وعلى الفور، أقر المسؤولون البريطانيون والفرنسيون في لندن وباريس وفي مراكزهم الاستيطانية الاستعمارية بأهمية الموقف الدولي المتغير، وأدركوا أن هذا الموقف سيكون له تداعيات على خططهم الساعية إلى إعادة تنظيم الشرق الأوسط. فقد كانت النقاط الأربعة عشرة علاوة على إفصاح السوفييت عن الاتفاقيات السرية إيدانًا بتحول جذري في العلاقات الدولية ما بعد الحرب العالمية الأولى، مما عجل

بتحول في السياسة الرسمية في بريطانيا وفرنسا بالتبعية. وكان بعض المسؤولين، أمثال رئيس أركان قوة تجريدة بلاد الرافدين الجنرال وليم مارشال، رافضين صراحةً لـ«الثرثرة الجارية حول تقرير المصير وحقوق الشعوب الصغيرة» التي اعتبروها «مجرد صيحات ببغاوية آنية»⁽⁵⁵⁾. وأعرب البعض الآخر، مثل أرنولد ولسون المفوض المدني البريطاني في بلاد الرافدين عام 1918، عن استيائهم من المنهج الجديد للويد جورج والرئيس ولسون الذي أقحم «معطيات مزعجة في الموقف» في الشرق الأوسط. ومن ثم، رفض ولسون قبول التغيير الطارئ على السياسة، وتجاهله ببساطة لكونه «غير متساق مع الأهداف التقليدية للسياسة البريطانية في الشرق الأوسط»⁽⁵⁶⁾.

علاوة على ذلك، فإن إعلان الرئيس الخطوط العريضة التي يجب أن تتبناها أية مستوطنة ما بعد الحرب تعارض مع الافتراضات السائدة في لندن وباريس. وبعيدًا تمامًا عن المنافسة الناشئة على شق نطاقات نفوذ متنافسة في الشرق الأوسط، فضّل الرئيس⁽¹⁾ الفرنسي جورج كليمنصو هزيمة عسكرية ساحقة حاسمة لألمانيا وفرض إجراءات عقابية رادعة على المعتدي، بينما سعت حكومة لويد جورج إلى حماية وتمديد نطاق مصالحها في الشرق الأوسط. ولم تتبنى أي من الحكومتين النقاط الأربعة عشرة، رغم أن كليهما أدركتا أن العلاقات الدولية المتبدلة للصراع اقتضت منهجًا جديدًا للممارسات الدبلوماسية ووضع السياسات. ولذا، كان للتطورين الأبرز عام 1917 — ألا وهما مشاركة أمريكا في الحرب والثورات الروسية وخروج روسيا اللاحق من الصراع — تداعيات على إعلان أهداف الحرب وغايات ما بعد الحرب لدول التحالف. وببساطة، فإن إحلال جمهورية مثالية محل دولة إمبريالية أخرى يعني أن حق الغزو لا يجوز اعتباره بعد أساسًا كافيًا للاستحواذ الإقليمي.

وفي لندن تحديدًا، شرع مسؤولون رفيعو المستوى بالتبعية في صياغة سياسات جديدة من شأنها تعميق وتأمين السيطرة البريطانية على المكاسب العسكرية التي تحققت في الشرق الأوسط. وبحث واضعو السياسات في وزارة شؤون الهند ووزارة

(1) جاء في النص الأصلي أن كليمنصو رئيس فرنسا، والصواب أنه رئيس وزرائها. (المترجم)

الخارجية البريطانية عن سبل جديدة لتبرير السيطرة البريطانية فيما بعد الحرب على كل من بلاد الرافدين ومصر وفلسطين. وقد تلقوا عونًا من السير بيرسي كوكس الذي استدعي مؤقتًا إلى لندن من مقر عمله بوصفه مفوضًا مدنيًا في بغداد لاستشارته. وكانت عملية إعادة التقييم التي أجرتها وزارة شؤون الهند بقيادة السكرتير السياسي السير آرثر هيرتزل، وخلفه السير جون شوكرغ، قد دفعت هيرتزل إلى الإقرار بأن «التغير الكبير الذي حدث في الموقف السياسي العام» اقتضى «إعادة نظر وتعديلًا مبكرًا للسياسة المزمع تنفيذها في الأراضي المحتلة». وإذا كان القسم السياسي بوزارة شؤون الهند قد أقر بالسياق الدولي المختلف جذريًا، فإنه حاجج بأن أي مطالبة بهيمنة ما بعد الحرب يجب أن تكون قائمة على «أساس آخر بخلاف حق الغزو وحسب». ولذلك أوصى بضرورة أن تهدف السياسة البريطانية إلى «بناء المصالح والنفوذ البريطاني في الدولة... على أساس آمن جدًا بحيث يضمن صيانتها تحت رعاية أي نظام إداري قد يستحدث في نهاية المطاف»⁽⁵⁷⁾. ويشمل ذلك، بحسب مقترح القسم السياسي، ترسيخ المصالح التجارية البريطانية في بلاد الرافدين إلى ما يتجاوز «الواجهة العربية» في بغداد. وفي أبريل عام 1918، تبنت اللجنة الشرقية التي شكلها مجلس وزراء الحرب في لندن، وكذا وزير الخارجية السير آرثر بلפור، رسميًا إعادة توجيه السياسة البريطانية⁽⁵⁸⁾.

ولاحقًا في عام 1918، أضافت النهاية السريعة غير المتوقعة للحرب إثر فشل حملات الربيع التي شنها الألمان والتعاقب السريع للاختراقات الإنجليزية والفرنسية على الجبهة الغربية المزيد من الإلحاح للبحث عن سيطرة إقليمية بعد انتهاء الأعمال العدائية. وبينما كانت ركيزة سياسة زمن الحرب البريطانية والفرنسية في النصف الأول من العام هي القتال المستميت من أجل البقاء في مواجهة الهجوم الألماني، فتح التحول الجذري في زخم الحرب من شهر أغسطس فصاعدًا الباب أمام إمكانات جديدة مذهلة للتقدم العسكري والمكاسب الإقليمية. وفي تلك الأثناء، وخلال العام، بدأت جماعات قومية عبر منطقة الشرق الأوسط في تشكيل منصات سياسية وتطويرها بالتزامن مع انتشار أنباء النقاط الأربعة عشرة للرئيس الأمريكي

ولسون، رغم الجهود المستميتة للمراقبين الإنجليز والفرنسيين. ومن ثم كان الطريق ممهّدًا لصدام متزايد بين الطموحات القومية المتصاعدة والمحاولات الإنجليزية-الفرنسية العميقة لتعزيز سطوتها وتمديدتها إلى ما وراء فترة ما بعد الحرب. وعلى رأس أفكار كل من هذه الجماعات الفرص — وكذلك التحديات — التي تقدمها النهاية الوشيكة للأعمال العدائية.

وثمة تطور خطير حدث في سوريا حيث أُسس جديد باسم حزب الاتحاد السوري في أواخر عام 1917، أي إثر صدور وعد بلفور ونشر البلشفيين لاتفاقية سايكس-بيكو بفترة وجيزة. ولقد استجاب القلب المفكر للحركات العربية القومية الناشئة والناشطين في سوريا والمجتمع السوري الكبير في القاهرة للأنباء المتعلقة بوعد بلفور بإصدارهم مطالبات مضادة خاصة بهم. وقام ناشطان بارزان من سوريا ولبنان (فوزي البكري وسليمان ناصيف) بزيارة المكتب العربي لتسليم برقية ممهورة بتوقيعهما وبتوقيع اثنين آخرين من الأعيان تفيد أن فلسطين جزء لا يتجزأ من سوريا. ولكن المسؤولين البريطانيين رفضوا إرسال هذه البرقية إلى لندن، وكذلك نصحو الناشطاء بوقف احتجاجاتهم⁽⁵⁹⁾. ولما أحس سبعة من أعيان سوريا محسوبون على حزب الاتحاد السوري بالقلق من هذه التطورات، وشعروا بالسخط بشكل متزايد من قيادة الشريف حسين للثورة العربية، أصدروا في 28 أبريل 1918 مذكرة يطالبون فيها «بضمانة للاستقلال التام لشبه الجزيرة العربية». وزعموا في هذه المذكرة أنهم يمثلون الكثير من النوادي والجمعيات العربية التي «مُنحت سلطة كاملة للتعبير نيابة عن الشعب». والحقيقة أن هؤلاء السبعة امتد نفوذهم إلى أبرز الجمعيات النشطة في سوريا، ومثلوا فيما بينهم «كل طبقات المجتمع، ولاسيما طبقة المفكرين والقادة الدينيين والطبقة الأرستقراطية»، وكذلك «كانت لهم صلات بشيوخ القبائل البدوية»⁽⁶⁰⁾.

وقد جاء في تلك المذكرة طلب للحكومة البريطانية بالاستجابة إلى سلسلة من الأسئلة والإيضاحات التي كان على رأسها مطالبة بريطانيا أن تؤكد على الملأ نيتها

منح الأراضي العربية، وهي التي عُرفت بشبه الجزيرة العربية وسوريا وبلاد الرافدين وأجزاء من جنوب شرق تركيا، الاستقلال التام. وطالب الأعيان السبعة أيضًا الحكومة البريطانية ببيان هياكل السيطرة السياسية التي تخيلتها للأراضي السابق ذكرها.⁶¹ وهذه المرة، أقر المسؤولون البريطانيون في القاهرة بأهمية المذكرة والموقعين عليها وأرسلوها إلى لندن، وأوكل إلى مارك سايكس وضع مسودة برد الحكومة في 11 يونيو 1918 فيما عُرف باسم «تصريح إلى السبعة» بعد أن قُرأ على الأعيان السبعة في اجتماع عُقد بالقاهرة في 16 يونيو. وقسّم هذا التصريح الأراضي العربية إلى أربعة أقسام: (1) المناطق التي كانت مستقلة قبل اندلاع الحرب؛ (2) المناطق التي حررتها الحركات العربية خلال الحرب من الهيمنة العثمانية؛ (3) المناطق التي كانت واقعة تحت السيطرة العثمانية في السابق واحتلتها قوات التحالف خلال الحرب؛ (4) المناطق التي ما زالت تحت الهيمنة العثمانية. فأما القسم الأول والثاني فتعهدت الحكومة البريطانية بـ«الاعتراف بالاستقلال التام السيادي» للسكان العرب، وأما القسم الثالث فأكدت على أنه «ينبغي على الحكومة المستقبلية لتلك المناطق الاستناد إلى مبدأ موافقة المحكوم»، وأما القسم الرابع فصرحت بأن «رغبة وأمنية حكومة جلالة الملكة هي أن تحصل الشعوب المضطهدة بهذه المناطق على حريتها واستقلالها...»⁽⁶²⁾.

ولقد كان التصريح إلى السبعة بارزًا في المقام الأول لأنه شكّل أول بيان بريطاني للعالم العربي يتحدث صراحةً عن مبدأ حق تقرير المصير القومي. واستنادًا إلى وجهة النظر المؤثرة لجورج أنطونيوس فترة ما بعد الحرب، كان هذا هو الإعلان «السياسي الأبرز على الإطلاق الذي تفصح عنه بريطانيا العظمى فيما يختص بالثورة العربية» حيث أكد على «العهود السابقة التي قطعتها بريطانيا للعرب بأسلوب أبسط من أي شكل لفظي عام أسبق» وأتاح «إشهارًا سلطويًا للمبادئ التي تستند إليها تلك العهود»⁽⁶³⁾. ولذلك، فقد تجاوز الإعلان خطاب «أهداف الحرب» للويد جورج الذي ألقاه في يناير عام 1918، لكن شأنه شأن الإعلان الأسبق تراجعت أهميته بفعل القيود والأجزاء المبهمة⁽⁶⁴⁾.

والواقع أن التصريح إلى السبعة لم يحصل على ترويج واسع النطاق، وسرعان ما تجاوزته سلسلة من الأحداث المتكشفة سريعًا حيث تداعت أخيرًا مقاومة دول المركز في خريف 1918. ومع ذلك، ظل هذا الإعلان شهادة على الوعي السياسي المتصاعد بين المجتمعات السياسية العربية وإيمانها المتزايد بأن السياق الدولي بدّل معالم (وإمكانية قبول) الأشكال التقليدية للحكم الكولونيالي. كما أنه سلط الضوء على الحافز الذي أتاحته الحرب لطموحات الاستقلال المحلي بين الطبقات القومية الناشئة في شتى أرجاء الدولة العثمانية، وعبر المناطق البريطانية والفرنسية في شمال أفريقيا. ولكن هذه التعبئة المحلية سرعان ما تضاربت مع التقدم البريطاني السريع في سوريا وبلاد الرافدين في سبتمبر وأكتوبر 1918، مما استتبع إعلانًا نهائيًا حاسمًا للسياسة البريطانية والفرنسية⁽⁶⁵⁾.

ولقد ترتب على التقسيم الثلاثي للمصالح البريطانية والفرنسية والعربية الإعلان الإنجليزي الفرنسي الصادر في 7 نوفمبر 1918. والحقيقة أن هذا الإعلان تفوق على كل ما سبقه من إعلانات في شجبه للكولونيالية استنادًا إلى ضم الأراضي، وفي تحقيق الانسجام ما بين السياسة البريطانية والفرنسية ومبدأ تقرير المصير القومي، ولو على الورق وحسب. وقد ظهر هذا الإعلان في نفس التوقيت الذي كان المسؤولون في لندن يسعون فيه إلى إعادة تعريف هيمنتهم على مساحات كبيرة من الشرق الأوسط بطريقة تتساق مع الاتجاه الفكري السائد. وبالطبع كان هؤلاء المسؤولون أيضًا على دراية بالقيود المُكتشفة حديثًا لاتفاقية سايكس-بيكو حيث شهد الموقف العسكري على أرض المعركة تحولاً جذريًا لصالحهم، 66 ولقد أقر اللورد روبرت سيسيل، العضو باللجنة الشرقية التابعة لمجلس وزراء الحرب التي قدمت استشاراتها للويد جورج حول كيفية تحقيق أعظم فائدة ممكنة من الانتصارات العسكرية، بالشيء نفسه في مذكرة أرسلها للمسؤولين الفرنسيين في 8 أكتوبر 1918 (مع الموافقة الكاملة لرئيس الوزراء) حيث قال:

فيما يتعلق بالاتجاه المستقبلي للأقاليم الأخرى المذكورة في الاتفاقية

الإنجليزية الفرنسية لسنة 1916، تعتقد حكومة جلالة الملكة أنه من الصواب بيان أن الموقف العام تغير تغيرًا جذريًا منذ التوقيع على هذه الاتفاقية حتى أن شروطها لا... تبدو مناسبة للظروف الحالية. 67

وهكذا وجد المسؤولون البريطانيون أنفسهم يواجهون التمرد الفرنسي بسبب إعادة فتح قضية الاستيطان الإقليمي المتفق عليها عام 1916 من ناحية، والطموحات العربية التي ترى أن النهاية المفاجئة للحرب ستفضي إلى تنازلات تكافئ العرب على دعمهم خلال فترة الحرب للندن من ناحية أخرى. فجاء الإعلان الإنجليزي الفرنسي ليكون بمثابة محاولة للمصالحة بين الضغوط المتشعبة بشكل متزايد على وضع السياسات. وقد بدأ هذا الإعلان الذي وضع مسودته ساكس نفسه كالعادة بالتأكيد الجريء (المتعارض بالكامل مع اتفاقيات زمن الحرب السريّة) على أن الأهداف البريطانية والفرنسية في الشرق الأوسط طوال فترة الحرب كانت تبغي تأمين «التحرير التام النهائي للشعوب التي طالت معاناتها من ويلات الاضطهاد التركي، وإقامة حكومات وإدارات وطنية تستقي سلطتها من الممارسة الحرة لمبادرة واختيار السكان الأصليين». 68 ومضى الإعلان يتعهد بالتالي:

سعيًا منا لتحقيق هذه النوايا، توافق فرنسا وبريطانيا العظمى على دعم تأسيس حكومات السكان الأصليين في سوريا وبلاد الرافدين التي حررها الحلفاء، علاوة على الأراضي التي يشارك الحلفاء في تأمينها، ومد يد المساعدة لها، والاعتراف بها فور أن تتأسس بالفعل. وبعيدًا عن الرغبة في فرض أي مؤسسات بعينها على سكان تلك المناطق، يؤكد الحلفاء أنهم معنيون وكفى بدعمهم ومساعدتهم الوافية من أجل العمل المنتظم للحكومات والإدارات المختارة بحرية من قبل هؤلاء السكان أنفسهم.. (69)

وما أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى صعدت المسارات المتضاربة لإعلانات ووعود زمن الحرب سريعًا -وبشكل حتمي- إلى السطح. فضلًا عن أن ثمة مصلحة أخرى تجلت عام 1918 وأدت إلى إعادة هيكلة طبيعة التفاعل ما بين

الشرق الأوسط والنظام الدولي على مدار القرن العشرين بأسره بشكل جذري. وقد تمثلت تلك المصلحة في الوعي المتزايد بأهمية النفط بوصفه وقودًا لتشغيل العالم الحديث، وكذا الأهمية الجغرافية السياسية للسيطرة على الاحتياطيات المعروفة والمحتملة منه في العالم. وهكذا ظهر النفط والجغرافيا السياسية معًا بوصفهما غاية محورية للحلفاء في الشرق الأوسط عام 1918 في الوقت نفسه الذي فتح فيه الانهيار المفاجئ لدول المركز إمكانات جديدة للتدخل والهيمنة الغربيتين.

النفط والجغرافيا السياسية

ركزت التطورات في العام الأخير من الحرب انتباه واضعي السياسة على إمكانات احتياطيات النفط الواقعة في منطقة الشرق الأوسط. وأعلى ذلك من الأهمية الجغرافية السياسية التي من المتوقع أن تتمتع بها المنطقة طوال الفترة المتبقية من القرن العشرين وما بعده. كان أصحاب الامتيازات البريطانيون قد اكتشفوا النفط في الشرق الأوسط في منطقة مسجد سليمان في بلاد فارس (إيران الآن) في مايو عام 1908. وتبع هذا الكشف المذهل بعام إنشاء شركة النفط الإنجليزية الفارسية وتأسيس مصفاة نفط ضخمة في عبّادان بمحاذاة الساحل الفارسي للخليج. وقد افتتحت هذه المصفاة في عام 1913، أي في العام نفسه الذي تفاوضت فيه شركة النفط الإنجليزية الفارسية مع وزير البحرية في لندن ونستون تشرشل بشأن إحلال النفط محل الفحم في البحرية الملكية. وفي تلك الفترة، كانت الدول الكبرى المنتجة للنفط هي الولايات المتحدة الأمريكية ورومانيا وروسيا والهند الشرقية الهولندية والمكسيك، بينما كانت وزارة البحرية تفتقر إلى مصدر إمدادات تحت السيطرة أو على الأقل خاضع للنفوذ البريطاني. وقبل عام 1914، بلغ نصيب الولايات المتحدة من إمدادات النفط إلى المملكة المتحدة 62.3 في المائة تَبعتها رومانيا (11.6%)، ثم روسيا (7.7%) والمستعمرات الهولندية (7.7%)، ثم المكسيك (4.1%)، بينما كانت تمدّها دول أخرى -من بينها كندا التي كانت المصدر الوحيد لإنتاج النفط داخل المنظومة الإمبراطورية البريطانية عام 1914- بالنسبة المتبقية وهي 6.5 في المائة⁽⁷⁰⁾. والواقع

أن الإمبراطورية البريطانية لم تكن تنتج سوى 2.5 في المائة من نفط العالم. وفي نقاش جرى بمجلس العموم بشأن تلك المسألة في يوليو 1913، حدد تشرشل أس المشكلة على النحو التالي:

... ليس من المستحب أن نحصل على كل إمداداتنا من مصدر وحيد، ومن الضروري أن تُطوّر القطاعات التي سيكون لحكومة جلالة الملكة عليها سلطان بحيث تقدر في فترات الأزمات على تعويضنا على وجه السرعة عن أية حالات عجز قد تنشأ بسبب تعطل عمليات التسليم في أماكن أخرى»⁽⁷¹⁾.

وفي الوقت نفسه، شكّلت الحكومة البريطانية لجنة ملكية للنفط والمحركات تحت رعاية اللورد فيشر الذي تقاعد لَمَّا كان قائدًا للقوات البحرية عام 1910، ليستعيد منصبه عام 1914 قبل أن يستقيل احتجاجًا على حملة غاليبولي التي دعمها تشرشل عام 1915⁽⁷²⁾. وقد أوكل لهذه اللجنة فحص «سبل الإمداد والتخزين للوقود السائل في فترات الحرب والسلام» مع الوضع في الاعتبار تحويل القطع البحرية من الفحم إلى النفط. فوضعت اللجنة ثلاثة تقارير سرّية أوصت فيها بمراكمة احتياطات نفطية ضخمة في المملكة المتحدة وفي شتى أرجاء الإمبراطورية البريطانية. وفي الوقت نفسه، أعربت اللجنة عن غايتها في أن تصبح وزارة البحرية مالكا ومنتجا مستقلا لإمداداتها من النفط⁽⁷³⁾.

ولقد جعلت القفزات التكنولوجية امتلاك مصادر وفيرة من النفط غاية مأسّة بشدة. فقد كانت السفن التي تعمل بالنفط أكثر وفرا في تشغيلها وأسرع في حركتها من السفن التي تعمل بالفحم. وفي ظل انشغال بريطانيا وألمانيا بسباق التسليح البحري قبل عام 1914، سارع المسؤولون في لندن وبرلين لانتهاز أية فرصة تلوح لهم. وقد أتاح قرب ألمانيا من الحقول الرومانية مصدرا مناسبًا للإمدادات أدى في النهاية إلى احتلال ألمانيا لرومانيا عام 1916. ولم يكن لدى بريطانيا دولة نظيرة، كما ترتب على فقدان الإمدادات الرومانية والروسية إبان الحرب أنه بحلول عام 1917 ستصبح الولايات المتحدة المورد الوحيد للنفط مما سيفضي إلى اعتماد

مفرط غير صحي كان بعد ذاته عُرضة لاعتراض. وحقيقة الأمر أن المملكة المتحدة بحلول عام 1918 كانت بحاجة إلى 10 ملايين طن من النفط المستورد كل عام، بينما كانت كل بارجة في البحرية الملكية بحاجة إلى 6000 طن من النفط يوميًا لتعمل بسلاسة⁽⁷⁴⁾.

وتبع ذلك تحويل تشرشل للبحرية الملكية إلى النفط بعد استحواذ الحكومة البريطانية على نصيب الأسد من شركة النفط الإنجليزية الفارسية. وفي أبريل 1914، أورد تقرير عن وزارة البحرية أن الحقل الحالي لشركة النفط الإنجليزية -الفارسية قادر على «تلبية قسم كبير من متطلبات البحرية لفترة طويلة»، وأوصى بأنه «في حالة الاستفادة بروية من الامتياز بأكمله من الممكن تأمين احتياجات بحرية جلالة الملك من الوقود»⁽⁷⁵⁾. وفي العشرين من مايو، اشترت الحكومة البريطانية أسهمًا بنسبة 51 في المائة في شركة النفط الإنجليزية الفارسية. وفي 10 أغسطس -أي بعد ستة أيام من إعلان بريطانيا الحرب على ألمانيا- حظي مشروع القانون الخاص بشركة النفط الإنجليزية الفارسية (مشروع قانون الاستحواذ على رأس المال) على الموافقة الملكية⁽⁷⁶⁾. وبعدها أمسى الدفاع عن حقول النفط الخاصة بشركة النفط الإنجليزية الفارسية ومصفاتها وخطوط أنابيبها بمدينة عبّادان، كما تبيّن في الفصل السادس، واحدًا من أهداف بريطانيا من إرسال قوات للبصرة في أكتوبر 1914، وهو ما كان إيذانًا بانطلاق حملة بلاد الرافدين. وأثناء الحرب نفسها، أحدث التوسع المهول في استخدام وسائل نقل تعمل بالمحركات في جميع ميادين المعركة ثورة في مكانة النفط بالنسبة للآليات العسكرية. وفي كتابه «إمداد مارس: اللوجستيات في الحروب الغربية من العصور الوسطى إلى الآن» -Feeding Mars: Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the Present، وصف جون لين كيف أحدثت التغيرات التكنولوجية التي جلبتها الثورة الصناعية تحولاً في «وسائل المواصلات والمواد المُستهلكة» في الصراع الصناعي الذي احتج بأنه «أعاد تعريف اللوجستيات الحديثة» وطبيعة الحرب نفسها⁽⁷⁷⁾. وفي الوقت ذاته، ذهب مارتن فان كريفلد إلى أن «ثورة اللوجستيات» قد حدثت أثناء الحرب حيث حلت السلع التي تنتجها

المصانع محل الطعام والسجاد باعتبارها أكثر الأغراض استهلاكًا، مما وضع ضغوطًا كبيرة على أنظمة النقل والمواصلات المميكنة والربط ما بين الجيوش وشبكات إمدادها ومواصلاتها⁽⁷⁸⁾.

واستنادًا إلى هذه الخلفية، ربما كان من قبيل المفاجأة أن النفط لم يظهر باعتباره منفعة جغرافية سياسية حاسمة للحلفاء في منطقة الشرق الأوسط حتى في فترة متأخرة جدًا في الحرب. فالحاجة لضمان السيطرة على حقول النفط الفارسية والاحتياطات التي شاع وجودها في بلاد الرافدين (سلفًا للاكتشاف الفعلي للنفط عام 1927) ظهرت فجأة وبقوة على أجندة الحكومة البريطانية في نهاية يوليو 1918. وقد حدث ذلك بينما كان وزير الخارجية آرثر بلفور يعد العدة للإدلاء ببيان حول أهداف الحرب أثناء اجتماع لمجلس وزراء الحرب الإمبراطوري في لندن في 13 أغسطس. فخلال التمهيد للاجتماع، وزع أمين عام مجلس وزراء الحرب الإمبراطوري (والذي كان يتضمن قادة وممثلين من مستعمرات ودومينيونات الإمبراطورية البريطانية)، السير موريس هانكي، مهمة ونشاط على الوزراء مذكرة أعدها الفريق أول بحري السير إدموند سليد الرئيس الأسبق لقسم الاستخبارات البحرية والمؤيد الأبرز لاستحواذ الحكومة البريطانية على حصة مهيمنة من أسهم شركة النفط الإنجليزية الفارسية عام 1914، والذي انضم للشركة مديرًا لها بناءً على تأييده للفكرة. وكانت مذكرة سليد التي وُجّهت بمعرفة وزارة البحرية إلى وزارة الحرب الإمبراطوري في الثلاثين من يوليو عام 1918 لمناقشة الوزراء لها على وجه السرعة تحمل عنوان: «موقف البترول في الإمبراطورية البريطانية».

ولقد بدأ سليد مذكرته بوصف كيف أن «هناك وجهتي نظر أساسيتين يتعيّن دراسة موقف البترول في الإمبراطورية البريطانية انطلاقًا منهما. أولاهما -وأهمهما- وجهة النظر الاستراتيجية، وثانيتهما وجهة النظر المتعلقة بالإمدادات»⁽⁷⁹⁾، وتابع قائلاً:

... لا نبالغ إذ نقول إن حياتنا باعتبارنا إمبراطورية تعول إلى حد بعيد على قدرتنا على استبقاء السيطرة على وقود السفن... والنفط السائل المُستخدم كوسيلة لزيادة

قوة الدفع أوفر من الفحم بمقدار الضعف، والمستخدم في محرك الحرق الداخلي أوفر بأربعة أضعاف. ولذا، يجب أن يحل النفط تدريجيًا محل الفحم لجميع الأغراض البحرية، وبالتالي فمن المهم جدًا بالنسبة لنا أن نحظى بالسيطرة الكاملة بلا منازع على أكبر كمية من البترول نستطيع تأمينها⁽⁸⁰⁾.

وصرح سليلد عندما التفت إلى منطقة الشرق الأوسط بأنه:

في بلاد فارس وبلاد الرافدين توجد أكبر موارد نفطية غير مطورة معروفة في العالم الآن... وهناك مكامن معروفة أيضًا في بقاع أخرى من بلاد فارس وبلاد الرافدين تشكل احتياطات للمستقبل عندما يتم تطويرها بحيث يُستفاد منها. وليس من المغالاة في شيء إذا قدرنا أن بلاد النفط في فارس والرافدين التي ستمتد لأكثر من 360000 ميل مربع، أو أكثر من ضعف مساحة حقول النفط الروسية، لا ينبغي أن توفر إمدادات في المستقبل مكافئة لتلك التي تمنحنا إياها الولايات المتحدة حاليًا. وإذا كان هذا التقييم قريبًا من الواقع بأي حال من الأحوال، فمن الواضح أن القوة التي تسيطر على أراضي النفط في بلاد فارس وبلاد الرافدين ستتحكم في موارد إمداد غالبية النفط السائل في المستقبل⁽⁸¹⁾.

واختتم سليلد مذكرته المدوية بالتوصية التالية: «ولذا، يجب أن نحكم قبضتنا مهما كلفنا الأمر على حقول النفط الفارسية وتلك الواقعة في بلاد الرافدين» و«يتعين علينا ألا نسمح بأي تدخل مهما كان نوعه لأية مصالح أجنبية مهما كانت متخفية». ولقد اعتبر أن هذه السيطرة الفعلية على إقليم حقول النفط ضرورة قطعًا حيث زعم أن «المعاهدات والاتفاقيات ما هي إلا حبر على ورق، ويمكن أن تُمزق تمزيقًا، ولا يُعتد بها بوصفها ضمانة كافية»⁽⁸²⁾.

ويبدو أن هانكي تفاعل مع نبرة الإلحاح السارية في مذكرة سليلد فقام بتوجيهها على الفور إلى وزير البحرية السير إيريك غيديس في الثلاثين من يوليو مصحوبة برسالة مفادها: «إذا كانت هذه المعلومات صحيحة، فمن الواضح أن فرض السيطرة

البريطانية على المناطق الغنية بالنفط في بلاد الرافدين وبلاد فارس، وإقامة حدود استراتيجية مناسبة لتكون غطاء لها، سيصبح واحدًا من الأهداف الرئيسة للحرب البريطانية». وأضاف هانكي أنه «يبدو من المستحسن قبل المبادرة بمناقشة السلام أن نستحوذ على كل المناطق الحاوية للنفط في بلاد الرافدين وجنوب بلاد فارس أينما كانت»، واختتم مصرحًا أن «المسألة ذات أهمية مُلحة»⁽⁸³⁾. وفي رسالة منفصلة لرئيس الوزراء، ناشد هانكي لويد جورج أن يتصرف قائلًا: «قد تكون هناك أسباب بخلاف الدواعي العسكرية المحضة تدعونا إلى التغلغل في بلاد الرافدين حيث يتمتع البريطانيون بقوة لا مثيل لها. ألن يكون من المميز قبل نهاية الحرب أن نوّمن آبار النفط القيّمة في بلاد الرافدين؟»⁽⁸⁴⁾. كما راسل هانكي وزارة الخارجية قائلًا: «أمل أن تكون قادرًا على قراءة مذكرة سليد لأنها بحق وثيقة مهمة بشكل محوري»، قبل أن يكرر أن السيطرة على المناطق الحاوية للنفط في بلاد فارس وبلاد الرافدين ينبغي أن تكون «غاية أساسية من غايات الحرب البريطانية». وبالتالي، اقترح هانكي على بلفور أنه «في تصريحك إلى مجلس وزراء الحربالإمبراطوري، ينبغي أن تلج على هذه المسألة»⁽⁸⁵⁾.

ولا شك أن هانكي أصيب بخيبة أمل كبيرة لما وجد أن دفاعه عن فكرته لم يسفر عن أية نتائج إيجابية كان يتوقعها. ففي حوار وجيز مع بلفور، علّق وزير الخارجية بأن أي استبقاء أو تمديد للسيطرة البريطانية على حقول النفط ببلاد الرافدين وبلاد فارس «هو غاية حربية إمبريالية محضة». واستتبع ذلك استجابة دفاعية من هانكي الذي خط خطابًا آخر إلى بلفور في 12 أغسطس، أي في اليوم السابق لانعقاد اجتماع مجلس وزراء الحرب الإمبراطوري لمناقشة غايات الحرب، قال فيه:

افترض أن المسألة لو عُرضت بصراحة كصراحتي ستبدو إمبريالية الطابع، ولو أن هذا لا يصدمني، وأن الأمر سيمثل صدمة للرئيس ولسون وبعض حلفائنا. ومع ذلك، يبدو لي، حتى من وجهة نظر مثالية، أنه ليس هناك مفر من استحواذنا على المناطق الشمالية لبلاد الرافدين⁽⁸⁶⁾.

وقد طرح هانكي بشكل كاشف البديل للسيطرة البريطانية باعتباره «تسليماً» للمناطق المحتلة في الشرق الأوسط إلى «حكم الأتراك المدمر»⁽⁸⁷⁾. ويبدو أن فكرة السماح لشعوب المنطقة باختيار شكل حكمها كانت غائبة تماماً عن النقاش حيث صارع واضعو السياسات البريطانيون الملتزمون «بالطريقة التقليدية لتسيير الأمور» من أجل التحايل على الإجماع الدولي الجديد الذي يتشكل حول فكرة تقرير المصير القومي. فهذا هو أرنولد ولسون المندوب البريطاني في بلاد الرافدين يبدى تجاهلاً مثيراً حيث أورد في مذكراته فترة ما بعد الحرب كيف أن النهاية الوشيكة للأعمال العدائية أدت به إلى الحث على «بذل كل الجهود الممكنة... الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الأراضي الواقعة على ضفتي نهر دجلة قبل أن ينكشف أمرنا». ولذا احتلت مدينة الموصل، وهي التي يُعتقد على نطاق واسع (عن حق) أنها تقع في قلب أغني حقول النفط في بلاد الرافدين، في 10 نوفمبر 1918. ولعل هذا الاحتلال سبق بيوم واحد نهاية الحرب في أوروبا، لكنه جاء بعد أحد عشر يوماً من إنهاء هدنة مودروس (نظرياً) الأعمال العدائية مع الدولة العثمانية في منطقة الشرق الأوسط⁽⁸⁸⁾.

وعلى أية حال، فإن مناصرة هانكي المُلحّة لفكرته أثمرت في نهاية المطاف حيث أخبر بلفور الاجتماع المنعقد لمجلس وزراء الحرب الإمبراطوري في 13 أغسطس أن بريطانيا لا تستطيع السماح بإعادة بلاد الرافدين إلى السيطرة العثمانية أو الحكم العربي. وبدلاً من ذلك، ستكون تلك المنطقة الاستثناء للتصريحات السياسية البريطانية فيما يختص بمستقبل منطقة الشرق الأوسط⁽⁸⁹⁾. ومع ذلك، كما بيّن القسم السابق، عطل هذه الخطوة الإعلان الإنجليزي الفرنسي اللاحق في 7 نوفمبر 1918. ولا ريب أن التناقضات الصارخة المتأصلة في السياسة البريطانية تجاه المنطقة تلخصت في بلاد الرافدين حيث تعارضت المفاهيم الفكرية المتعلقة بتقرير المصير الوطني مع المصالح الاستراتيجية والتجارية الإمبريالية. وجدير بالمعرفة أن الإعلان الإنجليزي الفرنسي صُرح به في الوقت نفسه الذي كانت فيه وحدات أرنولد ولسون العسكرية تتقدم شمالاً لتأمين مكاسبها في الموصل بحيث ينجون بتلك الفعلة الاستباقية. وقد تجاهلت فرنسا هذه الخطوات البريطانية وتطلعت إلى التستر على مصالحها

الخاصة ما بعد الحرب في سوريا، وهي التي ستجعلها في مواجهة مباشرة مع الحركة القومية العربية. ويعنى الفصل الأخير من هذا الكتاب بالتمحيص في هذه المناورات السياسية بالكامل حيث أتاح الإجماع المتقلقل الذي تشكّل إبان الحرب بخصوص المصالح البريطانية والفرنسية والعربية المجال لمنافسة مباشرة محتدمة خلال الفترة بين عامي 1919 و1922.

الفصل الثامن

تسويات ما بعد الحرب، 1919-1923

وُثِّقَ الفصل السابق للشبكات المتداخلة للأعمال الدبلوماسية فترة الحرب والاتفاقيات السريّة والعهود المتضاربة التي بدأ اللثام يُماط عنها عام 1918. وعُجِّلَ من هذه العمليات المعقدة إلى حد بعيد الانهيار المفاجئ لدول المركز في الفترة بين أغسطس ونوفمبر 1918. وفتح انتهاء الأعمال العدائية الباب على مصراعيه في ميدان المعركة لطموحات متنافسة من أجل التسوية السلمية بين الأطراف المتحاربة والمجتمعات المستضيفة لها التي أنهكها الصراع الممتد لأربع سنوات. وفي قلب تلك الطموحات كان التضارب ما بين المحاولات البريطانية والفرنسية لتأمين مكاسب الحرب وتمديد أثرها لفترة ما بعد الحرب والمطالبات القومية المتصاعدة في شتى أرجاء العالم العربي. وفاقم مبدأ الرئيس ولسون المتعلق بتقرير المصير من المزيج المؤرق للوعي السياسي الناشئ والتعبير القومي. فكانت النتيجة فترة متصلة من الاضطرابات التي عصفت بمزاعم القوى الإمبريالية الزائلة في الشرق الأوسط خلال الفترة بين عامي 1919 و1922 حيث خرجت أجنداث وطبقات نخبوية محلية من عباءة الهيمنة الاستعمارية لممارسة أثر قوي على عمليات اتخاذ القرار في شتى أرجاء المنطقة.

تبدأ هذه المقدمة بالتركيز على اتجاهين أساسيين أثناء فترة ما بعد الحرب مباشرة. ويستكشف الاتجاه الأول أثر المشاق المتعددة إبان الحرب التي واجهتها الشعوب والحركات في أرجاء المنطقة. فلقد خلق الأثر التراكمي لأربع سنوات من التشرد الاجتماعي والتفكك الاقتصادي أزمات عميقة وجدت لها متنفساً في تحركات المقاومة الفردية والجمعية لهيكل القوة السياسية وتوازنها. وتقاطعت عوامل اجتماعية واقتصادية في المقابل مع الاتجاه الثاني المتمثل في اختفاء نُخب العصر

العثماني حيث تنافست شخصيات قومية جديدة على الساحة مع طبقة جديدة من المدراء الاستعماريين الإنجليز والفرنسيين طمعًا في الهيمنة المحلية والإقليمية. ويعد هذا الاتجاه الثاني امتدادًا لتمحيص الفصل السابع في المناخ المتغير للسياسات الدولية إذ يستكشف كيف نفذ هذا التغير المناخي إلى أرجاء الشرق الأوسط رغم المحاولات البريطانية والفرنسية الساعية إلى كبحه بعد عام 1918. فبينما سعى المسؤولون في لندن وباريس وميدانًا إلى إعادة تقييم سياساتهم الإقليمية لتبرير استمرار بسط نفوذهم إبان الحرب إلى فترة ما بعد الحرب، اصطدموا بشكل متزايد مع حلفائهم المحليين سابقًا.

وبالتالي سُحِقَت الآمال القومية المتصاعدة خلال مؤتمر باريس للسلام عام 1919. ولذا سيواصل هذا الفصل وصف كيف تلاقى الغضب الشعبي من محاولات القوى الإمبريالية إضفاء صفة الشرعية على حكمها وتعميق جذوره مع المشاق الاجتماعية والاقتصادية التي نالت تقريبًا من كل مجتمعات المنطقة. وكانت النتيجة اصطفاق قاتل لتحالفات متحولة حول برنامج غامض لحماية الموارد المحلية من المزيد من المطالبات الانتهازية وتعظيم المزايا السياسية المترتبة على اختيارات ومساومات زمن الحرب. ولقد مهد ذلك الطريق أمام تطورات في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا استمرت حتى عام 1922 الذي حدد فيه الإعلان البريطاني الأحادي الجانب عن الاستقلال المصري، علاوة على توقيع أول معاهدة إنجليزية عراقية بعد عام من مؤتمر القاهرة المُخْزِي، مقومات نظام الدول الحديث في الشرق الأوسط. وشهدت الفترة نفسها أيضًا عزل الفرنسيين لفیصل بن حسین من سوريا وإقامة أول نظام انتداب ما بعد الحرب للكيانات السياسية الجديدة لشرق الأردن وفلسطين.

ولذلك أدي التعرض للحرب العالمية الأولى ولتبعاتها المضطربة والمشاركة فيها إلى صنع الشرق الأوسط الحديث. وتجلّى ذلك أكثر ما تجلّى في تداعي الدولة العثمانية ونشأة النظام الدولي الحديث (ولو تحت حكم الانتداب). وبَدَل ذلك المشهد السياسي للمنطقة جذريًا لكن أشكالًا أخرى لإعادة تنظيم المنطقة ظهرت أيضًا.

وتراوح ما بين صعود ضرب جديد من القومية التي استطاعت التعبئة لتحالف أوسع لأغراض الدعم ودمج مكونات اقتصادية وصناعية، وتقسيم وتجزئة التحالفات والاتفاقيات التي عُقدت في زمن الحرب والتي ما برحت تستدعي ذكريات أليمة بعد مرور قرن، وإقحام النفط باعتباره غاية من غايات السياسة «الغربية» بما لها من تبعات جغرافية سياسية، ومجموعة من القرارات السياسية التي ما زال صداها يتردد عبر المنطقة على مدار قرن من اتخاذها. وبعد عقد من الزمان شهد تدخلًا غربيًا متجددًا في العراق، إضافة إلى ثورة الربيع العربي التي تهدد بإطاحة التسوية السياسية بعد عام 1918، من الواضح أن القضايا الخلافية الرئيسة تفتفي أثر جذورها وصولاً إلى القرارات التي اتخذت في الفترة ما بين عامي 1914 و1922.

ميراث مصاعب زمن الحرب

خضعت الحرب العالمية الأولى لتحليل حقيقي من حيث كونها ثورة في الشؤون العسكرية. فبداية من الطفرات التكنولوجية وتصنيع الحرب وانتهاء بالعلاقة ما بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية والتخطيط للعمليات وتنفيذها، سلطت الحرب الضوء على لحظة فارقة في الشؤون العسكرية الحديثة. وفي منطقة الشرق الأوسط، ورغم أن المعارك لم تكن عنيفة ولا مركزة كما كانت على الجبهة الغربية، كان الأثر التراكمي لتلك السنوات الأربع على الأقل مدمرًا بالقدر نفسه بالنسبة لشعوب الشرق الأوسط وأقطاره. فلقد جعلت نشأة الحرب الحديثة المستندة إلى الثورة الصناعية القتال مختلفًا كل الاختلاف عن الحملات الاستعمارية ما قبل عام 1914 التي طالبت المجتمعات المضيفة لها بمطالب أقل بكثير. ففي أثناء الحرب العالمية الأولى، في المقابل، عُثبَت الموارد المحلية واستنفذت بلا هوادة على نطاق مختلف كليًا بغية الوفاء بالمتطلبات الحتمية للدعم اللوجستي والإداري. وضاعف استغلال القوى العاملة والموارد الحيوانية ومصادرة المحاصيل لتأمين الطعام والسماذ، والتفكك الاقتصادي الذي أصاب التجارة المحلية وطرقها، من أثر شكل من أشكال «الحرب الشمولية» على الشرق الأوسط التي انطوت على الاستغلال الواسع الأثر لكل من الموارد المدنية

والعسكرية، مهما كانت الحملات العسكرية هামشية بالنسبة للمقاتلين الأوروبيين. وفي حالة الإبادة الجماعية للأرمن وإعادة رسم الحدود السياسية على نحو اخترق المناطق الداخلية الاقتصادية والتجارية المستقرة منذ قديم الزمان وساهم في حدوث المجاعة في بلاد الشام وفي بلاد فارس، أمست الطبيعة «الشاملة» للحرب واقعًا مفاجئًا⁽¹⁾.

ولذلك مَسَّ أثر أربع سنوات من الاقتتال كل جانب من جوانب الحياة. فقد أسهمت تعبئة الموارد المحلية فترة الحرب إلى حد كبير في تراكم المصائب التي نزلت بالشعوب على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي. ففي المناطق الريفية، عَطَلَت مصادرة اليد العاملة والجمال والحمير والطعام والسماد إلى حد كبير أنماط العمالة والإنتاج الزراعيين، بينما حرم التوظيف والأسعار الثابتة أيضًا المزارعين من فرصة المشاركة في الأجور وأسعار السلع الأعلى التي طرأت بينما فاق الطلب العرض. وفي ظل حالات القصور الغذائي التي نجمت عن ذلك، شرع المنتجون المحليون في حماية الإمدادات وتخزينها للحيلولة دون تحويلها إلى الأسواق المدنية والعسكرية. ولقد أثَّر ذلك على نقل الموارد إلى المراكز الحضرية، وكان له وقع موهن تحديدًا على المجتمعات التي كان هامش قوتها الذي يؤمن لها البقاء محدودًا بالفعل. ولذا انطوى أثر الحرب الاقتصادي على تفاعلمعقد بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية من ناحية والعوامل السياسية من ناحية أخرى على كاهل مجتمع محلي عصي. ولقد ضاعف هذا الأثر من الفوارق ما بين الشبكات التعاونية للوكلاء المحليين، وكثير منهم استفادوا من أنشطة زمن الحرب، وجموع الشعب والمجتمعات التي كانت تفتقر إلى مثل هذا القرب من السلطة للتخفيف من وطأة المطالب النهمه للحرب أو تحييدها.

ففي مستهل عام 1918، تقريبًا قبل عام من انتهاء الأعمال العدائية، حاقت بقطاع كبير من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ظروف صعبة جدًا. ولقد وثقت الفصول السابقة المجاعة القاتلة التي ضربت سوريا ولبنان منذ عام 1915 فصاعدًا.

وبينما امتدت الحرب إلى عامها الثالث ومن بعده الرابع، أمست حالات القصور في الغذاء والسلع الأساسية أكثر تفشيًا عبر المنطقة. وتسبب إفاد جيوش قوامها مئات الآلاف من المقاتلين ووحدات دعم غير قتالية ملحقة بها في زيادة مهولة في المطالبات العسكرية للموارد المدنية التي أمست بالفعل أكثر ندرة في ظروف زمن الحرب. ففي مصر، شعر سكان المناطق الحضرية بحالات قصور شديد في المواد الغذائية عام 1917 نظرًا للمطالبات العسكرية وتراجع الإمدادات الأوروبية المستوردة وإحلال محاصيل القطن محل الحبوب. وأدى ذلك إلى الضغوط التضخمية المتصاعدة التي زادت بشكل حاد بين عامي 1917 و1918 بعد أن زادت بثبات بين عامي 1915 و1916. وكما لاحظ جويل بينين وزاكاري لوكمان في كتابهما «عمال على ضفة النيل» *Workers on the Nile*، فإن الأثر التراكمي لندرة المواد الغذائية والتضخم دفع كثيرًا من المصريين إلى هاوية الجوع بحلول عام 1918⁽²⁾. وبحلول الخريف، كانت حالات ندرة الطعام قد تفشت حتى في المناطق الريفية بمصر أيضًا، وأمسى الموقف حرجًا إذ بدأ الفلاحون في حجز محاصيل القمح لاستخدامهم الشخصي لأن الذرة التي عادة ما كانوا يستهلكونها قد صودرت⁽³⁾.

ولقد تكررت الظروف المتدهورة في مصر في مناطق إقليمية أخرى من الصراع. فقد حرم انقسام بلاد الرافدين إلى مناطق سيطرة متنافسة بين البريطانيين والعثمانيين المناطق الحضرية من أراضيها الزراعية الداخلية التقليدية. وكما حدث في مصر، تضافرت الأسعار المتصاعدة مع حالات النقص المتفاقمة التي زادت حدة أيضًا آثار الحصار الاقتصادي الذي ضربته الجيوش المتحاربة للجانبين. حتى أن مدينة وإقليم الموصل دخلت في حالة مجاعة بحلول نوفمبر عام 1918 حيث لقي آلاف السكان حتفهم جوعًا. وذكر المؤرخ عالم الاجتماع العراقي غسان عطية أن الناس في شمال بلاد الرافدين «كانوا حريصين على أن يروا نهاية لهذا الصراع لأنهم كانوا يعتقدون الآمال على أن تجلب لهم نهاية الحرب إمدادات غذائية من الأقاليم الشمالية الواقعة تحت السيطرة البريطانية»⁽⁴⁾. ومن المثير للجدل أن المسؤولين البريطانيين نجحوا وحسب في تجنب خطر وقوع مجاعة في بغداد — الأمر الذي كان يمكن أن

يكون كارثيًا سياسيًا— بتحويل مسار الإمدادات الغذائية الضرورية جدًا من الأقاليم والقرى الزراعية القبلية الكائنة بطول نهري دجلة والفرات. ولذا «كانت بغداد آمنة على حساب المدن الأصغر» مما كان له تبعات وخيمة على مدن كالنجف الأشرف حيث أدى الغضب الداخلي المتصاعد من الأسعار المتزايدة إلى قتل المندوب البريطاني هناك في مارس عام 1918⁽⁵⁾.

وتدهورت الظروف أيضًا في كردستان العراق وشمال غرب بلاد فارس تدهورًا شديدًا عام 1917 حيث شاعت بقدر أكبر حالات الندرة في القمح وغيره من محاصيل صناعة الخبز. وبحلول نوفمبر من العام نفسه، كان الناس يلقون حتفهم يوميًا من سوء التغذية في مدينة تبريز الفارسية، وطوال عام 1918 وُجهت أعداد متزايدة من القوات البريطانية والهندية في بلاد الرافدين لإدارة عمليات «تخفيف أعباء المجاعات» عبر الحدود الفارسية إثر سلسلة من حالات فساد المحاصيل وفترة مستمرة من الجفاف. وإذ حوصر الجزء الشمالي من بلاد فارس وإقليم كردستان العراق في محيط الحملات الشرسة ما بين الروس والعثمانيين في القوقاز والمطالب الشرهة لاقتصاد الحرب التي فرضها الجانبان، فقد تأثرت تلك المناطق بشدة بالانقطاع الاقتصادي الناجم للتجارة الإقليمية. ولقد تسبب ذلك في انهيار إيرادات تعرفه الواردات الذي تضاعف لاحقًا إثر القرار البريطاني بفرض تعرفه خاصة بالإنجليز على التجارة الفارسية مع بلاد الرافدين، وقرار آخر مثير للجدل بمنع سداد العوائد النفطية لحكومة بلاد فارس. وَقَدَّرَت الأبحاث الأخيرة أن ربع سكان الجزء الشمالي لبلاد فارس قضوا نحبهم في المجاعة التي حدثت في الفترة بين عامي 1917 و1919⁽⁶⁾.

ولم يكن الأثر الاقتصادي للحرب على الدولة العثمانية أقل وقعًا. فالأرقام التي جمعها المؤرخ الاقتصادي التركي شوكت باموكتَّقدَّر أن إجمالي الناتج المحلي تراجع بنسبة 40 في المائة خلال فترة الحرب، بينما انهار الاستهلاك المحلي بنسبة تراوحت ما بين 35 في المائة و45 في المائة. وسُجلت تراجعات أخرى شبيهة في إنتاج القمح

والأغنام والماعز (بنسبة 40 في المائة) وأعداد دواب الجر (أكثر من 50 في المائة)⁽⁷⁾. وفي تلك الأثناء، زادت تكلفة المعيشة في القسطنطينية بما يتجاوز عشرين ضعفًا خلال الفترة ما بين عامي 1914 و1918، وبلغ التضخم ذروته بنسبة وصلت إلى 600 في المائة عام 1917، وهو رقم شبيه بنسبة التضخم في روسيا قبل الثورات التي اندلعت فيها مباشرة. ويحدد باموك أيضًا ويُقدّر الثمن الباهظ الذي دفعه البشر خلال سلسلة من الصراعات والاضطرابات التي حاقت بالدولة العثمانية في العقد الأخير لوجودها. وشملت تلك السنوات حربي البلقان بين عامي 1912 و1913، والحرب العالمية الأولى، وحرب التحرير التركية التي وقعت عام 1922 «التي خلالها، ونتيجة لتلك التغييرات المهولة، بلغ تعداد سكان تركيا حوالي 13 مليون نسمة في نهاية عام 1924؛ ومن النسبة المتراجعة البالغة 20 في المائة في المائة تقريبًا خلال عقد مضى، مات أكثر من النصف وفر من تبقى منهم أو هاجر»⁽⁸⁾. ولقد لخص باموك ببلاغة العقد الذي شهد اضطرابات كارثية قائلاً:

كثير من مزارعي غرب الأناضول الساعيين للكسب التجاري والمدفوعين بالتصدير، إضافة إلى الحرفيين وكبار التجار والمرايين الذين ربطوا ما بين المناطق الريفية والموانئ والمؤسسات التجارية الأوروبية خلال القرن السابق للحرب اختفوا تمامًا. علاوة على ذلك، تأثرت الزراعة والصناعة والتعدين سلبيًا بسبب تدمير المعدات وتراجع أعداد حيوانات الجر وانحسار المساحات المزروعة خلال ذلك العقد⁽⁹⁾.

ويقدم لنا إيريك زوركر أرقامًا شبيهة عمومًا حيث يقدر أن سكان منطقة الأناضول التي تمثل قلب الدولة العثمانية تراجع تعدادهم بمعدل يصل إلى 17.7 في المائة خلال هذا العقد من الكوارث والممتد بين عامي 1912 و1922، مقارنة بمعدل وفيات مقداره 3.5 في المائة «فقط» في فرنسا خلال سنوات الحرب. وأضاف قائلاً:

إذا استخدمنا التعريف الأكثر نفعا لاصطلاح «الفاقد في التعداد السكاني» — وهو الفارق ما بين التعداد السكاني الفعلي وإجمالي تعداد السكان المرتقب حال استمرار معدل النمو الطبيعي خلال سنوات الحرب — سنجد أن الفارق أكثر من

مذهل: فقد بلغت نسبة الفاقد في التعداد السكاني في تركيا 26 في المائة مقارنة بواحد في المائة في فرنسا... وكانت هناك 12 مقاطعة، أغلبها في الغرب، تجاوزت فيها نسبة الأرمال في المجتمع النسائي 30 في المائة.⁽¹⁰⁾

وبالنظر إلى ما سبق، فإن وصف جون داروين لمصر ما بعد الحرب باعتبارها معتركا اقتصاديا واجتماعيا تأمل دقيق للأثر الكارثي للحرب العالمية الأولى على المجتمع المحلي⁽¹¹⁾. فعلاوة على المتطلبات العسكرية المرهقة التي أنهكت الموارد المدنية الشحيحة، كان وباء الأنفلونزا العالمي قد بدأ يضرب بقوة المجتمعات التي كانت تعيش بالفعل على شفا المجاعة. وفاقم من ظروف المعيشة المضيئة هذه مناخ الأمل والترقب الحماسي في أن تتمخض نهاية الحرب عن تغييرات سياسية كبيرة في أرجاء الشرق الأوسط. ولقد تقاطعت هذه العوامل على الفور بعد نهاية الأعمال العدائية في نوفمبر عام 1918.

مؤتمر السلام ونشأة تركيا الحديثة

اجتمع قادة ومسؤولون من شتى أرجاء العالم في باريس عام 1919 لحضور سلسلة من مؤتمرات السلام التي وضعت رسميا نهاية للحرب العالمية الأولى. وقد وصفت مارغريت ماكميلان ببراعة متناهية ذلك المشهد في الفقرة الافتتاحية في تقريرها عن ذلك المؤتمر قائلة:

كان مؤتمر السلام أهم حدث على الساحة العالمية، وكان صناع السلام أقوى رجال العالم وأعظمهم نفوذا. والتقوا يوما تلو الآخر. وتجادلوا وتناقشوا وتشاجروا وتصالحو مجددا. وعقدوا صفقات، وكتبوا معاهدات. وأنشأوا دولاً ومنظمات جديدة... وكانت باريس على حين غرة حكومة العالم ومحكمة استئنافه وبرلمانته ومحط مخاوفه وآماله⁽¹²⁾.

وقد هيمنت القوى «المنتصرة» الأربعة — بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وإيطاليا — على الأحداث، ولو أن الإيطاليين انسحبوا لاحقا من المؤتمر. ورغم أن

معاهدة فرساي التي تم التوقيع عليها بعد هزيمة ألمانيا في 28 يونيو 1919 (الذكرى الخامسة لاعتقال الأرشيدوق فرانتز فرديناند في سراييفو والذي أدب إلى اندلاع الحرب) تعتبر إلى حد بعيد أشهر نتيجة ترتبت على المؤتمر، فإن ثمة أربع معاهدات أخرى صيغت للتعاطي مع جوانب إقليمية مختلفة من الصراع؛ وهي بحسب الترتيب الزمني: معاهدة سان جيرمان مع النمسا في 10 سبتمبر 1919، ومعاهدة نوي-سور-سين مع بلغاريا في 27 نوفمبر 1919، ومعاهدة تريانون مع المجر في 4 يونيو 1920، وأخيرًا معاهدة سيفر مع الدولة العثمانية في 10 أغسطس 1920 (وهي التي نسختها لاحقًا معاهدة لوزان مع جمهورية تركيا في 24 يونيو 1923).

ولقد تطلب الأمر أكثر من 16 أسبوعًا من المفاوضات المضنية لإنجاز معاهدة سيفر. فإثر الاجتماعات الأولى في باريس ربيع وصيف عام 1919، استمرت المفاوضات حتى عام 1920 حيث عقدت اجتماعات غاية في الأهمية بمؤتمر لندن (12-24 فبراير) ومؤتمر سان ريمو (19-26 أبريل). وعلاوة على صياغة معاهدة عقابية على بقايا الدولة العثمانية، واجهت القوى المنتصرة أيضًا مهمة التوفيق بين أهداف واتفاقيات زمن الحرب المتشعبة. وعلى خلفية الحركات القومية الناشئة في أنحاء الشرق الأوسط والتحالف العسكري والقومي التركي الذي أطاح بالبقايا الأخيرة للحكم العثماني، حاول حلفاء زمن الحرب الحفاظ على السيطرة السياسية بابتكار ونشر نظام للانتداب لإدارة المنطقة. وكانت النتيجة تشكيل حدود الشرق الأوسط الجديد، ولو أن ذلك تم في مواجهة معارضة جماهيرية وسياسية من السكان الأصليين.

واختصت معاهدة سيفر بتقسيم الدولة العثمانية وتحديد طبيعة الكيانات السياسية التي تشكلت ما بعد الحرب. وعلاوة على تشجيع الأكراد والأرمن على أن ثمة ضرب من الاستقلال المشروط سيُمنح لهم، فرضت المعاهدة شروطًا سياسية ومالية صارمة على الآستانة. ومُنحت فرنسا وإيطاليا واليونان مناطق نفوذ في جنوب وغرب ووسط الأناضول، بينما حققت اليونان أيضًا مكاسب إقليمية كبيرة في منطقة تراقيا. ولقد أطاحت هذه التقسيمات تمامًا الدولة العثمانية من الأراضي الأوروبية،

بينما ظلت الآستانة نفسها تحت الاحتلال البريطاني والفرنسي والإيطالي الذي بدأ في 12 نوفمبر 1918.

ولكن لم يكد حبر المعاهدة يجف حتى أمست مهجورة بفعل التحولات الجذرية الطارئة على الموقف على أرض الواقع. فثمة حركة قومية تركية أسسها الظافر الأسطوري بمعركة غاليبولي مصطفى كمال «أتاتورك» كانت شوكتها تقوى تدريجياً بينما استثمرت مشاعر الغضب والامتهان الشعبي ونظمت مقاومة سياسية وعسكرية للاحتلال. وما بدأ على هيئة مظلة للجماعات القومية في أرجاء البلد سرعان ما تضخم وأمسى حركة قومية مؤحدة ضد القوى الاستعمارية. وانعقدت سلسلة من المؤتمرات في النصف الثاني من عام 1919 وضع خلالها مندوبون من شتى أرجاء تركيا بياناً سياسياً. وفي مارس عام 1920 في أثناء الإعداد للمداولات النهائية حول معاهدة سيفر، انفصلت الحركة القومية التركية عن الدولة العثمانية وأسست برلماناً خاصاً بها تحت اسم الجمعية الوطنية الكبرى في أنقرة. واجتمعت للمرة الأولى في 23 أبريل بينما كانت قوات التحالف مجتمعة في سان ريمو لوضع الشكل النهائي لشروط تسوية ما بعد الحرب⁽¹³⁾.

وتداعت العلاقات ما بين الحركة القومية التركية والحكومة العثمانية بلا رجعة في أكتوبر 1920. وبحلول تلك المرحلة، مُنيت الدولة بالعديد من الصراعات المتداخلة من أجل السيطرة الإقليمية والنفوذ الجغرافي الاستراتيجي. واشتبكت القوات الفرنسية واليونانية والأرمنية جميعاً مع وحدات بقيادة الجمعية الوطنية الكبرى في قطاعات منفصلة من تركيا. وبينما زادت حالات الهرب من العسكرية من سطوة القوات الكمالية، سحقوا القوات الأرمنية في نوفمبر 1920. وفي مارس 1921، وقعت تركيا معاهدة موسكو مع الاتحاد السوفيتي التي تضمنت ضم بقايا أرمنيا إلى الجمهورية السوفيتية وأعادت ولايتي أرداهان وقارص اللتين خسرتها الدولة العثمانية إلى تركيا. وتراجع دعم الحلفاء للاستقلال الكردي أيضاً في مواجهة المكاسب التركية. وفي تلك الأثناء، انسحبت القوات الفرنسية من منطقة قيليقية

التركية الجنوبية عام 1921 إثر صراع عنيف مع القوميين الأتراك كُلف الفرنسيين أرواحًا وأموالًا طائلة. وأخيرًا، حققت القوات اليونانية التي كانت تحارب لتحقيق «الفكرة الكبرى» للسياسي اليوناني إلفثيريوس فينيزيلوس في بداية الأمر مكاسب كبيرة حيث تغلغلوا عبر الأناضول باتجاه أنقرة عام 1921. غير أن هجمة كمال أتاتورك في أغسطس 1922 حطمت معنويات الجيش اليوناني المنتشر على نطاق مبالغ فيه، وطارده إلى مدينة سميerna الساحلية. وبعد أن دخل كمال أتاتورك سميerna في سبتمبر، أحرق المدينة ونهب خيراتها وأجبر مجتمعاتها اليونانية والأرمنية على الفرار منها، ولم يكن بيد ممثلي القوى العظمى حيلة فيتدخلوا لمنع الكارثة⁽¹⁴⁾.

وبخلاف ترسيم الحدود الحديثة لتركيا واليونان (والتسبب في كارثة في الوقت نفسه حيث «تبادل» مئات الآلاف من اليونانيين والأتراك مواقعهم رغمًا عنهم)، كان لإنهاء الحرب اليونانية التركية تبعة أخرى. فقد أفضت إلى السقوط السياسي للقائد البريطاني إبان فترة الحرب ديفيد لويد جورج الذي ظل حزبه الليبرالي في تحالفه ما بعد عام 1915 مع المحافظين. وكان ذلك نتيجة «أزمة تشانك» التي وقعت في أكتوبر 1922. فقد فتحت الهزيمة الساحقة للقوات اليونانية في الأناضول الباب على مصراعيه لكمال أتاتورك للتوغل شمالًا باتجاه الآستانة. وللحيلولة دون توغله، دعت حكومة لويد جورج في لندن الإمبراطورية البريطانية وحلفاءها إلى الصمود في أرض المعركة في تشانك على الساحل الآسيوي للدردنيل. ولكن، في تطور مهين، استجابت نيوزيلاندا وحدها للدعوة للأعمال العدائية بينما رفضت فرنسا وإيطاليا دعم لويد جورج. وبينما تصاعدت نبرة النقد للويد جورج، صوّت شركاء التحالف المحافظ على الانسحاب من الحكومة، الأمر الذي أدى إلى إقامة انتخابات عامة فاز بها المحافظون فوزًا ساحقًا في 15 نوفمبر⁽¹⁵⁾.

وبينما استمر «الثلاثي» المنتصر في السلطة بعد استقالة جورج كليمنصو في يناير 1920، وتتحى وودرو ويلسون الفاقد للأهلية في يناير 1921، كان رحيل لويد جورج المفاجئ من منصبه الحلقة الأخيرة التي تربط تلك المرحلة بزمان الحرب.

ولمَّا اكْتُشِفَ أن معاهدة سيفر عصية على النفاذ، حلت محلها معاهدة لوزان في يوليو 1923. ولقد مدت تلك المعاهدة الاعتراف الدولي بالسيادة التركية في مقابل التخلي عن المطالبات الإقليمية بالمناطق غير التركية كلها للدولة العثمانية. وأنهت قوات التحالف أيضًا احتلالها العسكري للأستانة (في سبتمبر عام 1923)، وأُعلنت أنقرة عاصمة جديدة لجمهورية تركيا في 29 أكتوبر، وهو اليوم الذي ما برح الأتراك يحتفلون به يومًا وطنيًا. وفي مارس 1924، أبطلت الحكومة التركية الجديدة برئاسة أتاتورك رسميًا الخلافة العثمانية التي تعد الرمز العثماني الأخير، وشرعت في القيام بعملية إعادة تشكيل لتركيا فحولتها إلى دولة قومية أوروبية علمانية حديثة⁽¹⁶⁾.

الثورة في مصر

كانت الاضطرابات التي وقعت في تركيا عاملاً من العوامل الكامنة وراء خطط الحلفاء لإعادة تنظيم الشرق الأوسط بعد الحرب. وكان العامل الثاني المعارضة الشعبية والسياسية الواسعة النطاق من جانب أطراف محلية غاضبة بسبب تمدد نفوذ زمن الحرب إلى فترة ما بعد الحرب. ويستكشف هذا القسم والقسمان التاليان له الخلفيات القومية في مصر وسوريا وبلاد الرافدين لإثبات فكرة أنه لم يكن للممثلين الإمبرياليين صياغة السياسة من وراء الكواليس. ففي المناخ المحموم لعام 1919، وفي ظل الترقب الواسع النطاق للتغيرات السياسية الجذرية المتسقة مع البيانات المتعددة للحلفاء، تجلّى الوعي القومي الصاعد في تشكل حركات قومية بحق لأول مرة على الإطلاق. ولقد يسرت تلك الحركات من تلاقي مشاعر الغضب والإحباط تجاه السيناريوهات والمؤسسات السياسية التي يديرها النخبة ويصعب الوصول إليها نسبيًا. ولقد جعل التسييس الناتج عن ذلك من الصعب بمكان الدفاع عن الوضع القائم الذي يسعى إليه المسؤولون البريطانيون والفرنسيون بينما جاهدوا من أجل إدارة ممتلكاتهم الإمبريالية في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وفي 13 نوفمبر 1918، أي بعد يومين وحسب من وضع الهدنة التي تم توقيعها في فرساي حدًا للحرب العالمية الأولى، التقى وفد من ثلاثة سياسيين مصريين

قوميين بالسير ريجينالدونغت المندوب السامي البريطاني في القاهرة. وقد طلب الوفد بقيادة الزعيم سعد زغلول أن يسمح لهم بالسفر إلى لندن لعرض قضيتهم الساعية إلى تشكيل حكومة مصرية ذاتية أمام الحكومة البريطانية. وتوقع الرأي العام الشعبي في مصر أن تساعد تلك الفرصة على المشاركة في مؤتمر باريس للسلام، ولاسيما بعد أن تلقى الوفد أنباء مفادها أن وفدًا من الحجاز بقيادة الأمير فيصل بن حسين ابن شريف مكة سيسافر إلى باريس. علاوة على ذلك، ثارت ثائرة الوفد المصري بفعل تقرير اللجنة البريطانية التي اقترحت استحداث هيئة تشريعية ذات مجلسين من شأنها، ولأول مرة في تاريخ مصر، أن تأتي بالطوائف الأجنبية إلى عملية اتخاذ القرار الرسمية. وتلاقت تلك المشكلات السياسية مع القضايا ذات الصلة بزمان الحرب التي تضمنت التجنيد القسري لمئات الآلاف من المصريين في فيلق العمل المصري وفيلق النقل بالجمال، علاوة على الشراء القسري للقطن والمواد الغذائية لاستخدامات الجيش بأسعار أقل بكثير من أسعار السوق السائدة⁽¹⁷⁾.

ولقد مهد استمرار الإجراءات البريطانية المشددة إلى ما بعد زمن الحرب في مصر الطريق أمام تلاقي مشاعر الغضب الشعبي. فقبول تقرير السير وليم برونيات بمعارضة حادة من سلطان مصر الموالي لبريطانيا آنذاك وكذا رئيس وزراء مصر حسين رشدي الذي استقال غاضبًا وترك مصر دون حكومة خلال الأشهر الثلاثة الحرجة ما بين نهاية الحرب في نوفمبر 1918 واندلاع الثورة المصرية في مارس 1919. كما انفرت المندوبية البريطانية أيضًا ركنين من أركان المجتمع المصري التي قامت عليها الدولة الكولونيالية البريطانية؛ ألا وهما الموظفون المدنيون والمحامون. وقد صار تأثير هاتين الفتنتين واضحًا خلال الفترة المؤدية إلى ثورة مارس إذ أضربت احتجاجًا على ما تلا ذلك من اعتقال لقيادة الوفد، مما أصاب جهاز الدولة بالشلل. وأخفق المستشارون البريطانيون الذين تحملوا مسؤولية إدارة مصر يوميًا في التنبؤ بتصاعد تلك الضغوط المحرصة وملاحظتها⁽¹⁸⁾.

ولذا نظر المسؤولون البريطانيون باستخفاف للمطالب المصرية بإعادة النظر في

اتفاقيات زمن الحرب التي اعتبرها المصريون ذريعة مؤقتة عام 1914 ومراجعتها بعد أن توقفت الأعمال العدائية الآن. ففي لندن، قال وزير الخارجية آرثر بلفور إنه «ما من غاية مفيدة يمكن تحقيقها بالسماح للقادة المصريين بالمجيء إلى لندن وتقديم مطالبات مبالغ فيها لا يمكن الوفاء بها». ولقد شكك أيضًا في شرعية وفد سعد زغلول الذي زعم أنه لا يُعتد به ممثلًا للشعب المصري، وأضاف أن الحماية البريطانية ما برحت سارية حيث لم يُعلن رسميًا بعد عن إفشاء السلام⁽¹⁹⁾. والواقع أن التفريق دون داعٍ بين نهاية الأعمال العدائية وتوقيع اتفاقية للسلام كان تكتيكًا للإرجاء والتأخير استعان به المسؤولون البريطانيون أيضًا في بلاد الرافدين في يوليو عام 1919 لتبرير إقامة احتفالات يوم السلام احتفاء بتوقيع معاهدة فرساي. وفي غياب معاهدة سلام مع الدولة العثمانية (وهي التي تم توقيعها في سيفر في أغسطس 1920)، حاول ضابط بريطاني وحده أن يفسر لرجاله في فيلق العمال الهندي 11 (بومباي) قائلاً «إن هذا السلام كان بين الحلفاء وألمانيا وحسب، وإننا ما زلنا في حالة حرب»⁽²⁰⁾.

وعلي أية حال، فإن أنباء السماح لفیصل بن الحسين، الابن الأشهر لشريف مكة، بقيادة وفد عربي من الحجاز لحضور مؤتمر باريس للسلام قد أشعلت الرأي العام في مصر أكثر. وأدت أيضًا إلى احتكاك شديد مع المسؤولين الفرنسيين الذين كانوا مصريين على ضمان نفوذهم في سوريا بحسب اتفاقية سايكس-بيكو رغم احتلال جيش فیصل العربي لها في أكتوبر 1918⁽²¹⁾. وعلاوة على الامتناع الباريسي وراء الكواليس حيال الخيانة البريطانية، بدأ القوميون المصريون التشكيك في المداينة الجلية وراء قرار السماح للحلفاء البريطانيين بالسفر إلى باريس في ظروف محددة دون ظروف أخرى. ومن الملاحظ أنهم أشاروا إلى الدعم الشديد الذي قدمته مصر بوصفها قاعدة للعمليات البريطانية في سيناء وفلسطين لدعم طلبهم مراجعة شروط وضع إعلان الحماية البريطانية على مصر في نوفمبر 1914. وكما جاء على لسان قاضٍ بريطاني مرموق بمحكمة الاستئناف المصرية، فإنه في عام 1914 ارتكبت بريطانيا «خطأً جسيمًا تمثل في تفضيل الحماية الغامضة غير المحددة بمدة...

كانت زاوية رؤيتنا للأمور معيبة، وفرصة إعادة علاقتنا مع مصر إلى نصابها الصحيح ضائعة»⁽²²⁾. وفي تلك الأثناء، أقر لورنس جرافتي-سميث المسؤول البريطاني المبتدئ في المندوبية السامية في القاهرة لاحقاً بأن لندن انشغلت أكثر من اللازم بالإعداد للتعامل مع ألمانيا، وعليه «بدت أولوية الشكاية المصرية في خضم هذه الانشغالات ثانوية لا تراها العين»⁽²³⁾.

والحقيقة أن صرح الهيمنة البريطانية في مصر الذي أقيم بعناية زمن الحرب كان قد تداعى بين نوفمبر 1918 ومارس 1919. فبعد أن استقال رشدي، ظلت مصر دون رئيس وزراء، وخسرت السلطات البريطانية حليفاً سياسياً قوياً ووسيلة لاختبار الموقف السياسي المتصاعد. ومع ذلك، فإن ثمة مشكلة محورية بين المسؤولين البريطانيين في القاهرة ولندن كانت تتعلق بعجزهم عن تحديد أو فهم إعادة التشكل الأعمق للمشهد السياسي الذي جلبته الحرب وتعهداتها. ولقد أخفقوا جميعاً فرادى وجمعاء في تحديد مدى استطاعة حزب الوفد استقطاب دعم جماعات اجتماعية-اقتصادية على نطاق واسع (ومتفرق). ومجدداً، كانت هذه ظاهرة شائعة بالمنطقة كلها يُستدل عليها، على سبيل المثال، بإعلان شباب عرب قوميين عن جمهورية باسم الجمهورية الطرابلسية (ولو أنها لم تصمد طويلاً) استلهاماً من إحياء الوعي السياسي العربي في مصر نفسها خلال فترة الحرب. وحقيقة الأمر أن واحداً من قادة تلك الجمهورية، ويدعى عبد الرحمن عزام بك، كان قومياً مصرياً أمسى لاحقاً أول أمين عام في عام 1945 للجامعة العربية⁽²⁴⁾. وفي هذا السياق الحافل بالعلاقات العابرة للقوميات، ترسخ انتشار الأفكار بسرعة مذهلة إثر انتهاء الأعمال العدائية.

وفي بداية مارس عام 1919، كان قرار المسؤولين البريطانيين في القاهرة اعتقال سعد زغلول واثنين آخرين من أعضاء الوفد ونفيهم إلى مالطا بمثابة شرارة اندلاع الثورة المصرية. وقد توقع المندوب السامي البريطاني ونغت بثقة أن يفضي اعتقالهم إلى «ردة فعل مؤقتة لصالحنا»، وكانت وجهة نظره المستقبلية مشروطة بالذكرى المؤسسية لاستعراضات القوة ما قبل عام 1914⁽²⁵⁾. حينئذ بدأ اعتقال القيادات

القومية عادة كافيًا لقمع أية ثورات مفترضة. ولكن في ظل الظروف المختلفة تمامًا عام 1919، مثل القرار تقديرًا سيئًا جدًا حقّر من شأن عمق ومدى التعاطف والدعم الشعبين للحركة القومية. وأخفق أيضًا إحساس بريطانيا بالرضا عن الوضع القائم بالمثل في تحديد أمارات الاضطرابات المتزايدة بين وحدات قوة التجريدة المصرية التي كانت بانتظار أوامر تسريحها. فقد خرجت مظاهرة حاشدة تندد بالتسريح البطيء الذي بدأ في الخامس من أبريل عام 1919 بقاعدة القنطرة البريطانية الرئيسة على ساحل قناة السويس. وعندما لم يُستجب للشكاوى المبدئية، أعلنت الوحدات العسكرية إضرابها في أحد الفصح في 20 أبريل. وإذا استمر لأسبوع واحد وتزامن مع الثورة القومية في ربوع مصر، قض الاضطراب العسكري مضجع الجنرال أنبى والقيادة العليا البريطانية. وألقى أنبى في بداية الأمر باللوم على «ميكروب نقابي ما أصابهم بالسعار»، وأسف على أنه «لا أستطيع أن أطلق النار عليهم جميعًا بتهمة العصيان. ولذا يتعين عليّ أن أمارس مهام منصبى بأفضل ما يكون، ويجب أن أواصل عملية التسريح». ومع ذلك، استمرت الاضطرابات، وبحلول 17 مايو 1919 كان أنبى يكتب وصفًا لرئيس الأركان الإمبريالية العامة الجديد في لندن الجنرال السير هنري ولسون مفاده أن «هناك اضطرابات واسعة وحالة من عدم الرضا بين صفوف الجيش، وفيما يتعلق بقسم الخدمات الإدارية تكاد الاضطرابات ترقى لمرتبة العصيان»⁽²⁶⁾.

ولقد اندلعت مظاهرات الطلبة في القاهرة والإسكندرية في 9 مارس، وسرعان ما تصاعدت نبرتها وتحولت إلى موجة من الإضرابات التي شملت عمال النقل والمواصلات والقضاة والمحامين. وفتح الجامع الأزهر الشهير في القاهرة أبوابه للواعظين الأقباط في استعراض صارخ للوحدة الدينية، الأمر الذي كان إيذانًا بتعاون شبيه بين المساجد السنية والشيعية في بلاد الرافدين في العام التالي. وفي غضون ستة أيام، توسعت رقعة الاضطرابات من المدن إلى مواقع أخرى في أرجاء الريف المصري، وقتل أكثر من 1000 شخص في أحداث الشغب اللاحقة. وتوقفت الحياة في مصر بسبب التظاهرات التي اندلعت في أرجائها حيث تداخل العنف الحضري مع حالة السخط في الريف وحملات اغتيالات الضباط والمسؤولين البريطانيين. ولعب

الموظفون الحكوميون والمحامون الساخطون دورًا محوريًا في نقل المُثل القومية من المدن إلى الأقاليم حيث نشرت النوادي والمنظمات الاجتماعية العمالية رسالة النشاط إلى أبعد الحدود. وقادت زوجات أبرز رجالات حزب الوفد، بمن فيهن صفية زغلول، تظاهرات شاركن فيها نساء محجبات دعمًا للحركة القومية، كما قمن بتنسيق إنتاج الأعلام وتوزيع المنشورات التي ترسم الخطوط العريضة لأهدافهن. ولقد أثارت أفعال هؤلاء النسوة، ولاسيما المسيرات والتظاهرات، حفيظة المسؤولين البريطانيين الذين لم يدروا كيف يستجيبون لها⁽²⁷⁾. وتداعت الهيمنة البريطانية مؤقتًا فور أن استهدف المتظاهرون شبكات الاتصال والنقل والمواصلات في العديد من الأقاليم. ويحتج غولدرغ عن اقتناع بأن هذه الأفعال ارتقت لاستراتيجية لحماية سيطرة الفلاحين على الإمدادات الغذائية المحدودة بالحيولة دون الاستيلاء على السلع النادرة ونقلها إلى المدن خلال فترة المعاناة البشرية الواسعة النطاق والجوع الحقيقي في ريف مصر⁽²⁸⁾.

ولذلك اختلفت القومية المصرية بحسب ما تبناها المصريون عام 1919 جذريًا عن القومية المستترة ما قبل الحرب. فقد يسر الاحتكاك بالحرب والمشاركة فيها امتزاج المطالب الاقتصادية والسياسية التي أعطت عمقًا أكبر للمتابر القومية والدعم الشعبي. وكما ذكر ألبرت حوراني، فإن الإرث المميز لمشاركة مصر في الجهود الحربية تمثل في تحول القومية المصرية من حركة للنخبة الحضرية المثقفة إلى حركة باستطاعتها استقطاب الدعم النشاط أو حتى السلبى لقطاع عريض من الجماعات الاجتماعية-الاقتصادية المتداخلة المصالح⁽²⁹⁾. والملاحظ أن هذه القومية الجديدة قد تحللت من المعتقدات الإسلامية المؤخدة والمالية للعثمانيين بأشكالها السابقة ما قبل الحرب، وأعربت صراحة عن مبدأ إيجابى كان راسخًا في إطار عملية الفلسفة السياسية الليبرالية⁽³⁰⁾. وقد لاحظت المؤرخة المصرية عفاف لطفي السيد-مارسو أيضًا أن «الغزوات الكولونiale ساعدت دائمًا على صعود الحركات القومية المُشددة على التمييز الاقتصادي والقانوني والسياسي الذي لا ينفصم عن الحكم الأجنبي». ولقد تفاقم هذا الوضع عندما أمست أعداد كبيرة من الفلاحين المصريين منعزلة

اقتصاديًا بفعل تحويل الموارد المدنية إلى الاستخدام العسكري ومصادرة محاصيلهم وعمالهم وحيواناتهم المسخرة للأعمال الشاقة⁽³¹⁾.

والمهم أن تكوين رؤية سياسية للاستقلال المصري مَكَّنَ حزب الوفد من الصمود في مواجهة الرفض المبدئي لمطالبه. وعكس ذلك عاملًا مميزًا آخر في التطور القومي، ألا وهو الإقرار بأن البرنامج الاقتصادي القوي محوري للتطور السياسي. ومرة أخرى، كان ذلك انفصامًا حاسمًا عن الحركات القومية ما قبل عام 1919. فقد هيمن على عضوية حزب الوفد أصحاب أراضٍ وممولون ومديرون ومحامون وموظفون حكوميون وغيرهم من الموظفين الحضريين. ولا شك أن هؤلاء قد قدموا بشكل تراكمي نواة البرجوازية التجارية التي لها حصة اقتصادية في الاستقلال السياسي. وكانت طبقة رجال الأعمال الناشئة تلك تتمنى أن تستفيد من بدايات بدائل الاستيراد التي تطورت في مصر نتيجة تفكك الأسواق العالمية خلال فترة الحرب. علاوة على ذلك، فقد تمنوا استغلال التحول الكبير في الوضع المالي الخارجي لمصر الذي جلب للبلد فائضًا تجاريًا مهولًا. ومن الأمثلة البارزة على طبقة رجال الأعمال المصريين الخبير الاقتصادي طلعت حرب الذي كان أول مَنْ نادى بإنشاء بنك مصري أصيل (وهو ما تحقق له بإنشاء بنك مصر عام 1920) يتحدى الاحتكار البريطاني وغير المصري للمؤسسات المالية والاقتصادية في مصر، مثل البنك الأهلي المصري الخاضع للسيطرة البريطانية⁽³²⁾. ولقد ميّزت تلك الجهود الساعية إلى إيجاد بديل سياسي واقتصادي سارٍ للطبقة الحاكمة المتأثرة بالبريطانيين حزب الوفد عن الدوائر التركية-الألبانية للنخبة السياسية في مصر التي كان فيها رئيس الوزراء رشدي عضوًا بارزًا⁽³³⁾.

وكنتيجة لذلك، عندما بلغ غضب الوفد ذروته في مارس 1919، لم تكن ردة الفعل البريطانية متأهبة للظروف المتغيرة لتلك الفترة. ولقد يَسَّرَ إرث مظالم زمن الحرب المشكوك فيه من تسييس المجتمع المصري مما مَكَّنَ الوفد من استغلال الأسباب العميقة لحالة الإحباط والغضب والدعم الشعبي. وفاجأت الحركة الشمولية المترتبة على هذا الزخم والمعتمدة على تعبئة الشعب ومشاركته البريطانيين

مفاجأة مذهلة. ونجحت القيادة النخبوية للوفد في دمج قومية المُثل في الدوائر الفكرية مع الأهداف الاجتماعية والاقتصادية لشرائح كبيرة من الشعب المصري. ولذا كانت قدرة الوفد المثبتة على توسعة رقعة سطوته إلى ما وراء الشخصيات البارزة المتعلمة الحضرية هي التي ميزت الاستقلال الحقيقي عن الماضي وزعزعت دعائم السياسة البريطانية في مصر. وفي خطوة يائسة، أطاحت وزارة الخارجية ونغت وأحلت محله الجنرال السير إدموند ألنبي فاتح فلسطين مندوبًا ساميًا خاصًا. وقد مُنح ألنبي اختصاصًا فوق العادة لاستعادة النظام والقانون، فبادر بتحقيق ذلك عبر مزيج من التهدة العسكرية في ريف مصر وتنازلات مدروسة للرأي القومي في المدن. وتضمنت هذه التنازلات إطلاق سراح سعد زغلول وزملائه والسماح لهم بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر السلام. وبحلول 29 أبريل 1919، استطاع ألنبي إبلاغ القيادة في لندن بأن الموقف أصبح «أفضل بكثير»، ولو أن خلفه رئيس الأركان في مصر، الجنرال إدوارد بولفين، ما برح يزعم أنه استشف وجود «ميول بلشفية بين المتطرفين هنا»⁽³⁴⁾.

ولقد أفضى مدى الاضطرابات التي اجتاحت مصر في مارس وأبريل عام 1919 وشراستها إلى إرسال الحكومة البريطانية لجنة بقيادة كبير الموظفين الإمبراطوريين (وزير الدولة لشؤون المستعمرات) ألفريد ملنر للتحقيق في أسباب المشكلات وتحديد الوضع المستقبلي لمصر. ومع ذلك، قوبلت اللجنة بتصاعد في الغضب والعنف السياسيين ورفض مستتر لمشاركة الشخصيات القومية. ولمّا واجه هذا الرفض القاطع للوضع القائم، انتهى ملنر في فبراير 1921 إلى أن الحماية لم تعد سارية بعد. وكان ذلك أساس التوصية التي تقدم بها إلى وزير الخارجية البريطاني اللورد كيرزون بإحلال معاهدة تحالف مع مصر المستقلة شكلاً محل الحماية البريطانية.

ورغم ذلك، ظلت هناك فجوة بين الرغبات البريطانية في استبقاء سيطرة أمنة على مثل هذه البنية التحتية الاستراتيجية الممثلة في قناة السويس والمنطقة المحيطة بها، وبين الدعم العام والسياسي الثابتين في مصر للتغيرات بعيدة

الأثر في هيكل السلطة في مصر وتوازنها. وأصبح عمق هذه التوقعات المتشعبة واضحاً جلياً في الشروط المحظورة بشدة التي لم تكن بريطانيا بموجبها متأهبة إلا للرضوخ إلى «استقلال» مصر. وبما أن أمن خطوط المواصلات الإمبراطورية البريطانية كانت تُعد ذات أهمية قصوى، تضمنت الشروط الحفاظ على المسؤولية البريطانية عن السياسة الخارجية والدفاعية، علاوة على مواصلة احتلال منطقة قناة السويس الحيوية استراتيجياً. وبعدها انهارت المفاوضات إذ استمر سعد زغلول في حملة الصمود السياسية خاصته، قبل أن يطرح أنبي المسألة بقوة في 28 فبراير 1922 ويقنع الحكومة البريطانية في لندن بأن تقدم على إعلان الاستقلال المصري الأحادي الجانب. وقد أعلنت المعاهدة الإنجليزية المصرية الناجمة عن ذلك الموقف أن مصر «دولة مستقلة ذات سيادة» فيما خلا أربعة استثناءات مهمة: «أمن المواصلات الإمبراطورية البريطانية في مصر»، و«الدفاع عن مصر ضد كل أعمال العداء أو التدخلات الأجنبية المباشرة منها وغير المباشرة»، و«حماية المصالح الأجنبية في مصر وحماية الأقليات»، و«السودان»⁽³⁵⁾.

الخاتمة في سورية

في سوريا ولبنان، وقعت أعنف المواجهات ما بين الخطط المحلية والدولية للاستيطان فترة ما بعد الحرب. وكانت دمشق وبيروت قد شكّلتا النبض الفكري للحركة القومية العربية التي استقت قوتها من الصراع إبان الحرب ضد الدولة العثمانية. ومع ذلك، فقد حُصصت المنطقتان إلى فرنسا بموجب شروط اتفاقية سايكس-بيكو عام 1916، وخضعتا للاحتلال العسكري لقوات التحالف إثر توغل أنبي الكاسح عام 1918. وبين عامي 1919 و1921، أثبتت سلسلة من الاشتباكات العنيفة مدى تعقيد المطالبات الإقليمية المتنافسة. ومن بين هذه الاشتباكات الخلاف الشديد الذي وقع بين حلفاء الحرب حيث أخفى المسؤولون البريطانيون والفرنسيون رؤى متشعبة لسوريا، والغضب العربي المتصاعد من تصرفات قوات التحالف الذي بلغ ذروته في نهاية المطاف على هيئة ثورة سورية عام 1919. ولا شك أن اختلال

التوازن الثلاثي هذا ما بين السلطة والمصالح كانت له تبعات طويلة الأجل حيث أفضى إلى غرس النزعة القومية العربية في قلب الهوية السورية الوطنية، بينما أدى أيضاً إلى تأسيس المملكة الهاشمية في العراق بدلاً من سوريا نفسها.

ولقد أطلق استيلاء قوات الحلفاء وقوات عربية على سوريا في غرة أكتوبر 1918 العنان لصراع طويل على السلطة والنفوذ بين المصالح الفرنسية والعربية. وبدأ انقطاع العلاقات بين حلفاء الأمس في الظهور حتى قبل أن تسقط المدينة، وأمسى حاداً بشكل متزايد خلال عام 1919، وبلغ ذروته في هيئة سلسلة من الاشتباكات العسكرية التي امتدت إلى عام 1920. وتبع تطويق فيلق هجانة الصحراء البريطاني ووحدات الجيش العربي بقيادة فيصل بن الحسين على الفور مفاوضات بخصوص أية مجموعة يحق لها الدخول أولاً، وتبعه أيضاً محاولات إقامة إدارة عربية في المدينة. وقد وصف تي. إي. لورنس الذي سافر بصحبة قوات فيصل العربية ببراعة وتفاصيل مذهشة دخول العرب إلى دمشق في كتابه «أعمدة الحكمة السبع»:

بدا أن كل رجل وامرأة وطفل في هذه المدينة التي تحوي ربع مليون نسمة قد خرجوا للشوارع بانتظار ظهورنا في الأفق لنشعل أرواحهم. لقد طارت دمشق فرحاً، وألقى الرجال طرابيشهم عاليًا تحية للوافدين، ونزعت النسوة خمرهن. كما ألقى أصحاب العقارات الورود والستائر والسجاد على الطرق أمامنا، وانحنت زوجاتهم وهن يصرخن ضحكاً عبر النوافذ ويغمرننا بأطاييب العطور... وعلا صوت الرجال وهم يهتفون «فيصل، ناصر، شكري، أورنس» على هتافات النساء وصيحاتهن في موجات متتابعة بدأت هنا وبلغ صداها الميادين، وشقت طريقها عبر السوق إلى الشوارع المؤدية إلى البوابة الشرقية وحول السور، ثم عادت إلى الميدان وارتفعت وتيرتها لتشكل حائطاً من الصيحات أحاط بنا بجوار القلعة⁽³⁶⁾.

وقد أخطر قائد عام قوة التجريدة المصرية الجنرال النبي وزارة الحربية في 6 أكتوبر 1918 بالتالي:

أعلن العرب قيام حكومة عربية تحت لواء الملك حسين ورفعوا الراية العربية، وفورًا بدأ الجلاء التركي عن دمشق. وقبل أن تغادر القوات التركية المدينة، عُيِّنَ وال عربيٌّ على دمشق. ولذا عندما دخلت قواتي المدينة، كانت هناك إدارة عربية فاعلة، وكانت الراية العربية ترفرف على البنايات الحكومية⁽³⁷⁾.

وسرعان ما وجد النبي نفسه محاصرًا ما بين وجهات نظر فرنسية وعربية متشعبة حول مستقبل سوريا حتى وهويشرف على إنشاء «إدارة أراضي العدو المحتلة». وعندما التقى فيصل بفندق فكتوريا في دمشق في السادس من أكتوبر، أمره بـ «تقنين غاياته وانتظار القرارات من لندن» مضيِّقًا أن «الحكومتين الفرنسية والبريطانية اتفقتا على الإقرار بوضع الحرب الخاص بالقوات العربية المقاتلة في فلسطين وسوريا باعتبارها حليفة ضد عدو مشترك»⁽³⁸⁾. ويبدو أن الاجتماع لم يسرع على خير ما يرام مع فيصل الذي عارض مستقبل الهيمنة الفرنسية على سوريا ولبنان، وزعم أن لورنس أكد له السيطرة العربية على المنطقة بعد الحرب. ولقد تداعت العلاقات سريعًا؛ إذ طعن كل من المسؤولين البريطانيين والفرنسيين والعرب في ذكرياتهم المتعلقة بعهود زمن الحرب، وبدأت القوات الفرنسية في خلق «حقائق على أرض الواقع» في سوريا اصطدمت بالمفاوضات المتزامنة معها الجارية في باريس ولندن. ولذلك ظهرت شقوق في الخطوط المتعارضة للسياسة حيث بدأت أعمال العنف المقاومة للقوات الفرنسية في سوريا تتلاحق بوتيرة متزايدة. وثمة معركة عنيفة تحديدًا وقعت أحداثها في 15 ديسمبر 1918 وأسفرت عن هزيمة القوات الفرنسية على يد جيش عربي غير نظامي قام بحشده الأعيان المحليون الذين استشاطوا غضبًا بفعل توغل القوات الفرنسية المحتلة في الداخل السوري انطلاقًا من المدن الساحلية. كما وقعت اشتباكات أخرى طوال عام 1919 إذ اندلعت ثورات محلية ضد النفوذ الأجنبي في حلب ودمشق وأنطاكية (في تركيا الآن)⁽³⁹⁾.

وتزامن مع المناورات في سوريا تجليات متنامية للقومية العربية في لبنان الخاضعة أيضًا للسيطرة العسكرية للحلفاء بعد هزيمة القوات العثمانية في خريف

عام 1918. فقد التقى مجلس إداري لجبل لبنان في 9 ديسمبر 1918 لوضع الشروط التي أراد طرحها بمؤتمر باريس للسلام. ورغم أن هذا المنبر ناصرَ كيانًا لبنانيًا سياسيًا تحت الحماية الفرنسية، فإنه واجه معارضة من طوائف أخرى موالية لسوريا داخل المجتمع اللبناني مثل الطوائف المسلمة السُنيّة بالمدن الساحلية ودوائرها القومية العربية في بيروت. ولقد انعقد مؤتمر سوري في دمشق في 6 يونيو 1919 رُشّح فيه 22 مندوبًا لتمثيل لبنان. وجمع هذا المؤتمر ممثلين سياسيين ومفكرين من شتى أرجاء الشرق لنقل الطموحات القومية للشعب السوري لمؤتمر باريس⁽⁴⁰⁾. وقد تضمن أعضاء فلسطينيين علاوة على الأعضاء السالف ذكرهم من لبنان. وكان فيصل قد شكّله على أمل أن يضمن له الشرعية الدولية التي آمن أنه بحاجة إليها لدعم قضيته ضد الفرنسيين⁽⁴¹⁾.

وعلى هذه الخلفية، التقى قادة بريطانيون وفرنسيون في لندن خلال الفترة ما بين 1 و4 ديسمبر 1918 لصياغة تسوية جديدة لمنطقة الشرق الأوسط. وخلال اجتماع سري بين الرئيس جورج كليمنصو ورئيس الوزراء ديفيد لويد جورج لم تكن حتى وزارة الخارجية البريطانية على دراية به حتى يونيو عام 1919، سعى الأخير إلى إجراء تعديلات على اتفاقية سايكس-بيكو من شأنها نقل إقليم الموصل الغني بالنفط إلى دائرة النفوذ البريطاني وضمان المصالح البريطانية في فلسطين. وفي المقابل، سعى كليمنصو إلى إطلاق يد فرنسا في سوريا علاوة على اقتناص حصة من شركة البترول التركية التي كانت تمتلك امتياز النفط في الموصل. جدير بالذكر أن كليمنصو أيضًا أراد بسط الهيمنة الفرنسية من لبنان إلى سوريا باحتلال المناطق المركزية المحيطة بمدن دمشق وحمص وحملة وحلب. ومع ذلك، لم يكن الاتفاق النهائي بين القائدين حول سوريا وشيكًا في هذا الاجتماع مما مهد الطريق أمام تبادل الاتهامات في أثناء مؤتمر باريس للسلام عام 1919 ومن بعده⁽⁴²⁾.

ولقد بدأت المناورات الفرنسية المناوئة للخطط البريطانية المتعلقة بسوريا فور وصول الأمير فيصل بن حسين إلى مرسيليا بصحبه تي. إي. لورنس في نوفمبر 1918.

ويبدو أن حقيقة أن لورنس كان برفقة الأمير قد أثارت قلق المسؤولين الفرنسيين بشدة فيما يتعلق بدوره وغايته في مفاوضات السلام المقبلة. وكان لورنس نفسه في موقف حساس جدًا حيث لم يتفق التزامه الذي أعلنه بنفسه تجاه المطالبة العربية لفصل بسوريا مع المساومات رفيعة المستوى بين القادة البريطانيين والفرنسيين. وخلال زيارة إلى لندن في يناير 1919، تعرض فيصل لضغوط من وزارة الخارجية للقبول بالمخططات الفرنسية في سوريا، وكذلك التوقيع على اتفاقية مع حاييم وايزمان (زعيم المنظمة الصهيونية العالمية) من شأنها الاعتراف بالوجود الصهيوني في فلسطين. وهذا ما فعله فيصل على مضض ليعاني المزيد من الأزمات فور افتتاح مؤتمر باريس للسلام بسبب الحضور القوي للفرنس العرب الذي لعب دور «المرافق والمترجم والمدير المالي لأن فيصل كان يتلقى دعمًا ماليًا من وزارة الخارجية»⁽⁴³⁾.

وفي أثناء المؤتمر نفسه حاول المسؤولون الفرنسيون مرارًا وتكرارًا مقاطعة فيصل أو التحقير من شأنه والتشكيك في شرعية وجوده على طاولة الاجتماعات. وأعلنت وزارة الخارجية الفرنسية عن دعمها لجماعة مغمورة آنذاك تُعرف باسم اللجنة السورية المركزية وتزعم تمثيلها للشعوب السورية في الدعوة إلى سوريا كبرى تحت الحماية الفرنسية⁽⁴⁴⁾. علاوة على ذلك، فقد سعت تلك اللجنة إلى غرس بذور الانقسام ما بين فيصل والمسؤولين البريطانيين إذ بالغت في بيان الفروق المحسوسة في المناهج والأجندات وخطوط صناعة السياسات. وقد عكس هذا التكتيك الإحساس المتزايد بالانزعاج الفرنسي من ضعف موقفه في منطقة الشرق الأوسط (وفي مناطق أخرى). وعلى العكس من الوفدين البريطاني والأمريكي اللذين وصلا باريس وفي جعبتهما خطط تفصيلية لما يريدان تحقيقه، تعثرت الإعدادات الفرنسية للمؤتمر كثيرًا وتخلفت عن الركب لدرجة أنها بدت معدومة. وكما جاء على لسان المؤرخين كريستوفر أندرو وأليكساندر كانيا فورستتر: «لم يكن بحوزة الفرنسيين سوى برامج فردية للمجتمعات الكولونيالية والوزارات الأجنبية والكولونيالية»⁽⁴⁵⁾.

وفي ظل انجلاء اتفاقية سايكس-بيكو وكمون البريطانيين عسكريًا عبر منطقة

الشرق وبلاد الرافدين، صعدت حدة الحساسيات والشكوك الفرنسية بشدة إلى السطح. وإذ ظن الفرنسيون (وقد جانبهم الصواب) أن كليمنصو ولويد جورج «سويًا» شخصيًا «المسألة السورية» في اجتماعهما الخاص في لندن الذي عُقد في ديسمبر 1918، تحولت البوصلة الفرنسية إلى المعاهدة العقابية التي أرادت فرنسا فرضها على ألمانيا. ومع ذلك، كما لاحظ ماثيو هيوز، «كان للتنازلات الفرنسية في الشرق الأوسط أثر فتح شهية بريطانيا للتوسع في المنطقة بدلًا من سدها»⁽⁴⁶⁾. وفي تلك الأثناء، كانت الطموحات العربية المحلية ملحوظة بوجودهم في المحافل الرسمية في لندن أو باريس حيث لم تنل الاتفاقيات والوعود التي أبرمت زمن الحرب العناية الكافية فور أن انتهى دور المقتضيات المحددة المتعلقة بالحرب.

وكان أول تلك الطموحات التصعيد السابق الذكر للمعارضة القومية للخطط البريطانية والفرنسية الساعية لاستبقاء قبضتهما على المنطقة، وثانيها كان إدراك واضعي الخطط الإمبريالية المتزايد لحقيقة أن الاحتلال العسكري لمنطقة الشرق الأوسط يستحيل أن يستمر إلى ما لا نهاية. وكما حدث في مصر (وببلاد الرافدين في العام التالي)، حدد التلاقي العابر لتلك الأنماط شكل تسوية ما بعد الحرب المعيبة التي ظهرت. وبحلول سبتمبر 1919، أجبرت احتمالات التمدد العسكري والمالي في الشرق الأوسط لويد جورج على الإقرار بأن بريطانيا لم تكن تستطيع أن تتحمل ثمن إبقاء قوات احتلالها في سوريا ولبنان إضافة إلى فلسطين وبلاد الرافدين. وفي اجتماع مع فيصل في شارع داوونغفي 23 سبتمبر، أخبر رئيس الوزراء الأمير بأن الحكومة البريطانية «ستعيد إلى أرض الوطن قواتها من كل الدول التي لم ننو البقاء فيها للأبد» لأن أي شيء خلاف ذلك «سينطوي على عبء مهول على عاتق دافعي الضرائب البريطانيين لن تقبله الدولة قط»⁽⁴⁷⁾. ولذا، وفي ظل عمليتي التسريح الجاريتين (وهما اللتين أفضتا إلى تراجع أعداد القوات المسلحة البريطانية من 3.5 ملايين في نوفمبر 1918 إلى 800000 في نوفمبر 1919، ثم إلى 370000 بحلول نوفمبر 1920)⁽⁴⁸⁾. وخفض النفقات المالية، اتخذ القرار بإجلاء القوات البريطانية من سوريا وخفض الدعم المقدم إلى فيصل منذ زمن الحرب إلى النصف. وقد حرم

هذان القراران فيصل من مصدره الرئيس للعائد المالي، ومن أية فكرة ما زالت تدور بخلده بشأن الحماية الخارجية، مما كشفه لخصومه وأوهن شوكته أمام استكمال الخطط الفرنسية في سوريا⁽⁴⁹⁾.

وقد جاءت خاتمة الصراع الثلاثي على سوريا في الأشهر العشرة ما بين سبتمبر 1919 ويوليو 1920. فقد قامت لجنة بقيادة أمريكية تحت رعاية هنري كنج وتشارلز كرين بزيارة لسوريا بوصفها جزءًا من زيارة أوسع لمنطقة الشرق الأوسط غايتها التأكيد على ما إذا كانت المنطقة متأهبة لتقرير المصير، وأمضت لجنة كنج-كرين التي شكلها الرئيس ولسون شخصيًا 42 يومًا في سوريا ولبنان وفلسطين وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى حيث عكفت على جمع معلومات عن الرأي العام المحلي بخصوص الشكل المنشود للحكومة ومبدي التدخل الخارجي الذي ستتحمله تلك المناطق. وربما ليس من الغريب، بالنظر إلى الإدراك الإقليمي أن الولايات المتحدة ليست مهتمة بالتوسع الإقليمي في الشرق الأوسط، أنه في أغسطس 1919 أنبأت تلك اللجنة بإجماع ساحق لصالح انتداب أمريكي للمنطقة بدلًا من وقوعها تحت الوصاية البريطانية أو الفرنسية. ورغم ذلك، أوصت اللجنة أيضًا بأن يمسي فيصل زعيمًا لسوريا المتحدة تحت حكم الانتداب حيث وجدت اللجنة أن «هذا مطلب أجمع عليه مؤتمر دمشق صراحةً باسم الشعب السوري، ويبدو أنه ما من سبب يدعونا للشك في أن الغالبية العظمى من الشعب السوري يريد حقًا أن يكون الأمير فيصل أميرًا لهم». وكانت النتيجة التي توصلوا إليها حاسمة: «قد يشعر المشاركون في مؤتمر السلام بالرضا الحقيقي عن وجود عرب يتمتعون بمثل هذه الخصال التي تؤهلهم لقيادة هذه الدولة الجديدة في الشرق الأدنى»⁽⁵⁰⁾.

ولكن لم يُعمل بتوصيات لجنة كنج-كرين قط حيث قوّضها بشكل قاتل مزيج من المعارضة الإنجليزية-الفرنسية لتقريرها وروح الانعزالية المتنامية التي تبنّاها الكونغرس الأمريكي والحالة الصحية المتدهورة للرئيس ولسون نفسه. علاوة على ذلك، كان التغير في القيادة الفرنسية في يناير 1920 إيذانًا بالموقف المتصلب تجاه

سوريا من جانب رئيس الوزراء الجديد أليكساندر ميلراند⁽⁵¹⁾. ولذا تقاطع ضغط النفقات البريطاني مع اللامبالاة الأمريكية ومحاولة فرنسية مجددة لتأمين مكاسبها التي حققتها زمن الحرب في الشرق الأوسط. وفي الشهر نفسه (يناير 1920)، التقى الرئيس كليمنصو فيصل وأبرم معه اتفاقية سرية تقبل سوريا بموجبها انتداباً فرنسياً (وتقرر بانتداب منفصل للبنان)، علاوة على تقديم مساعدات عسكرية واقتصادية في مقابل الضمانات الفرنسية للاستقلال السوري. وكان الرأي العام في فرنسا يميل باتجاه حل عسكري في منطقة الشرق الأوسط حيث بادرت القوات الفرنسية أيضاً بشن حملة استمرت عشرين شهراً ضد الحركة التركية القومية استمرت حتى سبتمبر 1921. ومع ذلك، عندما وصلت أنباء الصفقة أنصار فيصل في دمشق واجهتها معارضة شديدة من المؤتمر السوري، ولاسيما من جمعية العربية الفتاة (وهي منظمة قومية سرية تأسست في باريس عام 1911)⁽⁵²⁾.

وفي السابع من مارس عام 1920، انعقد المؤتمر مجدداً وأعلن من طرف واحد عن مملكة عربية مستقلة في سوريا (بما في ذلك لبنان وفلسطين) يكون فيصل ملكاً لها. وجاءت ردة الفعل فورية على هذه الخطوة من فرنسا وبريطانيا اللتين تنكرتا معاً من إعلان الاستقلال الأحادي الجانب، وسرعان ما دعنا إلى عقد اجتماع للقوى الأوروبية في مدينة سان ريمو الإيطالية لمناقشة كيفية استعادة زمام المبادرة في مواجهة هذا التحدي لسلطتهما. وفي مؤتمر سان ريمو، خصص رؤساء الوزراء البريطاني والفرنسي والإيطالي فيما بينهم انتدابات المناطق الأسبق للدولة العثمانية. واتفقت بريطانيا وفرنسا على الاعتراف بالاستقلال المشروط لبلاد الرافدين وسوريا على التوالي، لكنهما طالبا بانتدابين — واعتراف دولي حاسم من قبل عصبة الأمم التي تشكلت حديثاً — لإدارتهما. ورغم أن هذا الاستعراض الأخير للتدخل الخارجي في الشؤون الإقليمية يتسق نوعاً ما مع اتفاقية يناير التي أبرمها فيصل مع كليمنصو، فإن هذا التدخل عزز وحسب من العناصر الأكثر تطرفاً داخل سوريا (وببلاد الرافدين) التي رفضت المزيد من التنازلات للقوى العظمى⁽⁵³⁾.

ولذلك كان الطريق ممهّدًا للإجراء الأخير التعس في الصراع من أجل السيطرة على سوريا. فقد جعلت المواقف المتصلبة سواء في دمشق أو باريس الوصول إلى تسوية سلمية للمستقبل السياسي لسوريا مستحيلًا. وفي 27 مايو، أُمِرَ القائد الفرنسي في سوريا الجنرال هنري غورو «بإعداد العدة لتحرك عسكري جعله الموقف الوقح والتهديديّ بشكل متزايد للحكومة الشريفة حتميًا». وبعد انتظار التعزيزات من فرنسا وتحذير بريطانيا من التدخل في الصراع المقبل، ألحقت الفرقة 24 التابعة لغورو هزيمة نكراء بجيش فيصل الذي كان قوامه بضع مئات من الجنود في معركة ميلسون في 23 يوليو، وحاصرت دمشق واحتلتها في اليوم التالي. وأُطيح فيصل ونُفي نفياً مؤقتاً (قبل أن يُعيّنه الإنجليز أول ملك على العراق عام 1921)، وأسدل الستار رسميًا على فترة الحكم الهاشمي لسوريا التي لم تدم إلا قليلًا⁽⁵⁴⁾.

أفول نجم الفترة الشريفة

كانت هزيمة فيصل ونفيه من سوريا واحدة من النكسات التي ألمت بالحركة التي رأسها أبوه. ورغم أن فيصل (كما سيتجلى لنا لاحقًا) وأخاه عبد الله بن الحسين باتا ملكين في ظل الانتداب البريطاني على العراق وإمارة شرق الأردن، كان ميزان القوى القَبَلِيَّة في شبه الجزيرة العربية يميل بحسم ضد الشريف. وبعد سلسلة من الاشتباكات بين قوات الشريف وقوات منافسه العنيد ابن سعود في شرقي الحجاز بداية عام 1919، مُنِيَ عبد الله بن الحسين بهزيمة منكرة بمعركة تربة في مايو. وثبت أن هذا الاشتباك هو النقطة التي قلبت الموازين حيث ازدادت قوة القوات السعودية تدريجيًا بعد ضم إقليم عسير، واستقرت ما بين الحجاز واليمن عام 1920. وتبع هذه المعركة بعام هزيمة ابن سعود لخصمه اللدود المدعي بحق الهيمنة على الجزيرة العربية (سلالة آلرشيد). وإذ بدت الهيمنة الهاشمية على الحجاز واهنة بشكل متزايد، بسط ابن سعود نفوذه على الحجاز وضم مكة والمدينة وجدة عام 1924. وبعدها بعامين، نودي به ملكًا على منطقة الحجاز باعتراف بريطاني، الأمر الذي أدى إلى تأسيس المملكة العربية السعودية الحديثة في نهاية المطاف عام

ودلّ المصير الهاشمي على الطبيعة المتقلبة القصيرة الأجل لاتفاقيات زمن الحرب، علاوة على صعوبات تسوية المطالبات المتضاربة تبادلياً فور انتهاء الحرب. وفي ظل دعم بريطانيا لكل من شريف مكة وابن سعود بأساليب مختلفة، وإصرار المسؤولين في لندن وباريس على حماية مصالحهم الإمبريالية في منطقة الشرق الأوسط، أمسى «تقسيم» الدولة العثمانية فترة ما بعد الحرب اختباراً للصلاية وقدرات القوة المحضة بدلاً من كونها عملية شاملة تنطوي على مخاوف محلية أو تحترمها. وثبت أن المستندات المثالية مثل النقاط الأربعة عشرة أو الإعلان الإنجليزي الفرنسي أوراق لا قيمة لها إذ تصطدم بالواقع البائس حيث تتصارع المصالح المتنافسة على السيادة المحلية والإقليمية. ولقد امتد ذلك حتى لـ«تعيين» الملوك الهاشميين في العراق وإمارة شرق الأردن تعويضاً عن طردهم من سوريا وأقول نجمهم في شبه الجزيرة العربية.

والأخطر من ذلك إرث التصريحات البريطانية في فلسطين التي يتردد صداها إلى يومنا هذا. فرغم أن إعلان بلفور في نوفمبر 1917 استمر في طمأنة العرب أنه «ما من شيء سيستجد فيجبر على الحقوق المدنية والدينية للمجتمعات غير اليهودية القائمة في فلسطين»⁽⁵⁶⁾. فإن الحقائق على أرض الواقع سرعان ما اكتسبت زخماً -وتوترًا- من تلقاء نفسها. فقد بدأ عدد ضخم من المهاجرين الصهاينة في الانتقال إلى فلسطين حيث تجاوز عدد الذين وصلوا منهم 18500 نسمة بين عامي 1919 و1921. وحدثت تلك الهجرة بينما انهال سيل من العرائض على لجنة كنغ-كرين خلال زيارتها لفلسطين في يونيو 1919 تجلّت فيها معارضة كاتبها بما لا يدع مجالاً للشك للصهيونية. وانعقد أول مؤتمر عربي فلسطيني في القدس في يناير وفبراير 1919 لأجل ممارسة ضغوط لضم فلسطين إلى الدولة السورية المستقلة التي يحكمها فيصل بن حسين، والمطالبة بنبذ إعلان بلفور. ولكن مُنع وفدهم المقترح للمشاركة في مؤتمر باريس للسلام من مغادرة فلسطين في الوقت الذي

أثار فيه شراء المنظمات اليهودية مساحات شاسعة من الأراضي المزيد من السخط حيث انطوت عمليات الشراء تلك على تشريد الفلاحين العرب أصحاب الأرض الذين عملوا مزارعين بالمشاركة لأجيال طويلة. وانهقدت مؤتمرات عربية فلسطينية لاحقة في حيفا عام 1920 والقدس عام 1921 ونابلس عام 1922 ويافا عام 1932 لتسجيل الموقف العربي المعارض بشدة للخطط البريطانية في فلسطين. علاوة على ذلك، أدت الاضطرابات المتصاعدة إلى أعمال شغب كبرى في القدس عام 1920 وفي يافا عام 1921، مما مهد الطريق أمام التصعيد المستمر للتوترات العربية-اليهودية بينما تسارعت وتيرة الهجرة الصهيونية على مدار العقود التالية⁽⁵⁷⁾.

كانت بريطانيا قد تحملت رسميًا مسؤولية فلسطين في يونيو 1922. وبعد عام، تألف الجزء الأخير من أحجية ما بعد الحرب عندما انقسمت المنطقة التي يغطيها الانتداب في فلسطين إلى منطقتين فرعيتين. ففي عام 1923، انفصلت المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن (الضفة الشرقية) لتشكّل إمارة شرق الأردن. وتأسس ذلك الكيان الجديد وغير المخطط كليًا عام 1922 عبر الاجتماعات التي انعقدت في القدس ولندن بين وزير الدولة لشؤون المستعمرات ونستون تشرشل وعبد الله بن الحسين شقيق الأمير فيصل. ومن المفارقة أن المملكة الهاشمية التي غرست في عمّان ثبت أنها أكثر الأنظمة التي أقامتها قوى الانتداب بعد الحريصموذاً. فما زال حفيد عبد الله وسميّه في سدة حكم الأردن بعدها بقرن كامل في تباين صارخ بينه وبين مصير أبناء عمومته في العراق الذين أجبروا على ترك السلطة إثر ثورة دموية في يوليو عام 1958. علاوة على ذلك، تنازل البريطانيون عن جزء من مرتفعات الجولان للانتداب الفرنسي في سوريا. فتركت هذه التعديلات الإقليمية الأخيرة دولة مبتورة في فلسطين، لكنها أرست نظام الدولة الجوهري الذي استمر إلى حد بعيد تحت ضروب مختلفة تمامًا من الأنظمة (فيما خلا الأردن وتأسيس إسرائيل عام 1948) حتى يومنا هذا.

ثورة في بلاد الرافدين

تمت الخطوة الأخيرة في عملية إعادة الهيكلة ما بعد الحرب العالمية في

بلاد الرافدين حيث تطلب الأمر تعديل الغايات البريطانية العظيمة وتقنينها إثر ثورة قومية اندلعت عام 1920. وإذ عُرفت تلك الثورة في عراق اليوم باسم الثورة العربية الكبرى، فقد كان للتمرد القبلي الذي زعزع أسس الحكم البريطاني من جذوره ديناميات شبيهة بتلك التي زعزعت المنطقة بأسرها. ففي بلاد الرافدين أيضًا، شهدت الفترة التي أفضت في نهاية المطاف إلى منح عصبة الأمم انتدابًا للمملكة المتحدة بمؤتمر سان ريمو في أبريل 1920 تشعبًا مستمرًا للطموحات القومية في الحكم الذاتي والتراكم التدريجي لمسؤوليات السلطة الكولونيالية. وتزامن ذلك مع انتهاز نائب المفوض المدني البريطاني أرنولد ولسون لفرصة انعدام الإشراف على السياسات وانشغال المسؤولين بإعداد العدة لتمديد مؤتمر السلام ليقوم بتوسيع رقعة جهازه الإداري. وكما حدث في مصر، أثارت دلائل إعداد المسؤولين البريطانيين العدة من أجل وضع إطار رسمي لسلطاتهم زمن الحرب وتمديدتها غضب الشعب، وأدت إلى ردة فعل وطنية واسعة النطاق.

والحقيقة أن المسؤولين البريطانيين في بلاد الرافدين قد واجهوا تحديات شبيهة لتلك التي واجهها نظراؤهم في مصر فيما يتعلق بالتوفيق ما بين الإعلان الإنجليزي الفرنسي الصادر في نوفمبر 1918 وأنباء السماح لوفد من الحجاز بالمشاركة في مؤتمر باريس للسلام في ظل عدم استعدادهم لتقديم تنازلات مثيلة محليًا. فقد أثار الإعلان الإنجليزي الفرنسي نقاشًا واسعًا بين القيادات السياسية المحلية وأعيان بلاد الرافدين، ولو أن أرنولد ولسون اعتبر ذلك الإعلان «خطأً كارثيًا» فرضه الرئيس ولسون على الحلفاء. وتفاقم وقعه أيضًا بفعل حقيقة أن هذا الإعلان أُميط اللثام عنه بالتزامن مع النقاط الأربعة عشرة للرئيس ولسون التي خضعت للرقابة من قبل المفوضية المدنية في بغداد حتى أكتوبر عام 1918⁽⁵⁸⁾. وعلى النقيض من سميه الرئاسي، أعلن أرنولد ولسون بثقة ويقين أن «الدولة ككل لا تتوقع ولا ترغب في أية مخططات كاسحة للاستقلال»⁽⁵⁹⁾. وفي وجهة نظره هذه استمتع بدعم مستشارة المندوب السامي في العراق غيرترود بل التي صرحت بحسم في ديسمبر 1918 أن أحدًا في بلاد الرافدين لا يريد حكمًا ذاتيًا بل «يريدوننا ولا أحد غيرنا»⁽⁶⁰⁾.

ولقد أدرك كبار المسؤولين في لندن، إذا لم يكن في بغداد أيضًا، أن الموقف الدولي المتغير يتطلب منهجًا جديدًا للسيطرة الكولونيالية، ومن ثم سعوا إلى إقامة دليل محكم لاستبقاء السيطرة البريطانية على بلاد الرافدين. فبعد أسبوعين وحسب من الهدنة، وتحديدًا في 26 نوفمبر 1918، صرح السكرتير السياسي بوزارة شؤون الهند في لندن السير جون شاكبورغ بأن الإعلان الإنجليزي الفرنسي «لا يعوق صراحةً السيطرة البريطانية المحكمة» شريطة أن تقبلها الشعوب. وعلى ذلك اقترح أن «الخطوة الأولى تنطوي على الحصول على تأييد محلي لصالحنا» في بلاد الرافدين⁽⁶¹⁾. وبعدها بيومين، أخطرت الحكومة البريطانية (عبر وزير الدولة لشؤون الهند الذي كانت بريطانيا تمارس سيطرتها على بلاد الرافدين من خلاله) ولسون باستفتاء «الرأي العام المحلي الحقيقي» بخصوص إنشاء «دولة عربية منفردة تحت الحماية البريطانية». وشاع الظن في لندن بأن مثل هذا «التصريح الرسمي» سيُمكّن الحكومة البريطانية من عرضه «على العالم باعتباره إعلانًا محايدًا على لسان بلاد الرافدين»⁽⁶²⁾.

وأدت الحاجة الماسة إلى تجميل المخططات البريطانية في هيئة انتداب ديموقراطي زائف إلى تصريح ولسون وإشرافه على استفتاء معيب جدًا لـ «الرأي العام المحلي». وأملى على موظفيه السياسيين (البريطانيين) اختلاق وجهات نظر لنخبة من النبلاء ومشايخ القبائل، لكنه محى من تعليماته أي ذكر للحاجة إلى التعرف على «التعبير الحقيقي عن الرأي العام المحلي»⁽⁶³⁾. وما تبع ذلك كان سلسلة انتقائية انتهازية جدًا من المقابلات الشخصية مع المشايخ والأعيان الذين كانوا يدينون بمناصبهم إلى حد كبير إلى الحماية البريطانية. وضمت ردود أفعالهم الإيجابية بشكل مذهل تمرير آراء موالية وحسب إلى المفوضية المدنية في بغداد. وسافر ولسون نفسه إلى النجف الأشرف وكربلاء في ديسمبر عام 1918 للقاء الأعيان المحليين. وسجل كيف «تمنوا صيانة النظام الإداري الحالي، لكنهم عقدوا الآمال على تحسينه وأسهبوا أن تحسينه لن يتم إلا بإضافة المزيد من المسؤولين البريطانيين»⁽⁶⁴⁾. وأصبحت خلفية هذا الكشف الملائم والطبيعة المُجَمَّلة للقرار ككل أكثر وضوحًا إذ أقر ولسون بأن ردود الأفعال التي زعم أنها كانت «بالإجماع وبثقة متناهية لدرجة

أنه يصعب وضعها على الورق» كانت في حقيقة الأمر «مدرسة مسبقاً باعتبارها نتيجة لحوارات مع المسؤول السياسي»⁽⁶⁵⁾.

ولقد ترتب على استغلال ولسون للرأي المحلي تبعثان أساسيتان. أولاهما تمكين المسؤولين البريطانيين في بغداد ولندن من تشويه النتائج على اعتبار أنها «استفتاء شعبي» تجاوز مستوى دعم السيطرة البريطانية المستمرة. وهذا بدوره مكّن الحكومة في لندن من الزعم بأن النتائج اتسقت مع سياسة تعزيز «الحكومات المحلية» بما يتفق مع الإعلان الإنجليزي الفرنسي. كما أتاح أيضًا المجال للمفوضية المدنية في بغداد للاستمرار في تحصين نطاق سلطاتها ومهامها وتوسعته، مما ساعد في الوقت نفسه على تعميق مخاوف القوميين من استعداد بريطانيا للاستهزاء بوعود تقرير المصير والحكم الذاتي المبهمة. وكان للأحداث المتجلية لاحقًا في سوريا، والمؤشرات المتزايدة على إحباط بريطانيا وفرنسا لطموحات فيصل، وقع كبير أيضًا على الرأي القومي المحلي في بلاد الرافدين حيث كان نفوذ مسؤولي الشريف الذين شاركوا في الثورة العربية كبيرًا⁽⁶⁶⁾.

وفي هذا الصدد، أمسى تأسيس أمانة لتحصيل الضرائب في بغداد بمثابة حائل دون انفجار السخط المحلي ضد توسع السلطة البريطانية. وعلاوة على توسعة نطاق وقائع السيطرة البريطانية إلى المناطق الريفية ببلاد الرافدين، مكّنت تلك الأمانة الإدارة من أن تصبح أكثر فعالية في تقييمها للمحاصيل وجبايتها للضرائب. ومع ذلك، كان مفتش الأمانة إي. بي. هاول مشهورًا بعداؤه لنقل أي شكل من أشكال السلطة إلى المؤسسات المحلية، بل إنه في رأي غيرترود كان عاجزًا عن «تصور أي شيء لا يتسق مع الرؤية الإنجليزية للأمور»⁽⁶⁷⁾. وخلال تصاعد وتيرة المشاعر القومية عام 1920، لعب دورًا شبيهًا بالدور الذي لعبه وليمبرونيات في مصر حيث عزّل الرأي العام المحلي وعزز الشكوك في طبيعة السياسة البريطانية في بلاد الرافدين. وزاد من حدة مشاعر التخبط والعداء تلك بقدر أكبر إقحام عملة الهند لتكون عملة أساسية ومواصلة هيمنة الهنود على المناصب الدنيا في الإدارة المدينة ببلاد

الرافدين بغية استبعاد العرب أبناء البلد. وكانت هذه التطورات تعني أن تظل بلاد الرافدين، طوال عام 1919، في قبضة إدارة بريطانية-هندية مركزية مع مشاركة محلية محدودة جداً⁽⁶⁸⁾.

ولذا كانت التبعة التالية لتشويه أرنولد ولسون للرأي العام المحلي ممثلة في إخفاق إدارته بالكامل في تحديد أو تقدير مستوى المعارضة المحلية لسياسة تعميق السيطرة البريطانية فترة ما بعد الحرب على بلاد الرافدين. ورغم أن بعض المتلقين لـ «استفتاء» ولسون للرأي العام المحلي أبدوا وجهات نظر مغايرة، فإن وجهات النظر هذه قوبلت بالتجاهل باعتبارها آراء لا تمثل الواقع وأنها نابعة من أفراد «لهم آراء مسرحية، وأقل اختلاطاً بأهل البلد بكثير منا نحن، ولا يضعون صالحه نصب أعينهم قط»⁽⁶⁹⁾. ولقد بيّن هذا الاستعراض المدهش للكبر والتعطف مدى انفصام ولسون والمسؤولين المحيطين به عن الاتجاهات الحقيقية للرأي العام المحلي. كما كان استمرار هذه المشاعر أيضاً يعني أن الإدارة البريطانية افتقرت للشرعية السياسية الواسعة حيث سعت إلى توسعة نطاق سيطرتها وتعميقه في بلاد الرافدين في عامي 1919 و1920⁽⁷⁰⁾.

ولقد ضمنت مجموعة الفرضيات والتحليلات المغلوطة عن الظروف المحلية فشل المسؤولين البريطانيين الكامل في قراءة تعاظم الجماعات القومية الجديدة في بلاد الرافدين. ومنع مزيج من توجهات تلك الجماعات والتدريب الذي حصلت عليه مسؤولين من أمثال أرنولد ولسون من الإقرار بأن المناخ المشحون بشدة قد يوفر البيئة المواتية للعديد من الشكاوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي شاعت في مجتمع بلاد الرافدين. وقد تجلّى مثال بارز على ذلك في فبراير 1919 إذ تشكل فصيل سياسي جديد اعتراضاً على رفض السلطات البريطانية السماح لوفد من بلاد الرافدين بالسفر إلى باريس لحضور مؤتمر السلام. وهو وإن كان شبيهاً بحزب الوفد المصري، فإن حرس الاستقلال العراقي تضمن أعضاء أكثر تنوعاً من الناحية الاجتماعية من الفصائل القومية القائمة بالفعل، كجمعية العهد مثلاً (وهي جمعية

قومية سرية أسسها في الآستانة ضباط عرب في الجيش العثماني عام 1913⁽⁷¹⁾. تجدر الإشارة هنا إلى أن المسؤولين البريطانيين في بداية أغسطس عام 1914، قبل أن تندلع الحرب العثمانية، قد رفضوا في مصر عرضاً قدمه مؤسس جمعية العهد عزيز علي المصري لتجنيد قوة مسلحة بوسعها -بحسب زعمه- تحرير بلاد الرافدين في مقابل التمويل والأسلحة البريطانية. ففي ذاك الوقت، رفض غلبرت كلايتون البذي كان رئيساً للاستخبارات البريطانية في القاهرة آنذاك العرض نظراً لكونه «غامضاً» جداً و«لا تبدو التفاصيل مدروسة كما ينبغي»⁽⁷²⁾.

والواقع أن ثمة فارقاً أساسياً يميز حرس الاستقلال العراقي عن جمعية العهد؛ ألا وهو أن الأول رفض دعوة الثانية للحفاظ على العلاقات مع البريطانيين خلال الصراع من أجل الاستقلال. وذلك بعيداً كل البعد عن إعلان المصري عام 1914 أن جمعية العهد تسعى إلى تأسيس «دولة عربية موحدة مستقلة عن تركيا وكل القوى الأخرى باستثناء إنجلترا التي تقبل الجمعية حمايتها وسيطرتها على الشؤون الخارجية»⁽⁷³⁾. علاوة على ذلك، فقد استفاد حرس الاستقلال من المزيد من الظروف السياقية المواتية آنذاك، إذ كان من بينهم عدد كبير من القوميين الشباب المتعلمين الذين نشروا أجندة موالية لفكرة الاستقلال وعملوا على توحيد الطوائف السنية والشيعة في شكل حركة قومية غير طائفية حقاً ضد البريطانيين. ولقد كان ذلك تطوراً جديداً مهماً على ساحة الأحداث مَكَّنَ الاستقلال من توسعة نشاطاته ونفوذه إلى ما يتجاوز النخبة الحضرية السنية بقدر كبير بحيث يشمل المدن الشيعية المقدسة، كالنجف الأشرف وكربلاء، علاوة على المناطق الشيعية القوية المحيطة بنهر الفرات التي عانت بعضاً من أقسى الصعاب خلال الحرب⁽⁷⁴⁾.

ورغم أن حرس الاستقلال افتقر لأي انسجام مركزي أو برنامج سياسي حقيقي، فإنه لعب تقريباً الدور نفسه الذي لعبه حزب الوفد في مصر؛ ألا وهو أن يكون نقطة محورية تستطيع أن تجتمع حولها جماعات متنوعة اجتماعياً واقتصادياً من الأفراد والطوائف السنية والشيعة أو المدنية والقبلية في حلف فضفاض. ولو كان هناك

هدف مشترك وُحِّدَ تلك الجماعات فهو أنهم جميعًا عانوا ويلات الحرب وُسِّردوا بسببها وكرهوا المطالبات البريطانية المستمرة للموارد والضرائب. ويمكننا القول إن هناك أربعة عناصر مميزة بشعب بلاد الرافدين تضافرت معًا خلال النصف الأول من عام 1920 لتشعل ثلاث ثورات قبلية حدثت ما بين شهري يوليو وسبتمبر. فقد تمثلت الفئات التي قامت بتلك الثورات في المجتمعات القبلية، والنخبة والمفكرين الحضريين السُّنة، وطبقة الشيعة المتدينين، وطبقة الضباط التي تألفت في المقام الأول من ضباط بلاد الرافدين المحبطين العائدين من الجيش العربي لفيصل في سوريا⁽⁷⁵⁾.

وقد أضمرت كل من هذه الجماعات شكاوى محددة ذات صلة بالحرب وطريقة إدارة الاحتلال البريطاني المستمر. وانصب الغضب القبلي في أغلبه على القسوة الملموسة لقوات الاحتلال البريطاني وضباطها المتحمسين أكثر من اللازم. وتركز الاستياء تحديدًا على الموظف السياسي بفرقة الديوانية الرائد تشارلز دالي. وأكد تغيرتروود بِل لاحقًا أن الثورة القبلية التي اندلعت في فرقة ذاك الضابط كانت أشبه بالثلج الذي ينكسر عند أوهن مواضعه⁽⁷⁶⁾. ولقد بيّن التقرير السنوي لدالي عام 1919 أيضًا عمق الجهل البريطاني بالضغوط السياسية المتفاقمة حيث ذكر في تقريره أن «نهاية العام تميزت بغياب أي عنصر مثير للقلق، وأمسى الموقف القبلي أكثر إرضاءً من ذي قبل»⁽⁷⁷⁾.

وكان لدى الجماعات الثلاثة الأخرى الساخطة شكاوى بعينها حددت لجوءهم إلى العنف صيف عام 1920. فلقد نظرت النخبة السنيّة في أغلبها في بغداد والبصرة بسخط متزايد إلى التشعب ما بين الإعلانات المتعالية لسياسة قوات التحالف ووقائع التحصين السياسي على أرض الواقع⁽⁷⁸⁾. فها هي غيرتروود بِل تنظر بلامبالاة للطموحات المحلية حيث وصفت الإعلانات البريطانية وإعلانات قوات التحالف بأنها «فورة من الهواء الساخن خرجت من أرض الوطن على هيئة إعلانات دولية»⁽⁷⁹⁾. ولم تقر بِل سوى بعد فوات الأوان، وتحديدًا في أكتوبر 1920، عندما قالت: «إننا قطعنا

وعودًا بمؤسسات ذاتية الحكم، ولم يقتصر الأمر على أننا لم نخطُ ولو خطوة واحدة نحو تحقيق هذه الوعود بل إننا انشغلنا بإعداد شيء مختلف كلياً⁽⁸⁰⁾. علاوة على ذلك، فثمة مصدر آخر قوي للضغط بين جماعات القادة الحضريين تمثل في انشغال الحكومة البريطانية بمؤتمر السلام (والثورثين اللتين اندلعتا في مصر والهند)، والإخفاق اللاحق في اتخاذ قرار سياسي حقيقي بخصوص مستقبل بلاد الرافدين. ولقد فتح هذا الشطط في السياسة في لندن المجال أمام أرنولد ولسون لفرض أحداث بعينها في بغداد. ولكن، بينما ازدادت الشكوك المحلية في النوايا البريطانية عام 1920، بدأت الكثير من العناصر التأزيرية في المجتمع الحضري في الحد من خسائرها وتقنين دعمها للمسؤولين البريطانيين المحليين لتفادي إثارة سخط الإدارة العربية المحتملة التي قد تتولى مقاليد الحكم في نهاية المطاف⁽⁸¹⁾.

من زاوية أخرى، فطالما عانى أبرز رجالات الشيعة من الإقصاء من المناصب العليا من قبل العثمانيين السُّنة والبريطانيين الذين واصلوا أيضاً سياسة التهميش تلك. ومن المفارقة أن هذه الريبة المتبادلة وقعت أيضاً في فترة ما بعد غزو العراق عام 2003 حيث نظر المسؤولون البريطانيون إلى الخطاب الإسلامي الوحدوي من جانب السلطة الدينية الشيعية بريية شديدة، واشتبهوا بأنهم يدينون بالولاء للدولة الفارسية المتجاوزة لحدودهم الوطنية وأنهم يمثلون تهديداً مباشراً للنفوذ البريطاني. غير أن تلك الريبة المتبادلة قد زادت بقدر أكبر في ديسمبر عام 1918 عندما أصدر عالم الدين الشيعي البارز في كربلاء محمد تقي الشيرازي فتوى حذر فيها المسلمين من المشاركة في اختيار شخص غير مسلم ليحكم بلاد الرافدين⁽⁸²⁾. ومرة أخرى يمكن أن نرسم خطوط توازن بين هذا التدخل في الحياة السياسية وقرار آية الله العظمى علي السيستاني الذي أجبر عام 2003 القوات المحتلة ذات القيادة الأمريكية على إقامة انتخابات في العراق فترة ما بعد صدام حسين.

ولقد جعل هذا التسييس الطوائف الشيعية في بلاد الرافدين أكثر استجابة لتوعية القوميين البغداديين. وشهد شهر رمضان المعظم الذي حلَّ في أبريل ومايو

عام 1920، والذي تصادف مع مؤتمر الحلفاء السابق الذكر بمدينة سان ريمو في إيطاليا، مستويات غير مسبوقة من التعاون بين الشيعة والسنة حيث استخدمت المساجد وغيرها من دور العبادة لتكون نقاط تجمع. وأصبحت العتبة الكاظمية المقدسة محوراً مهماً من الناحية الجغرافية يصل بين العناصر السنية والشيعة الحضرية للتحالف الوليد⁽⁸³⁾. علاوة على ذلك، نظم حزب الاستقلال احتفالات سنّية ومراثي شيعية بمناسبة المولد النبوي الشريف في استعراض غير مسبوق للوحدة الدينية. كما نشرت الصحف في النجف الأشرف وكربلاء ووزعت كتيبات حثت القبائل المحلية على إعداد العدة للثورة المقبلة⁽⁸⁴⁾.

وأخيراً، غرس مزيج من التطورات الإقليمية والدولية في عامي 1919 و1920 بذور الريبة في الغايات البريطانية المبالغ فيها عبر منطقة الشرق الأوسط بأسرها. فقد أثّرت تلك الغايات على الكثير من ضباط الجيش في بلاد الرافدين الذين خدموا في الجيش العربي الشمالي لفیصل خلال الثورة العربية. وكان كثير من هؤلاء الرجال قد ظلوا في سوريا بصحبة فیصل ولكن أملهم غاب تدريجياً وبدؤوا يتعاطون بسخرية لاذعة مع العهود الخارجية بالدعم خلال الانهيار (السابق الذكر) في العلاقات ما بين فیصل والفرنسيين. إضافة إلى ذلك، زاد حقد ضباط بلاد الرافدين والمرارة التي شعروا بها بسبب تردد أرنولد ولسون في السماح لهم بالعودة من سوريا إلى بلاد الرافدين بعد معركة ميلسون. ولقد دفعت تلك التجارب كثيراً منهم إلى تحويل دعمهم من حزب العهد القومي الوسطي إلى حزب الاستقلال الأكثر حزماً⁽⁸⁵⁾.

وهكذا تلاقى التصاعد الحتمي للاضطرابات وحالة السخط في ربيع عام 1920 مع اجتماع سان ريمو الذي منحت فيه بريطانيا انتداباً من عصبة الأمم على بلاد الرافدين، مع التوصية، بمعرفة وزير القضاء (البريطاني)، بوضع دستور لتنظيم الحكم البريطاني. ويمكن أن نرى نقاط توازن مجدداً مع المحاولة المثيلة في مصر لتشريع وتأمين تمديد سلطات زمن الحرب البريطانية. وكما أدت أفعال السير وليامبرونيات إلى ردة فعل قوية في مصر، كذلك أفضت تحركات السير إدغار بونهام في بلاد

الرافدين. فقد قدم مقترحًا بتشكيل مجلس للدولة تظل بموجبه السلطة التنفيذية في أيادٍ بريطانية محكمة. وقد وصف ضابط بريطاني صغير آنذاك ذلك المقترح (ولو أنه كتب ذلك من الذاكرة لاحقًا بعد أن اختتم مشوارًا إداريًا طويلًا في العراق) بأنه «سبق وجهات النظر الأصلية لأرنولد ولسون»⁽⁸⁶⁾.

وبعد شهر رمضان وسلسلة من التظاهرات السلمية الحاشدة في بغداد طوال شهري مايو ويونيو 1920، اندلعت في نهاية المطاف الثورة القبلية في 2 يوليو. وقد اشتعلت شرارتها بعد اعتقال شعلان أبو الجون شيخ عشيرة الظوالم التابعة لقبيلة بني حجين بعد رفضه دفع الضرائب إلى سلطة الاحتلال. فقد أثار اعتقاله ثورة أبناء قبيلته الذين اقتحموا مخفر الشرطة الذي احتجز فيه أبو الجون وقتلوا عددًا كبيرًا من رجال الشرطة مطلقين سراحه. وكانت هذه الواقعة الشرارة التي أطلقت العنان للإحباطات المكبوتة التي تراكمت بين الجماعات الريفية والحضرية على حد سواء. وسرعان ما تطورت حلقة الزخم فشجع النجاح المبدئي الذي أحرزته القبائل الأولى التي احتشدت قبائل أخرى على المشاركة في عمليات الاستيلاء على الغنائم أو الموارد المحلية. وفي غضون أسبوعين، اشتبك الآلاف من رجال القبائل المسلحين مع الوحدات العسكرية البريطانية في الرميثة، فأسفرت الاشتباكات عن إصابات لدى الجانبين⁽⁸⁷⁾.

ولقد اندلعت ثلاث ثورات كبرى في الفترة ما بين يوليو ونوفمبر 1920. وشاركت فيها قبائل من منطقة الفرات الوسطى ومنطقة بعقوبة الواقعة على نهر ديالى شمالي بغداد ومنطقة الفلوجة غربي بغداد. وعُرفت تلك الأحداث كلها إجمالاً باسم الثورة العراقية الكبرى. ولكن رغم شراستها الانقلابية في مناطق محددة، افتقرت تلك الثورات إلى التنظيم المركزي والهدف الواحد، وإن كانت قد عكست سلسلة من ردود الأفعال المحلية تجاه صعوبات اجتماعية واقتصادية بعينها، وبدت أكثر نزوعًا للفشل إذ لم تشارك فيها القبائل المحسوبة على اتحاد قبائل المنتفق القوي. علاوة على ذلك، فقد أخفقت تلك الثورات في التمدد إلى الكثير من المناطق الحضرية حيث قررت

الطائفة السنية البارزة ألا تتخلى عن ولائها للإدارة البريطانية. ويدوأنالحد من تجلي السلطة الشيعية والقبلية المحضة قد دفعهم إلى النزوع إلى حماية مكانتهم المرموقة الحالية في النظام المجتمعي. وبالتالي ضعفت شوكة تلك الثورات في نهاية المطاف بوصفها نتائجاً محلياً لقبائل الفرات الوسطى⁽⁸⁸⁾.

ورغم ذلك تخلدت ذكرى ثورة 1920 في الأذهان باعتبارها واحدة من الأركان الرئيسة الكبرى التي شكّلت روح الوطنية العراقية الحديثة. واعتبر «أغلب النشطاء السياسيين والعلماء الاجتماعيين العراقيين أحداث صيف ذاك العام أول عمل تاريخي قاتل في إطاره العراقيون البريطانيون، ومن ثم كان تمهيداً لإقامة الدولة العراقية»⁽⁸⁹⁾. ومنذ أن أصبحت العراق دولة مستقلة ذات سيادة عام 1932، نُسجت أساطير قوية (ومسيّسة) حول هذه الثورة. ويمكن أن نرى النتائج الممتدة الأثر لعملية تخصيص الحقائق التاريخية في قرار واحدة من كبرى الجماعات السُنيّة المتمردة التي نشأت بإقليم الأنبار المميت بعد الاحتلال الأمريكي للعراق عام 2003 أن تطلق على نفسها اسم كتائب ثورة العشرين⁽⁹⁰⁾. فهذه التسمية تتجاهل حقيقة رفض النخبة السُنيّة الانضمام إلى الثورة التي اندلعت بقيادة الشيعة مما ساهم في فشلها الحتمي. ولقد تردد صدى تداعيات الحسابات المختلفة للأطراف المعنية في شتى أرجاء دولة العراق الحديثة. وكان للتمايز ما بين الولاء النسبي لكثير من المجتمعات السُنيّة والتمرد الشيعي في أغلبه تبعات سياسية قوية حيث أكد تحيزات المسؤولين البريطانيين الذين كانوا ميالين مسبقاً لمواصلة الأسلوب العثماني في التعاون مع النخبة السنية، فأقاموا دولة العراق الحديثة ونقلوا تدريجياً مسؤوليات الحكم إلى شركائهم المحليين⁽⁹¹⁾.

وبناءً على كل ما تقدم، يمكننا القول إنشراسة ثورة بلاد الرافدينفاجأتالسلطات المدنية والعسكرية البريطانية مفاجأة مذهلة. فقبل اندلاعها بثلاثة أسابيع، كانت بل تعلن بكل ثقة: «لا أعتقد شخصياً أن ثورة ستندلع سواء هنا [في بغداد] أو في الأقاليم»⁽⁹²⁾. ولقد فوجئ القادة العسكريون بالمثل بالثورة. وشعر كثير من زملاء

القائد العام الجديد في بلاد الرافدين أيلمرها الدين أنه جاهل بآراء عموم العراقيين، فعندما اندلعت الثورة كان هو والعاملون في مقر قيادته بالكامل يمضون إجازة الصيف على التلال الفارسية⁽⁹³⁾. كما أن ضابطاً آخر مرموقاً، وهو اللواء جي. أيه. ليسلي قائد الفرقة 17 الهندية، كان منشغلاً بضم نادي بغداد لسباقات السيارات ونادي البصرة لسباقات السيارات قبل الأزمة مباشرة. وحتى بعد أن بلغت الثورات القبلية ذروتها، انصبت جهوده في أغلبها على إدارة الخيول لدرجة أنه عكف على تنظيم بطولة كأس الفرات الذهبي الافتتاحي بمدينة الحلة في 17 أكتوبر 1920، بينما كانت قطاعات كبيرة من المنطقة المحيطة بالمدينة ما برحت في حالة فوران وثورة⁽⁹⁴⁾.

وقد اقتضت الظروف استدعاء 18 كتيبة إضافية من الجيش الهندي إلى بلاد الرافدين للانضمام إلى قرابة 100 ألف جندي ممن بقوا في أرض المعركة بعد حوالي عامين من انتهاء الحرب. وكان ثمن وأد الثورة في مهدها مقتل 321 جندياً بريطانياً وهندياً وإصابة 1228 آخرين، ونفقات بلغت في المتوسط 591700 جنيه إسترليني أسبوعياً خلال الفترة ما بين 1 يوليو و1 أكتوبر عام 1920⁽⁹⁵⁾. وحتى ونستون تشرشل (وزير الدولة للحربية في لندن آنذاك) انتقد بشراسة ذلك «النظام البشع» الذي احتل تحت مظلته «عدد من القرى الطينية المحاصرة بين نهر ضحل وصحراء محرقة تقطنها عائلات نصف عارية تتضور جوعاً»⁽⁹⁶⁾. وقد أكد تقييمه الصريح بشكل مميز والقوي بشكل حاسم أن لندن لم تعد تتحمل هذه المستويات العالية من النفقات المالية واستنفاد الموارد العسكرية في فترة كانت فيها بريطانيا تعاني من مشكلات اقتصادية واضطرابات سياسية في شتى أرجاء الإمبراطورية. وبالتالي بدأ صُناع السياسة في لندن أخيراً في وضع خطة لأجل تقليص السيطرة المباشرة على بلاد الرافدين وتقنين موطأ قدمها فترة ما بعد الحرب.

إنشاء نظام ما بين الحربين

كشفت موجات العنف التي امتدت في أرجاء منطقة الشرق الأوسط خلال عامي

1919 و1920 ضعف منظومة ما بعد الحرب التي كانت بريطانيا وفرنسا تحاولان فرضها على المنطقة. ففي منطقة القوقاز أيضًا لم يتبع نهاية الحرب الروسية العثمانية استقرار سياسي ممتد. بل إن مجموعة جديدة من الصراعات المحلية استنفدت القسم الأكبر من المنطقة، فقد تسبب انسحاب الروس في البداية ومن بعده هزيمة العثمانيين في إحداث فراغ في السلطة السياسية عبر المنطقة. ولذا اندلعت الحرب بين الجورجيين والأرمن على الحدود في ديسمبر 1918 في الوقت الذي دق فيه ناقوس الحرب بين الأرمنيين والأذربيجانيين الذين اشتبكوا في سلسلة من المعارك العنيفة على باكو وكاراباخ بدأت في منتصف عام 1918 واستمرت حتى عام 1922. ولقد أدت التوترات العرقية والدينية إلى المزيد من حالات طرد المسلمين من باكو والمزيد من المذابح، بما في ذلك مذبحه وقعت في سبتمبر عام 1918 راح ضحيتها ما بين 10 آلاف و20 ألف أرمني على يد القوات العثمانية وحلفائهم الأذربيجانيين، وكذلك القتل الواسع النطاق للأرمن في مدينة شوشا التابعة لإقليم كاراباخ في مارس 1920. وجلبت تلك الأحداث العنيفة أيضًا الدمار للأحياء الأرمنية من المدينة، وأدت إلى القضاء على قرون من الرخاء الاقتصادي والثقافي الأرمني بالمنطقة. ولكن فترة التشطي الإقليمي الناجم عن عودة الحركات الوطنية في منطقة القوقاز انتهت بفرض الهيمنة السوفيتية عام 1920 واضمحلال الجمهورية الأرمنية الأولى التي لم تدم طويلًا والجمهورية الأذربيجانية الديمقراطية⁽⁹⁷⁾.

ولقد كشفت ردود الأفعال المحلية هذه كيف كانت الحركات القومية تتحرك إلى ما يتجاوز القدرات المحدودة لسابقتها، ولعل ذلك يرجع إلى حد ما- إلى ضياع السيطرة الإمبريالية أو اضمحلالها الذي فتح الباب على مصراعيه لإمكانات جديدة للجماعات الوطنية. وكان صعود نجم شخصيات سياسية بارزة ذات شعبية لديها القدرة على تعبئة أعداد متزايدة من التابعين والأنصار على مستوى البلاد يعني أنه لا يمكن بعد الآن تجاهلهم بحجة أنهم لا يعبرون عن الرأي العام المحلي، مهما حاول المسؤولون البريطانيون والفرنسيون أن يفعلوا ذلك. علاوة على ذلك، فإن سخط القوميين من الخطط الغربية لإعادة تنظيم المنطقة لم يكن يقتصر على منطقة

الشرق الأوسط وحدها. فقد ماجت الإمبراطورية البريطانية باضطرابات واسعة النطاق امتدت من إيرلندا حتى الهند وأفغانستان، مما فاقم من ضرورة تحديد أولويات التعهدات والالتزامات. فقد كانت القلاقل في الهند تحديًا جسيمة حيث أثبتت للمسؤولين البريطانيين أن استغلالهم للجنود الهنود لم يعد بعد ليضمن السيطرة الإمبريالية في منطقة الشرق الأوسط وغيرها من المناطق. ففي لحظة أن بلغت الإمبراطورية البريطانية أقصى حدودها الإقليمية في فترة قصيرة من الانتصارات تبعتها غزوات فترة الحرب، وبعد حملة تصعيد العصيان المدني التي قادها غاندي، اقتضى الأمر إجراء فحص للوقائع المتعلقة بممارسة السلطة البريطانية في الهند. وبحلول يونيو عام 1921، اضطر نائب الملك في الهند إلى إخطار الحكومة البريطانية بأن «الرأي العام في الهند لن يتحمل بعد نظام حكم يستغل جنوده تحت مظلته... لخدمة المتطلبات المتذبذبة لحكومة صاحب الجلالة»⁽⁹⁸⁾.

وفي شمال أفريقيا، انفجرت الاضطرابات المتصاعدة وتحولت إلى صراع عنيف بين بربر جبال الريف ومحتليهم الإسبان عام 1921. فُقُتل أكثر من 10 آلاف جندي إسباني في شهري مايو ويونيو وحسب حيث ألحقت بهم قوات البربر بقيادة القاضي البارز محمد بن عبد الكريم الخطابي ما وصفه يوجين روغان «بأسوأ هزيمة لجيش استعماري على الإطلاق في أفريقيا في القرن العشرين»⁽⁹⁹⁾. علاوة على ذلك، امتد الصراع إلى نطاق سيطرة فرنسا في المغرب الذي شهد أعمال عنف شديدة قبل الحرب العالمية الأولى مما أسفر عن استقطاب آلاف من الجنود الفرنسيين للمشاركة في الحملة المناوئة للتمرد في شمال أفريقيا. أما خلال الحرب فقد حارب ما يربو على 34 ألف مقاتل مغربي على الجبهة الغربية وعانوا من معدل إصابات كبير جدًا، فتجلت لاحقًا بقوة الرغبة في الانتقام للضحايا والمشاركة في روح مبدأ تقرير المصير⁽¹⁰⁰⁾.

وفي هذا السياق المُسيّس جدًّا لفترة ما بعد الحرب مباشرة الذيكانت فيه آمال التقدم السياسي في السماء، سرعان ما كانت الأنباء تنتقل من منطقة إلى أخرى.

فقد تردد صدى القلاقل التي اشتعلت في الهند وإيرلندا لدى القوميين في مصر، والعكس صحيح. وبالمثل أمست أنباء السماح بإرسال وفد من منطقة الحجاز بقيادة فيصل إلى مؤتمر باريس للسلام بمثابة شرارة الانفجار لدى القوميين المصريين والسوريين والعراقيين الذين تساءلوا لِمَ لم يُسمح لوفودهم بالحضور. وكانت تلك الروابط العابرة للأقاليم زاخرة، وقد تعاظمت في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بسبب اللغة المشتركة والانتشار المتزايد لوسائل الإعلام المطبوعة. كما عكست تلك الروابط أيضًا الاقتصادات السياسية المتداخلة لمنطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، بين المنطقتين بعضهما بعضًا وبينهما وبين الهند أيضًا، وذلك نتيجة وقوعها داخل النظامين الإمبرياليين لبريطانيا العظمى وفرنسا. فقد ذكر المؤرخ المتأخر للإمبراطورية البريطانية جون جالاغر عندما أُرِخَ لتلك الفترة عام 1981 أن لُبَّ «أزمة الإمبراطورية» فترة ما بعد الحرب كان يكمن في مجموعة من المشكلات وردود الأفعال المتداخلة تجاه المشقات التي جلبتها الحرب. وأفضى به ذلك إلى استنتاج أن «الحاجة تقتضي دراسة المشكلات نفسها لا المناطق التي وقعت فيها تلك المشكلات» طالما أنه «ما من تحليل لأي من تلك الأزمات سيكون متكاملًا دون إثبات تداخله مع غيره من الأزمات»⁽¹⁰¹⁾.

ويمثل مؤتمر القاهرة الذي عُقِدَ في العاصمة المصرية في مارس 1921 نقطة نهاية مناسبة لتحليل إعادة تنظيم الشؤون الإقليمية فترة ما بعد الحرب. فرغم أن «الختام» الأخير لم يُتَوَصَّلْ إليه حتى عام 1923 (وذلك بعقد اتفاقية لوزان التي حلت محل اتفاقية سيفرز المشؤومة القصيرة الأجل بالتزامن مع استقلال تركيا) أو حتى عام 1925 (وذلك بعمل تسوية للمطالب المتعارضة المتعلقة بولاية الموصل ودمجها في مملكة العراق)، فقد أُرست القرارات التي اتخذت في مصر أساس النظام خلال الفترة الفاصلة بين الحربين. وبالتراجع عن أغلب القرارات التي اتخذت بعد الحرب مباشرة، تجلت السرعة التي تضاءل بها أثر سلطات الحلفاء فترة الحرب وامتداد أذرعهم في مواجهة المنافسة المحلية وردود الأفعال العنيفة على مستوى المنطقة. وكانت إعادة تعديل الموقف محاولة متأخرة لإعادة صياغة الأهداف الغربية لأجل

«إدارة» منطقة الشرق الأوسط بآليات حوكمة أقل تكلفة والنشر الاستهدافي للقوة الجبرية. ومن ثم تلاشت الغايات الإمبريالية المغرورة لعام 1919 في خضم تقييم —ولو على مضض— مفاده أن السياسة لم يعد بالإمكان صياغتها دون إشراك أطراف أو شركاء محليين.

وقد عُقِدَ في القاهرة ذلك المؤتمر الإقليمي الذي دعا إليه ونستون تشرشل — وكان آنذاك وزيراً للدولة للمستعمرات — وتي. إي. لورنس الذي عُيِّن مؤخراً مستشاره الخاص، وذلك بفندق سميراميس في 12 مارس عام 1921. وحضره قادة مدنيون وعسكريون بريطانيون من فلسطين وبلاد الرافدين إضافة إلى ابني شريف مكة الأبرز فيصل وعبد الله. كما حضره أيضاً أغلب نجوم العروبة البريطانيين، بخلاف لورنس، بمن فيهم غيرترود بل والجنرال ألنبي وأرنولد ولسون والسير بيرسي كوكس والسير هربرت صموئيل والمندوب السامي في فلسطين. وكان جعفر العسكري هو المندوب العراقي الوحيد، وهو والأسبق على حلب في سوريا، وكان حينئذ شخصية بارزة في الحركة الشريفة (الهاشمية) ورجلاً متأهباً للعمل مع البريطانيين في العراق. وقد التأم الحضور في ذاك الاجتماع للموافقة على المخططات البريطانية المُعاد رسمها في عجالة التي تقضي بتسليم عرش مملكة العراق الجديدة إلى فيصل وعرش إمارة شرق الأردن الجديدة إلى عبد الله، ولو أن أغلب التفاصيل تم الاتفاق عليها في اجتماعات سرية مع فيصل في لندن من قبل⁽¹⁰²⁾.

ولقد أحكمت القرارات الرئيسة التي اتخذت في القاهرة الخريطة الجيوسياسية للشرق الأوسط الحديث. ربما تكون الأنظمة قد تغيرت بطبيعتها والحدود السياسية تحولت بفعل سلسلة الحروب العربية الإسرائيلية لكن نظام الدولة الإقليمية الأساسي ظل دون تغيير. وعلى أية حال، فقد وافق الموفدون على أن تحتفظ فرنسا بانتداباتها ووسطوتها على سوريا ولبنان بينما تواصل بريطانيا هيمنتها على فلسطين مع الاستمرار في دعمها لإنشاء دولة يهودية فيها. وفي تلك الأثناء، شكل تأسيس مملكتي العراق وإمارة شرق الأردن تحت الهيمنة الهاشمية (الموالية لبريطانيا) ضربة

قاصمة للطموحات الإقليمية لعبد العزيز آل سعود الذي وجد نفسه آنذاك محاطًا بثلاثة منافسين هاشميين (ثالثهم شريف مكة في الحجاز) مما عَجَّلَ بحسم سعي الهاشميين والسعوديين إلى تحقيق الهيمنة بالقوة المفرطة. وهكذا دون أن تربطه أية علاقات قبلية أو عائلية ببلاد الرافدين، أمسى فيصل ملكًا للعراق بعد «استفتاء شعبي» مختلق بعناية أثبت أن مؤيديه بلغت نسبتهم 96 في المائة، في الوقت الذي قوبل فيه المرشحون المحليون، مثل عبد الرحمن الكيلاني نقيب أشرف بغداد أو السيد طالب نقيب أشرف البصرة (وهو الذي نفته بريطانيا إلى الهند قبل شهر من وصول فيصل)، بالتجاهل الشديد⁽¹⁰³⁾.

وقد كان لقصور الجذور المحلية هذا تبعات على الحكومة الملكية العراقية حيث جاهدت من أجل ترسيخ أقدامها باعتبارها السلطة السياسية الشرعية في العراق. وفي نهاية المطاف، لم تكن الجذور التي غرسها ملوك متتابعون كافية لإنقاذ المؤسسة من أن يُطاح بها بعنف عام 1958. ولكن حال الحكام الهاشميين لإمارة شرق الأردن (وهي التي أمست الأردن لاحقًا) كان أفضل حيث ساعدها الاستقلال الذي كفلته فترات الحكم الممتدة لكلٍ من عبد الله (1921-1951) وحفيده البارز حسين (1952-1999)، علاوة على المستويات العالية من الدعم العسكري والمالي الخارجي التي مكنت المملكة الفقيرة الموارد من الصمود حتى أضحت نموذجًا للاستقرار في منطقة تموج بالاضطرابات. وعلى العكس تمامًا كان الإرث البريطاني والفرنسي في فلسطين وسوريا أكثر إثارة للجدل بكثير، بل إنه ما زال محل نزاع حتى وقتنا هذا. وحقيقة الأمر أن تشارلز تريب لاحظ مؤخرًا أن «عنف الإرث الكولونيالي» عبر المنطقة الذي تشكل خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها قد «وَفَّرَ إطار عمل قويًا لتخيل السلطة» في أرجاء المنطقة⁽¹⁰⁴⁾. فما برحت هذه الذكريات والمعارك التي اندلعت بسبب «آلام المخاض» العنيفة لنظام الدولة الذي بزغ من بوتقة اضطرابات ما بعد الحرب يتردد صداها في أرجاء الشرق الأوسط لقرن كامل من بعد الحرب.

خاتمة

كان أثر تعرّض المجتمعات والشعوب في الشرق الأوسط للحرب العالمية الأولى والمشاركة فيها هائلاً. فبصورة أو بأخرى، ورّطت أربع سنوات من القتال المنطقة بأسرها، بشكل مباشر أو غير مباشر، في الصراعات الموضعية التي خرجت من رحم النزاع الأولي بين القوى الإمبراطورية على تحقيق مكاسب استراتيجية. فمن رؤوس الشواطئ المكتظة في غاليبولي إلى الهضاب الجبلية المتجمدة في القوقاز وصحراء سيناء وبلاد الرافدين القائظة استعرت المعارك فوق تضاريس قاسية لا ترحم وألحقت خسائر هائلة بالجنود ووحدات الدعم غير المقاتلة على حدّ سواء. علاوة على ذلك، فإن جلب جيوش عارمة ووحدات دعم ضخمة من الخارج تداخل مع أنماط النشاط الاقتصادي والزراعي المدنية وتسبّب في وجود مطالب غير مستدامة على الموارد المحلية متزايدة الشح. فبدأت الضغوط التضخمية ونقص الغذاء يتسببان في مصاعب حقيقية في مرحلة مبكرة، وذلك في عام 1915. وقد تطوّر هذا النقص ليصير مجاعة ضربت أجزاء كبيرة من المنطقة، وازدادت تعقيداً وتفاقماً بفعل التدابير الاستخراجية القاسية لإطعام الآلة العسكرية النهمّة.

كما تطوّرت أيضاً دينامية جديدة، إذ دفع ضغط مقتضيات زمن الحرب القوى الإمبراطورية إلى التماس شركاء محليين والعمل من خلالهم، وكذلك -على نحو مفاجئ- إلى إبرام اتفاقيات سرّية فيما بينها قسّمت الشرق الأوسط إلى مناطق نفوذ وسيطرة. وسرعان ما بدأت هذه الاتفاقيات أو الوعود، سواء أكانت رسمية أم غير رسمية، تتكشف، لتشكل أساس نقاشات بائسة احتدمت منذ ذلك الحين. ومع خروج تفاصيل هذه الاتفاقيات إلى العلن بما يتعارض مع رغبات المسؤولين الاستعماريين، نجد أنها سرّعت أيضاً صعود حركات معارضة جديدة وخلقت ركائماً من المظالم السياسية والاجتماعية الاقتصادية العميقة. وقد وضعت هذه المظالم الأساس للقلقل الكبيرة المطولة التي ابتلي بها الشرق الأوسط بعد الحرب مباشرة،

مما يكشف عن محدوديات المحاولات المفروضة من الخارج لإعادة تنظيم المنطقة لكي تتناسب مع المصالح الغربية.

ومن ثمّ فليس من قبيل المبالغة أن ننوّه إلى أن الحرب العالمية الأولى كانت محورية لخلق الشرق الأوسط الحديث حيث عجلت بزوال الدولة العثمانية ومهدت الطريق أمام ظهور نظام الدولة (وإنّ تحت حكم الانتداب) الذي ما يزال إلى حدّ كبير قائمًا إلى يومنا هذا. فقد أُعيد تشكيل المشهد السياسي برمته في المنطقة حيث قوّض إرث الحرب قدرة «الأغراب» الإمبراطوريين على الهيمنة على الأحداث والتأثير عليها، ونجحت الجماعات القومية في تعبئة الحركات الجماهيرية حول هويات واضحة الوطنية. ومع ذلك، فقد حدث هذا بالضبط في الوقت الذي صارت فيه قيمة الشرق الأوسط الفعلية والمحتملة ملمحًا دائمًا من ملامح مجموعة جديدة من الاعتبارات الجغرافية الاستراتيجية الغربية. فظهور الميكنة واسعة النطاق لم يُحدث ثورة في إدارة الحرب ذات الطابع الصناعي فحسب، بل أضفى أيضًا درجة من الإلحاح على البحث عن مصادر إمداد يمكن التعويل عليها والسيطرة عليها كذلك.

لذا كان الشرق الأوسط في عام 1923 صورة مختلفة تمام الاختلاف عن الشرق الأوسط في عام 1914 حيث اختلطت حركات سياسية جديدة وأيديولوجيات جماهيرية بالنقاشات الصاعدة حول الهويّات والمسارات التطوّرية للدول والأمة، وتحوّل محور تركيز اتخاذ القرار من الأبهة الإمبراطوريّة الزائلة إلى نشاط الحكومات الوطنية المحموم. واحتكّت طبقة سياسية جديدة بحدود المنظومة الإلزامية الناشئة عن تسوية ما بعد الحرب واختبرتها، في الوقت الذي كافح فيه الإداريون الاستعماريون البريطانيون والفرنسيون للتكيف مع تقلّص السيطرة الذي أمسى واقعًا جديدًا. كما تغيّرت تركيا أيضًا حتى صار من الصعب التعرّف عليها في ظل شروع أتااتورك في برنامج تحديث اجتماعي سياسي واسع النطاق اشتمل على إعادة توجيه الجمهورية الجديدة نحو أوروبا وإدارة ظهرها إلى الشرق الأوسط. وفي شبه الجزيرة العربية، سُوّيت المنافسة بين الأسرتين السعودية والهاشمية لصالح عبد العزيز آل سعود،

وذلك على نحو كانت له تبعات دائمة فيما يخص الدولة التي اتخذت اسم عائلته في عام 1932.

وفيما يحتفل كبار المشاركين في الحرب العالمية الأولى بذكرى مرور مائة سنة عليها سيتركز معظم الاهتمام على إحياء ذكرى معارك غاليبولي، إذ سيتوافد آلاف «الحجاج» من أستراليا ونيوزيلندا على شبه الجزيرة في أبريل 2015 لتكريم إرث الحملة التي شكّلت هويتهم الوطنية بكل قوّة. كما ستحتفل تركيا أيضًا بذكرى هذه الحملة، وإن في خضم أول تحدّد مستدام للنظام السياسي الذي أرساه أتاتورك بعد عام 1923 وفي ضوء اتهامات للحكومة الإسلامية في أنقرة بالانخراط في عملية دعاية «عثمانية جديدة». ومع ذلك، وفيما عدا الفضول التاريخي تجاه الذكرى المائة للاستيلاء على بغداد والقدس في مارس وديسمبر 2017، فمن المحتمل أن يتعرض الاهتمام الجماهيري بالمنوية للكبت في الشرق الأوسط على نحو أشدّ بكثير منه في أماكن أخرى، وهو ما لا يعتبر مفاجأة إلى حدّ كبير. ففي ظل ما تعانيه المنطقة من سكرات فوضى سياسية مجدّدة، وبعد أن شهدت عقودًا من الأزمات الإقليمية والدولية التي يمكن أن نعزو كثيرًا منها إلى القرارات التي اتخذت في أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، بات الإرث المعقّد الذي خلفته الحرب أبرز في هذه المنطقة وأوضح منه في أوروبا أو روسيا.

ويمكن تشبيه هذا بأوروبا التي ظلّت مقسّمة حتى عام 1989، حيث ظلّت مضامين الحرب العالمية الثانية ملحوظة بقوة على مدى أجيال متعددة. وفي هذا السياق، يصعب أن نضع مسافة تاريخية تفصلنا عن الأحداث التي ما زالت أصداء إرثها تتردّد في عموم المنطقة. فلقد شهد القرن المنصرم منذ ذلك الحين كثيرًا جدًّا من الأحداث، لدرجة أننا نجد قضايا مثل اتفاقية سايكس بيكو وتصريح بلفور يجري الحديث عنهما على نطاق واسع كما لو كانا يشيران إلى قضيتين جدليتين معاصرتين، على الرغم من أنه قد لا تقام صلة مباشرة بين الحال المعاصر وبين الحرب العالمية الأولى. وقد تحدّث السفير الأمريكي في سوريا فيما بين عامي

1988 و1991 إدوارد جرجيان عن الرئيس السوري حافظ الأسد وكيف أنه «أسمعني سرودًا لا حصر لها عن اتفاقية سايكس بيكو وكيف أنها كانت أصل كل العلل التي يعاني منها الشرق الأوسط المعاصر»⁽¹⁾. ولعل هذا يفسر أيضًا الإشارات التي ترد في التعليقات وفي وسائل الإعلام عن الحرب الأهلية المريعة التي تدور رحاها حاليًا في سوريا وكيف أنها تساهم في «نقض» اتفاقية سايكس بيكو. فقد ذكر مقال نشرته صحيفة «ديلي ستار» البيروتية في يونيو 2013 كيف أن «أحد أجزاء ذلك الإرث... في طريقه إلى نهاية وحشية»، فيما نشرت مجلة «لندزيفيوأوفوكس» تقريرًا مطولًا للمراسل الشرق الأوسطي المخضرم باتريك كوكبيرن من سوريا تحت عنوان: «أهي نهاية سايكس بيكو؟» وقد سجل كوكبيرن كيف عبّر له الناس مرارًا وتكرارًا عن هذا الشعور في أثناء سفره في أنحاء العراق مضيئًا: «شعور أن مستقبل دول بأسرها يكتنفه الشك شعور متزايد في عموم الشرق الأوسط، وذلك للمرة الأولى منذ أن قسّمت بريطانيا وفرنسا جثّة الدولة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى»⁽²⁾.

ومع رحيل آخر من تبقى على قيد الحياة ممن شاركوا في الحرب العالمية الأولى، انتقلت هذه الحرب من هوامش التجربة الشخصية إلى كتب التاريخ. وسوف تكون الذكرى المئوية، في أعين الكثيرين، فرصة للتوقف والتأمل في جسامه ما اشتملت عليه من معاناة إنسانية. ويحتفظ مَن لهم أسلاف حاربوا في تلك الحملات وقضوا فيها بروابط عاطفية ومادية تربطهم بذلك الماضي من خلال الخطابات والمذكرات والمتعلقات الشخصية. وهناك أستاذ للتاريخ في جامعة كامبردج كان من ضمن المتعلقات التي تركها أسلافه «سونكي» عثماني أضفى جواً من الإثارة والاهتمام على طلاب إحدى الحلقات الدراسية. وفي غاليلوي، ما زالت البقايا الضحلة (وهي التي أعيد ترميمها في بعض الأحوال) من شبكات الخنادق التي أنشئت إبان الحرب ظاهرة للعيان لمن ينحرفون عن الطريق الممهّد ويسيرون بضعة أمتار في غابات الصنوبر. كما تناثرت المقابر البريطانية في مشهد الشرق الأوسط، حيث يلقي بعضها عناية شديدة ويعاني بعضها الآخر من صور متنوعة من التردّي. فقد تعرضت مقبرة الحرب العالمية الأولى في غرّة لأضرار شديدة في يناير 2009 خلال القصف

الإسرائيلي على غزة، وفي بغداد تضررت مقبرة البوابة الشمالية التي تضم رفات أكثر من 4 آلاف جندي بريطاني وهندي وعثماني، من ضمنهم الفريق السير ستانلي مود القائد الذي فتح المدينة، بفعل سيارة مفخخة انفجرت قريباً منها في عام 2009. كما ترقد غيرترود بل على مقربة من هناك حيث دُفنت في المقبرة المتداعية الملحقة بكنيسة بغداد الأنغليكانية.

أمارات الحرب العالمية الأولى موجودة في كل مكان في الشرق الأوسط. فإرث تجربة زمن الحرب الذي غشيته الصراعات اللاحقة وعقود من التناحر الميرما زالت تتردد أصدائه بعد زمن طويل من دخول الصراع طي التاريخ في أوروبا. ولقد كان للحملات الشرق أوسطية (وهي التي يراها كثيرون «عروضاً جانبية» على هامش القتال الرئيس الذي دارت رحاه على الجبهة الغربية) تبعات جسيمة على المنطقة بأسرها. وفيما تقف المنطقة ذاتها الآن على شفا فترة أخرى من التغيير التحويلي (غير المضمون بشدة)، يتبين أن فهم العمليات التي مارست هذا النفوذ على التطور المعاصر للدول والمجتمعات في الشرق الأوسط أهم من أي وقت مضى.

الهوامش

المقدمة

1- انظر الفصل السادس.

2. -Edward Erickson, *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East 1914*

.*From the Dardanelles to Mesopotamia* (London: Amber Books, 2008), p.217 :1918

3. Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the*

.*Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010*), p.47) 22-*Middle East, 1914*

4. Sevket Pamuk, 'The Ottoman Economy in World War I', in Stephen Broadberry and

Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I* (Cambridge: Cambridge University

Press, 2009), p.120; Erik Zürcher, 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldier's

Experience', in Hugh Cecil and Peter Liddle (eds.), *Facing Armageddon: The First World*

.*War Experienced* (London: Leo Cooper, 1996), p.238

5. 'First World War Centenary Plans Unveiled', *Daily Telegraph*, 9 June 2013'

6. (<http://www.gallipoli2015.dva.gov.au/Pages/default.aspx> (accessed 18 July 2013

7. <http://www100.govt.nz/rfp-scoping-gallipoli-heritage-site-interpretation#>.

8. (UebIwMBwYhk (accessed 18 July 2013

9. (Notably Peter Hart, *Gallipoli* (London: Profile Books, 2011

10. Notably Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of*

.*Mesopotamia and the Creation of Iraq* (London: Faber and Faber, 2010

11- ملاحظة شخصية، لندن: الأرشيف الوطني، فبراير 2005.

12. Sir Jeremy Greenstock's book was entitled *The Cost of War*

13. 'Greenstock Finally Delivers His Barb on Iraq', *Daily Telegraph*, 12 March 2007'

الفصل الأول

- Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (London: Faber and Faber, 1991 [2002]), .1
.p.7
- D. T. Potts, 'The Archaeology and Early History of the Persian Gulf', in Lawrence .2
41-Potter (ed.), *The Persian Gulf in History* (New York: Palgrave Macmillan, 2009), pp.39
.John Keegan, *A History of Warfare* (London: Pimlico, 1994), p.70 .3
- Barry Strauss, *The Trojan War. A New History* (London: Simon & Schuster, 2006), .4
.p.18
- Fred Halliday, *The Middle East in International Relations: Power, Politics and Ideology* .5
(Cambridge: Cambridge University Press, 2005), p.37
- Oxford: Blackwell Publishing,) 1914-C. A. Bayly, *The Birth of the Modern World 1780* .6
(2004), p.1
- 1920-Thomas Metcalf, *Imperial Connections: India in the Indian Ocean Arena, 1860* .7
(Berkeley, CA: University of California Press, 2007), p.1)
- Patricia Risso, 'India and the Gulf: Encounters from the Mid-Sixteenth to the Mid- .8
Twentieth Centuries', and William Beeman, 'Gulf Society: An Anthropological View of
the Khalijis - Their Evolution and Way of Life', both in Potter (ed.), *The Persian Gulf in*
History
- B. R. Tomlinson, *The Political Economy of the Raj: The Economics of Decolonisation* .9
.3-in *India* (London: Macmillan, 1979), pp.1
- James Onley, *The Arabian Frontier of the British Raj: Merchants, Rulers and the* .10
(British in the Nineteenth Century Gulf (Oxford: Oxford University Press, 2009

- The Interactive Emergence of European :1800-John Willis, 'Maritime Asia, 1500 .11
 .5-Domination', *American Historical Review*, 98(1), 1993, pp.84
- Sugata Bose, *A Hundred Horizons: The Indian Ocean in the Age of Global Empire* .12
 .(Cambridge, MA: Harvard University Press, 2006), p.6
- Marc Valeri, *Oman: Politics and Society in the Qaboos State* (London: Hurst & Co., .13
 .2009), p.18
- Ibid. p.22; Beatrice Nicolini, 'The Baluch Role in the Persian Gulf during the .14
 Nineteenth and Twentieth Centuries', *Comparative Studies of South Asia, Africa and the
 Middle East*, XVII (2007), p.396
- Alan Villiers, *Sons of Sindbad* (London: Arabian Publishing Limited, 2006), pp.10 .15
 .11
- 16- للاطلاع على مساهمة أصلية في مناقشة الاستراتيجية الإمبراطورية البريطانية، انظر:
 London: Frank Cass,) 1918-Brock Millman, *Pessimism and British War Policy*, 1916
 .(2001
- Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .17
 .(Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010) 1922-Middle East, 1914
- Reidar Visser, *Basra: The Failed Gulf State: Separatism and Nationalism in Southern* .18
 .21-Iraq (Munster: Lit Verlag, 2005), pp.18
- Oxford:) 1958-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East 1914* .19
 .Oxford University Press, 2006), p.15
- Virginia Aksan, 'The Ottoman Military and State Transformation in a Globalizing .20
 World', *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, XVII (2007), p.259
- Phebe Marr, *The Modern History of Iraq* (Boulder, CO: Westview Press, 1985), .21
 .p.22
- Christopher Clay, 'The Origins of Modern Banking in the Levant: the Branch .22

- International Journal of Middle East*, '1914-Network of the Imperial Ottoman Bank, 1890
Studies, XVI (1994), p.591
- Engin Deniz Akarlı, 'The Tangled Ends of an Empire: Ottoman Encounters with
the West and Problems of Westernisation – An Overview', *Comparative Studies of South
Asia, Africa and the Middle East*, XVI (2006), p.359
- .Ibid., p.362 .24
- Metin Heper, 'Center and Periphery in the Ottoman Empire: With Special Reference .25
to the Nineteenth Century', *International Political Science Review*, I (1980), p.87
- .9-Aksan, 'Military and State Transformation', pp.268 .26
- Joel Migdal, *Strong Societies and Weak States: State-Society Relations and State .27
.5-Capabilities in the Third World* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1988), pp.54
- Nevn Cosar and Sevtap Demre, 'Incorporation into the World Economy: From .28
Middle Eastern Studies, 45 (2009), p.19 '(1950-Railways to Highways (1850
.Visser, *Failed Gulf State*, p.17 .29
- Afaf Lutfi Al-Sayyid-Marsot, 'The British Occupation of Egypt from 1882', in Wm .30
Roger Louis and Andrew Porter (eds.), *The Oxford History of the British Empire, Volume
.III: The Nineteenth Century* (Oxford: Oxford University Press, 2001), p.652
- E. E. Evans-Pritchard, *The Sanusi of Cyrenaica* (Oxford: Oxford University Press, .31
.8-1949), pp.107
- Dirk Vandewalle, *A History of Modern Libya* (Cambridge: Cambridge University .32
.3-Press, 2006), pp.22
- Caesar E. Farah, *The Sultan's Yemen: Nineteenth-Century Challenges to Ottoman .33
.Rule* (London: I. B. Tauris, 2002), p.272
- Owen Pearson, *Albania in the Twentieth Century, A History, Volume I: Albania and .34
.London: I. B. Tauris, 2006), p.12) 1939-King Zog: 1908*

- 1913-Edward Erickson, *Defeat in Detail: The Ottoman Army in the Balkans, 1912* .35
.4-Westport, CT: Greenwood, 2003), pp.332)
- Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .36
.83-Press, 2001), pp.680
- Feroz Ahmad, *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish* .37
.2-London: Hurst & Co., 2010), pp.141) 14-Politics, 1908
.(cf. Thomas Pakenham, *The Scramble for Africa* (London: Abacus, 1992 .38
- Roger Owen, *State, Power and Politics in the Making of the Modern Middle East* .39
.11-(London: Routledge, 1992), pp.10
.7-Fieldhouse, *Western Imperialism*, pp.246 .40
.5-Hourani, *History of the Arab Peoples*, pp.282 .41
- London:) 1962-Alfred Cobban, *A History of Modern France, Volume 3: 1871* .42
.Penguin, 1990 edn), p.92
- Gary Wilder, *The French Imperial Nation-State: Negritude and Colonial Humanism* .43
.between the Two World Wars (Chicago, IL: University of Chicago Press, 2005), p.25
.Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Allen Lane, 2009), p.211 .44
.Fieldhouse, *Western Imperialism*, p.247 .45
.Wilders, *French Imperial Nation-State*, p.27 .46
- Christopher Andrew and Andrew Sanya Kanya-Forstner, 'France, Africa and the .47
.16-First World War', *Journal of African History*, XIX (1978), pp.14
- Kenneth Perkins, *A History of Modern Tunisia* (Cambridge: Cambridge University .48
.5-Press, 2004), pp.74
- Keith Neilson, 'For Diplomatic, Economic, Strategic and Telegraphic Reasons: .49
in Keith Neilson and , '1918-British Imperial Defence, the Middle East and India, 1914
Greg Kennedy (eds.), *Far-Flung Lines: Studies in Imperial Defence in Honour of Donald*

- .Mackenzie Schurman (London: Frank Cass, 1997), p.102
- in Louis and Porter, *Oxford History of*, 1914-Robin Moore, 'Imperial India, 1858 .50
- .the *British Empire*, Vol. III, p.442
- .Ibid .51
- .Walter Reid, *Architect of Victory: Douglas Haig* (Edinburgh: Birlinn, 2006), p.149 .52
- A. J. Stockwell, 'The War and the British Empire', in John Turner (ed.), *Britain and* .53
- .the *First World War* (London: Unwin Hyman, 1988), p.38
- .Al-Sayyid-Marsot, *British Occupation of Egypt*, p.653 .54
- Nathan Brown, *Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle against the State* .55
- .(New Haven: Yale University Press, 1990), p.196
- Roger Owen, *Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul* (Oxford: .56
- .Oxford University Press, 2004), p.233
- P. J. Cain, 'Character and Imperialism: The British Financial Administration of .57
- .*Journal of Imperial and Commonwealth History*, XXXIV (2006), p.183 , '1914-Egypt, 1878
- in M. W. Daly (ed.), *The* , 1922-M. W. Daly, 'The British Occupation, 1882 .58
- Cambridge History of Egypt, Volume 2: Modern Egypt: From 1517 to the End of the*
- .*Twentieth Century* (Cambridge: Cambridge University Press, 1998), p.240
- Oxford:) 1950-Gabriel Baer, *A History of Landownership in Modern Egypt 1800* .59
- .Oxford University Press, 1962), p.57
- .Al-Sayyid-Marsot, *British Occupation of Egypt*, p.658 .60
- Ronald Hyam, 'The Primacy of Geopolitics: The Dynamics of British Imperial .61
- in Robert King and Robin Kilson (eds.), *The Statecraft of British* , '1963-Policy, 1763
- .*Imperialism: Essays in Honour of Wm Roger Louis* (London: Routledge, 1999), p.40
- .David Gilmour, *Curzon: Imperial Statesman* (London: John Murray, 2003), p.203 .62
- James Onley and Sulayman Khalaf, 'Shaikhly Authority in the Pre-Oil Gulf: An .63

- .Historical-Anthropological Study', *History and Anthropology*, XVII (2006), p.202
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.25 .64
- London: St Antony's) 1928-Helmut Mejer, *Imperial Quest for Oil: Iraq 1910* .65
- .Middle East Monographs No. 6, 1976), foreword by Elizabeth Monroe
- Daniel Yergin, *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money and Power* (New York: Free .66
- .5-Press, 2008 edn), pp.144
- London:) 1915-Benjamin Slot, *Mubarak Al-Sabah: Founder of Modern Kuwait 1896* .67
- .Arabian Publishing Limited, 2005), p.296
- .68 -اقتباس جاء في:
- .Philip Graves, *The Life of Sir Percy Cox* (London: Hutchinson, 1941), p.173
- Jacob Landau, *The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organization* (Oxford: .69
- .Oxford University Press, 1990), p.97
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.26 .70
- .7-Strachan, *First World War*, pp.664 .71
- Cf. Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and* .72
- .(*Germany's Bid for World Power* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2010
- Ulrich Trumpener, 'Liman von Sanders and the German-Ottoman Alliance', .73
- .81-*Journal of Contemporary History*, I (1966), pp.180
- .Ibid., p.14 .74
- .704-Strachan, *First World War*, pp.700 .75
- .Bayly, *Birth of the Modern World*, p.199 .76
- .4-Hourani, *History of the Arab Peoples*, pp.302 .77
- George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement* .78
- .9-(London: Hamish Hamilton, 1938), pp.68
- Ziad Fahmy, 'Francophone Egyptian Nationalists, Anti-British Discourse, and' .79

- The Case of Mustafa Kamil and Ya'qub Sannu", :1910-European Public Opinion, 1885
- .2-*Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, XXVIII (2008), pp.181
- .Vandewalle, *History of Modern Libya*, p.27 .80
- .7-Bayly, *Birth of the Modern World*, pp.206 .81
- .10-Hourani, *History of the Arab Peoples*, pp.309 .82
- Shareen Blair Brysac and Karl Meyer, *Kingmakers: The Invention of the Modern* .83
- .*Middle East* (New York: W. W. Norton & Co., 2008), p.18
- Frederick Anscombe, *The Ottoman Gulf: The Creation of Kuwait, Saudi Arabia*, .84
- .and Qatar (New York: Columbia University Press, 1997), p.171
- Madawi Al-Rasheed, *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidi Tribal Dynasty* .85
- .21-(London: I. B. Tauris, 1990), pp.215
- Mohammad Gholi Majd, *Iraq in World War I: From Ottoman Rule to British* .86
- .9-*Conquest* (Lanham, MD: University Press of America, 2006), pp.36
- Thair Karim, "Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour in .87
- in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power*. '1920-Iraq, 1914
- .*Nationalism and Ethnicity in the Middle East* (London: Saqi, 2003), p.288
- .Ibid., p.291 .88
- P. G. Elgood, *Egypt and the Army* (Oxford: Oxford University Press, 1924), p.85; P. .89
- .G. Elgood, *The Transit of Egypt* (London: Edward Arnold, 1928), p.218
- .16-Antonius, *Arab Awakening*, pp.115 .90
- London: Longman,) 1923-Malcolm Yapp, *The Making of the Modern Near East 1792* .91
- .1987), p.266
- .80-Strachan, *First World War*, pp.678 .92
- .Yapp, *Making of Modern Near East*, p.274 .93
- 1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .94

.London: Frank Cass, 1999), p.40)

Erik Zurcher, 'Ottoman Labour Battalions in World War I', internet .95
essay (undated), available at [http://www.arts.yorku.ca/hist/tgallant/documents/](http://www.arts.yorku.ca/hist/tgallant/documents/(zurcherottomanlaborbattalions.pdf)
.(zurcherottomanlaborbattalions.pdf (accessed 8 October 2013

.Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.19 .96

Steven Heydemann, 'War, Institutions, and Social Change in the Middle East', .97
in Steven Heydemann (ed.), *War, Institutions, and Social Change in the Middle East*
.(Berkeley, CA: University of California Press, 2000), p.8

الفصل الثاني: الحملات العسكرية في الشرق الأوسط

Stuart Robson, *The First World War* (Harlow: Pearson Education Limited, 2nd edn, .1
.9-2007), pp.37

Niall Barr, 'The Desert War Experience', in Peter Liddle, Ian Whitehead and .2
Lightning Strikes Twice (London: :45-John Bourne (eds.), *The Great World War, 1914*
.HarperCollins, 2002), p.128

W. M. Parker, 'Supply Services in Mesopotamia', *Royal United Services Corps* .3
.Quarterly, 9(2), 1921, p.422

David Lloyd George extract from *War Memoirs*, quoted in David Woodward, *Lloyd* .4
.George and the Generals (London: Frank Cass, 2004), p.167

Douglas Wilson Johnson, *Topography and Strategy in the War* (New York: Henry .5
.Holt, 1917), p.iii

Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .6
.Press, 2001), pp.716, 729

Letter No.105 in 'The First World War Letters of Lt J. W. McPherson', Volume XI, .7

- .I/25/London: Imperial War Museum, 80
- Volume 7: ,1918-H. S. Gullett, *The Official History of Australia in the War of 1914* .8
- St) 1918-Sinai and Palestine. *The Australian Imperial Force in Sinai and Palestine 1914*
- .Lucia, Queensland: University of Queensland Press, 1925), p.47
- Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .9
- .Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2011), p.43) 22-Middle East, 1914
- Aylmer Haldane, *The Insurrection in Mesopotamia, 1920* (London: Blackwood, .10
- .1922), p.120
- .Hubert Young, *The Independent Arab* (London: John Murray, 1933), p.44 .11
- .Edmund Candler, *The Sepoy* (London: John Murray, 1920), pp.50, 102 .12
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.44 .13
- .8-Alan Moorehead, *Gallipoli* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997), pp.127 .14
- .Ellis Ashmead-Bartlett, *The Uncensored Dardanelles* (London: Hutchinson, 1920), p.81 .15
- .7-Robert Rhodes James, *Gallipoli* (London: B. T. Batsford, 1965), pp.334 .16
- 1918-Ross Anderson, *The Forgotten Front: The East African Campaign 1914* .17
- .7-Stroud: Tempus Publishing, 2004), pp.296)
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.44 .18
- John Lynn, *Feeding Mars: Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the* .19
- .Present (Oxford: Westview Press, 1993), p.183
- Martin van Creveld, 'World War I and the Revolution in Logistics', in Roger .20
- Chickering and Stig Forster (eds.), *Great War, Total War. Combat and Mobilization on*
- .69-Cambridge: Cambridge University Press, 2000), pp.60) 1918-the Western Front, 1914
- 1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .21
- .London: Frank Cass, 1999), p.50)
- .4-Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, pp.33 .22

- in John Horne (ed.), A , '1918-Ulrich Trumpener, 'The Turkish War, 1914 .23
- .*Companion to World War I* (Chichester: Wiley-Blackwell, 2010), p.99
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.28 .24
- G. F. Davies, 'Lecture on Supplies and Transport – Egyptian Expeditionary Force', .25
- .*Army Service Corps Quarterly*, 8 (1920), p.103
- 26- خطاب من جون ماكسويل إلى السير أيان هاملتون، 31 مارس 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 15/1/7.
- .Peter Hart, *Gallipoli* (London: Profile Books, 2011), p.55 .27
- 28- خطاب من السير أيان هاملتون إلى اللورد كشنر، 15 يوليو 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 6/1/7.
- 29- خطاب من السير أيان هاملتون إلى السير جون كاونز، 2 يوليو 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 7/1/7.
- .19-Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, pp.18 .30
- Sevket Pamuk, 'The Ottoman Economy in World War I', in Broadberry and .31
- .Harrison, *Economics of World War I*, p.116
- Journal* , '18-Matthew Hughes, 'General Allenby and the Palestine Campaign, 1917 .32
- .9-of *Strategic Studies*, 19(4), 1996, pp.68
- .Pamuk, 'Ottoman Empire in World War I', p.131 .33
- 1933-Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century, Volume One: 1900* .34
- .6-London: HarperCollins, 1997), pp.355)
- .Strachan, *First World War*, p.715 .35
- Kaushik Roy, 'Equipping Leviathan: Ordnance Factories of British India, 1859 .36
- .401-War in *History*, 10(4), 2003, pp.400 , '1913
- M. D. Morris, 'The Growth of Large-Scale Industry to 1947', in D. Kumar and T. .37
- Raychaudhuri (eds.), *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970*

- 2-(Cambridge: Cambridge University Press, 1983), pp.601
- Roy, 'Equipping Leviathan', p.400 .38
- Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.46 .39
- Stephen Broadberry and Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I* .40
- (Cambridge: Cambridge University Press, 2005), p.1
- Avner Offer, *The First World War. An Agrarian Interpretation* (Oxford: Oxford .41
- University Press, 1989), p.402
- Chris Wrigley, 'The War and the International Economy', in Chris Wrigley (ed.), .42
- The First World War and the International Economy* (Cheltenham: Edward Elgar, 2000), p.4
- Volume II (London: Cassell, 1918-William Robertson, *Soldiers and Statesmen 1914* .43
- 1926), p.166
- Pamuk, 'Ottoman Economy', p.115 .44
- Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.45 .45
- London:) 1917-Wilfred Nunn, *Tigris Gunboats. The Forgotten War in Iraq 1914* .46
- Chatham Publishing, 2007 [1923]), p.88
- Paolo Coletta, *Allied and American Naval Operations in the European Theatre*, .47
- 18-World War I (Lewiston, NY: Lampeter, 1996), pp.311
- 48- خطاب خاص من الجنرال السير أرشيبالد موراي إلى المشير اللورد كتشنر، 11 ديسمبر 1915، في أوراق السير أرشيبالد موراي، لندن: متحف الحرب الإمبراطوري، 3/48/79.
- Ibid., p.318 .49
- Robertson, *Soldiers and Statesmen*, p.166 .50
- Paul Halpern, *The Naval War in the Mediterranean* (London: HarperCollins, .51
- 1987), p.324
- Michael Neiberg, *Fighting the Great War: A Global History* (London: Harvard .52
- 4-University Press, 2005), pp.133

- B. J. C. McKercher, 'Economic Warfare', in Hew Strachan (ed.), *World War I: A History* (Oxford: Oxford University Press, 1999), p.128 .53
- .Halpern, *Naval War in the Mediterranean*, p.312 .54
- .Ibid., p.345 .55
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.65 .56
- John Darwin, *Britain, Egypt and the Middle East. Imperial Policy in the Aftermath* .57
- .London: Macmillan, 1981), p.12) 1922-of War 1918
- Ellis Goldberg, 'Peasants in Revolt – Egypt 1919', *International Journal of Middle* .58
- .East Studies, 24(2), 1992, p.268
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.142 .59
- Gideon Biger, 'The Turkish Activities in Palestine During World War I Revised', in .60
- Yigal Sheffy and Shloul Shai (eds.), *The First World War. Middle Eastern Perspective* (Tel .62-Aviv: Israel Society for Military History), pp.60
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.123 .61
- Peter Gatrell, *Russia's First World War. A Social and Economic History* (Harlow: .62
- .90-Pearson, 2005), pp.188
- John Horne, 'Introduction', in John Horne (ed.), *State, Society and Mobilization in* .63
- .Europe During the First World War (Cambridge: Cambridge University Press, 2002), p.12
- :1918-Avner Offer, 'The Blockade of Germany and the Strategy of Starvation, 1914 .64
- An Agency Perspective', in Roger Chickering and Stig Forster (eds.), *Great War, Total*
- Cambridge: Cambridge) 1918-War. Combat and Mobilisation on the Western Front, 1914
- .University Press, 2000), p.176
- .Ian Beckett (ed.), 1917: *Beyond the Western Front* (Leiden: Brill, 2009), pp.xii-xiii .65
- Judith Brown, 'War and the Colonial Relationship: Britain, India and the War of .66
- in M. R. D. Foot (ed.), *War and Society. Historical Essays in Honour and Memory*, '18-1914

- .London: Elek, 1973), p.85) 1971-of J. R. Western, 1928
- Roger Owen, *Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul* (Oxford: .67
 .Oxford University Press, 2004), p.233
- London: Oliver & Boyd, 1960),) 1926-Richard Meinertzhagen, *Army Diary 1899* .68
 .p.58
- Deterrence and the Strategy of :1914-Andrew Lambert, 'The Royal Navy, 1856 .69
 World Power', in Keith Neilson and Elizabeth Jane Errington (eds.), *Navies and Global
 .Defence. Theories and Strategy* (Westport, CO: Greenwood, 1995), p.87
- A :1915-George Morton Jack, 'The Indian Army on the Western Front, 1914 .70
 .40-Portrait of Collaboration', *War in History*, 13(3), pp.339
 .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.28 .71
- Keith Jeffery, "An English Barrack in the Oriental Sea?" India in the Aftermath of .72
 .the First World War', *Modern Asian Studies*, 15(3), 1981, p.369
- Benjamin Schwarz, 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat to .73
 .her Eastern Frontier in 1918', *Journal of Contemporary History*, 28(1), 1993, p.104
- Dharma Kumar, 'The Fiscal System', in Dharma Kumar and Tapan Raychaudhuri .74
 (eds.), *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970* (Cambridge:
 .Cambridge University Press, 1983), p.921
- in Kumar ,'(1947-K. N. Chaudhuri, 'Foreign Trade and Balance of Payments (1757 .75
 .and Raychaudhuri, *Cambridge Economic History of India, Vol. 2*, p.807

الفصل الثالث: حملات القوقاز

- Jennifer Keene and Michael Neiberg (eds.), *Finding Common Ground: New Directions* .1
 .(in *First World War Studies* (Leiden: Brill, 2011

- London: Longman,) 1923-Malcolm Yapp, *The Making of the Modern Near East 1792* .2
.1987), p.274
- Edward Erickson, *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East, 1914* .3
. *From the Dardanelles to Mesopotamia* (London: Amber Books, 2008), p.39 :1918
Oxford: Blackwell Publishing,) 1914-C. A. Bayly, *The Birth of the Modern World 1780* .4
.7-2004), pp.206
- Engin Deniz Akarli, 'The Tangled Ends of an Empire: Ottoman Encounters with the .5
West and Problems of Westernisation – An Overview', *Comparative Studies of South Asia,*
.62-Africa and the Middle East, XVI (2006), pp.359
- .Noel Malcolm, *Kosovo: A Short History* (London: Macmillan, 1998), p.201 .6
- Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .7
.13-Press, 2001), pp.712
.Ibid., p.714 .8
.5-Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, pp.24 .9
.Ibid., p.35 .10
- Lawrence Sondhaus, *World War One: The Global Revolution* (Cambridge: .11
.2-Cambridge University Press, 2011), pp.91
- .John Keegan, *The First World War* (New York: Alfred A. Knopf, 1999), p.223 .12
.Sondhaus, *World War One*, p.92 .13
.Hew Strachan, *First World War*, p.728 .14
- The History of the First World War* (London: Allen :1918-David Stevenson, 1914 .15
.16-Lane, 2004), pp.115
- Alan Kramer, 'Combatants and Noncombatants: Atrocities, Massacres, and War .16
Crimes', in John Horne (ed.), *A Companion to World War I* (Oxford: Wiley-Blackwell,
.2-2010), pp.191

- .Ibid .17
- Gerard Libaridian, *Modern Armenia: People, Nation, State* (New York: Transaction .18
Publishers, 2007), p.106
- London:) 1933-Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century, Volume 1: 1900* .19
.3-HarperCollins, 1997), pp.132
- Vahakn Dadrian, 'The Armenian Genocide: An Interpretation', in Jay Winter (ed.), .20
America and the Armenian Genocide of 1915 (New York: Cambridge University Press,
.2003), p.52
- Feroz Ahmad, *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish* .21
.4-London: Hurst & Co, 2010), pp.143) 14-Politics, 1908
- Taner Akçam, *From Empire to Republic: Turkish Nationalism and the Armenian* .22
.Question (London: Zed Books, 2004), p.133
.Strachan, *First World War*, p.718 .23
- Guenter Lewy, *The Armenian Massacres in Ottoman Turkey: A Disputed Genocide* .24
(Salt Lake City, UT: Utah University Press, 2005), p.32
- Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: .25
.2-Harvard University Press, 2011), pp.151
.4-Ibid., pp.153 .26
- Peter Balakian, *The Burning Tigris: The Armenian Genocide and America's Response* .27
(New York: HarperCollins, 2003), p.178
- Henry Morgenthau, *Ambassador Morgenthau's Story* (Detroit, MI: Wayne State .28
.University Press, 2003 edn), p.204
.Akçam, *From Empire to Republic*, p.162 .29
.7-Gilbert, *History of the Twentieth Century*, pp.356 .30
- Oxford:) 1958-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East: 1914* .31

- .41-Oxford University Press, 2006), pp.40
- .Balakian, *Burning Tigris*, p.187 .32
- Donald Miller and Lorna Touryan Miller, *Survivors: An Oral History of the* .33
Armenian Genocide (Berkeley, CA: University of California Press, 1993), p.84
- .Ibid .34
- .Ibid., p.96 .35
- .Lewy, *Armenian Massacres*, p.213 .36
- Christopher Walker, *Armenia: The Survival of a Nation* (London: Palgrave .37
Macmillan), 1990, p.210
- Armenians Are Sent to Perish in Desert; Turks Accused of Plan to Exterminate' .38
'.Whole Population; People of Karahissar Massacred', *New York Times*, 18 August 1915
- .Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.125 .39
- .Gilbert, *History of the Twentieth Century*, p.357 .40
- .Balakian, *Burning Tigris*, p.280 .41
- .Gilbert, *History of the Twentieth Century*, p.394 .42
- .Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.119 .43
- .Ibid .44
- .Yapp, *Making of the Modern Near East*, p.274 .45
- .91-McMeekin, *Russian Origins*, pp.190 .46
- .Erickson, *Gallipoli and the Middle East*, p.154 .47
- .John Buchan, *Greenmantle* (Oxford: Oxford University Press, 1993 edn), p.272 .48
- .Gilbert, *History of the Twentieth Century*, p.406 .49
- .3-Cyril Falls, *The First World War* (London: Longman, 1960), pp.192 .50
- Eric Lohr, 'Russia', in John Horne (ed.), *A Companion to World War I* (Oxford: .51
Wiley-Blackwell, 2010), p.484

- Peter Gatrell, *A Whole Empire Walking: Refugees in Russia During World War I* .52
 .4-(Indianapolis, IN: Indiana University Press, 1999), pp.52
- Stephen Broadberry and Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I: An* .53
Overview (Cambridge: Cambridge University Press, 2009), p.18
- Peter Gatrell, *Russia's First World War: A Social and Economic History* (Harlow: .54
 .Pearson, 2005), p.189
 .Ibid., p.190 .55
 .Ibid. .56
 .41-Gilbert, *History of the Twentieth Century*, pp.440 .57
 .Ibid. .58
 .Ibid. .59
 .Ibid. .60
 .McMeekin, *Russian Origins*, p.225 .61
 .6-Ibid., pp.225 .62
 .Yapp, *Making of the Modern Near East*, p.274 .63
- Erik Zürcher, 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldier's Experience', in .64
- Hugh Cecil and Peter Liddle (eds.), *Facing Armageddon: The First World War Experienced*
 .4-(London: Leo Cooper, 1996), pp.233
 .5-Ibid., pp.234 .65
- 1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .66
 .London: Frank Cass, 1999), p.50)
 .51-Ibid., pp.50 .67
 -68 اقتباس جاء في:
- London:) 1919-John Fisher, *Curzon and British Imperialism in the Middle East* 1916
 .Frank Cass, 1999), p.164

.Ibid., p.165 .69

Benjamin Schwarz, 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat to .70

her Eastern Position in 1918', *Journal of Contemporary History*, 28(1), 1993, p.105

.Ibid., p.106 .71

George Barrow, *The Life of General Sir Charles Carmichael Monro* (London: .72

Hutchinson, 1921), p.169

.Fisher, *Curzon and British Imperialism*, p.166 .73

.3-Kramer, 'Combatants and Noncombatants', pp.192 .74

الفصل الرابع: غاليبولي وسالونيك

Robin Prior, *Gallipoli: The End of the Myth* (Kensington, NSW: UNSW Press, 2009), .1

p.252

Jeff Hopkins-Weisse, 'Blood Brothers', *Australian Literary Review*, 1 April 2009, .2

and Jeff Hopkins-Weisse, *Blood Brothers: The Anzac Generals* (Adelaide: Wakefield Press,

(2009).

3- «يا أيها الأبطال الذين أريقتم دماؤهم وخسروا أرواحهم، أنتم الآن في أحضان تراب بلد صديق، فلترقدوا في سلام. لا فارق بين مسيحي ومسلم عندنا، حيث يرقدون جميعًا جنبًا إلى جنب في بلدنا هذا. وأنتم أيتها الأمهات اللاتي أرسلن أبناءهن من بلدان قصية، فلتكفكن دموعكن، فأبناؤكن يرقدون الآن بين أحضاننا وفي سلام. فبعد أن خسروا أرواحهم على هذه الأرض، صاروا أبناء لنا نحن أيضًا».

Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, MA: .4

Harvard University Press, 2011), p.115

.Quoted in McMeekin, *Russian Origins*, p.98 .5

Sean McMeekin, *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's* .6

- .*Bid for World Power* (Cambridge, MA: Harvard University Press, 2010), p.342
- Hew Strachan, *The First World War, Volume I: To Arms* (Oxford: Oxford University .7
.73-670 ,51-Press, 2001), pp. 644
- Albert Hourani, *A History of the Arab Peoples* (London: Faber and Faber, 1991), .8
.p.309
- , '19-M. M. Ruiz, 'Manly Spectacles and Imperial Soldiers in Wartime Egypt, 1914 .9
.Middle Eastern Studies, 45(3), 2009, p.356
- London:) 1915-Benjamin Slot, *Mubarak Al-Sabah: Founder of Modern Kuwait, 1896*.10
.Arabian Publishing, 2005), p.134
- Kjetil Selvik and Stig Stenslie, *Stability and Change in the Modern Middle East* .11
.8-(London: I. B. Tauris, 2011), pp.27
- David French, 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British .12
.War and Society, 5(1), 1987, p.50 '1916-Eastern Strategy, 1914
.Peter Hart, *Gallipoli* (London: Profile Books, 2011), p.7 .13
- Kathleen Burk, 'Wheat and the State During the First World War', in Michael .14
Dockrill and David French (eds.), *Strategy and Intelligence: British Policy During the First*
.22-World War (London: Hambledon Press, 1996), pp.120
.13-Hart, *Gallipoli*, pp.12 .15
.Ibid .16
- Letter from Winston S. Churchill to H. H. Asquith, 29 December 1914, in Martin .17
Gilbert (ed.), *Winston S. Churchill, Companion Volume III: Part I July 1914-April 1915*
(Boston, MA: Houghton Mifflin, 1973), p.343
- Lawrence Sondhaus, *World War One: The Global Revolution* (Cambridge: .18
.Cambridge University Press, 2011), p.133
.French, 'Dardanelles, Mecca and Kut', p.51 .19

- London: Penguin, 1985),) 1916-John Grigg, *Lloyd George: From Peace to War 1912* .20
 .p.200
- London: Faber and) 1918-Basil Liddell Hart, *A History of the World War, 1914* .21
 .Faber, 1938), p.218
- London:) 1933-Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century.. Volume 1: 1900* .22
 .3-HarperCollins, 1997), pp.362
- .2-Hart, *Gallipoli*, pp.51 .23
- George Cassar, *The French and the Dardanelles: A Study of Failure in the Conduct* .24
of War (London: George Allen & Unwin, 1971), pp.48, 54
- Michael S. Neiberg, *Fighting the Great War: A Global History* (Cambridge, MA: .25
 .Harvard University Press, 2005), p.99
- .61-Cassar, *The French and the Dardanelles*, pp.60 .26
- 27 - كلا الاقتباسين جاء في:
- .Alan Moorehead, *Gallipoli* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997), p.50
- Trumbull Higgins, *Winston Churchill and the Dardanelles* (London: Heinemann, .28
 .1963), p.118
- 29 - اقتباس جاء في:
- .Hart, *Gallipoli*, p.37
- .Ibid., p.46 .30
- .Ibid., p.76 .31
- Royal Dublin Fusiliers Association, 'Irish Battalions - Major Battles: Helles .32
 'Landings, Gallipoli, April 1915
- Edward Erickson, *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World* .33
War (London: Praeger, 2000), p.83
- .Ibid., p.84 .34

- Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* 35
 Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.111) 22-Middle East, 1914
- 36- خطاب من السير رونالد غراهام إلى نائب الملك في الهند، 6 مايو 1915، مكتبة جامعة كامبردج، أوراق السير تشارلز هاردنج، المجلد 94.
- 37- خطاب من السير هنري مكماهون إلى نائب الملك في الهند، مكتبة جامعة كامبردج، أوراق السير تشارلز هاردنج، المجلد 94.
- 38- خطاب من الجنرال السير أيان هاملتون إلى اللورد كتشنر، 15 يوليو 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 6/1/7.
- 39- خطاب من الجنرال السير أيان هاملتون إلى السير جون كاونز، 2 يوليو 1915، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، أوراق السير أيان هاملتون، 7/1/7.
40. 4-Hart, *Gallipoli*, pp.233
41. Sondhaus, *The Global Revolution*, p.137
42. Gavin Roynon (ed.), *A Prayer for Gallipoli: The Great War Diaries of Chaplain*
 Kenneth Best (London: Simon & Schuster, 2011), p.141
43. Hart, *Gallipoli*, p.270
44. Robert Rhodes James, *Gallipoli* (London: B. T. Batsford, 1965), p.221
45. 7-Ibid., pp.236
46. 7-Ibid., pp.246
47. Ellis Ashmead-Bartlett, *The Uncensored Dardanelles* (London: Hutchinson, 1924),
 p.165
48. John Lee, 'Sir Ian Hamilton and the Dardanelles, 1915', in Brian Bond (ed.), *Fallen*
Stars: Eleven Studies of Twentieth Century Military Disasters (London: Brassey's, 1991),
 pp.45-6.
49. Hart, *Gallipoli*, p.327
50. Ashmead-Bartlett, *Uncensored Dardanelles*, p.203

51. Ronald Robinson, 'Imperial Theory and the Question of Imperialism After
.Empire', *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 12(2), 1984, p.44
52. French, 'Dardanelles, Mecca and Kut', p.46.
- 53- خطاب من السير رونالد غراهام إلى نائب الملك في الهند، 16 نوفمبر 1915، مكتبة
جامعة كامبردج، أوراق السير تشارلز هاردنج، المجلد 94.
54. Cited in French, 'Dardanelles, Mecca and Kut', p.54.
55. Ibid.
- 56- برقية من السير أوستن تشامبرلين إلى نائب الملك في الهند، 21 أكتوبر 1915، مكتبة
جامعة كامبردج، أوراق السير تشارلز هاردنج، المجلد 94.
- 57- الأدلة المقدمة من السير آرثر هيرتزل إلى لجنة تحقيق بلاد الرافدين، 7 سبتمبر 1916،
لندن: الأرشيف الوطني، PRO CAB 19/8.
58. Hart, *Gallipoli*, p.395.
59. Ibid., pp.406-8.
60. George H. Cassar, 'Monro, Sir Charles Carmichael, baronet (1860-1929)', *Oxford
Dictionary of National Biography*, Oxford University Press, 2004; online edn, May 2008
.[<http://www.oxforddnb.com/view/article/35068>, accessed 11 July 2012
61. Ibid.
62. Hart, *Gallipoli*, p.399.
63. Ibid.
64. London: Penguin Classics, 2005) 1918-Winston Churchill, *The World Crisis 1911*
.abridged and revised edn), p.526.
65. 400-Hart, *Gallipoli*, pp.399.
- 66- خطاب من السير هنري مكماهون إلى نائب الملك في مصر، 3 ديسمبر 1915، مكتبة
جامعة كامبردج، أوراق السير تشارلز هاردنج، المجلد 94.
67. in John Horne (ed.), *A Companion*, '18-Ulrich Trumpener, 'The Turkish War, 1914

- .3- *Volume to World War I* (Oxford: Wiley-Blackwell, 2010), pp.102
- .Churchill, *The World Crisis*, p.541 .68
- .Ashmead-Bartlett, *Uncensored Dardanelles*, p.257 .69
- Edward Erickson, *Gallipoli: The Ottoman Campaign* (Barnsley, Yorks: Pen & .70
Sword, 2010) pp.xiv-xv
- .Ibid .71
- London:) 1933-Martin Gilbert, *A History of the Twentieth Century, Volume 1: 1900* .72
.2-HarperCollins, 1997, pp.381
- 1950-Mark Mazower, *Salonica: City of Ghosts. Christians, Muslims and Jews 1430* .73
.9-London: HarperCollins, 2004), pp.308)
- .2-Gilbert, *History of the Twentieth Century, Volume 1*, pp.421 .74
- Allain Bernede, "The Gardeners of Salonika": The Lines of Communication and .75
the Logistics of the French Army of the East, October 1915-November 1918', *War and*
.5-Society, 16, 1998, pp.54
- .16-Mazower, *City of Ghosts*, pp.315 .76
- .Trevor Wilson, *The Myriad Faces of War* (Cambridge, Polity Press, 1986), p.619 .77
.Ibid., p.620 .78
- .11-Gilbert, *History of the Twentieth Century, Volume One*, pp.510 .79

الفصل الخامس: مصر وفلسطين

- 1- الأدلة المقدمة من القائد أيه. هاملتون (ضابط أول النقل البحري، قوة التجريدة الهندية
«د» إلى لجنة تحقيق بلاد الرافدين، 26 أكتوبر 1916، لندن: الأرشيف الوطني، PRO CAB 19/8.
2. London:) 1923-Malcolm Yapp, *The Making of the Modern Middle East 1792*
.Longman, 1987), p.274

- 1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East, 1917* .3
 .London: Frank Cass, 1999), p.40)
- Oxford:) 1958-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East 1914* .4
 .Oxford University Press, 2005), p.45
- Kjetil Selvik and Stig Stenslie, *Stability and Change in the Modern Middle East* .5
 .31-(London: I. B. Tauris, 2011), pp.29
- London:) 1920-Jukka Nevakivi, *Britain, France and the Arab Middle East, 1914* .6
 .Athlone Press, 1969), p.43
- Afaf Lutfi Al-Sayyid-Marsot, 'The British Occupation of Egypt from 1882', in .7
 Andrew Porter (ed.), *The Oxford History of the British Empire, Volume 3: The Nineteenth*
.64-Century (Oxford: Oxford University Press, 1999), pp.660
- A. J. Stockwell, 'The War and the British Empire', in John Turner (ed.), *Britain and* .8
.the First World War (London: Unwin Hyman, 1988), p.46
- David French, 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British .9
.War and Society, 5 (1987), p.46 , '1916-Eastern Strategy, 1914
- .Alfred Milner, *England in Egypt* (London: Edward Arnold, 1892), p.24 .10
- .P. G. Elgood, *Egypt and the Army* (Oxford: Oxford University Press, 1924), p.10 .11
- Her Advance Toward a Modern Identity :1952-J. C. B. Richmond, Egypt 1798* .12
 .(London: Methuen, 1977), p.169
- Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .13
 .Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.85) 22-Middle East, 1914
- 14- برقية من السير ملن تشيتام إلى السير إدوارد غراي، 18 نوفمبر 1914، لندن: الأرشيف
 الوطني، الملف PRO FO 407/183/274
- Keith Neilson, 'For Diplomatic, Economic, Strategic, and Telegraphic Reasons: .15
 in Keith Neilson and , '1918-British Imperial Defence, the Middle East and India, 1914

- Gregory Kennedy (eds.), *Far Flung Lines: Essays on Imperial Defence in Honour of Donald*
.19-MacKenzie Schuman (London: Routledge, 1997), pp.118
- M. W. Daly, *The Sirdar: Sir Reginald Wingate and the British Empire in the Middle* .16
.East (Philadelphia, PA: American Philosophical Society, 1997), p.203
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.30 .17
- Frederick Clarke, 'The Memoirs of a Professional Soldier in Peace and War by .18
 Musketeer' (Unpublished memoir, 1968), p.24. London: Liddell Hart Centre for Military
 .Archives (LHCMA), Papers of Brigadier Frederick Arthur Stanley Clarke
- .Ronald Wingate, *Wingate of the Sudan* (London: John Murray, 1955), p.206 .19
- Memorandum on Martial Law in Egypt' by General Sir Archibald Murray, 26' .20
 .2930/November 1916, London, National Archive, file FO 371
- .E. W. Poulson Newman, *Great Britain in Egypt* (London: Cassell, 1928), p.210 .21
- London: Hutchinson,) 1919-Djemeal Pasha, *Memories of a Turkish Statesman – 1913* .22
 .1922), p.154
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.32 .23
- A. Forbes, *A History of the Army Ordnance Services, Volume 3: The Great War* .24
 .(London: Medici Society, 1929), p.211
- 25- خطاب من الجنرال أيان هاملتون إلى الجنرال ريجينالد وينغيت، 2 أكتوبر 1915، في
 أوراق السير أيان هاملتون، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، 26/1/7.
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.56 .26
- G. F. Davies, 'Lecture on Supplies and Transport – Egyptian Expeditionary Force', .27
 .*Army Service Corps Quarterly*, 8 (1920), p.103
- Dirk Vandewalle, *A History of Modern Libya* (Cambridge: Cambridge University .28
 .Press, 2006), p.27
- Ali Abdullatif Ahmida, *The Making of Modern Libya: State Formation, Colonization*, .29

- .New York: State University of New York, 1994), pp.115, 121) 1932-and Resistance, 1830
- 2-Ibid., pp.121. 30
- 31- خطاب من السير جون ماكسويل إلى السير وليم روبرتسون (رئيس الأركان العامة الإمبراطورية في لندن)، 4 مارس 1916، في أوراق السير وليم روبرتسون، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية، 1/5/4.
32. Elgood, *Egypt and the Army*, p.230.
- Jonathan Newell, 'British Military Policy in Egypt and Palestine, August 1914-June 1917', PhD thesis, University of London (1990), p.162. 33
- Cyril Falls and George MacMunn, *Official History: Military Operations. Egypt and Palestine, Volume I* (London: HMSO, 1928), p.173. 34
- 35- ورد التشبيه بالحبل السري في:
- W. Elliot and A. Kinross, 'Maintaining Allenby's Armies: A Footnote to History', *Royal Army Service Corps Quarterly*, 13 (1925), p.119. 36
- Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.58. 37
- Ibid. 37
- Gideon Biger, 'The Turkish Activities in Palestine during WW1 Revisited', in Yigal Sheffy and Shaul Shai (eds.), *The First World War: Middle Eastern Perspective* (Tel Aviv: Israel Society for Military History, 2000), p.62. 38
- Laurence Grafftey-Smith, *Bright Levant* (London: John Murray, 1970), p.21. 39
- Matthew Hughes, 'General Allenby and the Palestine Campaign, 1917-1918', *Journal of Strategic Studies* (19), 1996, p.62. 40
- Anthony Bruce, *The Last Crusade: The Palestine Campaign in the First World War* (London: John Murray, 2002), p.87. 41
- Phillip Chetwode, 'Secret Notes on Operation of Desert Column', 15 March 1917, in London: Imperial War Museum (IWM), Papers of Field Marshal Lord Chetwode, 42

- London: Frank Cass,) 1918-Brock Millman, *Pessimism and British War Policy, 1916* .43
2001), p.1
- Spencer Tucker (ed.), *The Encyclopaedia of World War I: A Political, Social, and* .44
Military History (Santa Barbara, CA: ABC-CLIO, 2005), p.249
- London: Cassell, 1928),) 1918-William Robertson, *Soldiers and Statesmen 1914* .45
p.163
- Yigal Sheffy, 'The Introduction of Chemical Weapons in the Middle East', in Sheffy .46
9-and Shai, *First World War*, pp.78
- .303-Falls and MacMunn, *Egypt and Palestine Official History I*, pp.293 .47
- .Gullett, *Official History Sinai and Palestine*, p.394 .48
- 49- برقية من القائد العام لقوة التجريدة المصرية إلى رئيس الأركان العامة الإمبراطورية، 28
مارس 1917، في أوراق السير وليم روبرتسون، لندن: مركز ليدل هارت للمحفوظات العسكرية،
الصندوق 5/4.
- .80-Sheffy, 'Introduction of Chemical Weapons', pp.79 .50
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.71 .51
- Alan MacDonald, *A Lack of Offensive Spirit? The 46th (North Midland) Division at* .52
Gommecourt, 1st July 1916 (Eastbourne, E. Sussex: Iona Books, 2008), p.505
- Peter Simkins, 'Haig and the Army Commanders', in Brian Bond and Nigel Cave .53
(eds.), *Haig: A Reappraisal 70 Years On* (Barnsley: Leo Cooper, 1999), p.84
- Report on Railway Situation - GS Z/31', sent from the Commander-in-Chief of .54
the Egyptian Expeditionary Force to the Chief of the Imperial General Staff in London, 7
May 1917, London: IWM, Chetwode Papers, P183, folder 3
- Yigal Sheffy, 'Institutionalized Deception and Perception Reinforcement: Allenby's .55
Campaign in Palestine', in Michael Handel (ed.), *Intelligence and Military Operations*

.(London: Routledge, 1990), p.180

Philip Chetwode, 'Notes on the Palestine Operations', 21 June 1917, in Papers of .56

.2/Sir William Bartholomew, London: LHCMA, box 1

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East*, 1917 .57

.51-London: Frank Cass, 1999), pp.50)

Journal '1918-Yigal Sheffy, 'Chemical Warfare and the Palestine Campaign, 1916 .58

.5-of *Military History*, 73(3), 2009, pp.834

Quoted in Jean Bou, 'Cavalry, Firepower, and Swords: The Australian Light Horse .59

Journal of '1918-and the Tactical Lessons of Cavalry Operations in Palestine, 1916

.*Military History*, 71(1), 2007, p.108

John Grainger, *The Battle for Palestine, 1917* (Woodbridge, Suffolk: Boydell & .60

.7-Brewer, 2006), pp.146

.Hughes, 'Allenby and the Palestine Campaign', p.70 .61

.Bou, 'Cavalry, Firepower, and Swords', p.109 .62

John Keay, *Sowing the Wind: The Seeds of Conflict in the Middle East* (London: .63

.John Murray, 2003), p.84

Matthew Hughes, 'Command, Strategy and the Battle for Palestine, 1917', in Ian .64

.6-Beckett (ed.), *1917: Beyond the Western Front* (Leiden: Brill, 2009), pp.125

in John Horne (ed.), *A Companion* '18-Ulrich Trumpener, 'The Turkish War, 1914 .65

.to *World War I* (Oxford: Wiley-Blackwell, 2010), p.104

Stefan Goebel, *The Great War and Medieval Memory: War, Remembrance and .66*

Cambridge: Cambridge University) *1940-Medievalism in Britain and Germany*, 1914

.Press, 2007), p.115

.Quoted in Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.41 .67

Disease and Death on the :1918-Hikmet Ozdemir, *The Ottoman Army 1914* .68

- .7-Battlefield (Salt Lake City, UT: University of Utah Press, 2008), pp.156
- .Eugene Rogan, *The Arabs. A History* (London: Allen Lane, 2009), p.149 .69
- Peter Sluglett, 'Aspects of Economy and Society in the Syrian Provinces: Aleppo in .70
in Leila Fawaz and C. A. Bayly, *Modernity and Culture. From the '1925-Transition, 1880
.Mediterranean to the Indian Ocean* (New York: Columbia University Press, 2002), p.147
William Cleveland, *A History of the Modern Middle East* (Boulder, CO: Westview .71
(Press, 1994
- United States Library of Congress Exhibition: The American Colony in Jerusalem: .72
World War I, <http://www.loc.gov/exhibits/americancolony/amcolony-ww1.html> (accessed
.73 (24 October 2011
- Report on Palestine and Syria Situation by William Yale', 10 July 1917, London:'.73
.2784/National Archive, file FO 371
- George Antonius, *The Arab Awakening. The Story of the Arab National Movement* .74
.2-(London: Hamish Hamilton, 1938), pp.241
- Arabia in Asia (No.XVIII A) - Week Ending 5th June 1916', London: The National' .75
.175/Archives, PRO/CAB/17
- .6-Ronald Storrs, *Orientalism* (London: Nicholson & Watson, 1943), pp.324, 335 .76
- Eran Dolev, *Allenby's Military Machine. Life and Death in World War I Palestine* .77
(London: I. B. Tauris, 2007), p.102
- .Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.82 .78
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.73 .79
- J. M. House, *Combined Arms Warfare in the Twentieth Century* (Lawrence, KS: .80
University Press of Kansas, 2001), p.58
- .8-Hughes, *Allenby and British Strategy*, pp.97 .81
- T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997 .82

.edn), p.652

100-Cyril Falls, *Armageddon 1918* (London: Weidenfeld & Nicolson, 1964), pp.94 .83

.Storrs, *Orientations*, p.335 .84

.Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.93 .85

John Fisher, *Curzon and British Imperialism in the Middle East* (London: Routledge, .86

.1999), p.286

Hatem Shareef Abu-Lebdeh, *Conflict and Peace in the Middle East* (Lanham, MD: .87

.8-University Press of America, 1997), pp.47

Steven Heydemann, 'War, Institutions, and Social Change in the Middle East', .88

in Steven Heydemann (ed.), *War, Institutions, and Social Change in the Middle East*

.3-(Berkeley, CA: University of California Press, 2000), pp.2

الفصل السادس: بلاد الرافدين

Quoted in Robert Fisk, *The Great War for Civilisation: The Conquest of the Middle .1*

.East (London: Fourth Estate, 2005), p.172

Thair Karim, 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour' .2

in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power: '20-in Iraq, 1914*

.Nationalism and Ethnicity in the Middle East (London: Saqi Books, 2003), p.283

Charles Townsend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and .3*

.London: Faber and Faber, 2010), p.i) 1921-the Creation of Iraq, 1914

James Barr, *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle that Shaped the .4*

.Middle East (London: Simon & Schuster, 2011

A Clash of Loyalties (Oxford: Oxford :1920-Arnold Wilson, *Mesopotamia 1917 .5*

.University Press, 1931), p.11

- , '1922-Kristian Coates Ulrichsen, 'The British Occupation of Mesopotamia, 1914 .6
 .8-*Journal of Strategic Studies*, 30(2), 2007, pp.377
- .Phebe Marr, *The Modern History of Iraq* (Boulder, CO: Westview Press, 2004), p.22 .7
- Reidar Visser, *Basra: The Failed Gulf State: Separatism and Nationalism in Southern* .8
 .19-*Iraq* (Munster: Lit Verlag, 2005), pp.18
- Kristian Coates Ulrichsen, 'Basra, Southern Iraq and the Gulf: Challenges and .9
 .Connections', *LSE Kuwait Programme Working Paper No.21*, January 2012, p.2
- Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .10
 .Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.25) 22-*Middle East, 1914*
- Quoted in J. E. Peterson, 'Britain and the Gulf: At the Periphery of Empire', in .11
 Lawrence Potter (ed.), *The Persian Gulf in History* (New York: Palgrave Macmillan, 2009),
 .p.281
- Keith Surridge, 'The Ambiguous Amir: Britain, Afghanistan and the 1897 North- .12
 West Frontier Uprising', *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 36(3), 2008,
 .3-pp.422
- Berkeley, CA:) 1921-Briton Cooper Busch, *Britain, India and the Arabs*, 1914 .13
 .University of California Press, 1971), p.35
- Mohammad Gholi Majd, *Iraq in World War I: From Ottoman Rule to British* .14
 .*Conquest* (Lanham: MD, University Press of America, 2006), p.51
 .Ibid., p.52 .15
 .Ibid., p.59 .16
 .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.33 .17
 .5-Townshend, *When God Made Hell*, pp.4 .18
- Report by Brigadier-General W. S. Delamain on the Operations of Indian' .19
 Expeditionary Force 'D' up to the 14th November 1914', London: India Office Library

20- الأدلة المقدمة من القائد أيه. هاملتون إلى لجنة تحقيق بلاد الرافدين، 26 أكتوبر 1916.

لندن: الأرشيف الوطني، PRO CAB 19/8.

.21 Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.37.

.22 London: 1917-Wilfred Nunn, *Tigris Gunboats: The Forgotten War in Iraq 1914*

.40-Chatham Publishing, 2007 edn), pp.39

Dalit', 'The Campaign in Mesopotamia - The First Phase', *Journal of the Royal* '23

.United Services Institute, 69 (1924), p.520

.Nunn, *Tigris Gunboats*, p.44 .24

.Gholi Majd, *Iraq during World War I*, p.91 .25

.26 A Socio-Political Study (Beirut: Arab Institute .1921-Ghassan Atiyyah, *Iraq: 1908*

.for Research and Publishing, 1973), p.41

.Dalit', 'Campaign in Mesopotamia', p.520' .27

.28- خطاب من اللورد تشارلز هاردنج إلى الفريق السير جيمس ولكوكس، 10 فبراير 1916.

أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 102.

Stephen Longrigg, *Iraq, 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* .29

.(London: Oxford University Press, 1953), p.78

Short Memorandum on the Inception, Difficulties and Results of the Mesopotamian' .30

.76/15/Campaign', September 1916, London: IOL, IORL/MIL/15

.31- الأدلة المقدمة من السير آرثر هيرتزل إلى لجنة تحقيق بلاد الرافدين، 7 سبتمبر 1916.

لندن: الأرشيف الوطني، PRO CAB 19/8، TNA.

Note by Sir Edmund Barrow, Military Secretary, India Office, 'Persian Gulf .32

.54/Operations', 27 November 1914, London: TNA, WO 106

.Ibid .33

.34- خطاب من السير بوشامبيداف إلى اللورد تشارلز هاردنج، 28 نوفمبر 1914، أوراق الفيكونت

- تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبريدج، المجلد 102.
- Despatch by Lieutenant-General Sir A. A. Barrett, Commanding I.E.F. D,' 35
Regarding the Operations Resulting in the Capture of Qurnah, 9th December 1914'
.89/15/(Simla: Government of India Centre Press, 1915), in London: IOL, IOR/L/MIL/17
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.36 36
- .81-Longrigg, *Iraq 1900 to 1950*, pp.80 37
- David French, 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British 38
.5-War and Society, 5(1), 1987, pp.54 '1916-Eastern Strategy, 1914
- .Townshend, *When God Made Hell*, p.71 39
- .Hubert Young, *The Independent Arab* (London: John Murray, 1933), p.44 40
- .Ibid., p.47 41
- George MacMunn, *Behind the Scenes in Many Wars* (London: John Murray, 1930), 42
.16-pp.215
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.91 43
- Quoted in Paul Davis, 'British-Indian Strategy and Policy in Mesopotamia, 44
.November 1914 to April 1916', PhD dissertation, University of London (1981), p.250
- 45- الأدلة المقدمة من السير روبرت كارلايل إلى لجنة تحقيق بلاد الرافدين، 28 سبتمبر
1916، لندن: الأرشيف الوطني، PRO CAB 19/8
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.91 46
- Kaushik Roy, 'Equipping Leviathan: Ordnance Factories of British India, 1859 47
.War in History, 10(4), 2003, p.405 '1913
- .Townshend, *When God Made Hell*, p.65 48
- 49- برقية من السير بوشامبداف إلى الجنرال السير بيرسي ليك، 20 يناير 1916، لندن:
الأرشيف الوطني، PRO/CAB/19/20
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.47 50

- .Karim, 'Tribes and Nationalism', p.288 .51
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.99 .52
- .p.250 ,1921-Atiyyah, *Iraq, 1908* .53
- Fanar Haddad, *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity* (New York: .54
Columbia University Press, 2011), p.2
- New York:) 1908-Gokhan Cetinsaya, *Ottoman Administration of Iraq, 1890* .55
(Routledge, 2006
- Hanna Batatu, *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A* .56
Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes (Princeton, NJ: Princeton University
Press, 1978), p.13
- .Ibid., p.16 .57
- .p.14 ,1921-Atiyyah, *Iraq, 1908* .58
- Toby Dodge, *Inventing Iraq: The Failure of Nation-Building and a History Denied* .59
(London: Hurst & Co., 2003), p.92
- by '1917-Administrative Report of Suq Al-Shuyukh and District for Year 1916' .60
- Captain H. R. P. Dickson, Assistant Political Officer, Suq Al-Shuyukh, 9 May 1917,
.3059/London: TNA, FO/371
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.98 .61
- 62- برقية من الفيكونت تشارلز هاردنج إلى أوستن تشامبرلين، 25 يوليو 1915، أوراق الفيكونت
تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.
- 63- خطاب من الفيكونت تشارلز هاردنج إلى الفريق السير جيمس ولكوكس، 15 يونيو 1915،
أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.
- .Townshend, *When God Made Hell*, p.139 .64
- Mesopotamian Expeditionary Force: Despatch of Operations by Lieutenant-' .65
- .916/General Sir W. R. Marshall, 1918 April 1 – October 31', London: TNA, WO/106

- .66 Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.48.
- .67 Gholi Majd, *Iraq in World War I*, p.184.
- 68- برقية من نائب الملك إلى وزير الدولة لشؤون الهند، 6 أكتوبر 1915، أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.
- 69- برقية من وزير الدولة لشؤون الهند إلى نائب الملك، 8 أكتوبر 1915، أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.
- 70- برقية من الضابط القائد للقوة «د» إلى وزير الدولة لشؤون الهند، أكتوبر 1915، أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.
- 71- برقية من وزير الدولة لشؤون الهند إلى نائب الملك، 21 أكتوبر 1915، أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 103.
- .72 Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.48.
- .73 F. J. Moberly, *History of the Great War Based on Official Documents. The Campaign 1918-in Mesopotamia, 1914*. London: HMSO, 1923), volume II, p.167).
- .74 9-Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, pp.48.
- .75 .Ibid., p.49.
- .76 Moberly, *Official History*, vol. II, p.278.
- .77 .Ibid., p.280.
- 78- برقية من الجنرال السير بيرسي ليك إلى رئيس الأركان العامة في الهند، 8 فبراير 1916، لندن: الأرشيف الوطني، WO 106/905.
- .79 Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.50.
- 80- برقية من الجنرال السير بيرسي ليك إلى رئيس الأركان العامة في الهند، 15 فبراير 1916، لندن: الأرشيف الوطني، WO 106/905.
- .81 Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.51.
- .82 Gholi Majd, *Iraq During World War I*, p.209.
- .83 Telegram from General Sir Percy Lake to the Chief of the General Staff in India,

.905/22 April 1916, London: TNA, WO 106

83- برقية من الجنرال السير بيرسي ليك إلى رئيس الأركان العامة في الهند، 22 أبريل 1916.

لندن: الأرشيف الوطني، 905/WO 106.

84- برقية من المشير اللورد كتشنر إلى الجنرال السير بوشامبداف، 25 أبريل 1916، لندن:

الأرشيف الوطني، 906/WO 106.

.5-Townshend, *When God Made Hell*, pp.332 .85

.Ibid., p.335 .86

.Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.52 .87

.Ibid .88

.Ibid .89

Sir George Buchanan, 'Port Administration and River Conservancy Department, 90

.4993/MEF – Report for Month Ending June 30th, 1916', London: TNA, WO 95

Report by Major-General H. F. E. Freeland on the Working and Future Development' .91

of the Port of Basra and of the River and Railway Communications in Mesopotamia',

.p.9 ,6517/April 1918, London: TNA, MUN 4

.6-Cf. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, chapters 4 .92

.Michael Casey, *The History of Kuwait* (Westport, CT: Greenwood, 2007), p.52 .93

David Roberts, 'Kuwait', in Christopher Davidson (ed.), *Power and Politics in the* .94

.*Persian Gulf* (London: Hurst & Co., 2011), p.90

.Casey, *History of Kuwait*, p.53 .95

Steven Wright, 'Foreign Policies with International Reach: The Case of Qatar', in .96

David Held and Kristian Coates Ulrichsen (eds.), *The Transformation of the Gulf. Politics,*

.8-*Economics and the Global Order* (London: Routledge, 2011), pp.297

Abd al-Fattah Hasan Abu Aliyya, 'Early Roots of Projects to Settle the Bedouins' .97

in the Arabian Peninsula', in Fahd al-Semmari (ed.), *A History of the Arabian Peninsula*

- .8-(London: I. B. Tauris, 2010), pp.207
- Joseph Kechichian, *Faysal: Saudi Arabia's King for all Seasons* (Gainesville, FL: .98
University Press of Florida Press, 2008), p.17
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.67 .99
- Lieutenant General F. S. Maude, 'Report on Operations 28 August 1916 to 31 .100
.5206/March 1917', London: TNA, WO 32
- Sketch of Military Operations in Mesopotamia 1917', London: TNA, WO' .101
.912/106
- .Ibid .102
- H. V. F. Winstone, *Leachman: 'OC Desert': The Life of Lieutenant-Colonel Gerard* .103
.Leachman (London: Quartet, 1982), p.203
- Benjamin Schwarz, 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat .104
.9-to Her Eastern Frontier in 1918', *Journal of Contemporary History*, 28 (1993), pp.106
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.69 .105
- Mesopotamian Expeditionary Force: Despatch of Operations by Lieutenant-' .106
.917/General Sir W. R. Marshall, 1918 1 October - 31 December', London: TNA, WO 106
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.159 .107
- .Ibid .108
- .3060/Gertrude Bell, 'Report on the Najaf-Karbala District', London: TNA, FO 371 .109
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.157 .110
- 111- برقية من الجنرال السير فريدريك مود إلى رئيس الأركان العامة في الهند، 9 يوليو
1917، لندن: مكتبة وزارة شؤون الهند، L/MIL/5/758.
- 112- برقية من السير بيرسي كوكس إلى وزارة شؤون الهند في لندن، 25 مايو 1917، لندن:
مكتبة وزارة شؤون الهند، L/P&S/10/666.
- .Atiyyah, *Iraq*, p.158 .113

114- كان النفط يرتشح إلى السطح في مناطق حول الموصل وكركوك، وبالتالي فإن وجوده كان أكثر من مجرد تخمين، ومع ذلك فإن أول اكتشاف كبير للنفط لم يحدث إلى في أكتوبر 1927.

115- خطاب من السير موريس هانكي إلى السير إيريك غيديس، 30 يوليو 1918، لندن: الأرشيف الوطني، CAB 21/119.

116- ورقة من إعداد السير إدموند سليد حول وضع البترول في الإمبراطورية البريطانية، 20 يوليو 1918، لندن: الأرشيف الوطني، CAB 21/119.

117. Major General F. H. Sykes, 'Petroleum Situation in the British Empire: Notes by the Chief of the Air Staff', 9 August 1918, London: TNA, CAB 21/119.

118- خطاب من السير موريس هانكي إلى السير آرثر بلفور، 12 أغسطس 1918، لندن: الأرشيف الوطني، CAB 21/119.
119. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.89.

الفصل السابع: الصراع على الهيمنة السياسية في الشرق الأوسط

1- برقية من نائب الملك في الهند إلى وزير الدولة لشؤون الهند، 7 ديسمبر 1914، في أوراق الفيكونت تشارلز هاردنج، مكتبة جامعة كامبردج، المجلد 98.

2- برقية من وزير الدولة لشؤون الهند إلى نائب الملك في الهند، 16 ديسمبر 1914، لندن: مكتبة وزارة شؤون الهند، L/P&S/10/514.

3. Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the Middle East, 1914-1918* (Basingstoke: Palgrave Macmillan, 2010), p.85.

4. George Cassar, *The French and the Dardanelles: A Study of Failure in the Conduct of the War* (London: George Allen & Unwin, 1971), p.48.
5. Quoted in *ibid.*, pp.54-5.

6. Alan Sharp and Glyn, '1918-David Dutton, 'Britain and France at War, 1914-1918'.

Stone (eds.), *Anglo-French Relations in the Twentieth Century: Rivalry and Cooperation* .(Abingdon: Routledge, 2000), p.84

Quoted in Sean McMeekin, *The Russian Origins of the First World War* (Cambridge, .7
.11-MA: Harvard University Press, 2011), pp.110

.Ibid .8

.Eugene Rogan, *The Arabs: A History* (London: Penguin, 2009), p.150 .9

A Critical Appraisal (New :1922-Isaiah Friedman, *British Pan-Arab Policy 1915* .10
.16-Brunswick, NJ: Transaction Publishers, 2010), pp.15

Historical Journal ',1918-V. H. Rothwell, 'Mesopotamia in British War Aims, 1914 .11
(13:2), 1970, p.279

David French, "The Rise and Fall of 'Business as Usual", in Kathleen Burk (ed.), .12
London: Allen) 1919-*War and the State: The Transformation of British Government, 1914*
& Unwin, 1982), p.22

Roger Adelson, *London and the Invention of the Middle East: Money, Power, and* .13
.New Haven, CT: Yale University Press, 1995), p.4) 1922-*War, 1914*
.Quoted in Friedman, *British Pan-Arab Policy*, p.18 .14

Paula Mohs, *British Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence* .15
.War (London: Routledge, 2008), p.33

London:) 1920-Jukka Nevakivi, *Britain, France and the Arab Middle East, 1914* .16
.Athlone Press, 1969), pp.18, 43

London:) 1919-John Fisher, *Curzon and British Imperialism in the Middle East, 1916* .17
.Frank Cass, 1999), p.117

John Keay, *Sowing the Wind: The Seeds of Conflict in the Middle East* (London: .18
.3-John Murray, 2003), pp.42

Quotes taken from David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East* .19

- .Oxford: Oxford University Press, 2006), p.53) 1958-1914
- 1920-Bruce Westrate, *The Arab Bureau: British Policy in the Middle East*, 1916 .20
- .(Pennsylvania, PA: University of Pennsylvania Press, 1992)
- Bernard Reich, *Political Leaders of the Contemporary Middle East and North Africa*: .21
- .18-A *Biographical Dictionary* (Westport, CT: Greenwood, 1990), pp.17
- 1924-Chrisopher Andrew, *The Climax of French Imperial Expansion*, 1914 .22
- .Stanford, CA: Stanford University Press, 1981), p.66)
- .Keay, *Sowing the Wind*, p.59 .23
- .Rogan, *The Arabs*, p.153 .24
- 22-Quoted in Keith Jeffery, *The British Army and the Crisis of Empire*, 1918 .25
- .Manchester: Manchester University Press, 1984), p.122)
- .Ibid .26
- .Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East*, p.58 .27
- Rashid Khalidi, 'The Arab Experience of the War', in Hugh Cecil and Peter Liddle .28
- (eds.), *Facing Armageddon: The First World War Experienced* (London: Leo Cooper, .1996), p.648
- .Rogan, *The Arabs*, p.178 .29
- Thair Karim, 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour in .30
- Iraq', in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power: Nationalism and*
- .*Ethnicity in the Middle East* (London: Saqi Books, 2003), p.288
- Lawrence James, *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia* .31
- .(London: Abacus, 2000 edn), p.151
- The History of the First World War* (London: Allen :1918-David Stevenson, 1914 .32
- .Lane, 2004), p.124
- .Keay, *Sowing the Wind*, p.65 .33

- T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997) .34
 .edn), p.42
- .James, *Golden Warrior*, p.160 .35
- .Ibid., p.162 .36
- .Keay, *Sowing the Wind*, p.70 .37
- London: Osprey Publishing, 2008),) 1918-David Murphy, *The Arab Revolt 1916* .38
 .9-pp.57
- 1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917* .39
 .6-London: Frank Cass, 1999), pp.71)
- Edward Erickson, *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East 1914* .40
.From the Dardanelles to Mesopotamia (London: Amber Books, 2008), p.193 :1918
- Antony Best, Jussi Hanhimaki, Joseph Maiolo, Kirsten Schulze, *International* .41
.History of the Twentieth Century (London: Routledge, 2004), p.107
 .Ibid., p.108 .42
- David Stevenson, *The First World War and International Politics* (Oxford: Oxford .43
 .University Press, 1988), p.177
- .12-Best et al., *International History of the Twentieth Century*, pp.111 .44
- Yigal Sheffy, 'Institutionalized Deception and Perception Reinforcement: Allenby's .45
 Campaign in Palestine', in Michael Handel (ed.), *Intelligence and Military Operation*
 .(London, Routledge, 1990), p.180
- Quoted in John Grigg, *Lloyd George: War Leader* (London: Allen Lane, 2002), .46
 .p.354
- .Quoted in Rogan, *The Arabs*, p.154 .47
- .Stevenson, *First World War and International Politics*, p.177 .48
- .Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East*, p.58 .49

- .Khalidi, 'The Arab Experience of the War', p.652 .50
- .Stevenson, *First World War and International Politics*, p.176 .51
- David Woodward, 'The Origins and Intent of David Lloyd George's January 5 War .52
- .Aims Speech', *The Historian*, 34(1), 1971, p.22
- .Grigg, *War Leader*, p.382 .53
- President Wilson's Fourteen Points', delivered in Joint Session, 8 January 1918, text' .54
- available at http://wwi.lib.byu.edu/index.php/President_Wilson%27s_Fourteen_Points
- ..((accessed 28 March 2013
- .William Marshall, *Memories of Four Fronts* (London: Ernest Benn, 1929), p.329 .55
- Philip Ireland, *Iraq. A Study in Political Development* (London: Jonathan Cape, .56
- .1937), p.136
- Future of Mesopotamia – Note by Political Department, India Office, on Points' .57
- .686/for Discussion with Sir P. Cox, 3 April 1918', London: India Office Library, L/P&S/10
- .Fisher, *Curzon and British Imperialism*, p.130 .58
- Eliezer Tauber, *The Arab Movements in World War I* (London: Frank Cass, 1993), .59
- .4-pp.173
- .Ibid., p.181 .60
- .Ibid .61
- 4-George Antonius, *The Arab Awakening* (London: Hamish Hamilton, 1938), pp.433 .62
- .3-Ibid., pp.272 .63
- the Sherifian :1925-Timothy Parris, Britain, the Hashemites, and Arab Rule, 1920* .64
- .*Solution* (London: Frank Cass, 2003), p.50
- .Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.115 .65
- .Ibid., p.117 .66
- .Quoted in Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.117 .67

- .Keay, *Sowing the Wind*, p.100 .68
- .Ibid .69
- Paper by Admiral Sir Edmond Slade on the Petroleum Situation in the British' .70
- .119/Empire', 29 July 1918, London: The National Archives (TNA), CAB 21
- London: Frank Cass,) 1939-Quote taken from B. S. McBeth, *British Oil Policy 1919* .71
- .1985), p.11
- 72- انظر الفصل الرابع.
- .Ibid .73
- London: Ithaca Press,) 1928-Helmut Mejcher, *Imperial Quest for Oil: Iraq 1910* .74
- .8-1976), pp.37
- .McBeth, *British Oil Policy*, p.11 .75
- .Ibid., p.12 .76
- John Lynn, *Feeding Mars: Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the* .77
- .Present (Oxford: Westview Press, 1993), p.183
- Martin van Creveld, 'World War I and the Revolution of Logistics', in Roger .78
- Chickering and Stig Forster (eds.), *Great War, Total War: Combat Mobilization on the*
- .Western Front (Cambridge: Cambridge University Press, 2000), p.67
- Paper by Admiral Sir Edmond Slade on the Petroleum Situation in the British' .79
- .119/Empire', 29 July 1918, London: TNA, CAB 21
- .Ibid .80
- .Ibid .81
- .Ibid .82
- 83- خطاب من موريس هانكي إلى السير إيريك غيديس، 30 يوليو 1918، لندن: الأرشيف الوطني، CAB 21/119.
- 84- خطاب من موريس هانكي إلى ديفيد لويد جورج، 1 أغسطس 1918، لندن: الأرشيف

الوطني، CAB 21/119.

85- خطاب من مورييس هانكي إلى السير آرثر بلفور، 1 أغسطس 1918، لندن: الأرشيف

الوطني، CAB 21/119.

86- خطاب من مورييس هانكي إلى السير آرثر بلفور، 12 أغسطس 1918، لندن: الأرشيف

الوطني، CAB 21/119.

.Ibid 87

88. *A Clash of Loyalties* (Oxford: Oxford :1920-Arnold Wilson, *Mesopotamia 1917*

.University Press, 1930), p.11

89. Ritchie Owendale, *The Middle East Since 1914* (London: Longman, 1992), p.44

الفصل الثامن: تسويات ما بعد الحرب، 1919-1923

1. Martin Navias and Tim Moreman, 'Limited War and Developing Countries', in

.Laurence Freedman (ed.), *War* (Oxford: Oxford University Press, 1994), p.309

2. Joel Beinin and Zachary Lockman, *Workers on the Nile: Nationalism, Communism,*

Princeton, NJ: Princeton University) 1954-*Islam and the Egyptian Working Class, 1882*

.Press, 1987), p.85

3. Ellis Goldberg, 'Peasants in Revolt - Egypt 1919', *International Journal of Middle*

.*East Studies*, 24 (1992), p.263

4. *A Socio-Political Study* (Beirut: Arab Institute for :1921-Ghassan Atiyyah, *Iraq: 1908*

.Research and Publishing, 1973), p.220

.Ibid 5

6. 1919-Mohammad Gholi Majd, *The Great Famine and Genocide in Persia, 1917*

.Lanham, MD: University Press of America, 2003), p.44)

7. Sevkett Pamuk, 'The Ottoman Economy in World War I', in Stephen Broadberry and

- Mark Harrison (eds.), *The Economics of World War I* (Cambridge: Cambridge University Press, 2009), p.120
- .Ibid., p.132 .8
- .Ibid .9
- Erik Zürcher, 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldier's Experience', in .10
- Hugh Cecil and Peter Liddle (eds.), *Facing Armageddon: The First World War Experienced* .(London: Leo Cooper, 1996), p.238
- John Darwin, *Britain, Egypt and the Middle East: Imperial Policy in the Aftermath* .11
- .London: Macmillan, 1981), p.73) 1922-of War 1918
- Margaret MacMillan, *Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and Its Attempt to* .12
- .End War (London: John Murray, 2001), p.1
- Oxford:) 1958-David Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East, 1914* .13
- .Oxford University Press, 2006), p.65
- .62-MacMillan, *Peacemakers*, pp.460 .14
- .3-Ibid., pp.462 .15
- .Fieldhouse, *Western Imperialism in the Middle East*, p.65 .16
- Kristian Coates Ulrichsen, *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the* .17
- .(London: Palgrave Macmillan, 2010, p.178) 22-Middle East, 1914
- .Ibid., p.89 .18
- .Ibid., p.179 .19
- War Diary of 11th Indian Labour Corps, London: The National Archives (TNA), .20
- .5036/PRO WO 95
- Efraim Karsh, *Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East* .21
- .Cambridge, MA: Harvard University Press, 2001), p.175) 1923-1789
- London: John Murray, 1928),) 1928-J. E. Marshall, *The Egyptian Enigma: 1890* .22

.Laurence Grafftey-Smith, *Bright Levant* (London: John Murray, 1970), p.59 .23

Dirk Vandewalle, *A History of Modern Libya* (Cambridge: Cambridge University .24

.Press, 2006), p.27

Note by Wingate on Deportation of Egyptian Nationalists', 9 March 1918, London:' .25

.3714/TNA, FO 371

1919-Matthew Hughes, *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917* .26

.London: Frank Cass, 1999), p.143)

Nabila Ramdani, 'Women in the 1919 Egyptian Revolution: From Feminist .27

Awakening to Nationalist Political Activism', *Journal of International Women's Studies*,

.7-14(2), 2013, pp.45

.Goldberg, 'Peasants in Revolt', p.261 .28

London: Royal) 1939-Albert Hourani, *Arabic Thought in the Liberal Age, 1798* .29

.Institute of International Affairs, 1962), p.209

Nadav Safran, *Egypt in Search of a Political Community. An Analysis of the* .30

.*Intellectual and Political Evolution of Egypt* (Oxford: Oxford University Press, 1961), p.92

Afaf Lutfi Al-Sayyid Marsot, 'The British Occupation of Egypt from 1882', in Wm .31

Roger Louis and Andrew Porter (ed.), *The Oxford History of the British Empire, Volume*

.III: *The Nineteenth Century* (Oxford: Oxford University Press, 1999), p.663

.Hourani, *Arabic Thought*, p.209 .32

Michael Yapp, *The Making of the Modern Near East* (London: Longman, 1995), .33

.p.295

.3-Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, pp.181 .34

P. J. Vatikiotis, *The Modern History of Egypt* (London: Weidenfeld & Nicolson, .35

.1969), p.263

- T. E. Lawrence, *Seven Pillars of Wisdom* (Ware, Herts: Wordsworth Editions, 1997 .36
 .edn), p.644
- Matthew Hughes (ed.), *Allenby in Palestine: The Middle East Correspondence of* .37
Field Marshal Viscount Allenby June 1917 – October 1919 (Stroud: Sutton Publishing,
 .2004), p.201
- .Ibid., p.202 .38
- 2000-Sami Moubayed, *Steel and Silk: Men and Women Who Shaped Syria 1900* .39
 .4-Seattle: Cune Press, 2006), pp.363)
- Eugene Rogan, *The Arabs* (London: Penguin, 2009), p.214 .40
- Adel Beshara (ed.), *The Origins of Syrian Nationhood: Histories, Pioneers and* .41
Identity (CRC Press, 2012
- .6-Hughes, *Allenby and British Strategy*, pp.124 .42
- .401-MacMillan, *Peacemakers*, pp.400 .43
- .Ibid .44
- Christopher Andrew and Alexander Sydney Kanya Forstner, *France Overseas: The* .45
Great War and the Climax of French Imperial Expansion (London: Thames & Hudson,
 .1981), p.165
- .Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.128 .46
- .Ibid., p.154 .47
- , '22-Keith Jeffery, 'Sir Henry Wilson and the Defence of the British Empire 1918 .48
Journal of Imperial and Commonwealth History, 5(3), 1977, p.271
- .2-Fieldhouse, *Western Imperialism*, pp.251 .49
- Text of the 'Recommendations of the King-Crane Commission with Regard to .50
 Syria-Palestine and Iraq (August 29, 1919)' available at <http://unispal.un.org/UNISPAL>.
 .392AD7EB00902A0C852570C000795153/NSF/0

- .Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.147 .51
- .Fieldhouse, *Western Imperialism*, p.253 .52
- .Hughes, *Allenby and British Strategy*, p.155 .53
- .Andrew and Kanya Forstner, *France Overseas*, p.119 .54
- .Fieldhouse, *Western Imperialism*, p.63 .55
- .See Chapter 7 .56
- .Rogan, *The Arabs*, p.198 .57
- .London: Ithaca Press, 1976), p.19) 1922-Peter Sluglett, *Britain in Iraq 1914* .58
- A Clash of Loyalties* (Oxford: Oxford :1920-Arnold Wilson, *Mesopotamia 1917* .59
- .University Press, 1931), p.103
- 60- خطاب من غيرترود بل إلى السير هيو بل، 27 ديسمبر 1918، أوراق غيرترود بل، جامعة
نيوكاسل، www.gerty.ncl.ac.uk
- Minute by 'J.E.S.', 26 November 1918, London: India Office Library (IOL), IOR .61
- .761/L/MIL/5
- 62- برقية من إدوين مونتافيو إلى أرنولد ولسون، 28 نوفمبر 1918، لندن: مكتبة وزارة شؤون
الهند، IOR L/MIL/5/761
- .Atiyyah, *Iraq*, p.180 .63
- 64- برقية من أرنولد ولسون إلى وزارة شؤون الهند، 14 ديسمبر 1918، لندن: الأرشيف
الوطني، FO 371/3386
- .Ibid .65
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.185 .66
- 67- خطاب من غيرترود بل إلى السير هيو بل، 24 أكتوبر 1920، أوراق غيرترود بل، جامعة
نيوكاسل، www.gerty.ncl.ac.uk
- Philip Ireland, *Iraq: A Study in Political Development* (Oxford: Jonathan Cape, .68
- .1937, p.100

- 69- برقية من أرنولد ولسون إلى إدوين مونتاغيو، 11 ديسمبر 1918، لندن: الأرشيف الوطني، FO 371/3386.
70. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.186.
71. Charles Tripp, *A History of Iraq* (Cambridge: Cambridge University Press, 2007), p.28.
72. Charles Townshend, *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia 1914-1921 and the Creation of Iraq*, 1914. London: Faber and Faber, 2010), p.56.
73. Quoted in Paula Mohs, *Military Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War* (London: Routledge, 2008), p.16.
74. Atiyyah, *Iraq*, p.278.
75. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.187.
- 76- خطاب من غيرترود بل إلى السير هيو بل، 11 يوليو 1920، أوراق غيرترود بل، جامعة نيوكاسل، www.gerty.ncl.ac.uk.
77. 'Administrative Report of the Diwaniyah Division for the Year 1919', by Major C. 622/K. Daly, London: IOL, IOR L/P%S/10.
78. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.189.
- 79- خطاب من غيرترود بل إلى السير هيو بل، 10 يناير 1919، أوراق غيرترود بل، جامعة نيوكاسل، www.gerty.ncl.ac.uk.
- 80- خطاب من غيرترود بل إلى السير هيو بل، 10 أكتوبر 1920، أوراق غيرترود بل، جامعة نيوكاسل، www.gerty.ncl.ac.uk.
81. Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.189.
82. Laurence Louer, *Transnational Shia Politics: Religious and Political Networks in the Gulf* (London: Hurst & Co., 2008), p.81.
83. Atiyyah, *Iraq*, p.328.
84. Townshend, *When God Made Hell*, p.466.

- .Atiyah, *Iraq*, p.283 .85
- Stephen Longrigg, *Iraq: 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History* .86
(London: Oxford University Press, 1953), p.120
- Thair Karim, 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour' .87
in Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod (eds.), *Tribes and Power*, '20-in Iraq, 1914
.Nationalism and Ethnicity in the Middle East (London: Saqi Books, 2003), p.292
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.191 .88
- .Karim, 'Tribes and Nationalism', p.284 .89
- Charles Tripp, *The Power and the People: Paths of Resistance in the Middle East* .90
(Cambridge: Cambridge University Press, 2003), p.41
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.191 .91
- 92- خطاب من غيرترود بل إلى السير هيو بل، 14 يونيو 1920، أوراق غيرترود بل، جامعة
نيوكاسل، www.gerty.ncl.ac.uk
- .Coates Ulrichsen, *Logistics and Politics*, p.191 .93
- 94- خطاب من الجنرال جي. أيه. ليسلي إلى زوجته، 19 أكتوبر 1920، لندن: مكتبة وزارة
شؤون الهند، أوراق جي. أيه. ليسلي، Mss Eur F462
- .Haldane, *Insurrection*, p.331 .95
- .Townshend, *When God Made Hell*, p.453 .96
- Michael Croissant, *Armenia-Azerbaijan Conflict: Causes and Implications* .97
(Westport, CT: Praeger, 1998, p.15
- A. J. Stockwell, 'The War and the British Empire', in John Turner (ed.), *Britain and* .98
the First World War (London: Unwin Hyman, 1998), p.45
- .Rogan, *The Arabs*, p.221 .99
- .Ibid .100
- Modern , '1922-John Gallagher, 'Nationalisms and the Crisis of Empire, 1919 .101

Asian Studies, 15, 1981, p.355

.David Fromkin, *A Peace to End All Peace* (New York: Henry Holt, 1989), p.503 .102

Michael Asher, *Lawrence: The Uncrowned King of Arabia* (New York: Overlook .103

.Press, 1999), p.356

.Tripp, *Power and the People*, p.28 .104

الخاتمة

Edward Djerejian, *Danger and Opportunity: An American Ambassador's Journey* .1

.*Through the Middle East* (New York: Threshold Editions, 2008), p.90

Arming Syrian Rebels Could Create a Legacy as Harmful as Sykes-Picot', *The Daily* .2

Star, 22 June 2013; 'Is It the End of Sykes-Picot? Patrick Cockburn on the War in Syria

and the Threat to the Middle East', *London Review of Books*, volume 35 no. 11, 6 June

.2013

المراجع

مصادر أولية

Cambridge University Library

Papers of Viscount Hardinge of Penshurst

Imperial War Museum

Papers of Sir Archibald Murray

Papers of Field Marshal Philip Chetwode

India Office Library (British Library)

L/MIL/5 series

L/MIL/15 series

L/MIL/17 series

L/P&S/10 series

Papers of G. A. Leslie

Liddell Hart Centre for Military Archives (King's College London)

Papers of Sir William Bartholomew

Papers of Sir Ian Hamilton

Papers of Sir Ian Robertson

The National Archives (London)

CAB 17 series

CAB 19 series

CAB 21 series

FO 371 series

MUN 4 series

WO 32 series

WO 95 series

WO 106 series

University of Newcastle-upon-Tyne

Papers of Gertrude Bell

مصادر ثانوية

كتب

Abu-Lebdeh, Hatem Shereef, 1997. *Conflict and Peace in the Middle East*. Lanham, MD: University Press of America.

Adelson, Roger, 1995. *London and the Invention of the Modern Middle East. Money, Power, and War, 1914-1922-*. New Haven, CT: Yale University Press.

Ahmad, Feroz, 2010. *The Young Turks: The Committee of Union and Progress in Turkish Politics, 1908-1914-*. London: Hurst & Co.

Ahmida, Ali Abdullatif, 1994. *The Making of Modern Libya: State Formation, Colonization, and Resistance, 1830-1932-*. New York: State University of New York.

Akçam, Taner, 2004. *From Empire to Republic. Turkish Nationalism and the Armenian Question*. London: Zed Books.

Al-Rasheed, Madawi, 1990. *Politics in an Arabian Oasis: The Rashidi Tribal Dynasty*. London: I. B. Tauris.

Anderson, Ross, 2004. *The Forgotten Front: The East African Campaign 1914-1918*. Stroud: Tempus Publishing.

Andrew, Christopher, 1981. *The Climax of French Imperial Expansion, 1914-24*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Andrew, Christopher and Alexander Sydney Kanya Forstner, 1981. *France Overseas: The Great War and the Climax of French Imperial Expansion*. London: Thames & Hudson.

Anscombe, Frederick, 1997. *The Ottoman Gulf: The Creation of Kuwait, Saudi Arabia, and Qatar*. New York: Columbia University Press.

Antonius, George, 1938. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*. London: Hamish Hamilton.

Asher, Michael, 1999. *Lawrence: The Uncrowned King of Arabia*. New York: Overlook Press.

Ashmead-Bartlett, Ellis, 1920. *The Uncensored Dardanelles*. London: Hutchinson.

Atiyah, Ghassan, 1973. *Iraq: 1908-1921: A Socio-Political Study*. Beirut: Arab Institute for Research and Publishing.

Baer, Gabriel, 1962. *A History of Landownership in Modern Egypt 1800-1950*. Oxford: Oxford University Press.

Balakian, Peter, 2003. *The Burning Tigris: The Armenian Genocide and America's Response*. New York: HarperCollins.

Barr, James, 2011. *A Line in the Sand: Britain, France and the Struggle that Shaped the Middle East*. London: Simon & Schuster.

Barrow, George, 1921. *The Life of General Sir Charles Carmichael Monro*. London: Hutchinson.

Batatu, Hanna, 1978. *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements of Iraq: A Study of Iraq's Old Landed and Commercial Classes*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Bayly, C.A., 2004. *The Birth of the Modern World 1780-1914*. Oxford: Blackwell Publishing.

Beckett, Ian, 2009, ed. 1917: *Beyond the Western Front*. Leiden: Brill.

Beshara, Adel, 2012 edn. *The Origins of Syrian Nationhood: Histories, Pioneers and Identity*. CRC Press.

Beinin, Joel and Zachary Lockman, 1987. *Workers on the Nile: Nationalism,*

Communism, Islam and the Egyptian Working Class, 1882-1954-. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Best, Anthony, Jussi Hanhimäki, Joseph Maiolo and Kirsten Schulze, 2004. *International History of the Twentieth Century*. London: Routledge.

Bose, Sugata, 2006. *A Hundred Horizons: The Indian Ocean in the Age of Global Empire*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Broadberry, Stephen and Mark Harrison, eds. 2009. *The Economics of World War I*. Cambridge: Cambridge University Press.

Brown, Nathan, 1990. *Peasant Politics in Modern Egypt: The Struggle Against the State*. New Haven, CT: Yale University Press.

Bruce, Anthony, 2002. *The Last Crusade: The Palestine Campaign in the First World War*. London: John Murray.

Bryson, Shareen Blair and Karl Meyer, 2008. *Kingmakers: The Invention of the Modern Middle East*. New York: W. W. Norton & Co.

Buchan, John, 1993 edn. *Greenmantle*. Oxford: Oxford University Press.

Candler, Edmund, 1920. *The Sepoy*. London: John Murray.

Casey, Michael, 2007. *The History of Kuwait*. Westport, CT: Greenwood.

Cassar, George, 1971. *The French and the Dardanelles: A Study of Failure in the Conduct of War*. London: George Allen & Unwin.

Cetinsaya, Gökhan, 2006. *Ottoman Administration of Iraq, 1890-1908*-. New York: Routledge.

Churchill, Winston, 2005 edn. *The World Crisis 1911-1918*-. London: Penguin Classics.

Cleveland, William, 1994. *A History of the Modern Middle East*. Boulder, CO: Westview Press.

Coates Ulrichsen, Kristian, 2010. *The Logistics and Politics of the British Campaigns in the Middle East, 1914-22*-. Basingstoke: Palgrave Macmillan.

Cobban, Alfred, 1990 edn. *A History of Modern France, Volume 3: 1871-1962*-. London: Penguin.

Coletta, Paolo, 1996. *Anglo-American Naval Operations in the European Theatre, World War I*. Lewiston, NY: Lampeter.

Cooper Busch, Briton, 1971. *Britain, India and the Arabs, 1914-1921*-. Berkeley, CA: University of California Press.

Croissant, Michael, 1998. *Armenia-Azerbaijan Conflict: Causes and Implications*. Westport, CT: Praeger.

Daly, M. W., 1997. *The Sirdar: Sir Reginald Wingate and the British Empire in the Middle East*. Philadelphia, PA: American Philosophical Society.

Darwin, John, 1981. *Britain, Egypt and the Middle East: Imperial Policy in the Aftermath of War 1918/1922-*. London: Macmillan.

Djerejian, Edward, 2008. *Danger and Opportunity: An American Ambassador's Journey Through the Middle East*. New York: Threshold Editions.

Dodge, Toby, 2003. *Inventing Iraq: The Failure of Nation-Building and a History Denied*. London: Hurst & Co.

Dolev, Eran, 2007. *Allenby's Military Machine: Life and Death in World War I Palestine*. London: I. B. Tauris.

Elgood, P. G., 1924. *Egypt and the Army*. Oxford: Oxford University Press.

Elgood, P. G., 1928. *The Transit of Egypt*. London: Edward Arnold.

Erickson, Edward, 2000. *Ordered to Die: A History of the Ottoman Army in the First World War*. London: Praeger.

Erickson, Edward, 2003. *Defeat in Detail: The Ottoman Army in the Balkans, 1912-1913*. Westport, CT: Greenwood.

Erickson, Edward, 2008. *The History of World War I: Gallipoli and the Middle East, 1914/1918-: From the Dardanelles to Mesopotamia*. London: Amber Books.

Erickson, Edward, 2010. *Gallipoli: The Ottoman Campaign*. Barnsley, Yorks: Pen & Sword. Evans-Pritchard, E. E., 1949. *The Sanusi of Cyrenaica*. Oxford: Oxford University Press.

Falls, Cyril, 1960. *The First World War*. London: Longman.

Falls, Cyril, 1964. *Armageddon 1918*. London: Weidenfeld & Nicolson.

Falls, Cyril and George MacMunn, 1928. *Official History: Military Operations. Egypt and Palestine, Volume I*. London: HMSO.

Farah, Caesar E., 2002. *The Sultan's Yemen: Nineteenth-Century Challenges to Ottoman Rule*. London: I. B. Tauris.

Fieldhouse, David, 2006. *Western Imperialism in the Middle East 1914/1958-*. Oxford: Oxford University Press.

Fisher, John, 1999. *Curzon and British Imperialism in the Middle East 1916/1919-*.

London: Frank Cass.

Fisk, Robert, 2005. *The Great War for Civilisation: The Conquest of the Middle East*. London: Fourth Estate.

Forbes, A., 1929. *A History of the Army Ordnance Services, Volume 3: The Great War*. London: Medici Society.

Friedman, Isaiah, 2010. *British Pan-Arab Policy 1915-1922: A Critical Appraisal*. New Brunswick, NJ: Transaction Publishers.

Fromkin, David, 1989. *A Peace to End All Peace*. New York: Henry Holt.

Gatrell, Peter, 2005. *Russia's First World War: A Social and Economic History*. Harlow: Pearson.

Gatrell, Peter, 2009. *A Whole Empire Walking: Refugees in Russia During World War I*. Indianapolis, IN: Indiana University Press.

Gholi Majd, Mohammad, 2003. *The Great Famine and Genocide in Persia, 1917-1919*. Lanham, MD: University Press of America. Gholi Majd, Mohammad, 2006. *Iraq in World War I: From Ottoman Rule to British Conquest*. Lanham, MD: University Press of America.

Gilbert, Martin, 1973, ed. Winston S. Churchill, *Companion Volume III: Part I July 1914-April 1915*. Boston, MA: Houghton Mifflin.

Gilbert, Martin, 1997. *A History of the Twentieth Century, Volume I: 1900-1933*. London: HarperCollins.

Gilmour, David, 2003. *Curzon: Imperial Statesman*. London: John Murray.

Goebel, Stefan, 2007. *The Great War and Medieval Memory: War, Remembrance and Medievalism in Britain and Germany, 1914-1940*. Cambridge: Cambridge University Press.

Graffey-Smith, Laurence, 1970. *Bright Levant*. London: John Murray.

Grainger, John, 2006. *The Battle for Palestine, 1917*. Woodbridge, Suffolk: Boydell & Brewer.

Graves, Philip, 1941. *The Life of Sir Percy Cox*. London: Hutchinson.

Grigg, John, 1985. *Lloyd George: From Peace to War 1912-1916*. London: Penguin.

Grigg, John, 2002. *Lloyd George: War Leader*. London: Allen Lane. Gullett, H. S., 1925. *The Official History of Australia in the War of 1914-1918, Volume 7: Sinai and Palestine: The Australian Imperial Force in Sinai and Palestine 1914-1918*. St Lucia, Queensland: University of Queensland Press.

Haddad, Fanar, 2011. *Sectarianism in Iraq: Antagonistic Visions of Unity*. New York:

Columbia University Press.

Haldane, Aylmer, 1922. *The Insurrection in Mesopotamia, 1920*. London: Blackwood.

Halliday, Fred, 2005. *The Middle East in International Relations: Power, Politics and Ideology*. Cambridge: Cambridge University Press.

Halpern, Paul, 1987. *The Naval War in the Mediterranean*. London: HarperCollins.

Hart, Peter, 2011. *Gallipoli*. London: Profile Books.

Higgins, Trumbull, 1963. *Winston Churchill and the Dardanelles*. London: Heinemann.

Hopkins-Weisse, Jeff, 2009. *Blood Brothers: The Anzac Generals*. Adelaide: Wakefield Press.

Hourani, Albert, 1991 [2002]. *A History of the Arab Peoples*. London: Faber and Faber.

House, J. M., 2001. *Combined Arms Warfare in the Twentieth Century*. Lawrence, KS: University Press of Kansas.

Hughes, Matthew, 1999. *Allenby and British Strategy in the Middle East 1917-1919*. London: Frank Cass. Hughes, Matthew, 2004. *Allenby in Palestine: The Middle East Correspondence of Field Marshal Viscount Allenby June 1917 – October 1919*. Stroud: Sutton Publishing. Ireland, Philip, 1937. *Iraq: A Study in Political Development*. Oxford: Jonathan Cape.

James, Lawrence, 2000 edn. *The Golden Warrior: The Life and Legend of Lawrence of Arabia*. London: Abacus.

Jeffery, Keith, 1984. *The British Army and the Crisis of Empire, 1918-22*. Manchester: Manchester University Press.

Karsh, Ephraim, 2001. *Empires of the Sand: The Struggle for Mastery in the Middle East 1789-1923*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Keay, John, 2006. *Sowing the Wind: The Seeds of Conflict in the Middle East*. London: John Murray.

Kechichian, Joseph, 2008. *Faysal: Saudi Arabia's King for all Seasons*. Gainesville, FL: University of Florida Press.

Keegan, John, 1994. *A History of Warfare*. London: Pimlico.

Keegan, John, 1999. *The First World War*. New York: Alfred A. Knopf. Keene, Jennifer and Michael Neiberg, 2011, eds. *Finding Common Ground: New Directions in First World War Studies*. Leiden, Brill.

Landau, Jacob, 1990. *The Politics of Pan-Islam: Ideology and Organization*. Oxford:

Oxford University Press.

Lawrence, T. E., 1997 edn. *Seven Pillars of Wisdom*. Ware, Herts: Wordsworth Editions.

Lewy, Guenter, 2005. *The Armenian Massacres in Ottoman Turkey. A Disputed Genocide*. Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

Libaridian, Gerard, 2007. *Modern Armenia: People, Nation, State*. New York: Transaction Publishers.

Liddell Hart, Basil, 1938. *A History of the World War, 1914-1918*. London: Faber and Faber.

Longrigg, Stephen, 1953. *Iraq: 1900 to 1950: A Political, Social and Economic History*. London: Oxford University Press.

Louer, Laurence, 2008. *Transnational Shia Politics: Religious and Political Networks in the Gulf*. London: Hurst & Co.

Lynn, John, 1993. *Feeding Mars: Logistics in Western Warfare from the Middle Ages to the Present*. Oxford: Westview Press.

McBeth, B. S., 1985. *British Oil Policy 1919-1939*. London: Frank Cass. McMeekin, Sean, 2010. *The Berlin-Baghdad Express: The Ottoman Empire and Germany's Bid for World Power*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

McMeekin, Sean, 2011. *The Russian Origins of the First World War*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

MacDonald, Alan, 2008. *A Lack of Offensive Spirit? The 46th (North Midland) Division at Gommecourt, 1st July 1916*. Eastbourne, E. Sussex: Iona Books.

MacMillan, Margaret, 2001. *Peacemakers: The Paris Conference of 1919 and Its Attempt to End War*. London: John Murray.

MacMunn, George, 1930. *Behind the Scenes in Many Wars*. London: John Murray.

Malcolm, Noel, 2008. *Kosovo: A Short History*. London: Macmillan.

Marr, Phebe, 2005. *The Modern History of Iraq*. Boulder, CO: Westview Press.

Marshall, J. E., 1928. *The Egyptian Enigma: 1890-1923*. London: John Murray.

Mazower, Mark, 2004. *Salonica: City of Ghosts: Christians, Muslims and Jews 1430-1950*. London: HarperCollins.

Meinertzhagen, Richard, 1960. *Army Diary 1899-1926*. London: Oliver & Boyd.

Mejcher, Helmut, 1976. *Imperial Quest for Oil: Iraq 1910-1928*. London, Ithaca Press: St Antony's Middle East Monographs No. 6.

Metcalf, Thomas, 2007. *Imperial Connections: India in the Indian Ocean Arena 1760-1820*. Berkeley, CA: University of California Press.

Migdal, Joel, 1988. *Strong Societies and Weak States: State-Society Relations and State Capabilities in the Third World*. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Miller, Donald and Lorna Touryan Miller, 1993. *Survivors: An Oral History of the Armenian Genocide*. Berkeley, CA: University of California Press.

Millman, Brock, 2001. *Pessimism and British War Policy, 1916-1918*. London: Frank Cass.

Milner, Alfred, 1892. *England in Egypt*. London: Edward Arnold.

Moberly, F. J., 1923. *History of the Great War Based on Official Documents. The Campaign in Mesopotamia, 1914-1918*. London: HMSO.

Mohs, Paula, 2008. *British Intelligence and the Arab Revolt: The First Modern Intelligence War*. London: Routledge.

Moorehead, Alan, 2007. *Gallipoli*. Ware, Herts: Wordsworth Editions.

Morgenthau, Henry, 2003 edn. *Ambassador Morgenthau's Story*. Detroit, MI: Wayne State University Press.

Moubayed, Sami, 2006. *Steel and Silk: Men and Women Who Shaped Syria 1900-2000*. Seattle, WA: Cune Press.

Murphy, David, 2008. *The Arab Revolt 1916-1918*. London: Osprey Publishing.

Neiberg, Michael, 2005. *Fighting the Great War: A Global History*. London: Harvard University Press.

Nevakivi, Jukka, 1969. *Britain, France and the Arab Middle East, 1914-1920*. London: Athlone Press.

Nunn, Wilfred, 2007 edn. *Tigris Gunboats: The Forgotten War in Iraq 1914-1917*. London: Chatham Publishing.

Offer, Avner, 1989. *The First World War: An Agrarian Interpretation*. Oxford: Oxford University Press.

Onley, James, 2009. *The Arabian Frontiers of the British Raj: Merchants, Rulers and the British in the Nineteenth Century*. Oxford: Oxford University Press.

Ovendale, Ritchie, 1992. *The Middle East Since 1914*. London: Longman.

Owen, Roger, 1992. *State, Power and Politics in the Making of the Modern Middle East*. London: Routledge.

Owen, Roger, 2004. *Lord Cromer. Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul*. Oxford: Oxford University Press. Ozdemir, Hikmet, 2008. *The Ottoman Army 1914-1918: Disease and Death on the Battlefield*. Salt Lake City, UT: University of Utah Press.

Pakenham, Thomas, 1992. *The Scramble for Africa*. London: Abacus.

Parrs, Timothy, 2003. *Britain, the Hashemites, and Arab Rule, 1920-1925: the Sherifian Solution*. London: Frank Cass.

Pasha, Djemal, 1922. *Memories of a Turkish Statesman - 1913-1922*. London: Hutchinson.

Pearson, Owen, 2006. *Albania in the Twentieth Century, A History, Volume I: Albania and King Zog. 1908-1939*. London: I. B. Tauris.

Perkins, Kenneth, 2004. *A History of Modern Tunisia*. Cambridge: Cambridge University Press.

Poulson Newman, E. W., 1928. *Great Britain in Egypt*. London: Cassell.

Prior, Robin, 2009. *Gallipoli: The End of the Myth*. Kensington, NSW: UNSW Press.

Reich, Bernard, 1990. *Political Leaders of the Contemporary Middle East and North Africa: A Biographical Dictionary*. Westport, CT: Greenwood.

Reid, Walter, 2006. *Architect of Victory. Douglas Haig*. Edinburgh: Birlinn.

Rhodes James, Robert, 1965. *Gallipoli*. London: B. T. Batsford.

Richmond, J. C. B., 1977. *Egypt 1798-1952: Her Advance Toward a Modern Identity*. London: Methuen.

Robertson, William, 1926. *Soldiers and Statesmen 1914-1918, Volume II*. London: Cassell.

Robson, Stuart, 2007 edn. *The First World War*. Harlow: Pearson Education Limited.

Rogan, Eugene, 2009. *The Arabs: A History*. London: Allen Lane.

Roynon, Gavin, 2011 edn. *A Prayer for Gallipoli: The Great War Diaries of Chaplain Kenneth Best*. London: Simon & Schuster.

Safran, Nadav, 1961. *Egypt in Search of a Political Community. An Analysis of the Intellectual and Political Evolution of Egypt*. Oxford: Oxford University Press.

Selvik, Kjetil and Stig Stenslie, 2011. *Stability and Change in the Modern Middle East*. London: I. B. Tauris.

Slot, Benjamin, 2005. *Mubarak Al-Sabah: Founder of Modern Kuwait 1896-1915*. London: Arabian Publishing Limited.

- Sluglett, Peter, 1976. *Britain in Iraq 1914-1922*. London: Ithaca Press.
- Sondhaus, Lawrence, 2011. *World War One: The Global Revolution*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Stevenson, David, 1988. *The First World War and International Politics*. Oxford: Oxford University Press.
- Stevenson, David, 2004. *1914-1918: The History of the First World War*. London: Allen Lane.
- Storrs, Ronald, 1943. *Orientations*. London: Nicholson & Watson.
- Strachan, Hew, 2001. *The First World War, Volume I: To Arms*. Oxford: Oxford University Press.
- Strauss, Barry, 2006. *The Trojan War: A New History*. London: Simon & Schuster.
- Tauber, Eliezer, 1993. *The Arab Movements in World War I*. London: Frank Cass.
- Tomlinson, B.R., 1979. *The Political Economy of the Raj: the Economics of Decolonisation in India*. London: Macmillan.
- Townshend, Charles, 2010. *When God Made Hell: The British Invasion of Mesopotamia and the Creation of Iraq, 1914-1921*. London: Faber and Faber.
- Tripp, Charles, 2007. *A History of Iraq*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Tripp, Charles, 2013. *The Power and the People: Paths of Resistance in the Middle East*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Tucker, Spencer, 2005 edn. *The Encyclopaedia of World War I: A Political, Social, and Military History*. Santa Barbara, CA: ABC-CLIO.
- Valeri, Marc, 2009. *Oman: Politics and Society in the Qaboos State*. London: Hurst & Co.
- Vandewalle, Dirk, 2006. *A History of Modern Libya*. Cambridge: Cambridge University Press.
- Vatikiotis, P.J. 1969. *The Modern History of Egypt*. London: Weidenfeld & Nicolson.
- Villiers, Alan, 2006 edn. *Sons of Sindbad*. London: Arabian Publishers Limited.
- Visser, Reidar, 2005. *Basra: The Failed Gulf State: Separatism and Nationalism in Southern Iraq*. Munster: Lit Verlag, 2005.
- Walker, Christopher, 1990. *Armenia: The Survival of a Nation*. London: St Martin's Press.
- Westrate, Bruce, 1992. *The Arab Bureau: British Policy in the Middle East, 1916-1920*. Pennsylvania, PA: University of Pennsylvania Press.

Wilder, Gary, 2005. *The French Imperial Nation-State: Negritude and Colonial Humanism between the Two World Wars*. Chicago, IL: University of Chicago Press.

Wilson, Arnold, 1930. *Mesopotamia 1917/1920-: A Clash of Loyalties*. Oxford: Oxford University Press.

Wilson Johnson, Douglas, 1917. *Topography and Strategy in the War*. New York: Henry Holt.

Wilson, Trevor, 1986. *The Myriad Faces of War*. Cambridge: Polity Press.

Wingate, Ronald, 1955. *Wingate of the Sudan*. London: John Murray.

Winstone, H. V. F., 1982. *Leachman: 'OC Desert': The Life of Lieutenant-Colonel Gerald Leachman*. London: Quartet.

Woodward, David, 2004. *Lloyd George and the Generals*. London: Frank Cass.

Yapp, Malcolm, 1987. *The Making of the Modern Middle East 1792/1923-*. London: Longman.

Yergin, Daniel, 2008 edn. *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money & Power*. New York: Free Press.

Young, Hubert, 1933. *The Independent Arab*. London: John Murray.

فصول

Abu Aliyya, 'Abd al-Fattah Hasan, 2010. 'Early Roots of Projects' to Settle the Bedouins in the Arabian Peninsula.' In Fahd al-Semmari, ed. *A History of the Arabian Peninsula*. London: I. B. Tauris.

Al-Sayyid Marsot, Afaf Lutfi, 2001. 'The British Occupation of Egypt from 1882.' In Wm Roger Louis and Andrew Porter, eds. *The Oxford History of the British Empire, Volume III: The Nineteenth Century*. Oxford: Oxford University Press.

Barr, Niall, 2002. 'The Desert War Experience.' In Peter Liddle, Ian Whitehead and John Bourne, eds. *The Great World War, 1914/1918: Lightning Strikes Twice*. London: HarperCollins.

Beeman, William, 2009. 'Gulf Society: An Anthropological View of the Khalijis - Their Evolution and Way of Life.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History*. New York: Palgrave Macmillan.

Biger, Gideon, 2000. 'The Turkish Activities in Palestine During World War I Revised.'

In Yigal Sheffy and Shloul Shai, eds. *The First World War: Middle Eastern Perspective*. Tel Aviv: Israel Society for Military History.

Brown, Judith, 1973. 'War and the Colonial Relationship: Britain, India and the War of 1914-18-.' In M. R. D. Foot, ed. *War and Society: Historical Essays in Honour and Memory of J. R. Western, 1928-1971-*. London: Elek.

Burk, Kathleen, 1996. 'Wheat and the State During the First World War.' In Michael Dockrill and David French, eds. *Strategy and Intelligence: British Policy During the First World War*. London: Hambledon Press.

Chaudhuri, K. N., 1983. 'Foreign Trade and Balance of Payments (1757-1947-).' In Dharma Kumar and Tapan Raychaudhuri, eds. *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970*. Cambridge: Cambridge University Press.

Dadrian, Vahakn, 2003. 'The Armenian Genocide: An Interpretation.' In Jay Winter, ed. *America and the Armenian Genocide of 1915*. New York: Cambridge University Press.

Daly, M. W., 1998. 'The British Occupation, 1882-1922-.' In M. W. Daly, ed. *The Cambridge History of Egypt, Volume 2: Modern Egypt: From 1517 to the End of the Twentieth Century*. Cambridge: Cambridge University Press.

Dutton, David, 2000. 'Britain and France at War, 1914-1918-.' In Alan Sharpe and Glyn Stone, eds. *Anglo-French Relations in the Twentieth Century: Rivalry and Cooperation*. London: Routledge.

French, David, 1982. 'The Rise and Fall of "Business as Usual".' In Kathleen Burk, ed. *War and the State: The Transformation of British Government, 1914-1919-*. London: Allen & Unwin.

Heydemann, Steven, 2000. 'War, Institutions, and Social Change in the Middle East.' In Steven Heydemann, ed. *War, Institutions, and Social Change in the Middle East*. Berkeley, CA: University of California Press.

Horne, John, 2002. 'Introduction.' In John Horne, ed. *State, Society and Mobilization in Europe During the First World War*. Cambridge: Cambridge University Press.

Hughes, Matthew, 2009. 'Command, Strategy and the Battle for Palestine, 1917.' In Ian Beckett, ed. *1917: Beyond the Western Front*. Leiden: Brill.

Hyam, Ronald, 1999. 'The Primacy of Geopolitics: The Dynamics of British Imperial Policy, 1763-1963-.' In Robert King and Robin Wilson, eds. *The Statecraft of British Imperialism: Essays in Honour of Wm Roger Louis*. London: Routledge.

Karim, Thair, 2003. 'Tribes and Nationalism: Tribal Political Culture and Behaviour in Iraq, 1914-1920-.' In Faleh Abdul-Jabar and Hosham Dawod, eds. *Tribes and Power. Nationalism and Ethnicity in the Middle East*. London: Saqi Books. Khalidi, Rashid, 1996. 'The Arab Experience of the War.' In Hugh Cecil and Peter Liddle, eds. *Facing Armageddon: The First World War Experienced*. London: Leo Cooper.

Kramer, Alan, 2010. 'Combatants and Noncombatants: Atrocities, Massacres, and War Crimes.' In John Horne, ed. *A Companion to World War I*. Chichester: Wiley-Blackwell.

Kumar, Dharma, 1983. 'The Fiscal System.' In Dharma Kumar and Tapan Raychaudhuri, eds. *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970*. Cambridge: Cambridge University Press.

Lambert, Andrew, 1995. 'The Royal Navy, 1856-1914-: Deterrence and the Strategy of World Power.' In Keith Neilson and Elizabeth Jane Errington, eds. *Navies and Global Defence: Theories and Strategy*. Westport, CO: Greenwood.

Lee, John, 1991. 'Sir Ian Hamilton and the Dardanelles, 1915.' In Brian Bond, ed. *Fallen Stars: Eleven Studies of Twentieth Century Military Disasters*. London: Brassey's.

Lohr, Eric, 2010. 'Russia.' In John Horne, ed. *A Companion to World War I*. Chichester: Wiley-Blackwell.

McKercher, B. J. C., 1999. 'Economic Warfare.' In Hew Strachan, ed. *World War I: A History*. Oxford: Oxford University Press.

Moore, Robin, 2001. 'Imperial India, 1858-1914-.' In Wm Roger Louis and Andrew Porter, eds. *The Oxford History of the British Empire, Volume III: The Nineteenth Century*. Oxford: Oxford University Press.

Morris, M. D., 1983. 'The Growth of Large-Scale Industry to 1947.' In D. Kumar and T. Raychaudhuri, eds. *The Cambridge Economic History of India, Volume 2: c.1757-c.1970*. Cambridge: Cambridge University Press.

Neilson, Keith, 1997. 'For Diplomatic, Economic, Strategic and Telegraphic Reasons: British Imperial Defence, the Middle East and India, 1914-1918-.' In Keith Neilson and Greg Kennedy, eds. *Far-Flung Lines: Studies in Imperial Defence in Honour of Donald Mackenzie Schurman*. London: Frank Cass. Nevias, Martin and Tim Moreman, 1994. 'Limited War and Developing Countries.' In Laurence Freedman, ed. *War*. Oxford: Oxford University Press.

Offer, Avner, 2000. 'The Blockade of Germany and the Strategy of Starvation, 1914-

1918: An Agency Perspective.' In Roger Chickering and Stig Forster, eds. *Great War, Total War. Combat and Mobilisation on the Western Front, 1914-1918*. Cambridge: Cambridge University Press.

Pamuk, Sevket, 2009. 'The Ottoman Economy in World War I.' In Stephen Broadberry and Mark Harrison, eds. *The Economics of World War I*. Cambridge: Cambridge University Press.

Peterson, J.E., 2009. 'Britain and the Gulf: At the Periphery of Empire.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History*. New York: Palgrave Macmillan.

Potts, D.T., 2009. 'The Archaeology and Early History of the Persian Gulf.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History*. New York: Palgrave Macmillan.

Risso, Patricia, 2009. 'India and the Gulf: Encounters from the Mid-Sixteenth to the Mid-Twentieth Centuries.' In Lawrence Potter, ed. *The Persian Gulf in History*. New York: Palgrave Macmillan.

Roberts, David, 2011. 'Kuwait.' In Christopher Davidson, ed. *Power and Politics in the Persian Gulf*. London: Hurst & Co.

Sheffy, Yigal, 1990. 'Institutionalized Deception and Perception Reinforcement: Allenby's Campaign in Palestine.' In Michael Handel, ed. *Intelligence and Military Operations*. London: Routledge.

Sheffy, Yigal, 2000. 'The Introduction of Chemical Weapons in the Middle East.' In Yigal Sheffy and Shloul Shai, eds. *The First World War. Middle Eastern Perspective*. Tel Aviv: Israel Society for Military History. Simkins, Peter, 1999. 'Haig and the Army Commanders.' In Brian Bond and Nigel Cave, eds. *Haig: A Reappraisal 70 Years On*. Barnsley, Yorks: Leo Cooper.

Sluglett, Peter 2002. 'Aspects of Economy and Society in the Syrian Provinces: Aleppo in Transition, 1880-1925.' In Leila Fawaz and C. A. Bayly, eds. *Modernity and Culture. From the Mediterranean to the Indian Ocean*. New York: Columbia University Press.

Stockwell, A. J., 1988. 'The War and the British Empire.' In John Turner, ed. *Britain and the First World War*. London: Unwin Hyman.

Trumpener, Ulrich, 2010. 'The Turkish War, 1914-1918.' In John Horne, ed. *A Companion to World War I*. Chichester: Wiley-Blackwell.

Van Creveld, Martin, 2000. 'World War I and the Revolution in Logistics.' In Roger Chickering and Stig Forster, eds. *Great War, Total War. Combat and Mobilization on the*

Western Front, 1914-1918. Cambridge: Cambridge University Press.

Wright, Steven, 2011. 'Foreign Policies with International Reach: The Case of Qatar.' In David Held and Kristian Coates Ulrichsen, eds. *The Transformation of the Gulf: Politics, Economics and the Global Order*. London: Routledge.

Wrigley, Chris, 2000. 'The War and the International Economy.' In Chris Wrigley, ed. *The First World War and the International Economy*. Cheltenham: Edward Elgar.

Zurcher, Erik, 1996. 'Little Mehmet in the Desert: The Ottoman Soldiers' Experience.' In Hugh Cecil and Peter Liddle, eds. *Facing Armageddon: The First World War Experienced*. London: Leo Cooper.

مقالات في مجلات

Akarli, Engin Deniz, 2007. 'The Tangled Ends of an Empire: Ottoman Encounters with the West and Problems of Westernisation – An Overview.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 12.

Aksan, Virginia, 2007. 'The Ottoman Military and State Transformation in a Globalizing World.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 12.

Andrew, C. M. and Kanya-Forstner, A. S., 1978. 'France, Africa and the First World War.' *Journal of African History*, 19.

Bernede, Allain, 1998, "'The Gardeners of Salonika': The Lines of Communication and the Logistics of the French Army of the East, October 1915-November 1918.' *War and Society*, 16.

Bou, Jean, 2007. 'Cavalry, Firepower, and Swords: The Australian Light Horse and the Tactical Lessons of Cavalry Operations in Palestine, 1916-1918.' *Journal of Military History*, 71.

Cain, P. J., 2006. 'Character and Imperialism: The British Financial Administration of Egypt, 1878-1914.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 34.

Clay, Christopher, 1994. 'The Origins of Modern Banking in the Levant: the Branch Network of the Imperial Ottoman Bank, 1890-1914.' *International Journal of Middle East Studies*, 16.

Coates Ulrichsen, Kristian, 2007. 'The British Occupation of Mesopotamia, 1914-

1922.' *Journal of Strategic Studies*, 30.

Coates Ulrichsen, Kristian, 2012. 'Basra, Southern Iraq and the Gulf: Challenges and Connections.' *LSE Kuwait Programme Working Paper*, 21. Cosar, Nevn and Demre, Sevtap, 2009. 'Incorporation into the World Economy: From Railways to Highways (1850-1950-).' *Middle Eastern Studies*, 45.

'Dalit', 1924. 'The Campaign in Mesopotamia – The First Phase.' *Journal of the Royal United Services Institute*, 69.

Davies, G. F., 1920. 'Lecture on Supplies and Transport – Egyptian Expeditionary Force.' *Army Service Corps Quarterly*, 8.

Elliot, W. and A. Kinross, 1925. 'Maintaining Allenby's Armies: A Footnote to History.' *Royal Army Service Corps Quarterly*, 1925.

Fahmy, Ziad, 2008. 'Francophone Egyptian Nationalists, Anti-British Discourse, and European Public Opinion, 1885-1910-: The Case of Mustafa Kamil and Ya'qub Sannu'.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 28.

French, David, 1987. 'The Dardanelles, Mecca and Kut: Prestige as a Factor in British Eastern Strategy, 1914-1916-.' *War and Society*, 5.

Gallagher, John, 1981. 'Nationalisms and the Crisis of Empire, 1919-1922-.' *Modern Asian Studies*, 15.

Goldberg, Ellis, 1992. 'Peasants in Revolt – Egypt 1919.' *International Journal of Middle East Studies*, 24.

Heper, Metin, 1980. 'Center and Periphery in the Ottoman Empire: With Special Reference to the Nineteenth Century.' *International Political Science Review*, 1.

Hughes, Matthew, 1996. 'General Allenby and the Palestine Campaign, 1917-18-.' *Journal of Strategic Studies*, 19.

Jack, George Morton, 2006. 'The Indian Army on the Western Front, 1914-1915-: A Portrait of Collaboration.' *War in History*, 13.

Jeffery, Keith, 1977. 'Sir Henry Wilson and the Defence of the British Empire 1918-22-.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 5.

Jeffery, Keith, 1981. '"An English Barrack in the Oriental Sea?" India in the Aftermath of the First World War.' *Modern Asian Studies*, 15. Nicolini, Beatrice, 2007. 'The Baluch Role in the Persian Gulf During the Nineteenth and Twentieth Centuries.' *Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East*, 12.

Onley, James and Khalaf, Sulayman, 2006. 'Shaikhly Authority in the Pre-Oil Gulf: An Historical-Anthropological Study.' *History and Anthropology*, 17.

Parker, W. M., 1921. 'Supply Services in Mesopotamia.' *Royal United Services Corps Quarterly*, 9.

Ramdani, Nabila, 2013. 'Women in the 1919 Egyptian Revolution: From Feminist Awakening to Nationalist Political Activism.' *Journal of International Women's Studies*, 14.

Robinson, Ronald, 1984. 'Imperial Theory and the Question of Imperialism After Empire.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 12.

Rothwell, V.H., 1970. 'Mesopotamia in British War Aims, 1914-1918-.' *Historical Journal*, 13.

Roy, Kaushik, 2003. 'Equipping Leviathan: Ordnance Factories of British India, 1859-1913.' *War in History*, 10.

Ruiz, M.M., 2009. 'Manly Spectacles and Imperial Soldiers in Wartime Egypt, 1914-1919.' *Middle Eastern Studies*, 45.

Schwarz, Benjamin, 1993. 'Divided Attention: Britain's Perception of a German Threat to her Eastern Frontier in 1918.' *Journal of Contemporary History*, 28.

Sheffy, Yigal, 2009. 'Chemical Warfare and the Palestine Campaign, 1916-1918-.' *Journal of Military History*, 73.

Surridge, Keith, 2008. 'The Ambiguous Amir: Britain, Afghanistan and the 1897 North-West Frontier Uprising.' *Journal of Imperial and Commonwealth History*, 36.

Trumpener, Ulrich, 1966. 'Liman von Sanders and the German-Ottoman Alliance.' *Journal of Contemporary History*, 1.

Willis, John, 1993. 'Maritime Asia, 1500-1800-: The Interactive Emergence of European Domination.' *American Historical Review*, 89.

Woodward, David, 1971. 'The Origins and Intent of David Lloyd George's January 5 War Aims Speech.' *The Historian*, 34.

المترجم في سطور

- باحث علوم سياسية تنشر أعماله في مجلة السياسة الدولية، وفي المركز الإقليمي للدراسات الاستراتيجية- القاهرة.

- كاتب ومحرر صحفي تنشر أعماله في مجلة «العربي» الكويتية، ومجلة «الكويت» الثقافية، و«المجلة العربية» السعودية.

- مترجم بمجلة «الثقافة العالمية» الكويتية، ومجلة «نيتشر»- الطبعة العربية.

- عمل محرراً صحفياً لدى العديد من الصحف العربية والدولية والمواقع الإلكترونية، منها: «صحيفة الاقتصادية» السعودية، و«صحيفة الجزيرة» السعودية، و«صحيفة الشرق الأوسط» اللندنية، ومجلة «المجلة» اللندنية، وموقع «العربية نت».

- ترجم وراجع عددًا من الكتب لدى مشروع «كلمة» في أبوظبي، والمركز القومي للترجمة، ومدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية بالتعاون مع المجلة العربية، وعالم المعرفة.

من بين الأعمال المترجمة المنشورة في مشروع كلمة: «الاضطراب المناخي»، و«عندما يضل العلم الطريق»، و«بستان غير منظور: التاريخ الطبيعي للبذور»، و«على خطى الصين يسير العالم»، و«الجسر»، و«أجمل عشر تجارب على الإطلاق»، و«خطوط الصدع: كيف لا تزال الشروخ المستترة تهدد الاقتصاد العالمي».

وفي المركز القومي للترجمة: «عندما تسقط العمالقة: خارطة طريق اقتصادية لنهاية العهد الأمريكي» و«التعليم العالي في عصر الإنترنت».

ونشر له في المجلة العربية بالتعاون مع مدينة الملك عبدالعزيز للعلوم والتقنية: «إمبراطور الأمراض: السرطان سيرة ذاتية»، و«فيزياء المستقبل»، و«أغرب الرجال».

كما نشر له في عالم المعرفة: «أمة من العباقرة».

للتواصل: tarek_rashed@hotmail.com